



في الأدب الأندلسي

مكتبة الدراسات الأدبية

٢٢

في الأدب الأندلسي^٣

تأليف

دكتور جودت الركابي

المفتش الأول بوزارة التربية والتعليم بدمشق



دارالمحارف بمطرب

١٩٦٠

ملتمزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ٥ شارع ماسبيرو - بالقاهرة ج.ع.م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذه محاضرات في الأدب الأندلسي ألقيتها على طلاب شهادة آداب اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة دمشق خلال عدة سنوات .

وما كنت أحسب أنني سأنشرها في كتاب بعد أن تداولها الطلاب وأصبحت في أيديهم ، وبعد أن اتصلت بأوساط المدرسين والأساتذة . ولكنّ رغبتى في أن تخرج هذه المحاضرات عن جوّها التعليمي وتنطلق إلى ميادين الأدباء هي التي دفعتني اليوم إلى نشرها .

وقد حاولت في مطلع هذه المحاضرات أن أدرس الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية لبلاد الأندلس بشكل عام ، وأن أصوّر حياة الشاعر الأندلسي وبيئته الثقافية بشكل خاص كي لا يبقى عالم الأندلس مغلقاً أمام الطلاب في أثناء دراساتهم لأدبائه وأعلامه .

ولكنّ هذه الحياة الأندلسية كانت غامضة الجوانب قليلة المصادر ، ولذلك كان من الخير أن أفيض في وصفها بعض الشيء علماً مني بأن تفهّم البيئته يجب أن يعيره مؤرخ الأدب أقصى اهتمامه .

ثم أتيت على عرض موجز للأغراض الشعرية الهامة التي طرقها شعراء الأندلس : ووقفت ، بشكل خاص ، عند شعر الطبيعة فأوضحت بواعثه وذكرت خصائصه وأوردت طائفة من المتخبات الشعرية لبعض أعلام شعراء الطبيعة أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما .

وقد حاولت ، في هذا ، أن أوضح جانباً هاماً من جوانب أدبنا العربي في الأندلس ، وأبين كيف أن هذا الأدب لم يعيش فقط بين جدران القصور وإنما

عاش أيضاً في رحاب الرياض الأندلسية وجاء ثمرة لتلك الطبيعة النديّة التي عرف الشاعر الأندلسي كيف يصف جمالها ويصف ما فيها من حب وهو وطرب ، في كثير من الحذق والفن والأصالة .

وشئت بعدئذ أن أقدم في شخص ابن زيدون مثلاً فذّاً للشاعر الأندلسي ، ولذا جئت على دراسته بروح جديدة تعكس أصالته الأدبية وترسم من قريب خصائص الشعر الأندلسي الذي بقي على الرغم من جدّته ينظر إلى الشرق في شوق وهلّة .

وكان عليّ ، بعد هذا ، أن أبيّن الميزة التي انفرد بها أدب الأندلس عن أدب المشرق فقمت ، لهذه الغاية ، بدراسة « الموشح » هذا الفن المستحدث الذي غذته طبيعة الأندلس الجميلة ، وجادت به عبقرية العرب الخالدة . وقد تحرّيت واستقصيت ما وسعني التحري والاستقصاء في أثناء دراستي لهذا الفن الجديد ، وحاولت أن أقدم عن « الموشح » بحثاً أزعّم أنني كشفت فيه النقاب عن كثير من النواحي الغامضة التي قلما عني بها الباحثون .

وإنني أرجو أن أكون قد أفدت بعملي هذا إخواني الطلاب وأسهمت في مدّ خزانة الأدب الأندلسي بهذا الجهد المتواضع الذي آمل أن يجد الأدباء والنقاد في قراءته والبحث عن هفواته ما يساعد على كشف ما غمض من أدبنا العربي في تلك الديار الأندلسية .

ولا يسعني ، آخر الأمر ، إلا أن أشيد بفضل من سبقني من الأدباء والباحثين الذين عنوا بتراث الأندلس الأدبي ، من عرب ومشرقين ، والذين كان لدراساتهم التي عدت إليها الأثر الأوفى في تغذية هذه الفصول ومدّها بالأفكار التي هدتني سواء السبيل ، والله من وراء القصد وله الحمد أولاً وآخرأ .

الباب الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية

الفصل الأول

الفتح

الأندلس – المعنى الجغرافي والعنصري^(١) :

سمى العرب جميع البلدان الإسبانية التي فتحوها باسم « الأندلس » ، وليس من السهل شرح هذه التسمية . ويمكن تقريبها من اسم جماعات الفنداليين les Vandales الذين هاجموا إسبانيا ومرّوا بها مهاجرين إلى إفريقية الشمالية في مبدأ القرن الخامس الميلادي . إذ يقال إن هؤلاء الفنداليين عند قطعهم مضيق جبل طارق سُمي المرفأ الذي أبحروا منه ، ولعله مرفأ طريف Tarifa أو الجزيرة Algéciras ، سُمي باسمهم وقيل له فندلس ، وقد حافظ هذا المرفأ على هذا الاسم حتى جاء المسلمون فجعلوه شاملا لجميع البلدان التي احتلوها بعد أن حرقوه وجعلوه « أندلس » .

ومن المؤرخين من يقول إن إقطاعة إسبانيا الجنوبية كلها ، التي كانت تسمى في العهد الروماني إقطاعة بيتيك Bétique ، قد سميت بـ « فنداليسيا Vandalicia » عند مرور الفنداليين من إسبانيا الجنوبية أثناء هجرتهم إلى إفريقيا الشمالية ولكن هذا الزعم الأخير لم تؤيده الوثائق .

ومهما يكن من أمر فإن كلمة الأندلس قد استعملها المؤرخون العرب والجغرافيون بسرعة وتقبلوها بسهولة ، وكانت تدل باديء ذي بدء على إسبانيا كلها ثم أخذت تقتصر على المنطقة التي احتلها المسلمون من الأرض الإسبانية . ونرى ، حتى هذا اليوم ، أن مقاطعات إشبيلية وقرطبة وغرناطة قد حافظت على هذا الاسم . هذا وإن كلمة « أندلس » كانت تدل على مختلف العناصر التي سكنت

انظر : Lévi - Provençal, L'Espagne musulmane au Xe siècle, p. 5 et suiv.

انظر أيضاً : بطرس البستاني ، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، ص ٢ وما بعدها .

القسم الذي احتله المسلمون من الجزيرة الإسبانية ، سواء أكانوا من الفاتحين العرب أم من سكان الجزيرة الأصليين الذين خضعوا أو لم يخضعوا للإسلام ، ولهذا لم تكن كلمة « أندلس » لتدلّ إلاّ على وحدة خيالية، وكان على الحكام المسلمين أن يواجهوا في جميع عصور احتلالهم للأندلس معضلة العناصر والأجناس ، فنراهم أحياناً يعملون من ناحية على قمع ثورات وطنية يقوم بها الإسبانيون المغلوبون على أمرهم ، ونراهم من ناحية ثانية يضطرون في أوقات كثيرة إلى قمع حركات داخلية تقوم بها العناصر الفاتحة التي جاءت من مختلف المناطق : من الشرق ومن إفريقية ومن المغرب ، وهكذا سنرى أن تاريخ الأندلس السياسي كان دائماً مهدداً بخطرين : خطر سكان البلاد الأصليين وخطر العناصر الفاتحة ولا سيما البرابرة .

الفتح :

كانت إسبانيا ، في الوقت الذي أخذت تجذب فيه أنظار العرب ، على أسوأ حالة من الضعف السياسي والاجتماعي . وهذا ما ساعد على فتحها . فإن الضرائب الباهظة امتصت ثروة الطبقة الوسطى ، واستبد الموسرون ، على قلتهم ، بأراضيم الخسبة وأخذوا يستغلونها لترفهم وملذاتهم بينما كان الفلاحون عبيداً مرهقين . ولم تبدل النصرانية ، على رغم انتشارها في إسبانيا، كثيراً من الشرائع الرومانية القديمة . فظلت السيادة لأصحاب الإقطاع والعبودية للفلاحين والضعفاء . وكان القوط Wisigoth هم الذين دخلوا هذه البلاد في القرن الخامس للميلاد وأقاموا مطمئنين بعد أن قضوا على سلطان الرومان وأقاموا سلطانهم وانتحلوا النصرانية ديناً ، ولكنهم صاروا بها إلى الاضطهاد وإلى احتقار الرومانيين لأنهم مغلوبون ، فطبعي أن تُفضى هذه الحالة إلى اختلال في بناء الدولة ، وأن يمتقها أكثر الشعب ويتمنى زوالها .

وكان على إسبانيا ملك يقال له لذريق Roderic اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطشة Witiza . وكانت مدينة سبتة Ceuta الواقعة في أقصى شمالي المغرب يحكمها عامل لقيصر الروم يدعى يليان Julien ، وكانت بينه وبين لذريق عداوة شديدة لا ندخل في أسبابها ، إلا أن هذه العداوة حملت يليان على السعي

لإسقاط لذريق وثلّ عرشه . لذلك ليس عجيباً أن نراه يساعد العرب ويمهد لهم سبيل الفتح .

« فكتب يليان إلى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك في المغرب يُزيّن له فتح الأندلس ، ويصف خصب أراضيها ووفرة أموالها وسهولة التغلب عليها لتخاذل أهلها وانقسام بعضهم على بعض ، ووعده بالمساعدة ، فاستأذن موسى بن نصير الخليفةَ بغزو الأندلس فأذن له على أن يأخذ حذره ويخوضها أول الأمر بالسرايا ، ولا يغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، فبعث موسى مولى له من البرابرة يقال له طريف بن مالك النَّخعي ، في أربعمئة راجل ، ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن ليليان إلى جزيرة الفنّال التي اشتق منها اسم الأندلس ، فسميت جزيرة طريف Tarifa لتزوله بها ، وأقاموا فيها أياماً ثم كروا إلى المغرب وقد أصابوا مالاّ جسيماً وسبياً لم ير موسى وأصحابه مثله .

« وعاد يليان يحرّض موسى على اقتحام الأندلس حتى أغراه ، وفي الواقع لم يكن موسى ليريد أن يقوم بحملة كبيرة ، إنما كان يرغب القيام بغزو متبعاً بذلك توصية الوليد^(١) . وبدافع هذه الفكرة دعا ببربري من مواليه اسمه طارق بن زياد ، فعقد له ، وبعثه في سبعة آلاف من البربر ليس فيهم إلاّ ثلثمائة من العرب ، فأقلّتهم سفن يليان التجارية لحمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة إلى جزيرة الفنّال ، ويسمياها العرب الجزيرة الخضراء ، وكان نزولهم عند جبل كلبة Calpé فقيل له جبل طارق^(٢) .

ولن ندخل في تفاصيل الحوادث . فقصة الفتح وما رافقها من زيادة أو نقص موجودة في مختلف الكتب التاريخية ، ولكننا نشير فقط إلى أن العنصر البربري هو الذي كان يهيمن في هذه الحملة الأولى وأن المقاومة التي لاقاها العرب في الجزيرة الخضراء لم تكن شديدة . فعند ما علم ملك الإسبان لذريق بتقدم المسلمين حشد الجيوش وكتب إلى أولاد غيطشة يدعوهم إلى الاجتماع معه على حرب العرب ، ويحذرهم

(١) يرى هذا الرأي ليني بروفنسال ، انظر المصدر السابق ص ٩ .

(٢) بطرس البستاني . المصدر السابق ص ٣ - ٤ .

من القعود عنه ، فلم يجدوا بدءاً من إجابته ومضوا معه وهم مرصدون لمكروهه لأنه كان قد اغتصب الملك من أبيهم - كما ذكرنا - . وفي وادي بكّة Bekka التي الفريقان ، وكان جيش طارق قد أمد بخمسة آلاف بربري جاءوه من المغرب فبلغ اثني عشر ألفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحدة على الغزو واقتسام الغنائم ، وكان جيش لذريق ، على رواية ابن خلدون ، أربعين ألفاً ، وعلى رواية المقرئ مائة ألف ، وينقل بطرس البستاني في كتابه أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث عن كليمان هوار قاتلا : « إن جيش الإسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وإن أغلب سلاحه العصي والمقاليع » ولا ندري إلى أي حد يمكن أن نؤمن بهذا القول . وتحمل البرابرة صدمة الجيوش القوطية وظفر المسلمون ظفراً لم يكونوا ليحلموا به بعد معارك دامت ثمانية أيام وتمّ النصر للمسلمين في رمضان سنة ٩٢ هـ .

على أن أولاد غيطشة ويليان صاحب سبته لم يظاهروا العرب في غارتهم على الأندلس إلا لاعتقادهم أنهم قوم غزاة لا يلبثون بعد الغنيمة أن يعودوا إلى بلادهم ، فشدوا أزرهم للتخلص من لذريق . والعرب أنفسهم لم يكونوا مصممين على البقاء في إسبانيا عند ما اقتحموها يدل على ذلك حديث رواه المقرئ لميمون العابد ، وكان في عداد الشاميين الذين دخلوا الأندلس ، فقد قال لأحد أولاد غيطشة : « إنا قدمنا إلى هذا البلد غزاةً نحسب أن مقامنا فيه لا يطول ، فلم نستعد للمقام ولا أكثرنا من العدة » (١) .

وبلغ موسى بن نصير فتح الأندلس ، فحسد طارقاً ، وطلب إليه أن يتوقف عن الإيغال في البلاد حتى يأتي إليه ، ولكن طارقاً لم يطعه بل تابع الفتح ، وأراد موسى بن نصير أن يناله نصيب من المجد فحشد جيشاً يزيد على العشرة آلاف من البربر والعرب (٢) وعبر بهم بحر الزقاق ودخل الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٣ هـ ولكن عوضاً عن أن يلحق بطارق أخذ يعمل لحسابه الخاص فافتتح إشبيلية وماردة Mérida في غربي إسبانيا واستعمل دار السكة وضرب باسمه نقوداً ذهبية .

(١) بطرس البستاني ، المصدر نفسه ص ٥ .

(٢) يقول ليني بروفنسال إن هذا الجيش كان كله من العرب هذه المرة وفيه كثير من اليفانيين

والقيسيين مع مواليهم . انظر المصدر السابق ص ٩ .

هذا وقد كانت جيوش طارق قد افتتحت أكثر الأندلس عند ما ذهب موسى إلى طليطلة فاستقبله فيها طارق ، ونزل إليه إعظاماً إلا أن موسى قد وبخه على عصيانه ثم أظهر الرضا عنه ، وتابع وإياه الفتح متوغلين في بلاد الفرنجة . وبينما كانا يتنقلان من بلد إلى آخر إذا بأمر الوليد بن عبد الملك يدعو موسى إليه وقد بلغه ما أصاب من الأموال والغنائم فولّى موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وعاد مع طارق قاصدين الشرق . وكانت إسبانيا المسلمة قد أدركت حدودها النهائية في الفتح .
ومنذ أن ترك موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس بدأ عهد الولاية .

الفصل الثاني

عهد الولاة ٩٢ هـ / ٧١٠ م - ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م

إن عهد الولاة في الأندلس يبدأ في الواقع بطارق بن زياد ، ثم بموسى بن نصير ثم بابنه عبد العزيز ، فبعد مقتل عبد العزيز هذا بقيت الأندلس نحو ستة أشهر دون أن يرسل بنو أمية والياً إليها . فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فحكم في قرطبة مدة قصيرة ، ثم تعاقب الولاة بعدئذ على الأندلس ، فمنهم من كان يعينهم الخليفة ، ومنهم من كان يعينهم عامل إفريقية . وافتتحت بلاد جديدة في عهدهم كبرشلونة Bercelone وقشتالة Castille وأغار العرب على شواطئ الرن فبلغوا ليون Lyon وتقدموا في قلب فرنسا حتى بلغوا تور Tours وكادوا يعبرون اللوار عند ما هب لملاقاتهم شارل مارتل بجموع الفرنجة في سهل بواتيه ، وردّهم على أعقابهم ، وقتل في الواقعة قائد العرب عبد الرحمن الغافقي والى الأندلس وكان ذلك سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م .

ولم يقتصر عهد الولاة على الحروب بين المسلمين والنصارى في أوروبا بل حدث شقاق عظيم في المسلمين أنفسهم . فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكمت الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمانية .

ولن نشير هنا إلى تفصيل الحوادث بل نكتفي بالقول إن ثورات البرابرة خلال هذا العهد ليست سوى صدى للحوادث الدامية التي كانت تجرى في المغرب . فقد حدث أن ثار البرابرة في المغرب على الشاميين والمصريين فتحرك برابرة الأندلس وثاروا بوالها عبد الملك بن قطن ، هذا فضلاً عن أن البربر كانوا يعتدّون بأنفسهم لأن الفاتح منهم والفتح قد تم على أيديهم ، ويرون أنهم أولى من غيرهم بتقلد الحكم . وقد حملت ثورات البرابرة الخليفة هشام بن عبد الملك على أن يرسل نجدات إلى

إفريقية وكان من بينها نجدة الجند السوريين تحت قيادة بلج بن بشر الذي استطاع أن يخدم ثورتهم في إسبانيا .

هؤلاء الجند الشاميون يجلبون انتباهنا ، إذ أنهم سيلعبون دوراً هاماً في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس ، وسينقلون إليها النظم الشامية والتقاليد العسكرية التي كانت سائدة في الشام . والتي ستبقى من مميزات الدولة الأموية في الأندلس .

وقد أخذ الجند الشاميون يتصرفون في بلاد الأندلس بحسب أهوائهم ونزعاتهم القبلية ، إلا أن إقامتهم فيها قد كوَّنت نواةً عربية هامة أخذت تقاوم نشاط البرابرة وتخفف من غلوأهم .

ومن السهل ، بعدُ ، أن نلاحظ أن وضع المغرب الإسلامي المضطرب كان يستدعى أن يدفع العرب إلى التفكير في تأسيس دولة قوية فيه ، وستقع مهمة تأسيس هذه الدولة على عاتق عبد الرحمن الداخل بعد أن تضعفت سلطة الأمويين في الشرق بنشاط الدعوة العباسية .

الدولة الأموية

إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث

(١٣٨ هـ / ٧٥٦ م - ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م)

بعد أن انهار البيت الأموي في الشرق وأعمل العباسيون السيف في رقاب الأمويين ، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان ، وكان شاباً ، أن ينجو من بطش العباسيين ويفرّ مستخفياً مع موله بدر حتى خالص إلى المغرب . وقد بقي خلال أربع سنوات هائماً على وجهه في شمال إفريقية حتى نزل على أخواله بني نَفْزة بالقرب من سبتة . وكان عبد الرحمن في أثناء تجواله يظهر نشاطاً سياسياً ، فهل كان يرغب بتأسيس دولة في إفريقية ؟ إن هذا لممكن ، إلا أن الأرض المواتية لطموحه السياسي ما كانت إلا الأندلس التي تضم نواة أموية شامية وهي جند بلج ، أضف إلى ذلك العوامل الأخرى التي كانت تساعد لتحقيق ما ينبغي

كحماية البربر له لأن أمه كانت بربرية .

وقد استطاع عبد الرحمن في كثير من الحذق السياسى أن يستثمر لصالحه الخاص المنازعات القائمة بين القيسيين واليمانيين ، وكانت كل هذه العوامل سبباً في نجاحه ، لذلك لم يطأ أرض الأندلس حتى استقبل استقبالاً فاق حدّ خياله . فانتصر على الصَّمَمَيْل ويوسف الفهرى ، والي الأندلس ، وأهلكهما ، ودانت له الأندلس وأصبح أميرها ولُقِّبَ بالداخل لدخوله إياها ولقَّبَ به أبو جعفر المنصور بصقر قريش ، وكان دخوله قرطبة ، التي جعل فيها سرير ملكه ، في العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ . فقطع الخطبة عن بني العباس ودُعِيَ له على المنابر وبني المسجد الجامع في قرطبة واختطّ مدينة الرُّصَافَة في شمالها على مثال رُصَافَة الشام لجدّه هشام ، وجعل بلاطه كبلاط لذريق في عظمته وبهائه ، وبدأت منذ ذاك العهد إمارة قرطبة المستقلة وتأسست الدولة الأموية .

فما هي صفات هذا التأسيس ، وما هو منهج مؤسس هذه الإمارة ؟
لم يكن عهد إمارة قرطبة المستقلة في الواقع سوى عهد طويل لتعزيز السلطة الأموية في الغرب الإسلامي ، ويجب علينا أن ننتظر عهد خلافة عبد الرحمن الثالث لكي تتمركز نهائياً هذه السلطة وتبلغ الحضارة الأموية أوجها وعهدا الذهبي .
ومنذ أن أصبح عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس أخذ في تحقيق برنامجه .
وكان هذا البرنامج يرمى إلى أمور ثلاثة :

- ١ - تنظيم الجيش الذي قاد إلى الظفر .
 - ٢ - فتح أبواب الأندلس أمام الأمويين المضطهدين في الشرق .
 - ٣ - إيجاد التفاهم بين عناصر العرب ولا سيما القبائل التي تحارب بعضها بعضاً ، ودعم السلطة الأموية باللجوء إلى توطيد الأمن في جميع أنحاء البلاد الأندلسية .
- ولم تكن سياسته سوى سياسة جلب واسترضاء ، وكان من نتائجها أن أخذت وفود المهاجرين الأمويين تنثال على بلاد الأندلس لدعم هذه الدولة الناشئة ، وتعزيزها ، وكون المرانيون ما نسميه اليوم بالطبقة الأرستقراطية أو الخواص .
- هذا وأن حملة شارلمان الشهيرة تقع في النصف الثاني من حكم عبد الرحمن

الداخل ، فقد قطع شارلمان جبال البرننه في جيش من الفرنجة وجاء فحاصر سرقسطة سنة ١٦٢ هـ / ٧٧٨ م إلا أنه اضطر لترك الحصار فجاءة عند ما استدعى للعودة إلى شواطئ الرين ، فقام عبد الرحمن عندئذ ، مستفيداً من عودة شارلمان ، وحاصر سرقسطة واحتلها مدة قصيرة ثم أرسل حملة لحقت بشارلمان في مقاطعة الباسك وأنزلت به هزيمة فادحة .

وكان من نتاج هذه المعارك بين العرب وشارلمان في شمال الأندلس تلك الملحمة الرائعة ” أنشودة رولان “ التي هتف بها شعراء مجهولون مجدوا فيها مصرع أبطال شارلمان وعلى رأسهم الفارس الكبير رولان وغيره من الأبطال الذين كان يعتر بهم شارلمان .

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة (من سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م إلى ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م) وعند وفاته كانت الدولة الأموية في الأندلس تتمتع من الناحية السياسية والاجتماعية بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، وكانت تمتاز بطابعها الشامي ، هذا الطابع الذي أخذ يظهر في التقاليد وفي نمط النظم وأشكال البلاط حتى أصبح لدى كل أمير أموي ميل ”لوسم الأندلس بالسماط التي كانت تمتاز بها الدولة الأموية في الشرق سواء أكان ذلك في العادات أم في نمط الحكم أم في تنظيحات الدولة .

وتداول الملك بعد عبد الرحمن الداخل أبناؤه وأحفاده نذكر من بينهم هشاماً الأول والحكم الأول وعبد الرحمن الثاني وغيرهم . وفي أثناء حكم عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م – ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م) قدم الأندلس من بغداد المغني زرياب تلميذ إسحاق الموصلي ، وقد كان له تأثير كبير في نقل كثير من العادات الشرقية السائدة في بلاط بني العباس إلى بلاد الأندلس . وقد أخذت تلك العادات الحضرية تنتشر في كثير من التائق والذوق الناعم وتبدو على الأخص في المأكل وفي قوانين المآدب والحفلات ، وقد كان لقدم زرياب تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية .

إن نجاح صقر قريش في تأسيس الدولة الأموية في الأندلس يعدّ حادثاً هاماً في تاريخ العرب ، وإذا كانت الدولة الأموية قد وطّدت دعائمها في هذا العهد عهد إمارة قرطبة المستقلة ، فإنها بلغت أوجها من الرقي والحضارة في عهد عبد الرحمن الثالث . فبمملكه تبدأ الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٣٠٠ للهجرة ، هذه الخلافة التي ازدهر فيها الأدب والفن ازدهاراً سنرى مداه ونشعر بأصالته وغزارته .

الفصل الثالث

خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث

عند ما تقلد عبد الرحمن الثالث زمام الحكم كان قد بلغ من العمر ثلاثاً وعشرين سنة . وعلى الرغم من صغر سنه فقد اختاره جده عبد الله لما توسم فيه من المقدرة والصفات الحسنة . وقد دام ملكه خمسين حَولاً من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م إلى سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م . ولم يعرف التاريخ الإسلامي عهداً زاهراً كعهده ، وقد سمحت له مدة ملكه الطويلة أن يؤمّن لسياسته نوعاً من الاستقرار لم يعرفه الملوك الذين سبقوه ولا الذين لحقوه . فنَهَد إلى الميادين يحمّد الفتن ومراكز الثورات التي لم تنطفيء نارها منذ أن قدم المسلمون إلى الجزيرة الإسبانية عاملاً على إخضاع العصاة وجمع كلمة المسلمين ، ثم قام بغزوات لقهر المناوئين من ملوك الإسبان فدان أكثرهم له ووفدوا إلى بلاطه خاضعين وذاع صيته وانتشرت سطوته فوفد إلى حضرته السفراء من القسطنطينية وألمانيا وإيطاليا وفرنسا ، وجعل الأندلس أمة واحدة تحت سلطانه واستكثر من الصقالبة واعتمد عليهم في الجيش وخطط الدولة ، فأزال بهم زعامة الأرسطراطية العربية .

وكان أمراء بني أمية يطمعون في استرجاع الخلافة ويتحينون لها الفرص ولم يتلقبوا أول أمرهم بألقابها مخافة أن يجد المسلمون في عملهم بدعة لأن الخلافة العباسية كانت في إبان عظمتها ، فلا مسوغ لقيام خلافة أخرى ، فلما صار أمرها إلى الضعف وبدأ الانحلال والوهن يدب في جسمها حتى أصبح الخليفة ألعوبة في أيدي الجند من الأتراك ومن مواليه سنحت الفرصة لملوك الأندلس ، فاعتنمها عبد الرحمن الثالث وأعلن نفسه خليفة ولقّب بأمرير المؤمنين الناصر لدين الله سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م .

وكان الناصر أعظم ملوك الأندلس وأول خليفة فيها . بلغت الأندلس في زمنه أوج مجدها واحتلت مكانة سياسية ومدنية عظيمة في نظر المسيحية والعالم

الإسلامي نفسه . ونهضت الآداب والعلوم نهضة مباركة ونافست قرطبة بغداد في أعظم أيامها . فبلغ عدد سكانها فيما يروون نصف مليون وكان فيها مائة وثلاثة عشر ألف جامع وثلاثمائة حمام وثمان وعشرون ضاحية ، حتى لم يعد لها في كل المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة المحال وفسحة الأسواق وكثرة العمارات والحمامات والفنادق^(١) .

وبنى الناصر على مقربة من عاصمة مملكته قرطبة قصرًا أسماه الزهراء باسم جارية له كانت تمت عليه أن يبني لها قصرًا . فكانت الزهراء هذا القصر الفخم الذي قضى الناصر في بنائه وإعداده خمسًا وعشرين سنة واستدعى للعمل فيه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية ، وأجرى فيه المياه وأنشأ حوله الحدائق والبساتين بحيث أصبحت قرطبة وزهراؤها مدينةً سحرية تخلب الناظرين بجمالها .

وقد ذكر المقرئ : « أن مُلكَ الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن وهادته الملوك وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعةً راغبة وانصرفت عنه راضية ، ومن جملةهم صاحب القسطنطينية الكبرى فإنه هاداه ورغب في موادعته »^(٢) وقد زحرت بيوت الأموال في زمنه فبلغ دخل الخزينة نحو ستة ملايين دينار في العام . وكان الناصر يقسم الجباية أثلاثًا : ثلث للجنود وثلث للبناء وثلث مُدَّخر .

وقد أنشأ أسطولاً زاحم به أسطول الفاطميين وجيشاً قوياً سيطر به على أكثر بلاد الأندلس ، وأسس المدارس وشجع العلماء ونهضت الآداب والفنون في زمنه نهضة مباركة .

ولما توفي عبد الرحمن الناصر كان له من العمر سبعون عاماً . وقد عرفت بلاد الأندلس في زمنه حياة الدعة والرخاء وحقاً لقرطبة أن تدعى مدينة العلم والأدب والفن .

(١) انظر : جبرائيل جبور ، من مقال له عن الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث بيروت ، السنة ٢ الجزء ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٩ .

الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

انتقلت الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر إلى ابنه الحكم . وجرت بيعته في حفل عظيم وصفه المقرئ وصفاً مفصلاً يدل على أبهة المراسيم التي جرت (١) . كان الحكم كأبيه حازماً حسن التدبير ، أخضع الثائرين من الفرنجة . وملك خمس عشرة سنة (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) في يَمُنْ وإقبال . وكان الحكم ميالاً إلى العلوم والآداب محباً لها مكرماً لأهلها جماعاً للكاتب بأنواعها ، ذكر المقرئ أن عدد الفهارس في خزنة العلوم والكتب في عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة ؛ في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير (٢) .

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة . وجعلها مجاناً للطلاب ، وأتم بناء الجامع الكبير الذي كانت تدرس فيه العلوم والآداب العالية . وأرسل البعث العلمية إلى الشرق فكانت تنسخ له الكتب وتأتي بها إليه حتى جمع في خزنته أربعمئة ألف كتاب . وذكر المقرئ أنه اشترى نسخة من الأغاني بمبلغ ألف دينار من الذهب .

الحاجب المنصور - استبداد العامرين :

كان الحكم قد عهد ، في حياته ، أمر الإشراف على ابنه هشام إلى محمد بن أبي عامر ، وكان شاباً ذكياً استطاع بدهائه أن يكسب عطف الملكة صُبْح ، امرأة الحكم ، الإسبانية الأصل ، وقد كانت تهواه . واستطاع أيضاً أن يتقلب في مناصب عالية حتى أصبح حاجباً ، وبعد موت الحكم استبد بشئون الدولة مستغلاً حداثة سن هشام ، فأخذ يتخلص من منافسيه واحداً واحداً حتى تنكَّر في النهاية إلى صبح نفسها واستلم زمام الأمور بيده واستبد بالملك وأصبح ملكاً على الأندلس ولقَّب نفسه بالحاجب المنصور ، ودُعِيَ له على المنابر ، ولم يترك للخليفة غير الدعاء ليلة الجمعة .

(١) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ١٨٢ .

وقد كان المنصور كثير الغارات قام بنحو عشرين غزوة استرد بها ما كان فقده الحكّم في أواخر عهده حين انصرف بكلّيته إلى الآداب والعلوم . وقد أعاد إلى الملك سطوته ومجده وهابه ملوك الإِسبان . وبموته سنة ٣٩٣ هـ وموت ابنه المظفر من بعده ينتهي حكم العامريين المستبد وتعود السلطة إلى البيت المرواني ويطرأ على الدولة الفساد وتسود الفوضى ويضطرب الأمن وتسير خلافة قرطبة نحو الاضمحلال والضعف .

وقد تجلّى بطش المنصور في غزواته الكثيرة على الفرنجة وهدمه مدنهم حتى أنزل الرعب في قلوبهم . وقد كان محبباً للفلسفة فرمى بالزندقة ، وقرب العلماء والشعراء وأحسن صلاتهم فنطقوا بحمده وأشادوا بذكره .

وقد كانت الفترة التي تلت موت المنصور فترةً مضطربة تعاقب فيها خلفاء ضعفاء إلى أن انتهت بخلع هشام الثالث سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م فكان آخر خليفة في قرطبة فانقطعت الخلافة الأموية وصار الأمر في قرطبة إلى الطبقة الأرستقراطية . ثم قام رؤساء الطوائف في الولايات ، من بربر وعرب وموال ، يفتسمون خططها ويستبدون بأمرها ، فعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف .

الفصل الرابع

ملوك الطوائف

٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م - ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م

عندما أخذ الضعف يدب في جسم الدولة الأموية ، بعد أن استبد العامريون بأمر الخلافة ، بدأ رؤساء الطوائف يستقلون بالإمارات التي يحكمونها فعرفوا بملوك الطوائف .

وقد أصبحت المدن الهامة في الأندلس عواصم لهذه الدويلات الصغيرة . ومن أهم هذه الدويلات^(١) :

الدولة الزييرية : استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ ، وهي دولة بربرية ، ظل مُلْكُها إلى سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م .

والدولة الحمودية : استقلت في عهد المستعين الأموي سنة ٤٠٧ هـ . ١٠١٦ م ، وهي شيعية من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي . تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وانقرضت سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م

والدولة الهودية : في سرقسطة Saragosse من سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م إلى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م وهي دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤمن .

والدولة العامرية : في بلنسية Valence من سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م إلى سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهم من موالى بنى عامر .

والدولة العبادية : في إشبيلية من سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إلى سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م وهي عربية من بنى لحم من ولد النعمان بن المنذر ، وقد اتصل بملوكها الشاعر ابن زيدون ، وهي من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب .

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون ، وقد استقيننا هذه المعلومات باختصار عن كتاب أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني .

ودولة بني الألفطس : فى بطليوس Badajoz من سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون .

والدولة الجهورية : فى قرطبة من سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م إلى سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م قامت بعد سقوط الخلافة الأموية . فتولى الأمر عميد طبقة الخواص فى قرطبة أبو الحزم بن جمهور ثم توارث الحكم أبناؤه من بعده .

ودولة ذى النون : فى طليطلة من سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م إلى سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٧٥ م وهى بربرية من قبائل هواره .

وقد قامت بين ملوك الطوائف حروب متصلة ، وكان القوى فيهم يغلب الضعيف فيزيل سلطانه كما حدث أن أزال ملوك بني عباد حكم بني جمهور فى قرطبة . ولم يتوان بعضهم عن أن يستنجد بملوك الفرنجة ، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على عواصمها ويخضعون ملوكها ويجعلونهم عمالاً لهم ، كما فعل فرديناند الأول بالمظفر ملك بطليوس ، وبالمأمون ملك طليطلة ، وكما فعل ألفونس السادس بملك سرقسطة .

ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسياً فقط ، بل كان أيضاً عمرانياً وأدبياً وفتياً ، فتنافسوا فى ابتناء الحصون والقلاع وتنافسوا فى مجالس الأدب والطرب وفى تشجيع الشعراء والكتاب والمغنين .

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب الخلفاء بنى أمية وإن زالت خلافتهم ومنهم من خطب لبني العباس على رغم بعدهم عنهم ، ومنهم من تلقب بنعوت الخلفاء كبنى عباد فكان منهم المعتضد والمعتمد .

ومن أجل تهاقتهم على هذه النعوت العباسية قال الشاعر أبو بكر بن عمار بهجوهم :

مما يزهدينى فى أرض أندلسٍ أسماءٌ معتضدٍ فيها ومعتمدٍ
ألقابُ مملكةٍ فى غير موضعها كالهرى يحكى انتفاخاً صورة الأسد

ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن نذكر أنهم رعو حركة الأدب وقربوا أصحابها وكانت أكثر عواصمهم أسواقاً لها ، وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل مَلِكِيّ بطلْيوس ، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية ، وكان أكثرهم يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم ويجالسهم ، وفي عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة .

ودام أمر الطوائف نحو مائة سنة تقريباً استطاع في أواخرها ملوك الإيبان من جمع كلمتهم فهاجموا هذه الدويلات واحدةً واحدةً وقضوا عليها حتى بلغوا إشبيلية عاصمة بني العباد فضايقوا المعتمد حتى اضطر إلى أن يطلب النجدة من أمير المرابطين في العدو الإفريقية . فجاء يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ومحا ملوك الطوائف ، إلا دولة سرقسطة فإن صاحبها اعتصم بالفرنجة فحموها حيناً ، ولم ينل منها المرابطون إلاّ في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م .

* * *

دولة المرابطين^١

تنحدر هذه الدولة من قبيلة لمتونة من برايرة صنهاجه في المغرب ، وكان من عاداتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين .
وسُمُّوا بالمرابطين لأن أحدهم يحيى بن إبراهيم أسلم فجاء بفقيه اسمه عبد الله بن يسن ليعلم قبيلته القرآن وأحكام الدين . ثم مات يحيى فتنفرق الناس عن الفقيه ، فلم يفت ذلك في عضده بل جمع فئة منهم واعتزل بهم في جزيرة من السنغال ، وابتنى لهم رباطاً فسموا المرابطين^(٢) .

ولما كثر عددهم حتى بلغوا الألف قام عبد الله وحضهم على الجهاد في سبيل الحق وأمرهم بإرشاد عشائرتهم ، ولما أبت هذه أن تهتدى بهديهم شنوا عليها الغارة وقتلوا منها خلقاً كثيراً حتى أسلمت . ثم تابعوا الغزوات في بلاد المغرب يدعون الناس إلى دينهم ناشرين الرعب والهول في تلك الأنحاء .

وجعل عبد الله قيادة الجيش ليحيى بن عمر ، وكانت له زعامة في قبيلته لَمْتُونَة ، فابتدأت به دولة المرابطين سنة ٤٨٨ هـ . فلما مات خلفه أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٣ هـ ، فدوخ يوسف المغرب وفتح فاس وطنجة وسبتة وبنى مراکش وجعلها داراً له فعظمت هيئته وذاع ذكره .

وكانت الأندلس في تلك الحال تعاني أشد الضيم من ملوك الإيبان . فإن ألفونس السادس صاحب قشتالة غزاها غير مرة ، وأثخن في المسلمين ، وأخضع ملوك الطوائف ، حتى بلغ جزيرة طريف ، وأدخل قوائم فرسه في البحر وقال : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » فلما بلغ الضعف بالمسلمين حدّه أجمعوا رأيهم على استنفار يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، وكتب إليه أهل الأندلس كافة

(١) باختصار عن بطرس البستاني ، المصدر السابق .

(٢) الرباط والرابطة : مكان ينفرد به المسلمون للعبادة ويتأهبون فيه للجهاد ، فهو بيت دين

يستنجدونه على العدو المغير ، فجمع جيشاً كثيفاً وجاء إلى نجدة المعتمد في كتاب بربرية من قبائل زناتة ومصمودة وقهر الإفرنج في واقعة الزلّاقة الشهيرة سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م ، فازداد يوسف بن تاشفين عظمة بهذا الانتصار وتلقّب منذ ذلك اليوم بأمر المسلمين وأتاه به تقليد الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، ولقبه ناصر الدولة . ثم رجع يوسف إلى المغرب ظافراً منصوراً بعد أن ثبت للمعتمد سلطته .

وما كادت تنقضي ثلاث سنوات حتى أعاد الإفرنج الكرّة وطلب المعتمد النجدة ثانية فعاد ابن تاشفين وقضى على المناوئين سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، وهنا طابت لابن تاشفين الأندلس ورياضها الغناء وقصورها ومناها (١) ومواردها الصافية فاستبد بالملك لنفسه ، وانتحل الحصومة مع المعتمد وأخذه أسيراً إلى أغمات في إفريقية حيث قضى غمّاً وحزناً في منفاه وملك ابن تاشفين الأندلس .

وتوفي يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، بعد أن أصبحت الأندلس ولاية للمرابطين ، وآلت إمارة المسلمين بعده إلى ولده عليّ ، فجعل مقره مراكش وترك في الأندلس أخاه .

ولم تنعم الأندلس في دولة عليّ فإن تعصبه الشديد للدين ، واستمساكه بمذهب مالك وكُرهه غيره من المذاهب جعله آلة بيد الفقهاء فساد التعصب والإرهاب ، وكثرت الوشائيات ، وخنقت حرية الفكر . وفي أيامه ظهر المهديّ محمد بن تومرت في جبال المصامدة بالمغرب فكان ظهوره وبالا على دولة المرابطين وسبباً لقيام دولة الموحدين .

ودام حكم المرابطين في الأندلس نحو ستين سنة أديل منهم بعدها إلى الموحدين .

* * *

(١) معنى : ج منسية ، وهي قصر يحيط به روض .

دولة الموحّدين

(٥٢٤ / ١١٢٩ م - ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م)

الموحّدون طائفة أخرى من إفريقية من أصحاب ابن تومرت الذى أراد أن يضع للدين عهداً جديداً فدعا نفسه بالموحد وجمع حوله الأنصار وأعلنت شيعته بعد ذلك الجهاد على المرابطين فغلبوهم فى إفريقية ثم نقلوا الحرب إلى الأندلس وغلبوهم أيضاً فيها . وإليكم نبذة عن نشأتهم^(١) .

نشأ محمد بن تومرت فى جبل السوس من المغرب الأقصى وقومه من بنى مصمودة ، وهى قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد . وبدت عليه دلائل التقوى مند حادثته فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها . وطلب العلم فى بلده فوجد أن المدارس فى الغرب لا غناء فيها فرحل إلى الشرق وجاء بغداد ، وتلمذ لأبى حامد الغزالي فى المدرسة النظامية ، فأخذ عنه طرفاً صالحاً من العلم وأصول الدين .

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع وإقامة أحكام السنة ، ويبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم ، وأطلق على طريقته اسم التوحيد فتبعه خلق من بنى قومه عرفوا بالموحدين . ثم أوقع فى خلدّهم أن النبى بشّر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلاً ، وقال إنه يخرج من المغرب الأقصى . فقام إليه عشرة رجال وقالوا له : « أنت المهدى » وبايعوه وساروا فى ركابه يبشرون له الدعوة فى بلاد المصامدة حتى كثر أتباعه ، ورسخت تعاليمه ، فدعاهم إلى جهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم فبايعوه على الموت ، فراحوا يغزون فى بلاد المغرب ويوقعون بالمرابطين حتى بلغوا مراكش فحاصروها ولكنها امتنعت عليهم ومات المهدى سنة ٥٢٤ هـ ، قبل أن يفتحوها ، وكان قد أوصى بعده لعبد المؤمن بن على ، أحب صحابته إليه :

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق .

فبايعوه بالخلافة وتلقّب بأمرير المؤمنين . وتابع عبد المؤمن جهاده حتى أزال دولة المرابطين وأقام دولة الموحدين وجاءته الوفود من الأندلس تدعوه فأجاز إليها جيشاً من الموحدين وامتلكها وجعلها من ولاياته .

وبلغت دولة الموحدين أوج عزها في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخليفة الثاني بعد المهدي (دامت خلافته من سنة ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) ثم في عهد ولده أبي يوسف يعقوب الخليفة المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) .

ومع تمسك الموحدين بأمور الدين ، كانوا أكثر ميلاً من المرابطين إلى تشجيع العلوم والآداب وأعلق منهم بالحضارة : فإن أبا يعقوب استقدم الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد ، وعنى بالعمارة ، ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية .

وقد دام ملك الموحدين نحو مائة وثلاثين سنة استطاع بعدها ملوك النصارى في الأندلس قهرهم وإخراجهم من الجزيرة والاستيلاء على أكثر إماراتها .

دولة بني الأحمر^١

بعد زوال الموحدين من الأندلس ، استطاع محمد بن هود صاحب بطليوس أن يبسط سلطانه على كثير من المدن الأندلسية فشمّل به بطليوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية . وكان يرى في مقاتلة أعدائه النصارى عاملاً لدعم قوته وسلطانه ، ولكنه كان أضعف من أن يردهم عن مملكته ويحرس استقلالها . وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الأندلس تترزح تحت عبء الفتنة والضعف كان في أرجونة ، من حصون قرطبة ، قبيلة عربية من بني الأحمر عميدها محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر سليل بني نصر ، فقام هذا أيضاً بقتال النصارى ، ولكن روح التنافس والضعف لم تكن لتسمح للمسلمين بالتفوق ، واستطاع الإفرنج أن يستولوا على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحاصروها ستة أشهر ثم سقطت في أيديهم سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وكان سقوطها كارثة عظيمة بعد أن لبثت نحو خمسمائة وعشرين سنة عاصمة مملكة إسبانيا المسلمة^(٢) . وقتل ابن هود في المرية Almería ولم يبق للمسلمين غير إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة يتولاها ابن الأحمر أمير المسلمين من قبل فرديناند الثالث . وهذه الدولة الصغيرة استطاعت أن تقف في وجه التوسع الإفرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف ، ويعود ذلك إلى أن الملوك الإسبانيين كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم بعضاً ، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب في ضنكها فيجيزون إليها جيوشهم لدفع المسيحيين عن أرباضها .

وقد عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر أزهى عصورها وفيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب ، فنبع في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب ، وعُرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر ،

(١) باختصار عن : بطرس البستاني ، المصدر السابق . انظر أيضاً : محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ص ١٨ - ٤٠ .

(٢) راجع سقوط قرطبة في تاريخ ابن خلدون وفي نفح الطيب .

كأبي عبد الله محمد بن محمد المخلوع ثالث ملوكهم .
 وفي سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م ، أى بعد نحو ثمانية قرون من عام الفتح ،
 هاجم فرديناند وإيزابيلا بنى الأحمر فسقطت غرناطة ، آخر معقل للفاتحين ،
 وسلّم أبو عبد الله ، آخر ملوكها ، مفاتيح الحمراء إلى الغالبين .
 ويروى أن أبا عبد الله قد أعطى ضيعة يقيم فيها ، فخرج وأهله من قصر
 الحمراء حزيناً منخلع القلب ، ومشى مطرقاً إلى منفاه ، حتى إذا انعطف به
 الطريق ، وكادت الحمراء تتوارى عنه ، أرسل إليها النظرة الأخيرة ، وهطلت عيناه
 بالدموع ، فقالت له أمه عائشة :

ابك مثل النساءِ ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ولا يزال هذا الموضع يسمى إلى اليوم زفرة المغربى . وأقام أبو عبد الله في
 ضيعته الجديدة مدة قصيرة ، ثم عبر البحر إلى المغرب ، ونزل بفاس واتخذها مقراً
 حتى مات . وهكذا زال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم
 وجلا آخر عربى تحت تأثير اضطهاد الإسبانين الذين لم يفوا بعهودهم وأقفر
 الفردوس المفقود .

وصارَ ما كانَ مِن مُلْكٍ وَمِن مَلِكٍ كما حَكَى عن خيال الطَّيْفِ وَسَنانُ

السمات المميزة لهذه الأدوار (١) :

تتسم مختلف هذه العصور بسمات خاصة : فالدور الأموى الذى يشمل عهد
 الولاة وعهد الإمارة وعهد الخلافة كان دور السيادة العربية . فيه نزع إلى
 الجزيرة الإسبانية أكثر من جاء إليها من العرب ولا سيما أهل الشام وتفرقوا في المدن
 الأندلسية . وقد نشط العمران في هذا الدور وتوضّحت في آخره أسس النهضة
 الأدبية والغنائية .

(١) باختصار عن الدكتور جبرائيل جبور ، من مقال له في مجلة الأبحاث عن الأدب

أما الدور الثاني دور طوائف الملوك فقد تميز بازدهار الحركة الأدبية وكثرة الشعراء والشاعرات وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت طلائعه في مطلع هذا الدور .

واتسم دور المرابطين بالتعصب الديني وبتسلط البرابرة وضعف الحركة الأدبية وظهور الزجل ، هذا الشعر العامي الشعبي الذي لاقى رواجاً كبيراً في هذا العهد وكاد ينافس الشعر التقليدي .

وتميز دور الموحدين بالحماسة الدينية ، ولكنها لم تقيد الفلاسفة فنمت الحركة الفلسفية نمواً دعا إليه التأمل الديني من ناحية والتفكير الفلسفي الحر من ناحية أخرى .

أما دور بني الأحمر والحلاء فقد عُرف بحياة الرخاء وحياة القلق ، رخاء داخلي وقلق يبيته في النفوس عدو متربص شَعَرَ بضعف الفاتحين واستسلامهم فأخذ ينزل بهم النكبة تلوَ النكبة ، وفي هذه الغمرة رأيت النفوس الحساسة تنشر شعر الأنين حيناً وتجأر بشعر الاستنجد والصريخ حيناً آخر . وقد نضجت في هذا الدور تلك الفنون الأدبية التي استحدثت في الأندلس من موشحات وأزجال وساعدت أوزانها وتقاسيمها على أن تجد في اللحن والغناء طريق ذيوعتها وانتشارها بين الناس بعد أن وجد لها الغناء نفسه طريق نشأتها وسبيل بزوغها^(١) .

وقد شهد هذا الدور أعظم محنة نزلت بالعرب على أيدي ملوك الإفرنج وزعمائهم الدينيين ، وتجلت في ألوان من الاضطهاد الديني والقسوة والتعذيب الذي لم ينته إلا بعد أن تمّ الجلاء الأخير سنة ١٦٠٩ م . وكانت دواوين التفتيش التي أنشأها الإفرنج لمحو كل أثر للإسلام والعرب ، لطخة عار في تاريخ المدينة . وقد أُحرقت تحت تأثير هذه الحملة التعصبية الكتب العربية الكثيرة وأبيدت روائع الفكر الإسلامي وأتلفت آثار العبقريات ، ولولا أن هذه العبقريات العربية كانت أقوى من يد

(١) يرى الدكتور جبرائيل جبور أن اتصال هذه الفنون الجديدة بحياة العامة من سكان الجزيرة الأصليين كان عاملاً على ظهور فن شعري غنائى عند التروبادور Troubadours وليس لدينا ما ينفي هذا القول إلا أنه من الممكن أن يكون التروبادور أنفسهم قد أثروا في نشأة بعض هذه الفنون الشعرية الأندلسية وأثر فيها أيضاً أدب اللغة الرومانية roman نفسها وقد كان معروفاً على حدود الدولة الإسلامية القائمة في إسبانيا .

الإنسان الغاشم لما كنت ترى اليوم ما يشهد على ما شاده الفكر العربي في بلاد الأندلس من مجد وما مدّ به الحضارة الأوربية والإنسانية من روح أصيل . كل ذلك قد جرى مقابل اللين والتساهل اللذين أبداهما الفاتحون العرب للنصارى واليهود في الأندلس والتشجيع الذى أغدقوه لنقل العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية في جميع الأمصار التى فتحها العرب .

* * *

وقد شهدت بلاد الأندلس طوال هذه الأدوار مختلف المعارك وضروب المحن واللهو والاضطهاد والتساهل ، وجرى فيها كثير من الاختلاط بين الأجناس والأقوام ، فالعرب الذين تحدّروا إلى الأندلس ، جاءوها بطوائفهم الكثيرة وقبائلهم المختلفة ومواليهم الذين ينتمون إلى شتى الجنسيات فى الشرق ، والبربر إنما نزلوا بها مع الفاتحين ، وامتزجوا جميعاً بسكان الجزيرة الأندلسية وما يجاورها من قوط وإسبان وصقالبة وغيرهم من شعوب الفرنجة . ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة مولّدة ، لم تتصف بها الأقطار الأخرى التى دخلها العرب فى فتوحاتهم . وسنرى تفصيل هذه العناصر التى كوّنت شخصية الأندلسى .

الفصل الخامس

عناصر الشعب الأندلسي

لدراسة عناصر الشعب الأندلسي^(١) يجب أن نبدأ بعهد الفتح الذي يبرر الهجرات الأولى التي هي في نظرنا أهم الهجرات ، ثم نستعرض الحوادث السياسية التي كانت سبباً ، في التالي ، لدفعات شعبية نحو الجزيرة من أصل شرقي أو إفريقي . وهذه الدفعات العربية والبربرية لا يمكن تفريقها ، فالحوادث التي سببتها مختلطة في تشعبات تاريخ مبدأ الإسلام في إسبانيا .

ومما لا شك فيه أن إسبانيا قد فتحت في بادئ الأمر بعون البربر ، بل لعل الحملة الأولى كانت مؤلفة من برابرة فقط كما ذكرنا وكما يؤكد المستشرق ليفي بروفنسال ، ولم يدخل العنصر العربي الجزيرة الإسبانية إلا عند ما قدم إليها موسى ابن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية .

ويظهر لنا أنه بعد أن تم الفتح وعاد طارق وموسى إلى الشرق ، بقي الجنود الفاتحون ، خلال السنين الأولى ، في الجزيرة لا يغادرونها ، فأقاموا في هذه البلاد الجديدة وتزوج أكثرهم بنساء الشعب المغلوب وأسسوا أسراً ..

ولكن هذه النواة البربرية العربية العسكرية قد تبعها ، خلال القرن الثامن الميلادي ، دفعات أخرى هامة إفريقية وشرقية ، ويظهر أن الولاة الذين كانت تعينهم دمشق لم يجذبوا بادئ الأمر إسكان الجزيرة بالعرب ، ويتراءى من إشارات المؤرخين أن بربر المغرب قد قدموا الجزيرة مدفوعين بخيراتها . ولكنهم منذ البدء لم يلاقوا استقبالا حسناً ، وهكذا أخذ المغاربة البرابرة يتدفقون نحو الجزيرة ويكوّنون الأكثرية الإسلامية فيها ، واستطاعوا بهذه الكثرة أن يقاوموا العرب ويقوموا بفتن عديدة ، وكانت كل ثورة يقوم بها البرابرة في المغرب تجد صداها في بلاد الأندلس ، وما إرسال جنود بلاد الشاميين إلى بلاد المغرب ومنها إلى الأندلس إلا

(١) انظر : Lévi-Provençal, Ibid., P. 8 - 40

لقمع هذه الثورات ، وقد استطاع هؤلاء الجنود الشاميون سحق البرابرة إلا أن خطرهم كان جاثماً .

إن قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الجزيرة قد سبّب تدفقاً جديداً للعرب نحوها . وقد استدعى إليها عدداً كبيراً من المغاربة المسلمين ، بينهم عدد من البربر لتقوية جنده ، ويشير المقرئ إلى أن عبد الرحمن الداخل قد اعتمد على البرابرة في مبدأ حكمه ليقاوم العناصر العربية المناوئة ولكن هذا لم يمنع البرابرة أيضاً من القيام بحركات عصيان . ومهما يكن من أمر فإن اضطراب هذه العناصر البربرية والعربية لم يهدأ إلا عند ما استطاع عبد الرحمن الثالث إخضاعهم إلى الطريق السويّ فأذعنوا عندئذ لهيبة الملك وخضعوا للسلطان الذي شاده . وهكذا نلاحظ أن مجرى الهجرة نحو إسبانيا كان تابعاً للحوادث السياسية لا سيما في العهدين الأولين : عهد الولاة وعهد الإمارة ، وكانت الصبغة البربرية هي الطاغية إلى أن جاء عهد الخلافة .

* * *

يُميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التي جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى ، عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولّدين . فاسم المسالمة يطلق على الإشبانيين الذين اعتنقوا الإسلام واسم المولّدين على نسلهم . أما الإشبانيون الذين احتفظوا بدينهم فيسمون بالعجم أي الأعراب أو الأجانب . وكان المولّدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية . لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب ، بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم في الازدياد منذ حكم عبد الرحمن الثاني إذ قد اعتنق في عهده كثير من الإشبانيين الذين اعتنقوا الإسلام ، وكان بينهم من دخل في خدمة العرب المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الإسباني ، ومن هذه الأسر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام من كانت غنية وقوية لا سيما في إشبيلية التي وجد فيها الإسلام أنصاراً منذ ظهوره في الجزيرة ، ولا شك أن الصلات أصبحت وثيقة بين العرب والمولّدين

على أثر الإختلاط والزواج ، ولم يبق بين أكثر العرب من لا يجرى في عروقه دم إسباني . وهذا الإختلاط قد كثر زمن الخلافة الأموية ولا سيما في المدن .

هذا وقد قلّ شأن الدور السياسي والاجتماعي الذي لعبته الأسر العربية الكبيرة في مبدأ الإحتلال ، وأخذت هذه الأسر تخضع للنظام الأموي الذي عمّ الجزيرة منذ نهاية القرن التاسع الميلادي .

وعند ما حلّ عهد ملوك الطوائف كنت ترى من كان أصله بربرياً ومن كان أصله عربياً ، إلا أن الصفة الأندلسية هي التي كانت تربط العرب بعضهم ببعض ، فهم أندلسيون قبل كل شيء ، ولهذا يجب ألا نتحدث إلا عن طائفة أندلسية وأخرى بربرية وثالثة صقلبية نسبة إلى الصقلبة ، أما الطائفة العربية فهي بالأحرى تلك التي نسميها أندلسية .

وكان من عادة مؤلفي التراجم عند ما يذكرون ترجمة رجل عربي أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجلد الأول الذي جاء إلى الأندلس ، فيسلسلون نسبه عادةً إلى أن يصلوا إلى عهد موسى بن نصير أو يجعلونه منحدرًا من أحد الأشخاص الذين جاءوا مع حملة بلج ، ومن النادر ألا يكون هذا الجلد الأول من رجال ما يسمونه (الطالعة الأولى) أو البلديين أي من رجال حملة الفتح ، أو من رجال (الطالعة الثانية) أي جند بلج أو الشاميين . وقد حافظ عرب إسبانيا على تقسيمهم القبلي حتى جاء المنصور بن أبي عامر ، ويشير المقرئ إلى ذلك فيقول : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر الداھية الذي ملك سلطنة الأندلس »^(١) وقد رأينا أن المهاجرين الأولين قد نقلوا معهم نزاعهم القبلي : بين قيسيين ويمنانيين ، وعند ما هدأ هذا التنافس ، مع الزمن ، لم يُسمح مع ذلك هذا التقسيم العنصري الذي كان أساساً لكتاب الأنساب الذي ألفه ابن حزم ، وظهر أيضاً في رسالة ابن غالب « فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ^(٢) والتي تقدم لنا معلومات قيمة عن أنساب

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٩ - العمائر : ج عميرة وهي الحى العظيم .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٨ .

العرب وقبائلهم التي قطنت الأندلس في عهد الدولة الأموية .
ولكن رسالة ابن غالب لم تشر ، أثناء تعدادها لقبائل العرب وتوزيعهم في
مختلف الأقاليم الأندلسية ، إلى ذكر جند بلج ، هذه الطبقة الشامية الخاصة التي
سكنت الأندلس منذ سنة ١٢٥ هـ ، وتوزعت في الأقاليم الجنوبية ، والتي
نقلت إلى الأندلس التقاليد العسكرية السائدة في الشام . وكان هؤلاء الجند يعيشون
من إقطاعات منحها لهم حكومة قرطبة ، ولهذا كانوا على استعداد لإجابة رغباتها
والدفاع عنها كجندها الخاص ، وقد أقاموا في المدن واستخدموا عمالاً يستثمرون لهم
إقطاعاتهم التي كانوا يعيشون من وارداتها لأنهم لم يعتادوا حياة الزراعة .

وكذلك نزلت هذه النزعة أسراً عربية أخرى تنحدر من رجال (الطالعة
الأولى) أو البلديين ، فكانوا يفضلون سكنى المدينة ، ورأينا معظم الأسر العربية
الأرستقراطية تقطن مدن الأندلس الجنوبية ، بينما تُترك إلى طبقة المولدين استثمار
الأرض ضمن شروط حرة أو مقيدة .
وقد جذبت العاصمة قرطبة خلال القرن العاشر الميلادي كثيراً من الأسر
العريقة لما فيها من مباحج الحياة المدنية .

ولم يكن الأمر كذلك فيما يخص العنصر البربري . فقد فضلت أقلية ضئيلة
سكنى المدن . هذا ولا نملك مصادر كثيرة تتعلق بسكنى العناصر البربرية القادمة
من إفريقية ، وليس لدينا إلا صفحة من كتاب ابن حزم وبعض الإرشادات
الموزعة في تاريخ ابن خلدون . ويجب أن نلاحظ أنه إذا كانت العناصر العربية
قد تركزت منذ القرن التاسع للميلاد في بلاد الأندلس ولم يأتها بعد ذلك إلا دفعات
ضئيلة فإن الهجرة البربرية إلى الأندلس قد امتدت حتى عصر الموحدين . فالسياسة
الإفريقية التي كان يتبعها الخليفة عبد الرحمن الناصر والخليفة الحَكَم الثاني والمنصور
من بعدهما كانت تساعد هذه الهجرة وتجذبها ، إذ أن خطر الفاطميين جعل
هؤلاء الخلفاء ينتهون إلى تقوية مركزهم بالاعتماد على العناصر البربرية ، ولقد رغبوا
فيها لتقف في وجه الأرستقراطية العربية من ناحية وفي وجه الأرستقراطية الصقلية
من ناحية أخرى .

نعم لقد جددت هذه الهجرة البربرية التي كثرت خلال آخر القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر ، أقول لقد جددت عناصر الشعب الإسلامي ، إلا أنها أدت إلى كثير من الفوضى والاضطراب وقادت الخلافة إلى الانهيار كما رأينا .

هذا ويشير المؤرخون العرب ولا سيما ابن العذارى إلى أن أكثر المستعمرات البربرية كانت قائمة في الجبال ولا سيما في الجبال الجنوبية كفحص البلوط وجبال كرمونا وغيرها وفي المرتفعات الغربية أيضاً .

وقد كانت قرطبة تضم بين سكانها عدداً من البرابرة ، ولكن أكثرهم كانوا موالى للأمرء الأمويين منذ سنين عديدة ، حتى إنهم قد نسوا ، بتأثير اتصالهم الطويل بالحياة المدنية ، كل علاقة تربطهم بأصلهم الإفريقي الجبلي .

ولم يكن الناصر أول خليفة قلّد بعض البرابرة القاطنين قرطبة مناصب القيادة العسكرية والإدارة والقضاء ، بل رأينا عدداً منهم قد وصل إلى أمثال هذه المناصب العالية في عهود أخرى تلت عهد الناصر . وهؤلاء البرابرة الذين تمصّروا هم الذين يشير إليهم ابن حزم في الصفحة المخصصة لهم في كتابه الأنساب ، ويؤكد لنا أصل الشاعر ابن درّاج القسطلي ويقول إنه بربري ، وابن دراج هذا مع ابن صاعد البغدادي يمثلان البيئة الأدبية في قرطبة أثناء عهد الخلافة أصدق تمثيل .

الصقالبة :

وهناك طبقة اجتماعية أخرى أخذت تلعب دوراً هاماً في حياة الأندلس السياسية والاجتماعية ، ولا سيما في قرطبة ، هم أولئك الموالى المنحدرون من أصل أجنبي ، الذين كان يسميهم العرب الصقالبة . وهذه التسمية التي كانت تدل على الشعوب التي كانت تقطن الأراضى الممتدة بين الآستانة وبلاد المجر بدأت تأخذ معنى خاصاً في إسبانيا . ويظهر أنها كانت تشمل في الأندلس الأسرى الذين كانت تأسرهم الجيوش الجرمانية ثم تأتي بهم فتبيعهم إلى مسلمي إسبانيا . ولكن في عصر ابن حوقل ، أي حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي ، كان يُقصد بهذه التسمية

جميع العبيد الأجانب الأوربيين الذين دخلوا في عداد جنود الخليفة ، أو أنهم قبلوا للقيام بخدمات في البلاط . ويؤكد (ابن حوقل) قائلاً إنه عند ما جال في إسبانيا ، زمن السحك الثاني ، كان أكثر الصقالبة الذين شاهدتهم هناك لا ينحدرون فقط من شواطئ البحر الأسود بل هم أيضاً من المقاطعات الإسبانية الشمالية كمقاطعات جليقية Galice وكاتالون Catalogne أي (بلاد الإفرنج) ، ولومبارديا في إيطاليا .

وفي الواقع ، فقد كان أكثرهم أسرى جلابهم رجالٌ من القرصان المغاربة أو الأندلسيين أثناء غاراتهم على الشواطئ الأوربية للبحر الأبيض المتوسط ، أما من كان مُعداً لحراسة الحرم في البلاط ، فكان يشتريهم من فرنسا تجار مختصون من اليهود ، وكان لهم في فيردان Verdun سوق خاصة بهم^(١) . وكانوا على الأغلب صغار السن عند مجيئهم إلى الأندلس ، ولكن سرعان ما يتعلمون العربية واللغة الرومانية Roman ويصبحون مسلمين .

وقد أخذ عددهم في الازدياد وبلغوا كما يقول المقرئ في عهد عبد الرحمن الثالث (٣٧٥٠) صقليين ثم ازدادوا إلى (٦٠٨٦) وارتفع هذا العدد حتى بلغ (١٣٧٥٠) واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً في الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضي وأصبح غنياً . وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين ، وإذا صدقنا ابن الأبار والمقرئ علمنا أن أحدهم ويدعى حبيباً الصقلبي قد ألف كتاباً يعدد فيه مناقبهم بعنوان « كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة » .

وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدأوا في عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية في الدولة حتى إنهم قد قلّدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرستقراطية العربية ويحاربها . وهكذا لم يتردد الخليفة الناصر في أن يعهد

(١) هذه السوق يسميها دوزي « مصانع الخصيان Manufactures d'enuques »

إلى الصقلبي نجدة بقيادة حملة وجهها ضد ملك مقاطعة جليقية الإسباني على الرغم مما أبدته حاشيته من استياء . وقد أظهر خليفةُ الناصر ، الحَكَمُ الثاني ، كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه ، ولا سيما بعد أن أخذوا يمعنون في التكثير والوقاحة ، وعند ما توفي الحَكَمُ الثاني كان الصقالبة أسياد الموقف . ويشير ابن العذارى في (البيان المغرب) إلى أن عدد الحصيان في قصر الخليفة الحَكَمُ الثاني قد زاد على الألف . وكان حرس مدينة قرطبة بقيادة صقلبيين هما فائق النظامي وجوذر .

ومجمل القول أن الدور الذي لعبه الصقالبة أثناء ضعف الخلافة الأموية كان سيئاً يشبه الدور الذي لعبه البرابرة ، إذ اشتركوا في جميع المؤامرات التي كانت تحاك في قرطبة ضد الكيان الأموي في نهاية القرن العاشر الميلادي .

* * *

يضاف إلى هذه العناصر الشعبية عددٌ كبير من الإسبانين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ومن بينهم المسيحيون واليهود . والمصادر العربية التي لدينا عن هاتين الطبقتين قليلة ، بل هي أقل مما نملكه من المصادر عن العناصر الأخرى التي ذكرناها ، ولكن هناك مصادر لاتينية ومصادر عبرانية قد كشفت النقاب عن كثير من الأمور المتعلقة بحياة هاتين الطبقتين (١) .

وقد بدأ ، منذ خمسين سنة ، اهتمام المؤرخين بالعناصر المسيحية التي كانت تقطن الأندلس ، وأخذ يسند إليها دور هام لعبته في الحياة الاجتماعية الأموية . ولكن بعض هذه الأبحاث التي كتبت في هذا الصدد لا تخلو من التحزب ولا سيما عند ما يولون هذه العناصر مكانة تفوق مكانتها والدور الذي لعبته .

(١) هناك مصدر لاتيني هام للمؤلف Simonet عن تاريخ مسيحي الأندلس ، ويسميه المؤلف باسم الـ Mozarabes هو : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid 1903. أما المصدر العبراني فهو للمؤلف Groetz ترجمة Stenne وعنوانه : Les Juifs d'Espagne, Paris 1872.

وقد أصبح هذا المرجع اليوم قديماً في نظر المؤرخين .

ومهما يكن من أمر فإن عدد الذميين كان كبيراً وكانوا على جانب من الانتظام أكثر مما كانوا عليه في أية بقعة إسلامية أخرى . وقد جرى بينهم وبين الفاتحين من الاختلاط والتأثير المتبادل الطويل ما لم يجر مثله في أى صقع إسلامي آخر . وقد أظهر الإسلام تجاههم كثيراً من التساهل على خلاف ما عاملوا به العرب الفاتحين عندما زال سلطان الإسلام من تلك البلاد .

هذا وقد كانت هذه العناصر المسيحية مراكز للمقاومة الوطنية التي تحاك ضد الفاتحين ، ولئن كان المسلمون قد أحمدوا حركاتهم الثورية بشيء من القسوة أحياناً إلا أن الدافع إلى هذه القسوة كان سياسياً لا دينياً .

وكذلك فقد كان العنصر اليهودي كبيراً في الدولة الأموية ، وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن القوط كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ولهذا فقد قدموا للعرب المساعدة ، وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة . وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولا سيما في عهد الناصر ، أما في عهد المرابطين والموحدين فقد نالهم العذاب .

* * *

هذا الاستعراض لمختلف العناصر الجنسية التي تألفت منها الدولة الأموية يبين لنا كيف كانت هذه الدولة مزيجاً متبايناً من عناصر تختلف في العرق وفي الدين وفي الأهواء والغايات . وقد أدى هذا المزيج إلى أن تتصف الدولة بصفة خاصة تميزها عن باقي الدول الإسلامية . ولهذا كان الشاغل الأول الذي يشغل حكامها وخلفاءها هو أن يحققوا ، ضمن هذا المزيج ، وحدة تستند قبل كل شيء إلى القوة ، وأن يمنحوا دولتهم بناء متيناً يشبه بناء الخلافة الشرقية في أوج مجدها أو بناء الدولة الفارسية أو البيزنطية ، آخذين بعين الاعتبار العناصر المختلفة التي يجب أن تبقى دائماً في خضوع تام للسلطة الحاكمة . وقد استطاع هؤلاء الحكام أن يحققوا الغاية التي يرمون إليها خلال قرن من الزمن يمكن اعتباره عصر الأندلس الذهبي . ولكن

عند ما بدأ يضعف السلطان الأموي وتظهر الرغبات الكامنة في قلوب هذه العناصر المختلفة ، أخذ ذلك البناء الذي شاده عبد الرحمن الثالث بحزمه وقوته يتأرجح شيئاً فشيئاً ، حتى جاءت الفتنة إثر الفتنة ، وكان هذا الاختلاف الجنسي من أعظم الأسباب التي أزلت ملك الإسلام في الأندلس .

* * *

الفصل السادس

شخصية الأندلسي

هل يمكننا أن نتكلم عن مجتمع أندلسي ؟ للإجابة عن هذا السؤال يجب ألا ننسى ما قلناه سابقاً عن العناصر المختلفة التي تؤلف الشعب الأندلسي ، وعلى رغم اختلافها وتعددتها الظاهر فقد تركت في الأندلسي صفات مشتركة استطاعت أن تمنحه شخصيةً خاصةً به ؛ فالطبيعة نفسها فرضت سلطانها في تكوين هذه الشخصية ، والاختلاف العنصري نفسه لعب أيضاً دوره في تكوين هذه الشخصية ، إذ سواء أكان الأندلسي عربياً أم بربرياً ، أم صقلبيّاً ، أم إسبانياً محافظاً على دينه ، كنت تراه يتميز بصفات لا تجدها عند هذه العناصر التي بقيت خارجة عن محيط الأندلس . ولكن هذه الشخصية لم تكن لتستدعي أن تمحو كل الصفات الأخرى التي تميز العربي عن البربري وعن الصقلبي وعن الإسباني ، كما يريد أن يعتقد به المستشرق هنري به رس^(١) . فالشخصية الأندلسية إذاً موجودة ضمن هذا الاختلاف العنصري وبما لا شك فيه أن ظواهر هذا الاختلاف تقل عند ما ننظر إلى الشعب الأندلسي من خلال الطبقات التي يتألف منها ، فالطبقة الأرستقراطية مثلاً أو طبقة الحكام قد تجمعها صفات واحدة على رغم اختلاف العناصر الجنسية التي تتألف منها . وكذلك الطبقات الأخرى المتوسطة أو الدنيا التي تشمل سائر غوغاء السوق . ومن المفيد أن نشير إلى أن لسان الدين بن الخطيب قد نظر إلى الشعب الأندلسي هذه النظرة أي من خلال الطبقات التي يتألف منها ولم يهتم كثيراً بالفوارق العنصرية ، وقد عدّ المستعربين أي الإسبانيين الذين حافظوا على دينهم والذين نسميهم بـ (Mozarabes) عدّهم من

(١) انظر : Henri Pérès, *la poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle*, p. 16 - 20.

طبقة الأشراف . ونجد تقسيمه هذا في كتاب « أعمال الأعلام » عند كلامه على حكم هشام المؤيد^(١) .

بعد هذه الملاحظات يمكننا أن نتكلم على صفات الأندلسي وقد أشار إليها كثير من المؤلفين العرب :

فابن غالب في رسالته « فرحة الأنفس » التي يذكرها المقرئ^(٢) يصف لنا الأندلسي رجلاً مهتماً بلباسه وهندامه وطعامه محباً للهو والغناء والموسيقى ، ونجده أيضاً ، إلى جانب هذه الحياة اللاهية ، حسن التدبير محباً للعلوم والفلسفة والعدالة . نعم إن الذي لا شك فيه أن الأندلسي قد تمتع بصفات تنحدر من باخوس (Bacchus) إله الخمر واللهو كما تنحدر من أبولون (Apollon) إله الفن والشعر ، ولهذا فليس عجباً أن نراه محباً للفن شاعراً ولاهياً عابثاً ثم بعد هذا منصرفاً إلى التفقه في العلوم والتشريع والدين والفلسفة بتأثير الدافع الإسلامي وحب التأمل وفهم أسرار الحياة . وقد عدّ ابن غالب من فضائل الأندلسيين اختراعهم للموشحات التي استحسناها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعتها .

هذا وابن غالب لا يكتفي بذلك بل يحاول أن يجد بين الأندلسيين والشعوب الأخرى بعض المشابهات فيقول : « أهل الأندلس عربٌ في الأنساب والعزة والأنفة وعلو الهمم وفصاحة الألسن وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية ؛ هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكاءهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطيرهم ، يونانيون في استنباطهم للمياه ومعاناتهم لضروب الفراسات واختيارهم لأجناس الفواكه وتدبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين بأنواع الحضر وصنوف الزهر فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة^(٣) » .

(١) نشر المستشرق ليني بروفنسال هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ في مدينة الرباط .

(٢) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ - ٧٦٤ .

(٣) نفح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ .

مما لا شك فيه أن هذه الأقوال التي تصف الأندلسي تميزه بأمور لا نجدها عند عربيّ البادية ، ولا شك في أن للطبيعة الأندلسية أثرها في صقل هذه الشخصية وجعلها تتلاءم مع الأرض والمحيط ، ولكن لا يجب أن نرى فيها ما يحمل على الاعتقاد مع هنري به رس أن الأندلسي شخصية قطعت صلاتها بأصلها وجنسها ، وإنما هي شخصية عرفت التلاؤم مع المحيط بل عرفت أن تعيش فيه . وإذا كنا نراها بعيدة في نمط عيشها عن نمط عيش البدويّ فما ذلك إلا لاختلاف الحياتين . ولكنّ وسائل التعبير بقيت هي هي ، وبقى الأندلسي ينظر إلى عبارة الشرق وأسلوب المشاركة وحياتهم الفكرية نظرة مثالية فيها كثير من الشوق وكثير من العز وكثير من الرغبة في عدم الابتعاد عن تقاليدهم المرسومة كما سنرى .

هذا ونرى ابن حزم يحدو حدو ابن غالب في وصف الأندلسي فيجد فيه من المزايا ما تقربه من شعوب أخرى فيقول : « إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ، تركيبيون في معاناة الحروب ومعالجات آلاتها والنظر في مهماتها »^(١).

وإذا كانت هذه المقارنات توحى إلى نفوسنا ببعض الفكر الصحيحة عن صفات الأندلسي فإنها لا تصل إلى تعريفه تعريفاً صادقاً . ونشعر حقاً أن اللعب بالألفاظ قد يطول ، إذ أنها تستند إلى ضروب البيان والبلاغة والمدح أكثر من استنادها إلى علم الاجتماع . والأدب العربي حافل بأنواع هذه المشابهات وهذه الأوصاف التي لا يتردد الأدباء في منحها لفريق دون فريق ، وقبيلة دون أخرى أو شخص مفضل دون آخر .

هذا وقد وصف المقرئ أيضاً أهل الأندلس بصفات خاصة وامتدح ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلمائهم

(١) نفتح الطيب . ج ٢ ص ٧٦٣ . في الصفحات التالية من نفتح الطيب نجد نص رسالة لابن حزم كتبها رداً على أبي الحسن بن محمد بن الريب التميمي القيرواني الذي ذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم وسير ملوكهم فأجابه ابن حزم داحضاً مزاعمه ومشيراً إلى من ألف في تخليد أخبار علماء الأندلس وما أثرهم في رسالة قيمة تذكر لنا أسماء طائفة من العلماء مع مؤلفاتهم وتطلعنا على مظهر من مظاهر الحركة العلمية والأدبية في ذلك العصر .

وكبرائهم . لامراء في أنه من العبث أن نحاول في كلمات محدودة تعريف الأندلسي المسلم ، ولكن جميع الصفات التي وردت في الأقوال السابقة لا يمكن إهمالها عند ما نرغب في تعريفه ، وهي تثبت أن الأندلسي ، في نظر المؤلفين العرب ، لم يكن عربياً صرفاً ؛ إنه عربي وشيء آخر اكتسبه من الحياة الجديدة التي عاشها ولذلك يحاول هؤلاء المؤلفون أن يجدوا بينه وبين الشعوب الأخرى بعض الصفات التي تقربه منهم ، فالاختلاط والحياة الجديدة والأصل العربي ، بل الحياة العربية التي تملأ مخيلته هي عناصر ثلاثة كوَّنت الأندلسي المسلم في الجزيرة الإسبانية . نعم إنه أندلسي ولكن عند قراءة آثاره ولا سيما شعره لا نستطيع أن ننكر أصله العربي وصفته الشرقية ، فقد بقي هذا الأندلسي شرقياً في تفكيره شرقياً في أسلوب تعبيره إلى جانب بعض المميزات التي لا يمكن الفرار منها والتي هي ناجمة عن اختلاف المحيط الجغرافي والإنساني . لهذا نحن لا نستطيع أن نقول مع هنري به رس إن الأندلسي المسلم هو امتداد عنصري للشعوب الأصلية التي سكنت الجزيرة الإسبانية، إن مثل هذا الحكم الجازم لا نستطيع أن نوافق المستشرق عليه ، ولا نستطيع الآثار نفسها أن توافقه على ما زعم . بقي علينا أن نعلم ما إذا كان هذا الأدب هو ظل للأدب الشرقي ، وهذا ما سنراه في الفصول المقبلة ، وسنرى أنه ظل لشرق وحقيقة لأندلس .

الفصل السابع

سمات العصر الأندلسي في السياسة والاجتماع والفكر

يتصف العصر الأندلسي بصفتين متناقضتين هما : التعصب والاستبداد من ناحية ، والتساهل والحرية من ناحية أخرى .

أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة وقوة واحدة في مختلف الأدوار التي مر بها هذا العصر . ولقد كان لوجود المسلمين في بقعة تتاخمها النصرانية ويناصبهم أهلها العداة أثر كبير في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم ، وقد ساعد الفقهاء في دعم هذا الشعور وتقويته لما لهم من نفوذ ديني .

ولكن هذا التعصب الذي كان خيراً في سبيل دعم القوة الإسلامية ضد أعدائها ، كان في الوقت ذاته شراً على الحرية الفكرية عند المسلمين أنفسهم . وذلك أن الفقهاء ، حرصاً منهم على سيادتهم ، كانوا يثيرون العامة في كثير من الأوقات على المفكرين والفلاسفة ومنّ نظروا في أمور الدين والشرع والسنة ، ولا يحجمون عن أن يطلبوا من الخلفاء أنفسهم أن يمعنوا في التضييق على رجال الفكر . ولهذا كنت ترى عامة الشعب ، تحت تأثير دعوة الفقهاء ، ساخطين على الفلاسفة الذين كان ينظر إليهم أحياناً كزنادقة وملحدين . وكان من الطبيعي أن تروج الدسائس والسعايات في مثل هذا الجو ، وأن يلقى المفكرون العنت والشر فيعمد الخلفاء أحياناً في سبيل التودد إلى الفقهاء والعامة إلى حرق كتبهم واضطهادهم . فقد نكسب ابن رشد وأصحابه ونفي ابن هاني عن الأندلس ، وامتدت النقمة إلى الوزراء والقضاة فناههم السجن والاضطهاد كابن زيدون وابن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

ولئن كانت الصفة الغالبة هي التعصب فقد كانت تمر فترات يأتي فيها ملوك عادلون ينتصرون لحرية الفكر دون أن يثيروا الفقهاء كما كان الشأن زمن الموحدين حيث انتعشت الفلسفة وقلت الوشايات ذات الصبغة الدينية .

إلى جانب هذا التعصب الديني الذي كان يكفم الأفواه ، كنت ترى حياة الدعة والتساهل منتشرة ، فقد كانت الحياة الخاصة متعة متصلة الحلقات ، وهنا تبدو الحرية ما دامت لا تتصل بأمر السياسة والدين والحكم ولا تتصدى للمصالح الذاتية ، ولهذا كنت ترى الأندلسى يتهتك دون وازع ، وقد انغمس الشعراء والكتاب في حمأة الدعارة ونظقت ألسنتهم بأفحش الأقوال ، وامتدت هذه الحرية إلى الملوك فرأيتهم يرخون العنان للهوهم وطربهم واللهو الناس وطربهم ، ما دام هذا اللهو وهذا الطرب لا يمسان الدين الذي له حرمة في النفوس . فانتشرت الخلاعة وعمت مجالس اللهو وساءت الأخلاق وكان ضرر هذا التسامح أبلغ أثراً من ضرر التعصب ، إذ قد أفسد النفوس فاستسلمت للراحة والدعة وهان عليها أن تقبل الصدمات والذل ولا تثور لكرامتها فبقيت خانعة باكية معولة تحن إلى مجد آفل وعز سليب .

ومن أمثلة هذه المجالس اللاهية ما يرويه لنا ابن خاقان في المطمح عن مجلس مُزج فيه الجلد بالهزل قد أقامه الوزير أبو عامر بن شُهَيْد^(١) في ليلة سبع وعشرين من رمضان في هذه الليلة المباركة التي يجب أن ينقطع فيها الإنسان إلى التهجّد والعبادة :

قال الفتح بن خاقان : « وأخبرني الوزير أبو الحسين بن سراج وهو بمنزل الوزير أبي عامر بن شُهَيْد ، وكان من البلاغة في مدى غاية البيان ، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان ، وكنا نحضر مجلس شرابه ، ولا نغيب عن بابه ، وكان له بباب الصومعة من الجامع موضع لا يفارقه أكثر نهاره ، ولا يخليه عن نثر درره وأزهاره ، فقعد فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لُمة من إخوانه ، وأئمة سلوانه ، وقد حَفَّوْا به ليقطفوا نخب أدبه ، وهو يخلط لهم الجدد بهزل ، ولا يفرط من انبساط مشتهر ولا انقباض جزل ، إذا تجارية من أعيان أهل قرطبة معها من جواربها ، مَنْ يسترها ويواربها ، وهي ترتاد موضعاً لمناجاة ربها وتبتغي منزلاً لاستغفار ذنبها ، وهي متنقبة ، خائفة وممن يرقبها مترقبة ، وأمامها طفل لها كأنه

(١) من شعراء الدولة العامرية ، ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ .

غصن آس ، أو ظبي يمرح في كناس ، فلما وقعت عينها على أبي عامر ولتت
سريعة ، وتولت مرؤعة ، خيفة أن يشببها ، أو يشهرها باسمها ، فلما نظرها ،
قال قولاً فضحها به وشهرها :

وَنَاطِرَةٌ تَحْتَ طَىِّ الْقِنَاعِ دَعَاهَا إِلَى اللَّهِ لِلخَيْرِ دَاعٍ
سَعَتْ خَفِيَّةً تَبْتَغِي مَنْزِلًا لِيَوْضِلِ التَّبْتُلِ وَالْإِنْقِطَاعِ
وَجَالَتْ بِمَوْضِعِنَا جَوْلَةً فَحَلَّ الرَّبِيعُ بِتِلْكَ الْبِقَاعِ
أَتْنَا تَبَخَّرُ فِي مَشِيهَا فَحَلَّتْ بَوَادٍ كَثِيرِ السَّبَاعِ
وَرِيْعَتْ حَذَارًا عَلَى طِفْلِهَا فَنَادَيْتُ يَا هَذِهِ لَا تُرَاعِي
غَزَالِكِ تَفَرِّقُ مِنْهُ اللَّيْوْثُ وَتَنْصَاعُ مِنْهُ كُمَاةُ الْمَصَاعِ
فَوَلَّتْ وَلِلْمِسْكِ مِنْ ذَيْلِهَا عَلَى الْأَرْضِ خَطٌّ كَظْهِرِ الشُّجَاعِ^١

وهذا أبو القاسم بن العطار أحدُ أدباء إشبيلية ونُحاتها ، كان رجلاً مستسلماً
إلى الصبابة ، كما يقول الفتح بن خاقان في قلائده ، لا يحفل بلام ولا ينتقل عن
المدام فلنسمعه يتغزل بهذه الأبيات الرقيقة :

هَبَّ النَّسِيمُ مَعَ الْعَشِيِّ فَشَاقَنِي إِذْ كَانَ مِنْ جِهَةِ الْحَبِيبِ هَبُّوبُهُ
قَدْ كُنْتُ وَدَّعْتُ الصَّبَا بَوْدَاعِهِ وَأَخُو الصَّبَابَةِ لَا تَفِيْقُ نُدُوبُهُ
فَدَاعَا الْهَوَى لِي دَعْوَةً لَمْ أَغْصِبْهَا وَالصَّبُّ رَاحَةٌ قَلْبِهِ تَعْذِيبُهُ
لَوْ لَمْ أُجِبْ دَاعِيَ الْهَوَى وَعَاصَيْتُهُ لَخَدَّتْ جُفُونِي بِالْدمُوعِ تُجِيبُهُ

ومن مظاهر هذه الحياة اللاهية أيضاً علاقة الشعراء وغير الشعراء بالمسيحيين والمسيحيات من سكان الأندلس ، وعندما يحدثنا الشعراء عن هذه العلاقات ، لا يكتفون بتصوير الجانب اللاهية من الحياة الأندلسية وإنما يقدمون لنا معلومات ذات قيمة عن حياة هؤلاء المستعربين Mozarabes وعن لباسهم وأزيائهم ، وعن الحرية التي كانوا يتمتعون بها في قيامهم بشعائرهم الدينية وعن اختلاط المسلمين الأندلسيين بهم اختلاطاً كبيراً ، فقد ذكر ابن خاقان في المطمح (١) « أن أبا عامر بن شهيد قد بات ليلةً بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستثناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه وبرق الحميّا يسرح لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح ، متوشحاً بالزنانير أبداع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل أطراح :

لا يعمدون إلى ماءً بانيةٍ إلا اغترافاً من الغدران بالراح

وأقام بينهم يرشف حمياً ، كأنما يرشف من شفةً لمياً ؛ وهي تنفح له بأطيب عرف ، كلما رشف أعذب رشف ، ثم ارتجل بعدما ارتحل ، فقال :

ولرب حانٍ قد شملتُ بديره	خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
في فتية جعلوا السرور شعارهم	متصاغرین تخشعاً لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا	يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر	كالخشف خفره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم	أسلافهم والأكل من خنزيره

هذه الأبيات الصريحة التي لا يستبعد أن تكون صراحتها مقصودة تشير إلى أكثر مما أشار إليه المستشرقون عندما ذكروها في مؤلفاتهم . ورسالة ابن عبدون^(١) تثبت لنا أن هناك امتزاجاً شديداً بين الأندلسيين والمسيحيين المستعربين مما يؤيد أن الصورة التي يقدمها أبو عامر بن شهيد في الأبيات السابقة ليست على صراحتها كثيرة المبالغة .

هذا عدا مشاهد الحب التي كان يصورها الشعراء والتي كانت ترسم لنا علاقات الأندلسيين بالمسيحيات والمستعربات ، وهي علاقات ما كانت لتقتصر على الطبقات العليا بل نجدتها في مختلف طبقات الشعب الأندلسي ولا سيما الطبقات الوسطى والدنيا . فالشاعر الرمادي^(٢) يشير إلى نوع من العلاقات الماجنة بشيء من الصراحة أحياناً ، فيقول مخاطباً الساقى النصراني :

أَدْرِهَا مِثْلَ رِيْقِكَ ثَمَّ صَلَّبُ كَعَادَتِكُمْ عَلَيَّ وَهَمِي وَكَاسِي
فَقَضَى مَا أَمَرْتُ بِهِ اجْتِلَاباً لمسرورى وزادُ خُنُوعَ رَاسِي^٣

ويقول في مكان آخر :

قَبَلْتَهُ قَدَّامَ قِسِّيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتٍ بِتَقْدِيْسِهِ
يَقْرَعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِنْ فَرَطِ شَوْقِي قَرَعَ نَاقُوسَهُ^٤

* * *

وإذا كان الشعراء قد تعيروا في حُبهم وذكر علاقاتهم بالأوساط المسيحية

(١) تبحث هذه الرسالة عن الحياة المدنية والمهن في إشبيلية في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي ، نشرها المستشرق ليفي بروفنسال سنة ١٩٣٤ في الجريدة الآسيوية (عدد : نيسان - حزيران) .

(٢) هو أبو عمر يوسف بن هارون المعروف بالرمادي ، شاعر قرطبي مجيد ، سريع القول ، عاصر المتنبى ، توفي سنة ٤٠٣ هـ .

(٣) المطمح ص ٨٠ . نفع الطيب ج ٥ ص ١٨٠ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) .

(٤) المطمح ص ٨٣ .

فهناك آخرون قد أظهروا لنا وجهاً عفيفاً محبباً لهذا الاختلاط ، كما فعل أبو عبد الله بن الحداد (١) أحد شعراء بلاط المرية زمن المعتصم بن صمادح ، وإذا ما تلونا أشعاره التي نجدها في الذخيرة والتي تصور لنا حبه لأولئك النصرانيات كحبه لنُوَيْرَة ، أقول إذا تلونا هذه الأشعار شعرنا بنفحة عذرية بدا مثلها فيما بعد على أشعار التروبادور . وأشعار ابن الحداد لها فائدة أخرى فهي تمنحنا صورة واضحة عن طريقة إحياء المسيحيين والمسيحيات لشعائرهم الدينية كما كانت معروفة عندهم .

ولعلنا ، ونحن نرغب أن نعرض وجهاً من وجوه حياة الأندلس اللاهية التي امتاز بها العصر ، قد استطعنا أن نبين لكم مدى الاختلاط الذي نشأ بين الأندلسيين المسلمين والإسبانيات اللواتي حافظن على دينهن ، ولا شك أن الأثر الذي تركه هذا الاختلاط في الشعر والأدب لا يمكن نكرانه .

* * *

والآن يجدر بنا ، كخاتمة لهذا الباب ، أن نلم بوصف مجمل لإدارة المجتمع الأندلسي والحياة العقلية فيه .

إدارة المجتمع الأندلسي :

من الكتب القيمة التي تصف الحياة الاجتماعية الأندلسية ومنظّماتها السياسية والإدارية والقضائية كتاب المستشرق ليفي بروفنسال المسمى (إسبانيا المسلمة في القرن العاشر الميلادي) (٢) . لقد خصَّ المستشرق بحثه في هذا الكتاب بالقرن العاشر الميلادي إلا أن ما جاء فيه يمكن أن ينطبق على سائر العصور التي مرّت بالأندلس بعد السنين الأولى من الفتح ؛ فما هي أبرز صفات هذه الحياة الاجتماعية التي كانت مسرحاً لحياة عقلية خصبة ؟

كانت السلطة العليا في الأندلس في مختلف العهود السياسية التي مرت بها بيد الأمير أو الخليفة . وكان يساعده في أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع

(١) توفي هذا الشاعر سنة ٤٨٠ هـ .

(٣) أشرنا إليه سابقاً ، واسمه بالفرنسية *L'Espagne musulmane au X^e. siècle*

المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء ، وكان له مستشاران يسميان بالوزيرين ، وكثيراً ما كان يطلق على كل منهما اسم ذى الوزارتين ، وكان لكل مصلحة في الدولة كُتَّابٌ مختصون بها ، ككُتَّابِ الرسائل وكُتَّابِ الذمام الذين ينظرون في شؤون أهل الذمة . وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى بالحاجب صارت وظيفته فيما بعد أعظم من وظيفة الوزير ، وقد استبد بعض الحُجَّاب بالخلفاء كما فعل الحاجب المنصور ، وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب ، وكان في كل مدينة قاض وكان يقيم قاضى الجماعة أى قاضى القضاة فى قرطبة ، ولا يشغل مناصب القضاة سوى أكابر العلماء والفقهاء .

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفه العدالة ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات ، وكان يعهد بحفظ النظام والأمن إلى رئيس الشرطة ويعتبر منصبه من أعظم المناصب القضائية والإدارية . ويقوم المحتسب على شؤون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق ، ومن خصائصه مطاردة المنكرات والتأديب والعمل على احترام الأحكام الشرعية وقمع الغش والاختلاس فى المعاملات . وكان للأندلس فى عهد الزاهر أسطول قوى كان يسمى قائده بأمر الماء ، ووضعت أنظمة للجيش متأثرة بأنظمة الإفرنج وبضرورات الحياة التى كانت تحيط بالأندلسيين . وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء التى كان لها نفوذ واسع حاولت كثيراً أن تستغله فى السياسة وتدير الملك ، وفى القضاء على الروح العلمية والثقافية بل كثيراً ما دبَّرت الثورات لقلب الحكم كما أشرنا إلى ذلك سابقاً^(١) .

وقد ساعدت تنحية العرب عن الجيش فى زمن عبد الرحمن الداخل على وجود طبقة الجنود المتطوعة من بربر وصقليين ، فقامت بنصيبها الكبير من الفتن ، بل إن طبقة الحصيان والموالى أصبحت فى عهد ضعف الدولة تتصرف فى شؤون الخلافة والملك كما ذكرنا . وقد ضعفت الروح الحربية عند العرب كما ضعف الروح الاجتماعى وتدهورت الأخلاق وساعد الغنى وخصب البلاد على انصراف

(١) انظر ص ٢٧ و ٤٧ من هذا الكتاب .

الناس إلى اللهو والملذات كما قلنا ، وظهر فيهم شعور الأثرة حتى استنجد المسلمون بالفرنجة أعدائهم . ونشأ من بين العرب أنفسهم طبقة الزراع والتجار والصناع الذين قاموا بنصيبتهم في رقي الأندلس وحضارتها ، أضف إليهم طبقة الموالى المؤلفة من الإسبانيين وغيرهم الذين دخلوا في الإسلام ، وطبقة اليهود الذين كانوا منتشرين في إسبانيا .

ويجب ألا ننسى عاملاً اجتماعياً هاماً ساعد على تقويض الأندلس وضعف الروح الحربية في الأندلسيين وميلهم إلى الترف وهو تزوجهم أو تسريهم بالقوطيات (الإسبانيات) اللاتي أضعفن روح العروبة في أبنائهن كما بدا لنا ذلك أثناء البحث عن عناصر الشعب الأندلسي .

وقد انتشرت في الأندلس روح الفتوة التي سادت بنفس الوقت لدى الإسبانيين والغربيين قاطبة وكانت لها قوانين متبعة وأصول مقررة إذا خالفها الفارس أخل بشرفه .

وقد بقيت الفروسية الأندلسية عصوراً تجذب الأنظار إليها باكتمالها وروعها إلا أنها لم تستطع أن تذكى في نفوس أكثر العرب روح الحرب لانصرافهم عنها إلى اللهو والرخاء ، وظلت على الأكثر مظهراً من مظاهر المباهج والتسامح . وقد كثر الشغف بالفروسية في حُكم دولة بني الأحمر وكانت مبارياتها وحفلاتها من أجمل المباهج العامة التي تجرى في غرناطة . وكثيراً ما اجتمع فيها الفرسان المسلمون والنصارى يتبادلون الزيارات ويسوون منازعاتهم . وكان من أهم مميزات هذه الحفلات اختلاط الجنسين ، فكان نساء غرناطة ، البارعات في الحسن والأناقة ، يشهدن هذه الحفلات وغيرها من المحافل العامة سافرات ، ويخلعن عليها جواً من السحر والروعة ينم عما كن يتمتعن به من الحرية^(١) .

* * *

(١) محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس ، ص ٣٣١ .

الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

عرفت الحضارة الأندلسية تطورات مختلفة ، متبعة تطور تاريخ الأندلس السياسي . فقد وصلت هذه الحضارة إلى ذروة القوة في عهد الخلافة الأموية أيام حكم عبد الرحمن الناصر وولده الحَكَم ولكنها لم تصل إلى ذروة نضجها الفكري ، ولما انهارت الخلافة الأموية وسادت الفوضى أرجاء الأندلس في عهد الفتنة ذوت الحضارة الأندلسية وخبث مظاهرها العمرانية والفكرية حتى جاءت دول الطوائف فاستطاعت على رغم تطاحنها أن تعيد بهاء الحضارة الأندلسية في قصورها وبنشآها ومجتمعاتها وسطعت شمس الأدب والفكر ، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها أمثال الفيلسوف ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والمؤرخ ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ والشاعر ابن زيدون المتوفى سنة ٤٦٢ هـ والشاعر الأديب ابن عبدون المتوفى سنة ٥٢٠ هـ وغيرهم من المفكرين والأدباء والشعراء الذين ذكروهم ابن خاقان في « قلائد العقيان » والمقرى في « نوح الطيب » . بل إن ملوك الطوائف أنفسهم كانوا - كما قدمنا - في طليعة الأدباء والشعراء ، كالعالم عمر بن الأفتس صاحب بطليوس ، والمعتضد والمعتمد صاحبي إشبيلية ، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية .

ولكن هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة ما عتمت أن توقفت عقب تضعضع دول الطوائف واستيلاء المرابطين على الأندلس سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، فقد كان هؤلاء المرابطون ، كما ذكرنا^(١) ، شديدي التعصب ، قساة غلاظاً ، ألفوا الحرب والحشونة فلم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً . نعم لقد تألقت في عهدهم القصير بعض الأسماء اللامعة أمثال الطبيب أبي القاسم خلف بن عباس القرطبي^(٢) والفيلسوف ابن باجة^(٣) والفتح بن خاقان^(٤) وابن بسام^(٥) صاحب

(١) انظر ص ٢٧ من هذا الكتاب . (٢) توفى سنة ٥١٦ هـ .

(٣) توفى سنة ٥٢٣ هـ . (٤) توفى سنة ٥٣٥ هـ .

(٥) توفى سنة ٥٤٢ هـ .

كتاب « الذخيرة » ، وابن قزمان^(١) صاحب الأزجال الشهيرة ، ولكن ظهورهم وأضرابهم في هذه الفترة لم يكن إلا امتداداً للنهضة الفكرية التي ازدهرت في عهد ملوك الطوائف .

ثم جاءت دولة الموحدين ، فانتعشت الحضارة الأندلسية ونشطت حركة التفكير . لقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الحشونة والتقشف ولكنهم كانوا أوسع أفقاً ، وكان مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت من أئمة التفكير الديني . وأظهر خلفاؤه عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون ، وأطلقت حرية التفكير والبحث بعد أن قيدت في عهد المرابطين وأفرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكرى المشرق ، وكانت قد كوفحت ومنعت في أيامهم بالمغرب والأندلس . وفي هذه الفترة ، أى في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ، بلغت النهضة الفكرية في الأندلس ذروة نضجها وظهرت طائفة من أقطاب العلم والأدب ، وفي طليعتهم أبو جعفر بن الطفيل الإشبيلي صاحب رسالة « حى بن يقظان » المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، والفيلسوف ابن رشد القرطبي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ ، والرئيس موسى بن ميمون القرطبي المتوفى سنة ٦٠٢ هـ وكان يهودياً وهو من أشهر الأطباء والفلاسفة في عصره .

وقد كان ابن رشد أعظم فلاسفة الإسلام ومفكره في ذلك العصر ، ومن أهم آثاره شروحه لفلسفة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة ، وقد ترجمت إلى اللاتينية منذ القرن الثالث عشر وكانت مفتاح الدراسات الأرسطوطالية في العصور الوسطى . وغدت شروح ابن رشد أساساً لكثير من المباحث الفلسفية التي ازدهرت أيام حركة الإحياء الأوربي . وكانت الأندلس ، بفضل ابن رشد وأمثاله من الفلاسفة والعلماء العرب ، عاملاً هاماً في رقى أوربا . فعن طريق الأندلس بالدرجة الأولى اطلع الأوربيون على الفلسفة والعلوم اليونانية القديمة .

وظهر في تلك الفترة ، إلى جانب هؤلاء العلماء ، عدد من أعلام الشعر والأدب مثل أبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ وهو مؤلف كتاب الصلة ، وابن بدرون الإشبيلي المتوفى في فاتحة القرن السابع ، وهو شارح

(١) توفى سنة ٥٥٥ هـ .

قصيدة ابن عبدون الشهيرة في رثاء بني الأفطس .

وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس ، وكانت المعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ، ومقصد الطلاب من كل فج ، وفيها المكتبات التي تضم الكتب النفيسة والتأليف النادرة في مختلف العلوم والفنون . وعنى الموحدون أيضاً برعاية الفنون وأقيمت في عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التي تمتاز بجمالها الفني .

ولما اضمحل شأن الموحدين ، وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس ، في أوائل القرن السابع الهجري ، واجتاحت الفتنة معظم البلاد والثغور الأندلسية ، قام المتغلبون يتنافسون في اجتناء أسلاب الدولة الزاهية ، وبدأت قواعد الأندلس تسقط تباعاً في يد النصارى ، وشغلت الأندلس بمحنتها ، وانصرفت إلى متابعة الجهاد ومدافعة المغيرين ، فانكشفت فنون السلم ، واضطربت دولة التفكير والأدب ، ومع ذلك فقد ظلت تمتاز بكثير من نواحي القوة والنضج ، وقد أثرت المحنة في نفوس الشعراء فأذكت عواطفهم بشعر اللوعة وبعثت إلينا بطائفة من المراثي التي ما زالت تحتفظ إلى يومنا بكثير من قوتها وروعيتها^(١) .

وغادر الأندلس في تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير ، وآثروا العمل في جو أكثر استقراراً وطمأنينة ؛ مثل الشيخ محي الدين بن العربي شيخ المتصوفين الشهير^(٢) ، وابن البيطار المالقي^(٣) وابن الأبار القضاعي^(٤)

(١) من هذه المراثي مرثية أبي البقاء صالح بن شريف الرندي ، وكان أديباً وشاعراً جزلاً من أهالي زنده عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري وعاصر الفتنة التي تمخضت عن قيام مملكة غرناطة ، ولا نعرف كثيراً عن حياته .

(٢) ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ووزح إلى المشرق وبقى فيه حتى توفى بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .

(٣) العالم النباتي والطبيب المشهور ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري غادر الأندلس في شبابه وطاف بأنحاء المغرب وقدم إلى مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ودرس عليه ابن أبي أصيبعة وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) ولد سنة ٥٩٥ هـ وبرز في الفقه واللغة والنثر والنظم ، تولى الكتابة للأمير أبي جميل زيان أمير بلنسية ، ولما سقطت بلنسية بيد النصارى فزح إلى تونس وتوفى قتيلاً بتحريض خصومه سنة ٦٥٩ هـ . وكتب ابن الأبار في الأدب والتاريخ ومن آثاره تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال .

وابن سعيد الأندلسي^(١) ، وكثيرون غيرهم ممن رحلوا إلى المشرق أو عبروا البحر إلى المغرب .

وانجلت الفتن الداخلية ، وانجلى الصراع بين أسبانيا المسلمة وأسبانيا النصرانية بعد نحو ثلث قرن ، عن سقوط معظم القواعد الأندلسية في يد النصارى ، وانكشمت رقعة الأندلس تبعاً ، وانحصرت في الركن الجنوبي الغربي للمملكة الإسلامية القديمة ، في مملكة غرناطة الصغيرة ، التي برزت من غمر الفوضى وتأسست على يد محمد بن الأحمر زعيم بني نصر كما تقدم ذكره^(٢) وإليها هرعنا معظم الأسر الأندلسية القديمة وغدت ، خلال مدة تزيد على القرنين ، مستودع تراث الأندلس القوي والسياسي ومستودع الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي .

وفي ظل مملكة غرناطة أخذت الحركة الفكرية في الاستقرار وبدأت الأندلس حياتها الجديدة وآنتست جواً من الطمأنينة والهدوء . وكان ملوك غرناطة من حماة الآداب والعلوم وسطع بلاط دولة بني الأحمر بتقاليد الأدبية الزاهرة على غرار قصور ملوك الطوائف .

ويجب أن نلاحظ أن الحركة الفكرية الأندلسية في عصر بني الأحمر تكاد تنحصر في النواحي الأدبية ، فقد ازدهر الأدب والشعر وحفلت غرناطة بجمهرة من أكابر الأدباء والشعراء ، ولكن العلوم العقلية أصابها الركود ، وقلما نجد في هذه الفترة أحداً من أقطاب الطب والفلسفة أو غيرها من العلوم المحضة التي ازدهرت من قبل بالأندلس^(٣) .

* * *

(١) أديب ورحالة ولد في غرناطة سنة ٦١٠ هـ وطاف بقواعد الأندلس والمغرب والمشرق وتوفي بدمشق سنة ٦٧٣ هـ وله كتاب « المغرب في حلى المغرب » .

(٢) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب .

(٣) من بين من اشتهر من العلماء والأدباء والشعراء في هذه الفترة : الكاتب الوزير ابن الحكيم أبو عبد الله محمد بن يحيى اللخمي الرندي ولد برندة سنة ٦٦٠ هـ .

— وأبو حيان الغرناطي ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفي بمصر سنة ٧٤٥ هـ وكان بارعاً في اللغة والأدب ونظم الموشحات .

— ولسان الدين بن الخطيب قطب الحركة الأدبية في مملكة غرناطة ولد في لوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ وأخباره نجدها في نفع الطيب في مجلدين ضخمين .

— ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب تزعم من بعده الحركة الأدبية في الأندلس . ولد سنة ٧٣٣ هـ وقتل

هذا عرض تاريخي لأهم مظاهر الحياة العقلية في بلاد الأندلس ، والناظر إليها يرى أن العقلية العربية في الأندلس قد أثر فيها الاختلاط العنصرى تأثيراً كبيراً ، إذ قد صنع الأمويون في الغرب الإسلامي صنع العباسيين مع الفرس وقربوا القوط إليهم كما ذكرنا فكان من أثر هذا الاختلاط امتزاج العقلية الآرية بالعقلية السامية فنضجت العقلية العربية وزهت الآداب وازدهرت الحضارة واقتبس الإسبان من ثقافة العرب لأنهم كانوا دونهم ثقافة ، ودخلوا في دينهم وتعلموا لغتهم وأدبهم وهجروا اللاتينية وأعرضوا عن كتب المسيحية ، حتى أصبح رجال الدين الإسبان يشكون من انصراف الإسبان المسيحيين عن اللاتينية إلى اللغة العربية ، ويأسفون على حماسهم الشديدة للغة العرب وعلى ضياع اللاتينية بين المسيحيين الذين يقبلون على العربية والشعر العربى ويدرسون كتابات متكلمي الإسلام وفقهائه لا ليفندوها بل لكي يكتبوا العربية في صحة وإتقان (١) .

وقد رأينا كيف شيّد الأندلسيون المدارس حتى أصبح أكثر الناس متعلمين ، وكيف ازدهرت الآداب والفنون ازدهاراً يقوى وينخفض بحسب الظروف السياسية والعهد المختلفة التي مرت بها الأندلس ، وكيف أن روح التعصب قد حدثت أحياناً من نشاط الفلسفة والعلوم العقلية .

ويحسن أن نشير في النهاية إلى أن الأندلسيين كانوا في آدابهم مقلدين للمشاركة لأنهم كانوا يرون فيهم المثل الأعلى لشعرهم وأدبهم ، ويجدونهم منبع علومهم وآدابهم وفنونهم ، وقد ظلت معانى الشعر الأندلسى سطحية ليس فيها إكثار من الحكَم وطرق المعانى الفلسفية وذلك لعدم إقبال الشعراء والأدباء على الفلسفة والعلوم العقلية ولانصرافهم إلى اللهو والحياة السهلة .

وقد كان من نتيجة انتشار الكتابة فيهم وقلة الأمية أن كان عدد الشعراء والأدباء كبيراً ، فقد كان أكثر الخلفاء والفقهاء والوزراء ينظمون الشعر ، بل نجد روايات أدبية تذكر أن بعض السوقة ينظمون الشعر باللغة العربية الفصحى ،

وعلى رغم كثرة عدد الشعراء ووجود طائفة من النابغين فقد قصرَوا عن اللحاق
بفحول الشعراء المشرقيين ، وذلك لإقبالهم على اللهو وانصرافهم عن كل ما يكدُّ
الذهن من دراسات عقلية ، ولنظرتهم المثلى لكل ما كان يرد من الشرق من فكر
وأدب وفلسفة والنسج على منواله دون أن يعمدوا ، على الغالب ، إلى إبداع أصيل .

البابُ الثاني

الشاعر الأندلسي – أغراض الشعر الأندلسي – شعر الطبيعة

الفصل الأول

الشاعر الأندلسي وطرق التعليم

تهيأت لأهل الأندلس أسباب الشعر ، وتوافرت لديهم دواعيه ؛ فَطَبَعُوا عَلَى الشَّغْفِ بِهِ ، وَانْبَسَطَتِ ألسنتهم بقوله ، حتى قلَّ أن تجد منهم من ألمَّ بطرف من الآداب ولم يقل شعراً .

وقد كان لطبيعة الأندلس الزاخرة بالمفاتيح أثر كبير في طبعهم على هذه الشيمة ، حتى لم تخل مدينة من مدنها من شاعر حاذق ، أو كاتب بليغ كما يقول ابن بسام في مقدمة ذخيرته .

ولم تقتصر الرغبة في الشعر والارتياض بنظمه على الرجال ، بل عدتهم إلى النساء ، فنبغ منهن شواعر يكمن يضاهين الشعراء عدداً ؛ وكان منهن طبقة من المحسنات البارعات ، كَوَلَّادَةَ بنت المستكفي ، وتلميذتها مُهَنْجَةُ القرطبية وحمدة بنت زياد المؤدب المعروفة بجنساء المغرب وحفصة بنت الحاج الركونية ، وعائشة بنت أحمد القرطبية ، ونزهون القلاعية الغرناطية ؛ .. وكنَّ جميعاً موصوفات بالجمال والظرف ، إلا عائشة فقد استغنت بالفهم والأدب والفصاحة ^(١) .

وقد كان للشعر حظوة لدى الملوك ، فنبغ منهم شعراء ، ودَرَجُوا عَلَى استيزار الشعراء فكان الوزير نديم الملك وشاعره ومدبر مملكته بآن . فاعتزَّ الشعراء بذلك ، وَسَمَتْ مَكَانَتُهُمْ ؛ وحفلت بهم دور الأمراء ودَّرَّ عليهم الرزق ، فنعَمُوا ، وترَفُوا ولهُوا وعبثوا إلا أنهم كانوا أبداً مهديدين بزوال النعمة ، لوشاية حاسد ، أو مكيدة مبغض ، أو خشية ملك أن يستقل الوزير بالأمر دونه ، كما اتفق لابن زيدون عند بني جهور ، ولابن الخطيب عند بني الأحمر ؛ .. وقد تُحَدَّثُ الوزير نفسه

(١) للبحث عن أخبار هؤلاء النساء انظر : نفع الطيب ، فصل : الأديبات من نساء الأندلس

بالمملك ، فيظهر مَلِكُه على رغبته ، فيوقع به ، كما صنع المعتمد بن عباد بوزيره الشاعر ابن عمار .

إلا أن هذا لم يكن شأن جميع الشعراء ؛ فقد عجز فريق منهم عن التقرب من السلطان ، أو الوصول إلى الوزارة فظلوا ، على نباهتهم ، مغمورين خاملين . ولم تخل حياة الشعراء من مضايقات ، وأعنفها ما كان يلقاه بعضهم من لفيف من الفقهاء ، كانت تدفعهم غيرتهم الدينية إلى أن يوقعوا ببعض من عرفوا بزيف أو مجون أو خلاعة ؛ كما جرى لابن هاني ، فقد نفاه أمير إشبيلية خوفاً من الفقهاء والعامّة . لما بدا في شعره من آثار الخلاعة ، والمجاهرة بما يمس العقيدة .

على أن شعراء الأندلس وأدباءها ، على ما أوتوا من طبع صقلته الطبيعة ونمته المرانة ، لم يكن لهم بد من ثقافة تعينهم وترفد طبعهم ، وغرضنا من هذا الفصل أن نتحدث عن طرق انتشار الثقافة في ذلك الصقع ، ومادة هذه الثقافة ، وعن الآثار الهامة التي كان الشعراء يتدارسونها ، لنضع أيدينا على ينابيع ثقافة الشاعر .

* * *

كانت العربية لغة الأندلس الرسمية ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، رغم جنوح لغة التخاطب إلى العامية ، واستعمال بعض الفئات اللغة البربرية ، أو الرومانية ؛ . . وكان الخلفاء ورجال الدولة يقرّبون من يحسن العربية ، ويتنافسون هم أنفسهم في دراستها وإجادتها ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ولم يكن التنافس بين الأمراء والحكام قاصراً على الجانب السياسي ، بل كان يشمل الناحية الأدبية أيضاً ، وكان كل أهير يعمل على أن يكون في كنفه من الكتاب والشعراء ما يفوق ما لدى منافسه عدداً ومكانة ؛ بل كانت المنافسة في هذا الباب تدفع الواحد منهم أن يقتنص من لدى منافسه من أدباء أو شعراء كبار ، كما فعل المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بابن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المرية وكتابه الخاص ، وإن كان لم يوفق في مسعاه .

والمقرى في نفع الطيب يروى من الأخبار ما يدل بصراحة على مدى اهتمام الحكام بالكتاب النابيين المالكين زمام العربية ، المقتدرين عليها ، كما يدلنا على

احتقارهم لمن قلَّ نصيبه منها ؛ ومن هنا كان تعلم العربية والتمكن منها ضرورة لمن يريد أن يصل إلى ديوان الإنشاء .

ولما كان الشاعر يتولى في كثير من الأوقات وظيفة كتابية بوصفه وزيراً ، كان عليه أيضاً أن يكون واقفاً على أصول الإنشاء مجوداً للكتابة ، وإذا كان اهتمام الشعراء بالكتابة وفن إنشاء الرسائل ضرورة تقتضيها مهنتهم ككتاب في دواوين الإنشاء ، فقد كانت الكتابة أيضاً نتيجة لميل أدبي متأصل فيهم ، وقد رأينا كيف أدى العطف الذي أبداه الخلفاء والأمراء نحو الأدب والمتأدبين إلى كثرة الكتاب والشعراء وإلى ازدهار الأدب ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ، ولكن هذا العطف لم يكن السبب الوحيد في هذا الازدهار بل إن أسلوب تعلم اللغة العربية والثقافة الأدبية العامة كان لهما أيضاً أثر كبير في نهضة الأدب وازدهاره في بلاد الأندلس .

فما هي طرق هذا التعليم ؟

لدينا كثير من الأخبار التي تشير إلى طرق التعليم والثقافة الأدبية في البلاد الأندلسية . ويكفي أن نجمع ما يكتبه بعض المترجمين والمؤرخين لحياة كاتب أو شاعر أو عالم عاش في الأندلس لنعلم ما كان يدرسه هذا الكاتب أو ذلك الشاعر ولنعلم الطريق التي كان يتبعها في شبابه وفي باقي أيام حياته .

ويحسن أن نضيف إلى هذه الأخبار ما كتبه ابن خلدون في مقدمته في الفصل الواحد والثلاثين عن « تعليم الولدان واختلاف أمصار المذاهب الإسلامية في طرقه » فهو فصل قيم أشار فيه إلى طرق التعليم في بلاد المغرب وفي بلاد الأندلس وقارن بين مختلف هذه الطرق . ويتبين من قراءة المقطع الخاص بالأندلسيين^(١) أنهم

(١) « . . . وأما أهل الأندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختص عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة » . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٥٣٨ .

كانوا يعنون بتعليم العربية والشعر قبل العلوم الأخرى وإلى جانب القرآن الكريم أيضاً ليتفهموه ، على خلاف أهل المغرب والمشاركة الذين كانوا يبدوون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم ؛ وقد فضل القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) طريقة أهل الأندلس ونصحها للمشاركة « لأن الشعر - كما قال أبو بكر ابن العربي - ديوان العرب ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد اللغة ثم ينتقل منه إلى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة (١) » .

فلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمه الطالب في الأندلس . فهنا إذن طريقة أندلسية في التعليم ، هي أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية . نعم قد يكون أهل المغرب (أى أهل أقصى شمالي إفريقيا) قد قصروا أحياناً همهم على تعلم القرآن ولم يرغبوا بأن يمزجوا مع تعلمه علماً آخر ، إلا أن المشاركة قد لجأوا أيضاً إلى مثل ما لجأ إليه أهل الأندلس واهتموا أيضاً بالعلوم الإنسانية ، ولا يهمننا كثيراً أن يبدأوا بالقرآن أو بالشعر واللغة ، فقد كانت هاتان الدراستان متصلتين ، ومن الصعب أن نفصل تعلم القرآن عن تعلم اللغة والشعر القديم لما بينهما من وشائج وثيقة ، وقد يكون من المستحسن لفهم القرآن أن نبدأ بدراسة اللغة كما شاء الأندلسيون وكما قال أبو بكر بن العربي فهي طريقة منطقية .

ويتساءل هنرى بهرس (٢) عما إذا كان هذا المفهوم المنطقي للتعليم في الأندلس ليس ناتجاً عن تأثير العرق الإسباني الروماني الذي كان أحد العناصر الهامة التي كونت شخصية الأندلسي ، ثم يضيف قائلاً : إن الاهتمام ، في الدرجة الأولى ، كان منصرفاً في باقي البلاد الإسلامية إلى الأمور الدينية وقد تركت العلوم العقلية في درجة ثانوية ، بينما كان الأمر في إسبانيا على العكس ، إذ أخذت العلوم العقلية تحتل المكان الأول ، دون أن تهمل مع هذا العلوم الأخرى المشتقة من

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٥٣٩ .

(٢) انظر كتابه السابق ص ٢٥ .

القرآن والحديث ، وعلى هذا فقد أخذ الأندلسي يفكر في الإنسان قبل الدين ، وأخذ التعليم يرمى إلى تنمية جميع مواهب هذا الإنسان بشكل متناسق .

هذه الملاحظات صائبة ، أما أن نستنتج منها أن المشاركة لم يهتموا بالإنسان لمجرد أنهم بدأوا بتدريس القرآن قبل الشعر واللغة ، فهذا أمر لا نوافق المستشرق عليه ، لأن القرآن الكريم دستور إنساني يطل على أمور الإنسان وحياته ويشرحها إلى جانب ما له من صفة دينية ، ولا نستطيع أن نقر أيضاً أن الأندلسيين قد تخلوا عن دراسة الأمور الدينية تماماً عندما بدأوا بدراسة الشعر والأدب . نعم لقد اهتم الأندلسيون بالإنسان ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من الاشتغال بالقضايا الدينية ، وكذلك فعل المشاركة فقد بدأوا بالدين ولكن الدين لم ينسهم الاهتمام بالإنسان^(١) .

ومن دلائل النهضات الإنسانية في شعب ما ، أن يهتم هذا الشعب بدراسة الإنسانيات القديمة وآثارها . فالنهضة الإنسانية الفرنسية في القرن السادس عشر Humanisme تتمثل في اهتمام الشعراء والمفكرين بدراسات الإنسانيات الإغريقية والرومانية . ولولا هذا العود إلى آثار الإغريق وتفهم عبقريتهم وتقليدهم في الموضوعات والأساليب لما كانت النهضة الأدبية الفرنسية التي ظهرت منذ القرن السادس عشر وشعّعت في القرن السابع عشر .

وكذلك نحن ، فعودتنا إلى آثارنا القديمة ، إلى الشعر الجاهلي والأموي والعباسي ، إلى هذا الأدب الإنساني الواسع ، دليل على رغبتنا في المحافظة على على إنسانيتنا الأدبية . والأدب الأندلسي ، كأدب إنساني ، أخذ يتطلع إلى هذا التراث القديم ويغذى فكره الإنساني بالشعر القديم وشعر صدر الإسلام وشعر المحدثين وآدابهم ، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفني هذا ، حق لنا أن نقول إن كل أديب عربي ، سواء أكان شقيقاً أم أندلسياً ، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية في آثاره ودراساته وقراءته إذا ما أراد لإنتاجه ولفنه النجاح .

(١) بل إن الأندلسيين لم يكونوا أقل حرصاً على علوم الدين من المشاركة إن لم يزيدوا عليهم في هذا الباب ، ومصدّق ذلك آثار علماءهم وفقهائهم ، بل إن الفقيه كان عندهم معظماً كما يقول المقرئ : « وسمة الفقيه عندهم جليّة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويحه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه ، لأنها أرفع السمات » . نفع الطيب ج ١ ص ١٠٤ .

فالتعليم الذى يتلقاه الشاعر الأندلسى إذن لا يختلف فى شىء كبير عن التعليم الذى يتلقاه الشاعر المشرقى ، وهو قبل كل شىء عودة إلى الآثار القديمة وحفظها وتفهمها وأحياناً تقليدها .

وقد أراد الأندلسى أن يكون تعلمه للشعر واللغة سابقاً لتعلم القرآن الكريم وسائراً معه ، كما أراد المشرقى أن يسبق تعلم القرآن دراسة الشعر والأدب ، ولا أظن أن الأندلسى والمشرقى استطاعا أن يجدا حدوداً فارقة بين هذا وذاك أثناء تلقيهما العلوم والمعارف الأولى .

* * *

وقد كان التعليم الخاص الذى لا تشرف عليه الدولة منتشراً فى كل مكان فى الأندلس ، فكنت ترى فى القرى الصغيرة ، كما فى المدن الكبيرة ، ما يشبه المدارس الابتدائية اليوم ، أما فى المراكز الهامة كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة فكنت ترى حلقات التعليم على مختلف درجاته منتشرة فى المساجد . وكان هناك مدارس يشرف عليها أساتذة قديرون ، إلا أنه لم يكن فى الأندلس مدرسة جامعية على نمط المدرسة النظامية التى أسست ببغداد سنة ٤٥٧ هـ . ١٠٦٥ م . هذا وقد خسرت قرطبة مركزها الثقافى بعد زوال الخلافة عنها ، وأصبحت المراكز الثقافية موزعة بين طوائف الملوك ، فكان لكل بلاط مركز من مراكز الثقافة .

وجُلُّ هذه الثقافة كانت ترمى لجعل الأندلسى أديباً ، شاعراً أو كاتباً . وإذا ما نظرنا إلى المؤلفات التى كان يتداولها الأندلسيون تحقق لنا هذا القول .

فما هى هذه المؤلفات التى كان يقرؤها الأندلسيون ؟ سيجيبنا على هذا السؤال أبو بكر محمد بن خير ، الأديب الذى توفى سنة ٥٧٥ هـ وترك لنا مؤلفاً هاماً عنوانه « الفهرسة »^(١) يبين لنا فيه الدراسات والمؤلفات الشائعة فى عصره ، عصر ازدهار

(١) العنوان التام لهذا الكتاب هو : « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف ، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الإشبيلى » طبعة المستشرقان Codera, Ribera Tarrago فى مدينة سرقسطة سنة ١٨٩٣ ، ونشر فى مجموعة : Bibliotheca arabica-Hispana, T,IX-X

الأدب في الأندلس ، ويمكن أن نعتبر هذه المؤلفات مقروءة في مختلف العصور الأندلسية مع بعض الزيادة والنقص .

فهرسة ابن خير :

لقد خصص مؤلف هذه الفهرسة مكاناً كبيراً لكتب الحديث التي كان يتداولها الناس وكانت شائعة في عصره . وقد كان اهتمام الأندلسيين بالحديث كبيراً منذ بادئ أمرهم ، ولا أدل على ذلك من كثرة من ترحّل منهم إلى المشرق في طلب الحديث والوقوف على أمهات دواوينه وتلقيها عن جامعها أو من رروا عنهم . ولذلك ليس غريباً أن نرى ابن خير يهتم بها في فهرسته .

إلا أن القسم الذي خصصه لذكر المؤلفات الأدبية هو الذي يهمننا وهو الذي يطلعنا على ثقافة الشاعر والأديب ويعبر عن ميولهما . ونلاحظ أن أحدث كتاب يذكره المؤلف في هذا القسم هو كتاب سقط الزند واللزوميات للمعري ، وهذان الكتابان لا يبعد أن يكونا قد وصلا إلى الأندلس في حياة المعري أو بعيد وفاته .

يمكننا أن نصنّف هذه الآثار الأدبية التي يذكرها ابن خير في عدة زمر :
 زمرة المختارات والدواوين ، وزمرة طبقات الشعراء ، وزمرة كتب الأدب ، وزمرة كتب اللغة والنوادر ، وزمرة كتب النحو :

١ - فمن كتب المختارات المعروفة نشير إلى المعلقات مع شرح ابن النحاس النحوي المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، ثم إلى المفضليات ، والأصمعيات ، وكتاب الحماسة لأبي تمام ، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للثعالبي .

٢ - أما الدواوين الشائعة فهي : ديوان ذى الرّمة ، ويذكر المقرئ أن أبا بكر بن زهر كان يحفظ هذا الديوان ويقول إنه يحوى ثلث مفردات اللغة العربية ، ودواوين الأعشى وأبي تمام والمتنبى والصنوبري (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) ، وسقط الزند واللزوميات للمعري ، وديوان أبي العتاهية . وإلى جانب هذه الدواوين يجب أن نشير أيضاً إلى الدواوين التي جلبها أبو علي القالي من الشرق عندما رحل

إلى الأندلس وهي تشمل معظم الشعراء الشرقيين المعروفين لعصره (وقد أشار إليها ابن خير)

٣- أما كتب « طبقات الشعراء » التي تضم عادة مختاراً من القصائد مع نقد موجز ، فلم تكن عديدة ، ويذكر ابن خير منها كتاب الطبقات لابن قتيبة (المتوفى ٢٧٦ هـ) وكتاب الطبقات لابن النحاس (المتوفى ٣٣٧ هـ) .

٤- ومن كتب اللغة لا يذكر ابن خير سوى كتاب الميسر والقдах لابن قتيبة والكامل للمبرد .

٥- أما كتب النوادر فيذكر منها كتاب النوادر لعلى بن حزم اللحياني ، والنوادر لأبي زياد الكلابي والنوادر للحصري .

٦- ويذكر من كتب الأدب كتاب زهر الآداب للحصري وكتاب الآداب لابن المعتز .

* * *

لا شك أن قائمة ابن خير هذه بعيدة عن أن تكون تامة . فهي لا تشير إلا إلى عدد ضئيل من الكتب المعروفة والمقروءة في عصره ، وإذا كانت جميع الكتب التي ضمتها مكتبة الحكم^(١) الفخمة ، قليلة عدد النسخ ، بعيدة عن أن تكون في متناول عامة الناس ، فإننا نزعم أن عدداً منها كان يتداوله الأدباء المقربون من البلاط الأموي ، وأن هذا التراث الأدبي ، عندما سقطت خلافة قرطبة لم يفقد بأجمعه ، وقد أدى التوزيع السياسي الذي عقب هذا السقوط توزعاً أدبيّاً ، وتبعثر ما بقي من مكتبة الحكم في مكاتب ملوك الطوائف وفي المكتبات الخاصة لبعض متذوقي الأدب .

ويمكننا أن نعتقد بأن كتاب الأغاني الذي كان الحكم قد اشترى نسخة من نسخه الأولى كان يُقرأ في حلقات بعض مدرسي الأدب . ألم يزعم بعض المؤرخين وهو عبد الوهاب المراكشي في كتابه (المُعْجِبُ في تلخيص تاريخ المغرب) أن

(١) بدأ حكمه سنة ٣٥٠ هـ .

ابن عبدون كان في شيخوخته يتلو الأغاني عن ظهر قلب ؟ ومهما يكن من أمر فإن الذي يبدو لنا هو أن كتاب الأغاني قد لاءم - وهذا شيء طبيعي - ذوق الأندلسيين وميلهم للشعر والموسيقى ، وعلى رغم قلة النسخ التي كانت قيد التداول فقد أثر تأثيراً كبيراً في الأوساط الأدبية وحلقات السمر المرهفة التي كانت منتشرة في الأندلس وهناك إشارات في نفع الطيب تفيد أن هذا الكتاب قد قلده بعض الأندلسيين ، فقد ألف يحيى الحُدُجُّ أديبٌ مرسيةً كتاباً على نمطه يدعى كتاب الأغاني الأندلسية ؛ وأن أبا الربيع أحد أمراء دولة الموحدين وحاكم سجلماسة قد وضع له موجزاً .

وهناك مؤلفات أخرى هامة لدراسة اللغة العربية وآدابها لم يشر إليها ابن خير في « فهرسته » ولكن لدينا وثائق تؤيد انتشارها في الأندلس ، من هذه الوثائق رسالة ابن حزم والحكايات الكثيرة التي يرويها المقرئ في نفع الطيب . وإننا ذاكرون الآن أهم هذه المؤلفات وهي : النوادر لأبي علي القالي وأماليه وقد أملاهما في الأندلس نفسها ، الكتاب لسبويه وقد اهتم به أهل الأندلس وتدارسوه وشرحه شرحاً مطولاً ابن المناصف^(١) ، وكذلك فصيح ثعلب كان له قارئوه من الأندلسيين ، أما كتاب إصلاح المنطق لابن السكّيت فلم يكن له قراء عديدون ومع هذا فقد كان ابن سيده يحفظه . وهناك كتاب نال حظوة كبيرة لدى الأندلسيين هو كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي (وفاته سنة ٢٢٣ هـ) المسمى « الغريب المصنّف » ، فقد قرأه أبو علي القالي وحفظه ابن سيده وقرظه ابن حزم فقال إنه أكمل كتاب لمعرفة اللغة العربية . وقد حدث مرة أن استعصت على الشاعر الأبيض قضية لغوية فأقسم أن يقيد نفسه ، كما فعل الفرزدق ، حتى يحفظ هذا الكتاب ، ولما رأته والدته على هذه الحال تساءلت عما إذا كان أصاب ابنها مس من الجنون .

وهناك كتاب آخر لابن قتيبة ذكره ابن خير في فهرسته وكان شائعاً أيضاً هو

(١) كثير من الشروح التي وضعت لهذا الكتاب كانت أندلسية ، انظر : تاريخ آداب العرب

« أدب الكاتب »^(١) وقد شرحه ابن السيد البطليوسى أحد نحاة بجاية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، أما الكامل للمبرد فقد أقبل الأندلسيون على دراسته بكثير من الشغف والاهتمام ، وقد جاء به ابن أبى علاقة من الشرق فى زمن الحكيم المستنصر ، فنال شهرة كبيرة وطفق أدباء الأندلس يتدارسونه ويشرحونه ، وحفظه عدد كبير منهم نساء ورجالا . وقد حملت هذه الشهرة بعض اللغويين فى الأندلس أو من القادمين إليها على تقليده فألف صاعد اللغوى ، وهو نحوى شهير قدم الأندلس زمن طوائف الملوك ، كتاباً أسماه « كتاب الفصوص » حذا فيه حذو المبرد فى الكامل .

ومن البديهي أن ابن خير لم يسجل فى فهرسته جميع المؤلفات الأدبية التى كانت تدرس فى عصره وفى العصر الذى سبقه مباشرة ، ولذا كانت الإشارات التى يذكرها ، فى هذا الصدد ، اللغويون وعلماء البلاغة والأدباء كانت ذات قيمة هامة ولا سيما إشارات ابن رشيق صاحب كتاب العمدة .

أما أبو نواس فهو فى طبيعة الشعراء الذين اهتم الأندلسيون بهم واستساغوا شعرهم وأحبوهم . أما ابن الرومى فكانوا ينظرون إليه نظرهم لشاعر هجاء ، ويعجبون بوصفه للطبيعة ويحفظون له أشعاره فى تفضيل الرجس على الورد ، وقد نظم فى هذا المعنى كثير من شعراء الأندلس أشعاراً تعارض ابن الرومى .

وكذلك البحترى فقد كان محط إعجاب الأندلسيين ، وقد لجأوا إلى طريقته فى النظم ، حتى إن ابن بسام عندما وصف شعراء الأندلس لم يجد ملدحهم غير تشبيههم بالبحترى فقال ما معناه :

« وكانت طريقتهم فى النظم مثالية فهى طريقة البحترى فى رفته وجزالته وعذوبته

وشدته » .

(١) لى هذا الكتاب حظوة كبيرة عند الأندلسيين والمغاربة حتى قال ابن خلدون فى مقدمته ص ٥٥٣ : « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول هذا الفن « الأدب » وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » .

أما المتنبي ، وقد ملأ الدنيا كما يقول ابن رشيق ، فقد وصل تأثيره إلى المغرب الإسلامي وبخاصة الأندلس . وإذا كان لم يستطع أن يطمس أثر البحترى وابن المعتز فقد استطاع أن يشغل أذهان الناس وأضاف إلى قوة النظم فكرة الفيلسوف ، حتى أصبح ديوانه موضع اهتمام ودراسة ، فشرحه الإفليلي المتوفى سنة ٤٤١ هـ وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ . وذكر ابن بسام عدداً من أشعاره التي نسج على منوالها كثير من شعراء الأندلس . ويظهر أن المعتمد هو أول ملك من ملوك الطوائف اهتم اهتماماً كبيراً بالمتنبي ، حتى إن إعجابه بشاعرنا العربي الكبير قد أزعج الشعراء المحيطين به .

ولم تقف إسبانيا المسلمة عند المتنبي فقط في إعجابها ، بل هناك شعراء شريون آخرون قد جلبوا انتباهها ، فابن خفاجة الذي يُعدُّ شاعر الطبيعة الأول في الأندلس والذي لم يكن سوى مقلِّدٍ عبقرى ، يعترف بأنه مدين في أكثر وحيه إلى شعراء مشاركة كالشريف الرضى الموسوى (وفاته ٤٠٤ هـ) وعبد المحسن الصورى (وفاته ٤١٩ هـ)^(١) ومهيار الديلمي (وفاته ٤٢٨ هـ) . ولا يصعب علينا أن نبين ما أخذه عن البحترى والصنوبري^(٢) من معان وأخيلة تتعلق بوصف الطبيعة ، حتى إنه كان يلقب بصنوبري الأندلس .

ويدهشنا ألا يذكر ابن خير للمعري غير سقط الزند واللزوميات بينما نلاحظ أن رسالة من رسائل أبي العلاء المسماة « الصاهل والشاجح » قد قلدها أحد أولاد الأندلسي ابن عبد الغفور تحت عنوان « الساجعة » وهذا الأمر ذكره ابن خاقان في المطمح والمقرى في نفح الطيب ، ونص هذه الرسالة لا يوجد إلا في الذخيرة . ولهذا نستبعد ألا يكون هناك مؤلفات أخرى لأبي العلاء قد عرفها الأندلس^(٣) .

* * *

(١) يظهر أن ديوان هذا الشاعر قد ضاع ، انظر ابن خلكان .

(٢) مقطوعات الصنوبري المتفرقة جمعها محمد راغب الطباخ تحت عنوان الروضيات ، حلب

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م .

(٣) يشير المؤرخون إلى أن أبا عامر بن شهيد (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ) كان مولعاً بآثار المعري حاذياً حذوه . ويقال إنه عارض (رسالة الغفران) للمعري برسالته (التوايح والزوايح) التي أورد ابن بسام في الذخيرة أقساماً كثيرة منها . وقد أفردتها بالنشر بطرس البستاني عام ١٩٥١ في بيروت ، معتمداً =

هذه هي أهم المؤلفات التي كان يدرسها الشاعر والأديب ورجل الفكر في الأندلس ، وكان من جراء تأثير اختلاط الأندلسيين بالبيثات الأجنبية المحيطة بهم أن انتقلت إليهم كثير من النزعات الإنسانية فجعلت لهم تفكيراً خاصاً تميز بنزعة إنسانية جديدة ظهرت فيهم تحت تأثير اطلاعهم على الآثار اليونانية التي انتقلت إليهم من الشرق أحياناً وعن طريق الغرب والإسبانيين أحياناً آخر . فاثلف حبهم للعلم مع حبهم للآداب ، وأرهفت الفنون ذوقهم الشعري ، وأخذت الصفات الحربية تضعف فيهم وشرعوا ينظرون إليها كشيء يمكن إهماله بجانب المشاغل الفكرية . فلا نعجب بعد هذا إذا رأينا الشاعر الأندلسي يجي الفكرة القديمة ويطبعها بطابع إنساني كنتيجة للأثر المسيحي الروماني الذي أحاط به . وسنرى أن الأدب الأندلسي قد استطاع أن يتلون بهذا اللون الجديد دون أن تمحى تقاليده الشرقية .

==عل ما جاء منها في الذخيرة . ويزعم المستشرق بروكلمان أنها صنفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة، إلا أن بطرس البستاني يرى أنها لم تتقدم رسالة الغفران بأكثر من تسع سنوات ، وليس لدينا ما يثبت أن أبا العلاء قد اطلع عليها .

الفصل الثاني

طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية

إن الكتب التي ذكرناها بينت لنا مدى ثقافة الشاعر الأندلسي بشكل عام ، وبينت لنا أيضاً لون هذه الثقافة . وقد رأينا كيف كان الشعر الدعامة الأولى لهذه الثقافة يتدارسونه مع القرآن الكريم إن لم نقل قبله ، وكيف كان الناس في الأندلس مطبوعين على قول الشعر مشغوفين به ، فهل كان الشعر ملكاً لطبقة خاصة من الناس ؟

إننا إذا ألقينا نظرة على الشعب الأندلسي رأينا أن الشعر قد استطاع التغلغل في مختلف طبقاته ، فلم يقتصر على الأمراء وعلية القوم الذين أخذوا يدرسونه وينشدونه منذ شبابهم مستفيدين من ثقافتهم التي جاءتهم عن طريق التعليم ، بل كنا نرى أناساً من عامة الشعب لا يعرفون القراءة والكتابة محرومين من الثقافة ينظمون الشعر ويتذوقونه . ولعل هؤلاء قد اكتسبوا هذه القدرة على النظم بعد أن تقدمت بهم السن ، وبعد أن اختلفوا إلى بعض الحلقات العلمية واستمعوا بدافع ميل شخصي عفوى إلى ما يقوله المتأدبون والعلماء في دروسهم فما فيهم ذوقهم الفطري . فقد كان المدرسون يقبلون في حلقاتهم أي شخص كان على أن يكون لديه الاستعداد الفطري لتذوق ما يسمع ، ومن هؤلاء الشعراء الأميمين ابن لبال الأحمي أستاذ ابن عبدون .

ويمكننا أن نحشر العميان في زمرة الشعراء الذين لا يعرفون القراءة والكتابة . وكثيرون في الأندلس الشعراء الذين يحملون لقب الأعمى أو الضرير أو المكفوف . ويشير الصفدي في كتابه (نكت الهميان) إلى عدد كبير منهم ، ممن امتازوا بالعلم والأدب ، كالنحوي ابن سيده الذي عاش في مرسية ، والشاعر الوشاح الأعمى التطيلي الذي عاش في تطيلة .

وهناك شعراء من أصل متواضع ، أو من أرباب المهن ، كانوا على جانب

بسيط من الثقافة ، ويحدثنا ابن عمار شاعر المعتمد ، وهو من أسرة متواضعة ، عن الفائدة التي يمكن أن يجنيها المرء من مخالطته هذه الجماعات الكادحة التي تسعى جاهدة في سبيل نيل قوتها اليومي ، وقد كان ابن عمار قبل أن يصبح شاعر المعتمد يخالط هذه الأوساط باحثاً فيها عن موضوعاته الأدبية مدركاً ما يمكن أن يستفيد منه الشاعر من صور جديدة وتشابيه مستمدة من واقع الحياة . وابن عمار هو الذي اكتشف الشاعر ابن جامع وقد كان صباغاً في مدينة بطليوس . أما أبو تمام غالب بن رباح وهو حجاج في قلعة الرباح فقد اشتهر بشعره الواقعي ونظم شعراً يصف الجروح والقروح وافتراس الطيور الجارحة لأحشاء القتلى وصفاً واقعيًا تسمثر منه النفس أحياناً .

ومن بين الشعراء الذين انبثقوا في طبقات متواضعة ، يمكننا أن نشير إلى هؤلاء الذين كانوا يعيشون في الحقول وكانت مهنتهم الزراعة ، ولا شك أن نشاطهم الأدبي كان ذا قيمة . فالحياة في الحقول ليست دائماً عملاً مرهقاً ، إنها تترك فسحات للأحلام ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الشعر الشخصي هو ما كان منبعثاً عن أولئك الذين عرفوا الطبيعة وتحسسوا بجمالها . والميزة التي امتاز بها بعض شعراء الأندلس الذين تأثروا بالطبيعة كابن خفاجة مثلاً هي أنهم لم ينظروا إليها كشيء خارج عن كياناتهم بل وصفوها من خلال عواطفهم وأشركوها إحساسهم فجسّموها وشخصّوها ، وهذا ما فطن إليه الرومانتيكيون بعدهم ، ولا شك أن هذا الوصف العاطفي للطبيعة الأندلسية قليل^١ إلى جانب الوصف المادي إلا أنه موجود كما سنرى ويجب أن يشار إليه عندما يبحث عن خصائص شعر الطبيعة في الأندلس . ونلاحظ أن جمال الطبيعة وقساوتها قد انتقلت إلى أشعار هؤلاء النفر من الشعراء الذين مارسوا حياة الحقل ، وهم هؤلاء الذين استطاعوا بعد أن انتقلوا إلى حياة المدن الناعمة أن يعبروا عن أفكار قوية بصور جديدة ملونة ، وهم الذين منحوا الشعر الأندلسي هذا اللون الحقل ، لون الشعر الرعوي^(١) القريب من أشعار بعض اليونانيين والرومانيين . وهو شعر يصف الطبيعة والحياة الحقلية

(١) هذا اللون من الشعر يسمى بالفرنسية La poésie bucolique

في رقة ظاهرة تذكرنا برقة أشعار الشاعر الغنائي اليوناني Anacréon^(١) وهو ينشد نعيم الأرض وسعادة الطبيعة في كثير من الانطلاق والجمال . وعديدون الشعراء الأندلسيون الذين تفتحت عبقريتهم في أحضان الطبيعة ، فابن عمار نشأ في الريف وقال فيه أول شعره ، وابن شرف أحس بشاعريته وهو في قرينته بركة ، ومنهم من غادر قرينته إلى المدينة ولكنه لم يستطع الابتعاد عنها نهائياً فعاوده الحنين إليها وفضل أن يقضى آخر أيامه فيها كما فعل الشاعر ابن مقان الذي يتحدث عنه عبد الواحد المراكشي في تاريخه عن الموحدين .

وكذلك كنا نلمس ذوقاً شعرياً وشغفاً كبيراً بالنظم في الطبقات العالية والأرستقراطية . فها هو ذا المظفر بن المنصور كان مشغولاً بالأشعار التي تصف الأزهار والمسماة بالنوريات ، وكان يقترح على الشعراء أن ينظموا في وصف الحدائق والحقول كما يقول المقرئ . ولم تكن السياسة والحروب لتشغل الأندلسيين عن الاهتمام بالأدب ، فها نحن أولاء نرى المستظهر بالله ، وكانت خلافته زمن الفتنة (توفي سنة ٤١٤ هـ) ، يعقد مجالس أدبية يشترك فيها أدباء مشهود لهم بالمقدرة كأبي عامر بن شهيد وأبي محمد بن حزم على رغم اضطراب الأمور من جراء العراك الشديد القائم ضد البرابرة .

وكذلك المعتضد فقد قرض الشعر ، ويحدثنا ابن بسام في ذخيرته أن قصائده قد جمعت في ديوان ، أما ابنه المعتمد ، فقد كان صورة صادقة للشاعر الأندلسي ، وفي عهده أصبحت إشبيلية قطب الحركة الأدبية والشعرية ، واستطاع بنو عباد أن يجمعوا في دولتهم الزعامة السياسية والزعامة الأدبية . وكذلك بلاط المرية أصبح ملتقى الشعراء في عهد المعتصم بن صمادح . أما بقية ملوك الطوائف فقد كان حبه للشعر والأدب ظاهرة من ظواهر التباهي والتفاخر ، وأكثر من أن يكون حباً خالصاً وذوقاً شعرياً مجرداً ، ولهذا لا نعجب أن نرى المظفر ملك بطليوس يقول إنه لا يقبل في بلاطه شاعراً يقل عن المتنبي أو المعري ، وكان من جراء ذلك أن ابتعد

(١) عاش هذا الشاعر في القرن الخامس قبل الميلاد .

الشعراء عنه ، أما الذين جاؤوه فقد دفعوا الثمن وأراقوا ماء وجههم في مدحه والتلق له .

أما في غرناطة ، فيظهر أن الشعراء ، في بادئ أمرهم ، قد عاشوا في خوف دائم لا سيما في عهد الأمير باديس بن حبوس ، وإذا كان هذا الأمير قد أكرم الأدباء كغانم الخزومي فذلك أنه كان يعتبرهم كفقهاء ، وقد أبعد كل من كان حراً في رأيه . ولكن الأمراء الذين خلفوا باديس كانوا على عكس ذلك ، فقد أكرموا الشعراء والأدباء الذين كانوا يتوافدون على غرناطة ، وكان من بينهم من ينظم شعراً ، حتى إن الأمراء البرابرة ، كعلي بن حمود الناصر ، كان يلذ لهم أن يسمعوا الشعر ويحضوا الشعراء على نظمه . ونحن نعلم ما تمتعت به غرناطة في أيامها الأخيرة من شهرة عظيمة وكيف كانت آخر نواة لتي فيها الشعر رواجاً ومرتعة ورخاء .

ولنقل إن الاهتمام بالشعر والأدب كان على نفس الشدة في بقية المراكز التي قام بها بلاط لطائفة من طوائف الملوك ، وإذا كان أمراء سرقسطة وطليلة قد امتازوا بحبهم للفلك وللعلوم الرياضية فما نحسب أنهم ضنوا على الأدباء أو قصروا في تشجيع الشعر والعطف على الشعراء .

أفلا يدهشنا إذاً هذا الرواج للشعر في مختلف الطبقات الأندلسية ولا سيما في زمن ملوك الطوائف ؟ إن مثل هذا الرواج قد لا نجده في الشرق الإسلامي . فقد كان الشعر في الشرق ، على الغالب ، إنتاجاً أرستقراطياً ، أما في الأندلس فهو ظاهرة وطنية ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية ، حتى أصبح على فم كل إنسان . فهو في نظر العامل والفلاح الأندلسي أنشودة تنسيه أتعابه ، وهو في نظر الوزير والأمير هرب من مشاغل السياسة والإدارة ، وهو في نظر الشاعر الرسمي أو شاعر البلاط سبب للرزق ، ولكن على رغم هذا الطمع المادى الذى أبداه شاعر البلاط فإنه ما كان لينسى النواحي الفنية ، بل لعله كان يجبر الفن على الانطلاق لينال إعجاب الممدوح . ويمكننا أن نقول إن الشعر كان في نظر الأندلسي على الإطلاق رمزاً للفخر ، وما كان الأمير ليجد في ممارسته

غضاضة أو نقصاً بل على العكس فخاراً ومجداً . ولهذا فالأندلسي رغب بالشعر للشعر ، لهذا التناسق الموسيقي الذي تختلج به الشفاه والقلوب ، ولأنه كلام مجنح وموسيقى قبل أن يكون ألفاظاً ، فهم يغنونه ولا يلقونه إلقاء .

والآن كيف يمكننا أن نختصر حياة الشاعر الأندلسي الذي نراه على الغالب منبعثاً من أوساط متواضعة ؟ وما هي الطريق التي يجب عليه أن يشقها ؟ لاشك أننا نُبعد أثناء الجواب على هذا السؤال الشعراء والأمراء الذين لهم نمط خاص في حياتهم وتربيتهم والذين كان شعرهم وصفاً لهذه الحياة مع اندفاعات خاصة رسمت إنسانيتهم وأشواقهم التي لم يستطيعوا التخلي عنها أو تناسيها .

فالشاعر الأندلسي ، وهو على الغالب من منبت متواضع ، يمكن أن تُختصر حياته بالكلمات الآتية : دراسة في قرية متواضعة ثم في مدينة كبيرة ، بعدئذ حياة هائمة قريبة من التشرذ إلى أن يقترب من محسن أو أمير فيواتيه الحظ وينعم بالجاه والمكانة والمال وينغمس في حمأة الدسائس .

ونرى أن أكثر الشعراء قد نشأوا في الأرياف وقد لقنهم بعض النحويين النظاميين علوم العربية والشعر ثم يقصدون إلى المدينة . والحكايات في هذا الصدد كثيرة مبعثرة في المقرئ وغيره من كتب الأدب ، فابن عمار عندما غادر قريته كان لا يملك إلا بغلته التي كان يمتطيها ، ومع هذا فقد أصبح وزيراً للمعتمد .

والشاعر ابن فضل بن شرف عندما قدم على بلاط المعتصم بن صمادح في المرية كان في ثياب رثة أثارت ضحك رجال البلاط حتى تساءلوا من أية صحراء هو قادم .

وهكذا فقد كان على الشاعر أن يجاهد للبحث عن المجد والمادة ، ولا سيما إذا كان من طبقة متواضعة . ولكن حياة المجد التي كانت تنتظر الشاعر الناجح هي التي كانت تحثه على العمل ومواصلة السعي ، وهو رغم سعيه ما كان ليخفي المصاعب التي تعترض سبيله ، فالشعراء كثيرون والنقاد مهيبون ومن الصعب لمن لا يتحلى بالعبقرية والثبات أن يفترع له طريقاً في هذا المضمار الوعر .

وكانت حياة الشعراء حياة تنقل ، فالشاعر يحمل إنتاجه الشعري ويطرق أبواب

الأغنياء والأمراء طلباً للجائزة وسعيًا وراء المادة ، حتى ولو استقر به المقام عند أمير من الأمراء فقد لا يكون هذا المقام طويلاً ، ويضطر الشاعر ، وقد شعر أن ممدوحه قد ملّ معانيه وشعره ، أن يغادر بلاط هذا الممدوح إلى بلاط ممدوح آخر ، وهو يظهر تدمره وشكواه مما لاقاه ويتألم من ممدوحه الذي لم يستطع إدراك مزيائه . وهذا التنقل سنراه شائعاً أيضاً عند شعراء التروبادور .

وشكوى الشعراء من سوء الطالع ومن سوء الناس وقلة فهمهم لهم ازدادت في زمن المرابطين . حتى رأينا ابن بقيّ يتهماً اتهاماً قوياً المجتمع الذي لم يعد يقدر العبقریات ورجال الشعر ، ولا شك أن ابن بقيّ قد نظر هذه النظرة الشديدة لمجتمعه عندما شعر ببعض الإخفاق ، وكان إخفاقه طعنة آلمت شعوره وأثارت سخطه حتى وصف أفراد مجتمعه بالجهلة والقساء . ومهما يكن من أمر فحياة الشعراء لم تكن دائماً حياة ضاحكة . بل هي كحياة أولئك التروبادور الذين كان عليهم أن ينشدوا ليعيشوا .

ولكن مهما اتصفت حياة الشاعر بالتنقل والتشرد ، فقد كان يعرف كيف يُخضع نفسه لشروط معينة ولطاعة مدعنه عندما يصل إلى مدينة يحكم فيها أمير راغباً في الدخول تحت رعايته . وهكذا يطرق باب قصر الأمير ويخصص له صاحب الإنزال (وهو موظف مخصص لإسكان الشعراء واستقبال ضيوف الأمير) مكاناً في ملحقات القصر ، وأحياناً في القصر ذاته عندما ينال الحظوة اللائقة التي تستدعي هذا الإكرام . وهنا تبدأ حياة الشاعر مرتبطة بحياة الأمير ، لا يترك مناسبة تمرُّ دون أن يوجّه له مديحاً يعدد فيه مناقبه وشجاعته وكرمه على طريقة الشعراء المشاركة مردداً معاني المدح التقليدية .

وحياة شاعر البلاط في الأندلس لا تختلف في شيء كثير عن حياة شاعر البلاط في الشرق ، ولا بد للشاعر بعد أن يدخل القصر ، أن يمثل بين يدي الأمير ليسمعه بعض شعره ، ويكون ذلك بمثابة امتحان له فإذا ما لاقى الشاعر استحساناً تمكن من البقاء . ومن الشعراء من استطاعوا أن ينالوا مرتبة عظيمة ويتقبلوا في المناصب العالية وتغدق عليهم الأموال بعد أن أخضعوا شيطانهم للمدح والاستجداء . فالشاعر الرسمي عبدٌ لصنعتة وسيدُه وكلما خضع لدواعي مهنته كشاعر بلاط

تضاءلت شخصيته ، ولكن هناك شعراء استطاعوا أن يلائموا بين مهنتهم ووحيمهم الشخصي ، ومنهم من استطاعوا أحياناً أن يفروا من دواعى المهنة ويتركوا لطبعهم فرصة التحليق فى أجواء الخيال والتعبير عن هواجس النفس دون قيد أو إكراه .
ولا ننتظر من شاعر البلاط أن يقدم لنا صوراً جديدةً أو شعراً ينحدر إلى أعماق القلوب ما دام خاضعاً لسلطان المهنة ودواعيها ، بل لنبحث عنها فى الشاعر الشخصى الذاتى الذى لم يُخضع شيطانه للمال بل جعله طوع قلبه وعاطفته وهواجسه ، ويمكننا أن نختم هذا البحث قائلين إن الشاعر الأندلسى فى صفتيه الرسمية والذاتية قد استطاع أن يرضى ممدوحه ونفسه وفنه .

* * *

الفصل الثالث

الآثار الأدبية الأولى وذكر لأشهر الأدباء والشعراء

ما إن تم للعرب فتح الأندلس حتى أخذت القبائل العربية تتقاطر عليها من أنحاء المشرق ، ولا سيما ديار الشام ، مستوطنة . وكان بين هؤلاء النازحين من عرف بالشعر وارتاض بنظمه ، إلا أن من الطبيعي ألا نعتبر ما أثر عن هؤلاء الطارئين شعراً أندلسياً يحمل طابع الأندلس الخاص وملامح الشخصية الأندلسية المتميزة ؛ إذ لا يعدو هؤلاء أن يكونوا جيلاً مشرقياً تظهر في آثارهم مسحة المشرق ، ولا بد من تصرم حقبة من الزمن غير قصيرة لينشأ جيل أندلسي طَبَّعَهُ الجوال الجديد بطابعه وظهرت في تكوينه آثار طبيعة الأندلس ومناخها على نحو مستقل .

على أن هذه الأجدام العربية النازحة ، وما انحدر منها من سلالة أندلسية كانوا ، في واقع الأمر ، أول تاريخ الأدب في الأندلس « وقلما تجد في الأندلسيين شاعراً مفلقاً أو كاتباً بليغاً أو عالماً ضليعاً إلا ونسبه في قبيلة من تلك القبائل العربية ^(١) » .

هذا ، وقد حفظت لنا كتب الأدب طائفة مما أثر من شعر هؤلاء النازحين ، وفي طبيعة هؤلاء عبد الرحمن الداخل الذي وطد الملك لبنى مروان في الأندلس ، فالمقرى يذكر له خطباً ورسائل تشبه في أسلوبها خطب الأمويين ورسائلهم في آخر أيام دولتهم بالمشرق ، ويذكر له فوق ذلك شعراً يتمتع بركة الشعر الأموي وجزالته . ومنه ما بعث به إلى أخت له بالشام يصف فيه شوقه إليها وحنينه إلى بلده ووطنه الذي فارقه موجه القلب فاراً من سيوف العباسيين ، قال :

أَيُّهَا الرَّابِئُ الْمَيْمُ أَرْضِي إِقْرَ بَعْضَ السَّلَامِ عَنِّي لِبَعْضِ
إِنْ جَسَمِي كَمَا تَرَاهُ بِأَرْضِي وَفَوَّادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

(١) مصطفي صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ٣/ ٢٦٨ .

قُدِّرَ الْبَيْنُ بَيْنَنَا فَافْتَرَقْنَا وطوى البينُ عن جفونى غمضى

قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى^١

ومنه أيضاً هذه الأبيات التى تفيض بالحنين والشوق التى قالها فى نخلة فريدة فى حديقة قصره بالرصافة الذى بناه على نسق رصافة الشام ، فهاجت شجته وأثارت كوامن عاطفته :

تَبَدَّلَتْ لَنَا وَسَطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ

فقلتُ : شَبِيهَى فِي التَّغَرُّبِ وَالنَّوَى وطول التناثى عن بنى وعن أهلى
نَشَأَتْ بِأَرْضِ أَنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

سَقَّتْكَ غَوَادِي الْمُزْنِ فِي الْمُنْتَأَى الَّذِي

يَصِحُّ وَيَسْتَمِرُّ الْمَسَاكِينُ بِالْوَيْلِ^٢

وقد كان ابن عمه الأمير عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى من الذين فروا من الشام خوفاً من المسوودة ، وقد مضى إلى الأندلس فولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، وكان يقول الشعر ، وقد روى له أيضاً أبياتاً قالها فى نخلة فريدة رآها بحديقة بإشبيلية فتذكر وطنه وحنَّ إلى أهله ، قال :

يَا نَخْلُ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي فى الأرضِ نائيةٌ عن الأهلِ

تَبْكِي ، وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَةٌ عجماءٌ لم تُجْبَلْ عَلَى جَبَلِي

وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ إِذَا لَبَكَّتْ ماءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتَ النَّخْلِ

لَكِنَّهَا حُرِمَتْ وَأَخْرَجَنِي بَغْضَى بَنِي الْعَبَّاسِ عَنِ أَهْلِي^٣

(١) المرقى ٢/٧٠٧ و ٧١٦ .

(٢) المرقى ٢/٧١٦ .

(٣) المرقى ٢/٧١٨ .

وهذه الأبيات تنسب أيضاً لعبد الرحمن ، وهي كما ترى تنمُّ عن قوة ورقة كانتا طابع الشعر الأندلسي في جميع أطواره .

وقد أصبحت قرطبة في زمن عبد الرحمن ومن عقبه من الأمراء مركز الحركة العلمية والأدبية في الأندلس ، فتوافد إليها الكثيرون من المشرق يعرضون إنتاجهم وشعرهم . وحدّثَ اتصال أدبي ، شرقي غربي ؛ ولكن قرطبة كانت ترسم خطى بغداد في نهضتها ، وكان المشرق قبلة الأندلس ، وقد رأينا كيف كان الأندلسيون يعيشون على الثقافة الشرقية فلا يكاد يُعرَفُ كتابٌ في المشرق حتى يُطلب إلى المغرب^(١) ، ورأينا كيف كان الأندلسيون يرتحلون إلى المشرق في طلب العلم والأدب والرواية ثم يعودون فينشرون هذا العلم والأدب في الأندلس .

وهكذا كان الأدب حتى أواخر الدور الأموي وسقوط الخلافة أدباً وافداً على الأندلس يتذوقه الأندلسيون ويقبلونه ، وكانت خطبهم ورسائلهم لا تختلف كثيراً عن خطب المشرق ورسائله أواخر العصر الأموي وصدَرَ العصر العباسي . ولم يكن هناك جدّةٌ في أشعارهم إلا ما تقتضيه طبيعة إقليمهم من وصف للرياض والبساتين والمنشآت التي استحدثها ملوكهم ، وبقيت أكثر الأغراض الشعرية، التقليدية تحتذى نماذج مشرقية ، وكثرت فيما بعد الألقاب التي تشير إلى أن همّ شعراء الأندلس أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق .

زرياب والنهضة الغنائية :

يُستدل من الأخبار التي يرويها المقرئ أن عبد الرحمن الداخل قد استقدم إلى الأندلس الجاريات المحسنات للغناء ، منهنّ فضلُ المدائنية^(٢) ، وبذلك يكون أول من شجع رحلة الغناء إلى الأندلس .

(١) انظر ص ٦٩ - ٧٣ من هذا الكتاب

(٢) نشأت وتعلّمت ببغداد ثم درجت من هناك إلى المدينة المنورة فارتق غنائها ثم اشترت لعبد الرحمن مع صاحبها علم المدائنية وصواحب غيرها ، وجرى بهن إلى الأندلس فأنزلن بقصر الأمير في دار تعرف بدار المدائنية نسبة إليهن ، وكان عبد الرحمن يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدبهن . المقرئ ٧٥٨/٢ .

ويُعدُّ زرياب المغنى رأس النهضة الغنائية الأندلسية وهو أثر من آثار الحضارة الشرقية التي وفدت إلى الأندلس عن طريق من جاءها من المشاركة . وزرياب هذا ظهر في بغداد وأخذ الغناء عن إسحق الموصلي حتى برع فيه ، وقد رأى إسحق أن يُسمع الرشيد غناءه فسمعه وأعجب به وأوصى أن يعتنى بشأنه ، فما كان من إسحق إلا أن لحقته غيرة منه وخاف من منافسته فأوعز إليه أن يترك العراق ، وفي ذلك يقول المقرئ :

« فسقط في يد إسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال يا عليّ إن الحسد أقدم الأدوية وأدواها ، والدنيا فتانة ، والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها ، وقد مكرت بي فيما انطويت عليه من إجادتك وعلوّ طبقتك ، وقصدت منفعتك ، فإذا أنا أتيت نفسي من مأمئها بإدنائك ، وعن قليل تسقط منزلتي وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما لا أصحابك عليه ولو أنك ولدى ، ولولا رعي لذمة تربيتك لما قدّمت شيئاً على أن أذهب نفسك يكون في ذلك ما كان ، فتخير في ثنتين لا بد لك منهما : إما أن تذهب عنى في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطينى على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره ، وإما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفاً إلىّ . فخذ الآن حذرک منى فليست والله أبقى عليك ولا أدع اغتيالک باذلا في ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامه ، فأعانه إسحق على ذلك سريعاً ، وراش جناحه ، فرحل عنه ومضى يبغى مغرب الشمس» (١) .

ويترك زرياب بغداد ويقصد الأندلس فيصل إليها في أول إمارة عبد الرحمن الثانى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م (٢) . فيستقبله الأمير استقبالا فخماً ، وينزله في قصر من أحسن القصور ، ويكرمه ويقدمه على جميع المغنين .

(١) انظر أخبار زرياب في نفح الطيب ج ٢ ص ٧٤٩ - ٧٥٥ .

(٢) انظر ص ١٧ من هذا الكتاب .

إن النهضة الغنائية التي أحدثها قدوم زرياب إلى الأندلس دامت طويلاً وكان لها أثر كبير في الشعر الأندلسي وفي اختراع الموشحات والزجل . وزرياب هو الذي زاد في الأندلس على أوتار العود وترّاً خامساً وكانت أربعة قبل عهده ، وهو الذي اخترع مضرب العود من قوادم النسر ، وهو الذي سنّ لأهل الأندلس سنناً في آداب الاجتماع أخذت عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنه علّم الأندلسيين طريقة جديدة لتصنيف الشعر وترتيبه شاعت عنه ، وعرفهم ألواناً جديدة من الطعام ، وهو أول من اجتنى بقلّة الهليون المسماة بلسانهم الأسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ، وهو الذي دلم على فنون جديدة في الطعام وفي ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ آنية الزجاج الرفيع بدلا من آنية الذهب والفضة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس وغير ذلك من الأمور التي تدل على ذوقه المرفه وتعكس أثر الحضارة المشرقية .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناؤه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد أثرها في موسيقى الغرب أيضاً وفي شعره الغنائي . وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطي مؤلف الألحان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتم نهضة زرياب الغنائية .

نحو أدب أندلسي :

هذه النهضة الغنائية التي وفدت من الشرق وتطورت بتأثير الحياة الجديدة ، كانت تجاريها نهضة أدبية استقت أصولها من الشرق ثم أخذت تتطور رويداً رويداً بتأثير الاتصال الذي جرى بين العناصر المختلفة .

وقد رأينا كيف أقبل الإسبان على حضارة العرب يغترفون منها ، وعكفوا على اللغة العربية يتدارسونها ولا سيما بقرطبة عاصمة الملك حتى هال أسقفها الفارو Alvaro هذا الأمر ، فكتب يشكو أنه لا يجد بين الألوفا من أبناء طائفته من يستطيع أن يكتب رسالة باللاتينية المقبولة بينما يتقن الكثيرون العربية وينظمون

الأشعار فيها بمهارة لا تقاربها مهارة العرب أنفسهم^(١) ، ولا شك في أن التساهل الذى أبداه العرب والرؤاء الذى كان لحضارتهم قد مهدا السبيل لهذا الاتصال الذى بدت آثاره جليلة فى الإنتاج الأدبى الذى جاء يحمل طابع الشرق والأندلس معاً .
ويمكننا أن نقول إن الأدب العربى فى الأندلس ، وقد بلغ أوج ذروته فى حكم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور ، لم يستطع أن يتخلى عن أثر المشرق . وعندما جاء عهد ملوك الطوائف كانت الموشحات أظهر طابع امتاز به أدب الأندلس الذى صدر عن خصائص الحياة الجديدة .

طائفة من الأدباء

وقد نبغ فى بلاد الأندلس شعراء استطاعوا أحياناً أن يجاروا الفحول من شعراء المشرق فى بعض الأغراض وإن كانوا قد قصّروا فى أغراض أخرى ولم يستطيعوا أن يتفوقوا عليهم . ولا بد لنا هنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة على سبيل الذكر لا على سبيل الحصر .

بعض أدباء فترة مجد الدولة الأموية :

ابن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ)

يأتى ابن عبد ربه فى طليعة هذه الأسماء ، فقد ولد هذا الأديب الشاعر فى قرطبة سنة ٢٤٦ هـ ونشأ فيها ميالاً إلى العلم والأدب . ونال من أمراء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضة وحلّ عندهم فى المكان الأسمى . وقد برع فى الفقه والتاريخ ودرس علوم العربية وأتقن الشعر والكتابة ، ويروى أنه كان فى صباه لاهياً مولعاً بالغناء ونظم فى ذلك القصائد والمقطعات الرقيقة الجميلة ، ثم أقلع فى كبره عن صبوته وأخلص لله فى توبته ، ففعل مثل أبى نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزان شعره الغزلى وقوافيه وسماها « الممحّصات » ليُمحّص الله عنه ذنوب

(١) انظر ص ٥٩ من هذا الكتاب .

شبابه ، أى يطهره منها . وقد أصيب فى نهاية عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة ٣٢٨ هـ وابن عبد ربه من الشعراء المعدودين زمن الخلافة فى الأندلس ، وقد عارض بعض شعراء المشرق . وشعره غزير ولكن أكثره فقَد ، ولم يُنقل إلينا سوى ما دوّنه الثعالبي فى يتيمة الدهر .

وله فى النثر كتابه الشهير المعروف بـ «العقد الفريد» نافس به المشاركة فى فن التأليف الأدبى . ولهذا الكتاب مزية هامة هى جمعه لكثير من الرسائل والخطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادت الأصول المأخوذة هى عنها وبقيت فيه مخلّدة ، وقد قصره المؤلف على أخبار المشاركة ، ولعل السبب فى ذلك أن الشرق فى نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحتل مؤلفاته المكان الأسمى ، وإليه تتجه الأنظار . ويروى أنه ، لما وقع الكتاب فى يد الصاحب بن عباد ، أقبل عليه ينشد فيه أخبار أهل المغرب ، ولما لم يجد فيه شيئاً جديداً ، تركه أسفاً وقال جملته المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » .

وابن عبد ربه أُولع حقاً بمحاكاة أهل المشرق ولم تظهر عليه النزعة التجديدية ، وهى بعد ضئيلة ضعيفة فى بلاده ، فكان شعره متيناً محكماً ولكن لم تظهر عليه آثار التجديد .

والمهم فى شأن ابن عبد ربه أن ابن بسام صاحب الذخيرة والصلاح الكتبى مؤلف فوات الوفيات وابن خلدون ينسبون إليه فى رواية يتناقضونها أنه أول من سبق إلى نظم الموشحات . وهذا زعم خاطئ سنجليه عند الكلام على الموشحات ، فالظاهر أن فن الموشح قد تأخر عن زمن ابن عبد ربه قليلاً ولم يكن لصاحب العقد أثر فيه كما سنبين ذلك .

ابن هانى (٣٢٦ - ٣٦٣ هـ)

ومن الأسماء المشرقة فى سماء الشعر الأندلسى ابن هانى ، فقد ولد بإشبيلية ونشأ بها واتصل بصاحبها ، وكانت الأندلس إذ ذاك فى عصرها الذهبى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه الحكيم . واشتهر ابن هانى بالآراء الفلسفية وباللهو

والمجون ، فحمل الفقهاء والشعب عليه واضطر صاحب إشبيلية إلى نصحه بالابتعاد عن هذه المدينة زمنياً فسافر إلى المغرب وسينته ست وعشرون سنة . واتصل بجوهر الصقلي قائد المعز ثم بالمعز نفسه فمدحه وعلت منزلته عند الخليفة الفاطمي فجعله شاعره الخاص . ثم سار المعز لفتح مصر ففتحها وأراد ابن هاني اللحاق به فمات ببرقة في طريقه إليه . وتأسف المعز عليه وقال عندما باخه خبر وفاته : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » . وقد قال فيه ابن خلكان إنه عند المغاربة كالمثني عند المشاركة وليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق . وهو صاحب القصيدة المشهورة :

تقولُ بنو العباس هل فُتحت مِصرُ فقل لبني العباس قد قضى الأمرُ
وقد جاوزَ الإسكندريةَ جوهرُ تطالعه البشرى ويقدمه النصرُ

وله قصيدة يمدح بها المعز ويصف أسطوله وصفاً دقيقاً فيقول فيها :

أما والجواري المنشآت التي سرتُ لقد ظاهرتها عدةٌ وعديدُ
قِبابٌ كما تزجى القِبابُ على المها ولكنَّ من ضمتُ عليه أسودُ
ولله مما لا يرونَ كتائبُ مسومةٌ تحلُّو بها وجنودُ
أطاعَ لها أنَّ الملائكَ خلفها كما وقفت خلف الصُّفوفِ ردودُ
وأنَّ الرياحَ الذارياتِ كتائبُ وأنَّ النجومَ الطالعاتِ سُعودُ
وما راعَ ملكَ الرومِ إلا اطلاعها تنشرُ أعلامُ لها وبنودُ
عليها غمامٌ مكفهرٌ صبيره له بارقاتٌ جمَّةٌ ورعودُ

مَوَاحِرُ فِي طَامِي الْعُبَابِ كَأَنَّهَا لِعِزْمِكَ بِأَسِّ أَوْ لِكِفِّكَ جُودِ
 إِذَا زَفَرَتْ غِيظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ كَمَا شَبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودِ^١
 فَأَفْوَاهُهُنَّ الْحَامِيَاتُ صَوَاعِقُ وَأَنْفَاسُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدِ
 لَهَا شُعْلٌ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلَا حِفُّ سُودِ
 تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهَا سَلِيطٌ لَهَا فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدِ^٢
 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيَّاحَ أَعْنَةُ وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْحَبَابَ كَدِيدِ^٣

ونلاحظ في هذا الوصف الضخامة في الألفاظ إلى جانب الصور البصرية ،
 ولقد قادت هذه الضخامة وهذا الحبُّ للمبالغة في المدح والوصف وهذه الحكمة
 المتفرقة في شعره - قادت المغاربة إلى تشبيهه بالمتنبي . إلا أن بعض النقاد كانوا
 يرون أن ألفاظه طنَّانة لا معاني كبيرة تحتمها ، وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما
 قال : « ما أشبهه إلا برَحي تطحن قروناً » . غير أن ابن خلكان يرى أن تعصَّبَ
 المعري للمتنبي هو الذي دفعه إلى هذا القول ، ومهما يكن من أمر فالفرق بين
 الشاعرين شاسع جداً ، فلم تكن لابن هاني عبقرية المتنبي ولم يكن لديه المعين
 النفسى والفلسفى الذى اغترف منه أبو الطيب .

وديون ابن هاني مرتَّب حسب حروف الهجاء طبع في مصر سنة ١٢٧٤ هـ
 وفي بيروت سنة ١٨٨٤ م .

أحمد بن دراج القسطلی (٣٤٧ - ٤٢١ هـ)

وقد عرف من شعراء الدولة العامرية في قرطبة ابن درَّاج القسطلی^(٤) وكان
 كاتب المنصور بن أبي عامر وشاعره ، وهو معدود من الفحول وقد شارك ابن

(١) المارج : الشعلة شديدة اللهب .

(٢) السليط : الزيت . الذبال : فتيل السراج . عتيد : قوى متين .

(٣) الكديد : الأرض الصلبة .

(٤) راجع بعض نثره وشعره في الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول المجلد الأول ص ٤٣ - ٧٨ .

هانيء في لقب متنبى المغرب ، ولا بن دراج رسائل وفصول في النثر لا تختلف كثيراً عن الرسائل والفصول التي وضعت في العصر العباسي ، وله شعر أبلغ من نثره وقد أجرى الثعالبي ذكره في يتيمة وهو صاحب الدالية المشهورة في سليمان بن الحكم :

شَهِدْتَ لَكَ الْأَيَّامُ أَنَّكَ عَيْدُهَا لَكَ حَنٌّ مُوحِشُهَا وَآبَ بَعِيدُهَا

وله رائية في المنصور بن أبي عامر نقرأ فيها هذه الأبيات الجميلة التي يصف فيها وداعه لزوجته ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه :

وَلَمَّا تَدَانَتْ لِلوَادِعِ وَقَدْ هَفَا بِصَبْرِيَ مِنْهَا أَنَّهُ وَزَفِيرُ
تُنَاشِدُ نِي عَهْدَ المودَّةِ وَالهُوَى وَفِي المَهْدِ مَبْغُومُ النَّدَاءِ صَغِيرُ
عَيْبِي بِمَرَجُوعِ الخِطَابِ وَلَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرُ
تَبَوَّأَ مَمْنُوعَ القلوبِ وَمَهَّدَتْ لَهُ أذْرُعَ مَحْفُوفَةٍ وَنَحُورُ
عَصَيْتِ شَفِيعِ النَفْسِ فِيهِ وَقَادَنِي رَوَاحُ بِتَدَابِ السَّرَى وَبُكُورُ
وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَّتْ بِهَا جَوَانِحُ مِنْ دُعْرِ الفِرَاقِ تَطِيرُ

* * *

وعُرف أيضاً في هذه الفترة الشاعرُ الرَّمَادِي ، أبو عمر يوسف بن هارون وهو شاعر قرطبي مجيد عاصر المتنبى وتوفي سنة ٤٠٣ هـ كما ذكرنا^(١) . ويقول المقرئ إنه مشهور عند الخاصة والعامة لسلكه في فنون من المنظوم والمنثور مسالك ، حتى كان كثير من شيوخ الأدب في وقته يقولون : فَتُحِ الشَّعْرُ بِكِنْدَةَ ، وَخُتِمَ بِكِنْدَةَ ، يعنون امرأ القيس والمتنبى ويوسف بن هرون .

(١) انظر ص ٥١ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (٢) .

وعرف أيضاً أبو عامر بن شهيد من شعراء الدولة العامرية وكان وزير الناصر . ولد سنة ٣٨٢ هـ وتوفي بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ ، وله رسالة سماها « التوابع والزوابع »^(١) وهي تشبه « رسالة الغفران » للمعري في خيالها وأسلوبها . ومحور موضوعها أن الشاعر رافق إلى أرض الجن سميراً له أسماء زهير بن نمير وتنقل بين الأدباء والشعراء القدماء ورواتهم فكان يطرحهم الشعر ويستمع إلى أخبارهم وتجرى بينه وبينهم مساجلات ومناظرات . وقد تفنن ابن شهيد في عرض هذه الأخبار بصورة تدعو إلى الإعجاب . وهذه الرسالة جديرة بالاهتمام ، وقد نشرها حديثاً في بيروت بطرس البستاني معتمداً على ما جاء منها في الذخيرة^(٢) .

بعض شعراء ملوك الطوائف :

في هذا الدور أيضاً أسماء لامعة في الشعر والأدب نشير إلى أهمها . وقد رأينا أن ظهور ملوك الطوائف لم يكن حداً فاصلاً لرواج الأدب وازدهاره ، بل ، على العكس ، كان عهداً لاقى فيه الأدباء والشعراء كل رعاية وعطف . ويبدو لنا أن بني عبّاد هم أولى ملوك الطوائف بانتباهنا ، فقد كانوا هم أنفسهم شعراء كما ذكرنا ، وكان بلاطهم منتدى الأدب في عصرهم ، فهذا المعتضد يجعل يوماً من أيام الأسبوع – الاثنين – للشعراء يفدون به عليه فيطرحهم الشعر ويستمع إليهم ويحيز السابق بينهم ويشحذ هممهم للنظم . وجاء المعتمد فبرز أباه في هذا المضمار حتى أصبح بلاطهم مركز الحركة الأدبية في الأندلس كما رأينا .

ومما يحكى عن المعتمد أنه أول ما تعرف إلى امرأته «اعتماد» الشهيرة بالرّمِيكية كان عن طريق الأدب ، فقد زعموا – كما يقول المقرئ – أن المعتمد ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره ، وقد زردت الريح النهر . فقال ابن عباد لابن عمار : أجز :

(١) التوابع : ج تابع وتابعة : الجنى . والزوابع : ج زوبعة وهي الشيطان أو رئيس الجن .

(٢) انظر ص ٧٣ من هذا الكتاب ، الحاشية رقم (٣) .

صَنَّعَ الرِّيحُ مِنَ الْمَاءِ زَرْدٌ

فأطال ابن عمار الفكرة ، فقالت امرأة من الغسالات :

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدُ

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به ، مع عجز ابن عمار ، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة ، فأعجبته فسألها : أذات زوج هي ؟ فقالت لا ، فتزوجها ، وولدت له أولاده الملوك النجباء (١) .

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتت المشى فيه ، فأمر المعتمد ، فسُحِقَتْ أشياء من الطيب ، وذُرَّتْ في ساحة القصر حتى عمته ثم نُصِبَت الغرايل ، وَصُبَ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وَعُجِنَتْ بالأيدى حتى عادت كالطين ، وخاضتها مع جواريتها . وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط ، فقال : ولا يوم الطين ؟ فاستحيت واعتذرت . ويتابع المقرئ الخبر قائلاً : وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء « لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » .

ولعل المعتمد يشير إلى هذه الحادثة في أبياته الرائية حيث قال في بناته :

يَطَّانُ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُوراً

فقد دخلت على المعتمد بناته وهو في سجنه بأغمات ، بعد ما حلت به المصيبة ، دخلن عليه وهن في أطمارهن البالية ، يغالبن البكاء ويصارعن الذل ليرددن على مسامع أبيهن كلمات التهئة بأول عيد يمر عليهن في السجن ، فإذا

بالأب الملك يحتضن بناته وينشد هذه الأبيات (١) :

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا فِيسَاءِكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتِ مَأْسُورَا
تَرَى بِنَاتِكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً يَغْزِلُنَ لِلنَّاسِ مَا يَمْلِكُنَ قِطْمِيرَا
بَرْزَنَ نَحْوِكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً أَبْصَارَهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرَا
يَطَّأَنَّ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةً كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورَا
لَا خَدًّا إِلَّا تَشَكَّى الْجَدْبَ ظَاهِرُهُ وَلَيْسَ إِلَّا مَعَ الْأَنْفَاسِ مَمْطُورَا
أَفْطَرْتَ فِي الْعِيدِ لِعَادَتِ مَسَاءَتِهِ فَكَانَ فِطْرُكَ لِلْأَكْبَادِ تَفْطِيرَا
قَدْ كَانَ دَهْرُكَ إِنْ تَأْمُرُهُ مِمْتَثَلًا فَدَكَ الدَّهْرُ مِنْهِيأً وَمَأْمُورَا
مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ فَإِنَّمَا بَاتَ بِالْأَحْلَامِ مَغْرُورَا

وهكذا نرى أن المعتمد بن عباد من الملوك الشعراء دام ملكه ثلاثاً وعشرين سنة (٤٦٢ - ٤٨٤) وكان كما قلنا أن نكب في آخر حياته بملكه ونفسه وأبنائه ونفى إلى أغمات في إفريقية وسجن وقيد بالقيود بعد مجده وعزه في قصره الزاهي بإشبيلية فأخذ يتسلى عن حظه بنظم الأشعار من جور الزمان بعد أن كانت أشعاره تدور على اللهو ومجالس الأنس . ومن أمثلة شعره الذي يصور حياة الترف والجلال التي عاشها قوله (٢) :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ الرَّاحَ يَسْطَعُ نُورَهَا وَاللَّيْلُ قَدْ مَدَّ الظُّلَامَ رِدَاءَ
حَتَّى تَبَدَّى الْبَدْرُ فِي جَوْزَائِهِ مَلِكًا تَنَاهَى بِهِجَةً وَبَهَاءَ

(١) انظر ديوان المعتمد ص ١٠٠ ، وقد جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة

. ١٩٥١

(٢) ديوان المعتمد ص ٢٨ .

لَمَّا أَرَادَ تَنْزُهَاً فِي غَرْبِهِ جَعَلَ الْمِظْلَّةَ فَوْقَهُ الْجَوَازِءَ
 وَتَنَاهَضَتْ زُهُرُ النُّجُومِ يَحْفَهُ^١ لَأَلَاوُهَا فَاسْتَكْمَلَ الْآلَاءَ
 وَتَرَى الْكَوَاكِبَ كَالْمَوَاكِبِ حَوْلَهُ رُفِعَتْ ثُرَيَّاها عَلَيْهِ لِوَاءَ
 وَحِكْمِيتهُ فِي الْأَرْضِ بَيْنَ مَوَاكِبِ^٢ وَكَوَاعِبِ^٣ ، جَمَعَتْ سَنَاءً^٤ وَسَنَاءَ
 إِنْ نَشَرْتَ تِلْكَ^٥ الدَّرُوعَ حَنَادِسًا^٦ مَلَأَتْ لِنَاهِذِي^٧ الْكُثُوسَ ضِيَاءَ
 وَإِذَا تَغَنَّتْ هَذِهِ فِي مِزْهَرٍ^٨ لَمْ تَأُلْ تِلْكَ عَنِ التَّرِيكِ^٩ غِنَاءَ

أما أشعاره الشاكية التي قالها في محنته فنجد فيها لونا خاصاً من الأدب ، فيه من الرقة والعاطفة ما يجعلنا نشعر أنها أشعار عزيزة ذل . وكانت هذه الأشعار سلوى المعتمد في أسره ، بها يندب حظه ، ويحدث بآلامه ، ويبكي مصيره ومصير ملكه :

اقْنَعْ بِحِظِّكَ فِي دُنْيَاكَ مَا كَانَا وَعَزَّ نَفْسَكَ إِنْ فَارَقْتَ أَوْطَانَا
 فِي اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ مَضَى عِوَضٌ فَأَشْعِرِ الْقَلْبَ سُلُوَانَا وَإِيمَانَا
 أَكَلَمَا سَنَدَحْتَ ذِكْرِي طَرَبْتَ لَهَا مَجَّتْ دَمُوعُكَ فِي خَدِّكَ طُوفَانَا
 أَمَا سَمِعْتَ بِسُلْطَانِ شَبِيهِكَ قَدْ بَزَّتْهُ سُودُ خُطُوبِ الدَّهْرِ سُلْطَانَا
 وَطَّنْ عَلَى الْكُرْهِ ، وَارْقُبْ إِثْرَهُ فَرَجًا^٦ وَاسْتَغْنِ اللَّهَ تَغْنِمًا مِنْهُ غُفْرَانَا^٦

(١) السنا بالقصر : الضوء . وبالمد : المجد والرفعة .

(٢) تلك : فاعل نشرت ، والإشارة إلى المواكب . والدروع مفعول به .

(٣) هندي : إشارة إلى الكواعب وهي فاعل ملأت . والكؤوس مفعول به .

(٤) المزهر : العود الذي يضرب به .

(٥) التريك كما في اللسان (ترك) : بيضة الحديد للرأس والجمع ترائك وتريك

(٦) ديوان المعتمد ص ١١٤ .

وفي مكان آخر من ديوانه يقول :

أَنْبَاءُ أَسْرِكِ قَدْ طَبَّقْنَ آفَاقاً بَلْ قَدْ عَمَمْنَ جِهَاتِ الْأَرْضِ إِقْلَاقاً
 سَرَتْ مِنْ الْغَرْبِ لَا يُطْوَى لَهَا قَدَمٌ حَتَّى أَتَتْ شَرْقَهَا تَنْعَاكَ إِشْرَاقاً
 فَأَحْرَقَ الْفَجْعُ أَكْبَاداً وَأَفْعَدَةً وَأَغْرَقَ الدَّمْعُ آمَاقاً وَأَحْدَاقاً
 قَدْ ضَاقَ صَدْرُ الْمَعَالِي إِذْ نَعَيْتَ لَهَا وَقِيلَ: إِنْ عَلَيْكَ الْقَيْدُ قَدْ ضَاقَا
 أَنِّي غُلِبْتُ، وَكُنْتُ الدَّهْرَ ذَا غَلَبٍ لِلْغَالِبِينَ ، وَلِلْسَبَاقِ سَبَاقَا
 قَلْتُ: الْخَطُوبُ أَذَلَّتْنِي طَوَارِقُهَا وَكَانَ عَزْمِي لِلْأَعْدَاءِ طَرَّاقَا
 مَتَى رَأَيْتَ صُرُوفَ الدَّهْرِ تَارِكَةً إِذَا انْبَرْتُ لِدَوَى الْأَخْطَارِ أَرْمَاقَا

وهكذا نرى أن أسر المتعمد أثار كوامن عواطفه كما أثار في نفوس الشعراء عواطفهم تألماً وحسرة عليه . فهذا الشاعر الداني يشهد تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دولة بني عباد عندما تتقدم جنود ابن تاشفين لتضع القيد في يد ملك إشبيلية ولتحمله السفن هو وآله ، وتسير بهم في الوادي الكبير ، في طريقهم إلى أعجمات ، بينما يحتشد الناس على ضفتي النهر يودعون ملكهم وأهله ويذرفون على أيامه سخين الدموع . هذه المشاهد المبكية والخطوب المؤلمة هي التي حركت في نفس الشاعر الداني لواعج الحزن والأسى فإذا به يرثى ملكه بداليتة المشهورة ،

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعِ رَائِحِ غَادِي عَلَى الْبِهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَادٍ

وفيها يقول :

نَسَيْتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ فِي الْمُنْشآتِ كَأَمْوَاتٍ بِأَلْحَادِ

والناسُ قد لَأُوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافياتٍ فوق أزباد
حُطَّ القناعُ فلم تُستر مُخَدَّرَةٌ ومزقت أوجهُ تمزيقَ أبراد
حان الوداع فضجت كلُّ صارخة وصارخ من مُفدَّاةٍ ومن فادى
سارت سفائنهم والنوحُ يتبعُها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادى
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت تلك القطائع من قِطعات أكبَاد

ويتفجر الشعر رثاء عليه من كل حذب وصبوب ، فإذا بالوزير ابن عبدون^(١)
يقول فيه رائيته الشهيرة التي مطلعها :

الدهرُ يفجع بعدَ العين بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصُور

وإذا بشاعره أبى بحر بن عبد الصمد يمضى إلى قبره بعد صلاة العيد مع ملاء
من الناس ويخر باكياً معفراً وجهه في تراب جدته وهو ينشد :

مَلِكُ الملوِكِ أَسامِعُ فَأُنادى أَمَ قد عَدَّتْكَ عن السماعِ عَوادى
لما خَلَّتْ منك القصورُ فلم تكن فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
قَبَلتُ فى هذا الثرى لك خاضعاً وتَخِذتُ قَبْرَكَ موضعَ الإنشاد

وابن عبد الصمد هذا مع الشاعر الدانى والشاعر ابن حمديس هم ثلاثة من
شعرائه الذين وفوا له ورحلوا إليه بعد ذله وسجنه . وهناك عدد من الشعراء الذين
عاصروا المعتمد وقالوا فيه الشعر نجد أخبارهم فى النسخ والقلائد وغيرهما من كتب
الأدب .

(١) هو وزير بنى الألفطس فى بطليوس وشاعرهم توفى سنة ٥٢٠ هـ .

النساء الشاعرات (١) :

إذا كانت الشاعرات قد شاركن الشعراء في نظم الشعر كما ذكرنا ، فيمكننا أن نقول إن هذه الظاهرة قد بدت مع ظهور ملوك الطوائف ، ففي زمنهم أخذ الشعر يتسرب إلى دور الحریم في القصور وأخذت النساء من بنات الملوك والأمراء والحواری على اختلاف طبقاتهن ، يفقهن هذا اللون من الأدب ويحسنن نظمته . وقد أورد المقرئ شعراً لطائفة كبيرة من الحرائر والحواری . وأكثرهن عرفن في عهد ملوك الطوائف ، نذكر منهن : أم السعد بنت عصام الحمیری ، وحسانة التميمية ، وأم العلاء بنت يوسف الحجازية ، وأم الكرام بنت المعتصم بن صمادح وجاریته غایة المنی ، والشاعرة الغسانية البجانية نسبة إلى بجانة ، والعروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، وحفصة بنت حمدون الحجازية ، ونزهون الغرناطية ، وحفصة الركونية ، والعبادية جارية المعتضد ، واعتماد زوج المعتمد الشميرة بالرميكية السابقة الذكر ، وبثينة بنت المعتمد ، وحمدة بنت زياد المؤدب ، وولادة بنت المستكفی ، ومهجة القرطبية جاریتها ، وغيرهن . وقد مرت أسماء بعضهم أثناء الكلام على شغف الأندلسيين بالشعر (٢) ، ولا يتسع المجال هنا لذكر نبذ من أشعارهن ، وسنعود إلى الكلام على ولادة عندما نتحدث عن ابن زيدون الذي سنفرد له باباً خاصاً ، ونكتفي في هذا المقام بذكر أبيات من شعر حمدة .

حمدة ، ويقال لها حمدونة ، بنت زياد المؤدب من وادی آش ، هي شاعرة الأندلس ، ولقبت بخنساء المغرب على الرغم من أن شعرها ليس في الرثاء بل في الغزل . ومن جميل ما قالت هذه الأبيات :

ولما أبا الواشوان إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثارٍ

(١) انظر المقرئ ، نفح الطيب ٢/١٠٧٦ - ١١٤٦ (وانظر أيضاً طبعة محمد محي الدين عبد الحميد لكتاب نفح الطيب ج ٥ ص ٢٩٩ وما بعدها و ج ٦ ص ١٩ وما بعدها) .

(٢) انظر ص ٦٣ من هذا الكتاب .

وشنُّوا على أَسْمَاعِنَا كُلَّ غَارَةٍ وَقَلَّ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مَقَلَّتِيكَ وَأَدْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

وخرجت حمدة مرة للوادي مع صبية ، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

أَبَاحَ الدَّمْعُ أَسْرَارِي بَوَادِي لَهُ لِلْحَسَنِ آثَارُ بَوَادِي
فَمِنْ نَهْرٍ يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمِنْ رَوْضٍ يَرْفُ بِكُلِّ وَادِي
وَمِنْ بَيْنِ الطَّبَاءِ مَهَاةُ أَنْسٍ سَبَتَ لِي وَقَدْ مَلَكَتْ فَوَادِي
لَهَا لِحْظٌ تَرْقِدُهُ لِأَمْرٍ وَذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادِي
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي أَفْقِ السَّوَادِ
كَأَنَّ الصَّبْحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقٌ فَمِنْ حُزْنٍ تَسْرِبِلُ بِالْحَدَادِ

وهناك رواية تقول إن هذه الأبيات لحمدة العوفية . وقد نسب الأندلسيون

إلى حمدة بنت زياد المؤدب الأبيات الجميلة الآتية الشهيرة في بلاد المشرق وهي :

وَقَانَا لِنَفْحَةِ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ الْعَمِيمِ
حَلَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَّا عَلَيْنَا حُنُوَ الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ
وَأَرْشَفْنَا عَلَى ظَمًا زُلَالًا أَلَدَّ مِنَ الْمُدَامَةِ لِلنَّدِيمِ
يَبْدُ الشَّمْسِ أَنِّي وَاجِهَتْنَا فَيَحْجِبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ
يَرُوعُ حِصَاهُ حَالِيَةَ الْعَدَارِي فَتَلْمَسُ جَانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم ابن النديم ، أن قائل هذه الأبيات هو الشاعر

المنازي ، إلا أن أبا جعفر الأندلسي الغرناطي ، نزيل حلب ، يدفع ذلك فيقول :

« . . . وقد تلبس بعضهم أيضاً بشعارها ، وادعى غير هذا من أشعارها ، وهو قولها ، وقانا لفحة الرمضاء ، وأن هذه الأبيات نسبها أهل البلاد (أى بلاد المشرق) للمنازى من شعرائهم ، وركبوا التعصب فى جادة ادعائهم ، وهى أبيات لم يحلها غير لسانها ، ولا رَقَمَ برديها غير إحسانها . ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا ، وهى الأندلس ، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى إلى الوجود ، ويتصفَ بلفظة الموجود» (١) .

ابن حمديس (٤٤٧ - ٥٢٧ هـ)

ومن بين الشعراء النابيين فى دور الطوائف ابن حمديس . ولد أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدى الصقلى فى جزيرة صقلية عام ٤٤٧ هـ فى آخر حكم العرب لهذه الجزيرة (٢) . وقد امتازت صقلية بطبيعتها الغنية ووديانها الحصبة وأمهارها الجارية ، وأثارت فى نفوس سكانها منذ القديم التغنى بحياتها الريفية .

وقد عالج ابن حمديس نظم الشعر وهو صغير ولكنه بقى خامل الذكر . ولما كان فى ميعة الشباب استولى النورمانديون على وطنه صقلية وشاهد ما حل ببلده من الحراب وبقومه من العذاب فأذكى ذلك ، فيما يبدو ، من شاعريته ولكنه ظلّ دائماً الانقباض كثير التشاؤم رقيق الشعور .

وبعد أن حلّت النكبة بوطنه رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ ولاذ بكتف المعتمد ابن عباد بإشبيلية وأصبح شاعره . ولما استولى ابن تاشفين على إشبيلية ونفى ابن عباد منها إلى قلعة أغمات بمراكش لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه وبقى وفيّاً له ينظم الشعر الحزين . ولما توفى ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهديّة الإفريقية وبقى فيها حقبة من الدهر ، ثم انتقل إلى ميورقة ، وهى جزيرة صغيرة شرقى

(١) المقرئ ، ج ٢ ص ١١٤٢ - ١١٤٣ (ومن طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٦ ص ٢٤)

(٢) حكم العرب جزيرة صقلية بين عامى ٢١٩ - ٤٦٤ هـ .

الأندلس ، فمات بها أعمى بائساً سنة ٥٢٧ هـ . ولابن حمديس ديوان شعر طبع في بالرم سنة ١٨٨٣ م . وفي روما سنة ١٨٩٧ م . وفي بيروت سنة ١٩٦٠ م .

كان لنشأة ابن حمديس في جزيرة صقلية ذات الطبيعة الوارفة الظلال أثر في ظهور فن الوصف في شعره وعنايته به ، إلا أن الفترة المضطربة التي عاشها الشاعر في أواخر حكم العرب للجزيرة ، وسط بيئة أعجمية وفتن متصلة ، لم تسمح له بالاستمتاع التام بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها . ولما رحل إلى الأندلس وإلى المغرب اتصل بالنزعات الأدبية في تلك البلاد وشارك فيها وعبر عنها ، وكان في تعبيره هذا يمثل الطور الثالث للشعر الأندلسي الذي أخذ يصور البيئة وما فيها من حداثة وجدة كما يعبر عن نزعات سابقه من القدماء والمحدثين (١) .

ونشأة الشاعر ذي الأصل العربي في موطن أعجمي يحارب العروبة ، ثم انتقاله إلى أرض الأندلس ومصاحبته العرب فيها وفي قفار المغرب ، أدى به إلى ازدياد تعلقه بالعرب وبيئتهم وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، ولذا أكثر من مدحهم والفخر بهم ووصف حياتهم .

وأول ظاهرة لوصف هذه الحياة تبدو في تغنيه بالطبيعة البدوية ، فقد وصفها وبالغ في الوقوف على الأطلال محتدياً في ذلك معاني القدماء والمحدثين .

وقد أوضح الدكتور سيد نوفل أن الجمع بين معاني القدماء والمحدثين يبدو على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتبع مذهب أبي نواس في

(١) نلاحظ أن الشعر الأندلسي ، بوجه عام ، قد مر بأطوار ثلاثة : الطور الأول ، وهو يمثل شعر التقليد لأدب المشرق ، ويبدأ منذ فجر عصر الأمويين في الأندلس حتى القرن الخامس الهجري ، ومن شعرائه ابن عبد ربه وابن هاني وابن شهيد وابن دراج القسطلي وغيرهم . والطور الثاني ، وهو الختمة التي امتدت خلال القرن الخامس ، وفيها أخذ الشعراء يصعدون عن حاضرهم ويمثلون بيئتهم ومظاهرها والنفس ومشاعرها مع الأخذ بحظ من التقليد ، ويمثل هذا الطور ابن زيدون وابن عمار والمعتمد بن عباد والأعمى التطيلي ومن إليهم من شعراء ملوك الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معاني الشعراء السابقين ، وفي نهاية هذا القرن تم انتصار الحديد واتسعت حركة الموشحات . أما الطور الثالث ، فيضم شعراء القرن السادس وما بعده وفيه أخذ الشعراء يمثلون البيئة وتجتمع لهم الحدائق والجددة ويمثل هذا الطور من الشعراء ابن حمديس وابن عبدون وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب وابن زمرك وغيرهم .

السخرية منها والهتاف بالخمير في ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على أوصافه الأخرى للخيل والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد .

ويتابع الدكتور نوفل كلامه قائلاً : إن وصف الطبيعة عند ابن حمديس وثيق الصلة بوصف الخمر ، والطبيعة بمختلف مظاهرها مسرح للشرب وللهو وهي بجماها تقود إلى الخمر ، والخمر يوضح جمال الطبيعة . . وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه يشرب عند طلوع الفجر في روضة فواحة الزهر مخضلة ، ويشرب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغوادي من ثغور الأقاح ، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقاباً ، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب في سواد الليل (١) .

وهكذا ينتهي الدكتور نوفل إلى أن ابن حمديس قد لاحق الطبيعة بالخمير في جميع الأوقات والأحوال الطبيعية وأبان عن فتنة الطبيعة في مظاهرها المختلفة ، فلها من مظاهر الحسن في كل آن ما يغري بها وما يدفع إلى الطرب لمراها . وفي الأبيات الآتية التي نقتطفها من إحدى خمرياته يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة في جو من الخمر ، فيقول :

طَرَقَتْ وَاللَّيْلُ مَمْدُودُ الْجَنَاحِ مَرِحْبًا بِالشَّمْسِ فِي غَيْرِ صَبَاحٍ
غَادَةٌ تَحْمَلُ فِي أَجْفَانِهَا سَقَمًا فِيهِ مَنِيَّاتُ الصَّحَاخِ

* * *

فَاسْتَقْنِي عَنِ إِذْنِ سُلْطَانِ الْهَوَى لَيْسَ يَشْفِي الرُّوحَ إِلَّا كَأْسُ رَاحٍ
وَأَنْتَظِرُ لِلدَّحْلِمِ بَعْدَى كَرَّةٍ كَمْ فَسَادٍ كَانَ عُقْبَاهُ صَلاَحُ
فَالْقَضِيبُ اهْتَزَّ وَالْبَدْرُ بَدَا وَالكَثِيبُ ارْتَجَّ وَالْعَنْبَرُ فَاحُ
وَالثُّرَيَّا رَجَحَ الْجَوُّ بِهَا كَابِنِ مَاءٍ ضَمَّ لِلوَكْرِ جَنَاحُ

وَكأنَّ الغُربَ منها ناشقُ باقةً من ياسمينٍ أو أقاخُ
 وكأنَّ الصبَحَ ذا الأنوارِ من ظلمَ الليلِ على الظلماءِ لاحُ
 فاشربِ الرَّاحَ ولا تُخلِ يدًا من يدِ اللهُو غُدواً ورَواحُ
 في حديقِ غُرسِ الغيثِ به عَبِقَ الأرواحِ موشىَّ البِطَاحُ
 تَعقِلِ الطرفَ أَزاهيرُ به ثم تُعطيه أَزاهيرَ صُراحُ
 أَرْضِعِ الغيمُ لِبِاناً بانهُ فتربَّت فيهِ قاماتُ المِلاحُ
 كلُّ غصنٍ تَعْتَرِي أعطافه رِعدةُ النشوانِ من كأسِ اصطبَاحُ

وهكذا فقد أوجز الشاعر في هذه الخمرية جمال الطبيعة المتنوع ، ونلاحظ أن الشاعر يقبل على الطبيعة بثقافته الشعرية فيتأملها ويستخرج من المعاني أروعها ، فإذا بقامات الملاح بعض نباتها وإذا بالنشوة تسرى في أغصانها وبالفتنة تأسر بصر الشاعر ، فيبدو عالم الطبيعة في حركة وزينة وطرب .

إلى جانب هذا الوصف الذي تتجلى فيه الطبيعة حية مشخصة تبدو عناية الشاعر بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز في العناية بالشكل وتجميله ، كقوله :

اشربُ على بركةِ نَيْدُوفِرٍ محمِرةِ النُّوارِ خضراءِ
 كأنما أزهارُها أخرجتُ ألسنةَ النارِ من الماءِ

هذه الأوصاف وغيرها ترسم لنا فتنة ابن حمديس بالطبيعة وإقباله على مباحثها ، وهو بذلك يعبر عن بيئته الجميلة التي تنقل في أفيائها وعماء اعتاد عليه شعراء عصره من الإقبال على استجلاء محاسنها والتنزه في رياضها . وقد قدم لنا الشاعر بعض الأوصاف التي تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع والتي تبدو

من خلالها نفسه الحزينة كقوله في وصف نهر :

وَمُطَّرِدِ الْأَجْزَاءِ يَصْقُلُ مَتْنَهُ صَبَأً أَعْلَنْتُ لِلْعَيْنِ مَا فِي ضَمِيرِهِ
جَرِيحٍ بِأَطْرَافِ الْحَصَى كَلِمَا جَرَى عَلَيْهَا شَكَا أَوْجَاعَهُ بِخَرِيرِهِ

وكقوله أيضاً يصف نهراً ينبعث من عين ماء :

وَمُرُوصِدِي الرُّوضَاتِ يَحْسِبُ ذَائِباً عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُ جَمَلَةٌ تَتَّبِعُضُ
كَأَنَّ لَهُ فِي الْجِسْمِ رُوحاً إِذَا جَرَى بِهِ نَهْضُهُ وَالْجِسْمُ بِالرُّوحِ يَنْهَضُ
وَمَا هُوَ إِلَّا دَمْعُ عَيْنٍ كَأَنَّهَا لَطُولُ بَكَاءٍ دَهْرَهَا لَا تُغْمِضُ
إِذَا سَرَحَتْ لِلسَّقَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ رَأَيْتَ بِقَاعِ الْأَرْضِ مِنْهُ تَرَوِّضُ
يَقِيمُ عَلَيْهَا الْإِنْسُ وَالصَّبْحُ مُقْبِلٌ وَيَرْحَلُ عَنْهَا الْوَحْشُ وَاللَّيْلُ مُعْرِضُ

فهذا الوصف ينطق بالإمعان والتأمل في صور الطبيعة ويغرف من مادة نفسه الحزينة .

وفتنة الشاعر بالطبيعة جعلته يُدخل أوصافها في أغراض الشعر الأخرى . فأوسع أغراض الشعر عنده المدح ويليهِ الوصف ، ولكن الطبيعة تناسب في جملة أغراضه ، فيصف الطبيعة في الغزل ويصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ، ويصفها في المدح بل أكثر شعره المدحي مصبوغ بصبغة الطبيعة ، ويصورها قوية في الحماسة والفخر ، وحزينة باكية في الرثاء .

وابن حمديس أحد أولئك الشعراء الذين جمعوا بين وصف الطبيعة الطبيعية والطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والتماثيل والرسوم . فلنسمعه يصف بركة في قصر ابتناه المنصور ابن أعلى الناس ببجاية ، وعلى هذه البركة أشجار من الذهب والفضة وأُسود من المرمر يخرج من أفواهاها الماء كما يخرج من أطراف تلك الأشجار فيُسمع لها خرير وصفير ، قال :

وضراغم سكنت عرين رئاسة تركت خريراً الماء فيه زئيراً
فكأنما غشى النضار، جسومها وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقعت على أدبارها لتثورا
وتخالها ، والشمس تجلو لونها ناراً ، وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سللت سيوف جداول ذابت بلا نارٍ فعُدن غديراً
شجرية ذهبية نزعته إلى سحرٍ يوتر في النهى تأثيراً
قد سُرحت أغصانها فكأنما قبضت بهن من الفضاء طيوراً

ونلاحظ أن هذا الوصف دقيق التفاصيل أنيق اللفظ إلا أنه جامد ضعيف الإيحاء . وهكذا نرى أن أكثر أوصاف الشاعر لوحات جميلة دقيقة التقاسيم واضحة الزخرف ولكنها لا تشع بروح الحياة ، وهو يشبه بها ابن المعتز وابن خفاجة بل يشبه أكثر الشعراء الوصافين في العربية الذين يعتمدون على الصورة البصرية في وصفهم أكثر من اعتمادهم على وحى القلب وإشعاع النفس وهزة العاطفة .

والخلاصة أن ابن حمديس شاعر فتن بالطبيعة وعكف عليها ، عندما كان ينطلق من قيود همومه وأحزانه ، ومتع بصره بجمالها ، وصورها صوراً أمينة عبرت عن جمالها في كثير من الحدق والصنعة . وقد نفخ فيها من فنه أكثر مما أعطاه من روحه . ونحن إذا أعجبنا بشعره في وصف الطبيعة فإنما نعجب لما فيه من روائع الفن ، ويبقى ابن حمديس ، في نظرنا ، شاعراً شاكياً لأن المحنة التي حلت بوطنه الأول صقلية جعلته دائم الأسى ، فأخذ يشكو الزمان ولؤم الناس ويتبرم بالحياة على طريقة أبي العتاهية ؛ ولهذا كان من الطبيعي أن يكون شعر الشكوى أكثر انسجاماً مع نفسيته وحياته التي ذكرنا خلاصة عنها .

ابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ)

وهذا شاعر آخر من شعراء دور ملوك الطوائف تتمثل فيه الجدة والحداثة ، ويعكس بيئة الأندلس وطبيعتها الضاحكة ، وتتجلى فيه الصفة الأندلسية وجبه للطبيعة أكثر من غيره .

ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠ هـ في بلدة شقّر . وهي مدينة منعزلة في شرق الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها . وسافر إلى عدوة المغرب فاشتد شوقه إلى وطنه الجميل ورجع إليه ومات سنة ٥٣٣ هـ في المدينة التي ولد فيها .

والأخبار التي بين أيدينا ضئيلة بتفاصيل حياة الشاعر ، إلا أننا نعلم أنه عاش حياة هادئة ولم يتصل بأحداث السياسة . وفي ديوانه عدد من المدائح ولكنه لم يستدل نفسه لهذا الغرض ، وأكثر مدائحه في أبي إسحق إبراهيم بن يوسف ابن تاشفين الذي خلف أباه في دولة المرابطين .

عاش ابن خفاجة طويلاً وتجاوز الثمانين ، واستمتع في شبابه وكهولته بالحياة واقتنى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه في أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها . وفي آخر أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه وتنسك إلى أن وافته المنية .

لقد كان ابن خفاجة شاعر عصره ، استولت عليه روح المرح والمتاع بالحياة فأقبل على الطبيعة يتنزه في مغانيها ويتملى من مباحجها فتمتلىء نفسه بشراً ويعبر عنها تعبيراً يفيض حبوراً . ولقد كان لنشأته المترفة ولجمال بلده أثر في تغذية خياله وتكوين تأملاته فنظر إلى الطبيعة نظرة طويلة فاحصة ساعدته على دقة التعبير عن معانيه . وقد سُمى بشاعر شرقي الأندلس ، كما سُمى بالشاعر البستاني ، ولقبه المقرئ بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة ولا سيما الجانب الضاحك منها .

فما هي المظاهر الطبيعية التي وصفها وما ميزاته فيها ؟

لقد وصف الشاعر الطبيعة بجميع مظاهرها ومباحجها ، فوصف الطبيعة الصامتة برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومفاوزها وسماها ونجومها

وما يتصل بذلك كله من نسيم ورياح وأمطار ، وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة . ووصف أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور ، وهكذا فقد كانت الطبيعة مستولية على حواسه ، ولم يستطع أن ينساها حتى في أغراضه الأخرى ، فتوثقت الصلة بينه وبينها فأخذ يشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء ، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة وبدت تشارك الغادة الفاتنة في جمالها :

وَكَامَامَةٍ حَدَرَ الصَّبَاحُ قِنَاعَهَا عَنِ صَفْحَةٍ تَنْدَى مِنَ الْأَزْهَارِ
 فِي أَبْطَحٍ رَضَعَتْ ثَغُورٌ أَقَاحَهُ أَخْلَافَ كُلِّ غَمَامَةٍ مِذْرَارِ
 نَشَرَتْ بِحِجْرِ الْأَرْضِ فِيهِ يَدُ الصَّبَا دُرَّرَ النَّدَى وَدِرَاهِمَ النُّوَّارِ
 وَقَدِ ارْتَدَى غِصْنُ النِّقَا وَتَقَلَّدَتْ حَلَى الْحَبَابِ سَوَالِفُ الْأَنْهَارِ
 فَحَلَلَتْ حَيْثُ الْمَاءُ صَفْحَةً ضَا حَكْ جَذَلَ وَحَيْثُ الشُّطُّ بَدَّءُ عِذَارِ
 وَالرِّيحُ تَنْفِضُ بُكْرَةً لِمَمَّ الرَّبِّي وَالطَّلُّ يَنْضَحُ أَوْجَهَ الْأَشْجَارِ
 مُتَقَسِّمٌ الْأَلْحَاطِ بَيْنَ مَحَاسِنِ مِنْ رِدْفِ رَابِيَةٍ وَخَصْرِ قَرَارِ
 وَأَرَاكَةِ سَجَعِ الْهَدِيلِ بِفِرْعَاهَا وَالصَّبْحُ يُسْفِرُ عَنِ جَبِينِ نَهَارِ
 هَزَّتْ لَهُ أَعْطَافَهَا وَلرَبْمَا خَلَعَتْ عَلَيْهِ مُلَاعَةَ النُّوَّارِ

والشاعر ينظر إلى الطبيعة نظرة محب والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التي يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان ، قال في مقدمة قصيدة يمدح بها أبا الحسن ابن نعيم :

وإني وإن جئت المشيبَ ملوَعٌ بطُرةٍ ظلٌّ فوقَ وجهِ غديرٍ
 فيا حبذا ماءٌ بِمُنْعَرَجِ اللُّوى وما اهتزَّ من أيكٍ عليه مَطِيرٍ
 ونفحةٌ رِيحٍ للربيعِ ذكيةٌ ولحّةٌ وجهٍ للشبابِ نَضِيرٍ
 ونعسةٌ طرفِ العينِ من سِنَةِ الكَرى لِرَجْعِ خَريرٍ أو لشَجْوِ هَدِيرٍ

ويمكننا أن نلخص ميزاته في وصف الطبيعة في العناصر الآتية :

١ - اتصاله بالطبيعة وإشراك حواسه بها ، فقد خاطب الشاعر الطبيعة
 وامترج بها في بعض قصائده ، واتصل بها اتصال الصديق بالصديق ولجأ إليها
 واستمع إلى عظامها في رحابها وقصيدته في وصف الجبل خير شعره الذي يمثل هذه
 الخاصة . فقد أثار مرأى الجبل في نفسه عاطفة إنسانية جعلته يبعث في هذا الطود
 المنتصب رعشة الحياة ، فأخذ يستمع إلى عظامه وعبره ، ويترجم له أفكاره وحسه ،
 وبدا الجبل شيخاً وقوراً متملماً من طول بقائه وهو يشاهد مواكب الإنسانية
 تمر وتمضي ويطويها الزمن . (انظر هذه القصيدة فيما يأتي من المنتخبات ص ١٣٩) .
 هذه القصيدة في وصف الجبل تمنحنا نفحة جديدة للشعر الأندلسي هي
 هذه المشاركة في العواطف التي يشعر بها المتأمل لسحر الطبيعة وما يعتريه من رهبة
 أو طرب وإعجاب . ولهذا نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة قد استطاع في هذه
 القصيدة أن يناجي الطبيعة على نسق جديد لم يعهده الشعر العربي القديم ، فأشرك
 النفس الإنسانية بسر الطبيعة وأدرك ما يسمى عند الفرنجة بحس الطبيعة .

٢ - الطبيعة عند ابن خفاجة ضاحكة طروب ، هي مسرح للهو ومقصف
 للشراب ، ولذا فقد هتف ابن خفاجة بالخمير في جو الطبيعة المشرق الحميل ،
 فلنسمعه يصف هذه الحديقة الراقصة لئرى أن الطرب والرقص والغناء وسِمَات الحسن
 هي قوام هذا الوصف وأن الخمر ظل ضئيل في هذا الوصف للطبيعة اللاهية :

وصقيلة الأنوارِ تلوى عِطْفَها رِيحٌ ، تلفُ فروعَها ، معطارُ

عاطى بها الصهباءُ أَحْوَى أَحورُ سحابُ أذْيالِ السُّرى سَحَّارُ
والنُّورُ عِقْدُ والغصونُ سِوَالفُ والجذعُ زَنَدُ والخليجُ سِوَارُ
بِحديقةٍ ظلِّ اللَّمى ظلًّا بها وتطلَّعتُ شَنبًا بها الأنوارُ
رَقَصَ القُضيبُ بها وقد شَرِبَ الثَّرَى وشَدَا الحمامُ وصفقَ التِّيَّارُ
غَنَاءَ ألْحَفَ عِطْفَها الورقُ النَّدى والتفَّ في جَنباتِها النُّوَّارُ
فتطلَّعتُ في كلِّ موقعٍ لحظةٍ من كلِّ غُصنٍ صَفْحَةً وعِذارُ

ومثل هذا الجو نجد في وصف هذه الأراكة الحسنة التي ضربت ظلها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نُثرت عليه الأزهار ودارت حول ضفافه كؤوس خمر عروس فاجتمعت في هذه الروضة فتنة الطبيعة ونشوة الطرب :

وأراكةٍ ضَرَبَتْ سماءَ فوقنا تَنَدَى ، وَأَفلاكُ الكؤوسِ تُدارُ
حَفَّتْ بدوحتها مجرَّةً جدولٍ نَثَرَتْ عليه نجومَها الأزهارُ
وكأنها وكانَ جدولَ ماءِها حسناءً شَدَّ بخصرها زَنارُ
زَفَّ الزجاجُ بها عروسَ مُدَامَةٍ تُجَلَى ونوَّارُ الغصونِ نِشارُ
في روضةٍ جُنَحُ الدجى ظلُّ بها وتَجَسَّمتُ نورًا بها الأنوارُ
غَنَاءَ ينشرُ وشيَهَ البزازُ لى فيها وَيَفْتِقُ مِسْكَهُ العطارُ
قام الغناءُ بها وقد نَضَحَ الندى وجَهَ الثرى واستيقظَ النُّوَّارُ
والماءُ من حَلَى الحَبابِ مُقَلِّدٌ زَرَّتْ عليه جيوبَها الأشجارُ

وتستهوى الشاعر شجرة نارنج مثمرة فيصفها فإذا بها في حلة بهية ، وإذا
الأوصاف الحسية تندمج بما يبعث فيها من حركة وحياة ، وإذا الطبيعة التي تحيط
بها مرحة مغردة ، يخطب فيها الطير ، وليس علينا بعد من عذر إذا لم نمل طرباً
في أفياء هذا الدوح الظليل الرطيب :

ألا أفصحَ الطيرُ حتى خَطَبُ وخَفَّ له الغصنُ حتى اضطربُ
فمِلْ طَرَباً بين ظلِّ هَفَا رطيبٍ وماءٍ هناك انثَغَبُ
وجُلْ في الحديقة أختِ المُنَى ودنْ بالمُدَامَةِ أمَّ الطرب
وحاملةً من بناتِ القَنَا أَمَالِيدَ تحمل خُضْرَ العَذَبِ
تنوبٌ مُورِّقَةٌ عن عِدَارٍ وتَضْحَكُ زَاهِرَةً عن شَنَبِ
وتندى بها في مَهَبِّ الصَّبَا زبرجدةٌ أَثْمَرَتْ بِالذَّهَبِ
تُفَاوِحُ أَنْفَاسَهَا تَارَةً وطوراً تغازلها من كَثَبِ
فتبسمُ في حالة عن رضا وتنظر آونةً عن غَضَبِ

٣ - هذه الحياة التي شعت في الأمثلة السابقة تسم أكثر أوصاف الطبيعة
عند ابن خفاجة . فهو يشخصها ويرى في جمالها جمال المرأة ويصورها على نحو
إنساني تملؤه الحركة والنشاط . ولهذا التشخيص أمثلة كثيرة في شعره ، فلنسمعه
يصف شجرة منورة :

يا رَبُّ مائِسةِ المعاطفِ تَزْدَهِي من كلِّ غُصْنِ خافقٍ بوشاحٍ
مهتزة يرتجُّ من أعطافها ما شئتَ من كَفَلٍ يَموج رَدَاحِ
نفضت ذوائبها الرياحُ عشيَّةً فتملَّكتها هِزَّةُ المراتحِ

حَطَّ الرِّبِيعُ قِنَاعَهَا عَنْ مَفْرِقِ شَمِطٍ كَمَا تَرْتَدُّ كَأْسُ الرَّاحِ
لَفَاءُ حَاكٍ لَهَا الْغَمَامُ مُلَاءَةً لَبَسَتْ بِهَا حَسَنًا قَمِيصَ صَبَاحِ
نَضَحَ النَّدى نُورًا هَا فَكَأَنَّمَا مَسَحَتْ مِعَاطِفَهَا يَمِينُ سَمَاحِ
وَلَوْى الْخَلِيجُ هُنَاكَ صَفْحَةً مُعْرِضٍ لَثَمْتُ سَوَالِفَهَا ثُغُورُ أَقَاحِ

٤ - وفتنة الشاعر هي على الأغلب في الرياض والزهور ولهذا لقب بـ « الجنان » ،
ويعتمد على التشخيص - كما رأينا - والتشبيه بمحاسن المرأة في إظهار محاسن
روضياته ، وقد يقف عند بعض الجزئيات فيها ، ولكن كثيراً ما تظهر روضياته
في إطار من اللهو على شكل نزوات في رحاب الطبيعة التي يبدع في تجسيمها
كقوله :

سَقِيًّا لِيَوْمٍ قَدْ أَنْخَتُ بِسِرْحَةٍ رِيًّا تَلَاعِبَهَا الشَّمَالُ فَتَلْعَبُ
سَكْرَى يُغْنِيهَا الْحَمَامُ فَتَنْشِي طَرَبًا وَيَسْقِيهَا الْغَمَامُ فَتَشْرَبُ
يَلْهُو فَتُرْفَعُ لِلشَّيْبَةِ رَايَةً فِيهِ وَيَطْلُعُ لِلْبَهَارَةِ كَوَكْبُ
وَالرَّوْضُ وَجْهٌ أَزْهَرُ وَالظِّلُّ فَرْعٌ أَسْوَدٌ وَالْمَاءُ ثُغْرٌ أَشْنَبُ
فِي حَيْثُ أَطْرَبْنَا الْحَمَامُ عَشِيَّةً فَشَدَا يُغْنِينَا الْحَمَامُ الْمَطْرَبُ
وَاهْتَزَّ عِطْفُ الْغَصْنِ فِي طَرَبِ بِنَا وَافْتَرَّ عَنْ ثُغْرِ الْهَلَالِ الْمَغْرِبُ
فَكَانَهُ وَالْحَسَنُ مُقْتَرِنٌ بِهِ طَوَّقٌ عَلَى بُرْدِ الْغَمَامَةِ مُذْهَبُ
فِي فَتِيَّةٍ تَسْرِي فَيَنْصَدِعُ الدُّجَى عَنْهَا وَتَنْزِلُ بِالْجَدِيبِ فَيَخْصَبُ
كَرْمًا فَلَ غَيْثُ السَّمَاحَةِ مُخِلْفٌ يَوْمًا وَلَا بَرَقُ اللَّطَافَةِ خَلْبُ
مَنْ كُلُّ أَزْهَرَ لِلنَّعِيمِ بِوَجْهِهِ مَاءٌ يَرْقُرُقُهُ الشَّبَابُ فَيَسْكُبُ

على أن روضياته تتشابه فهي محصورة في إطار واحد تمثله الحديقة بما فيها من أشجار وجداول وأزهار وظلال وارفة وحمائم تتداعى ونسائم عليلة وندامى يشربون ويغنون ويطربون .

٥ - وقد وصف ابن خفاجة أيضاً الطبيعة الحية كالفرس والذئب وله في وصف الفرس أبيات تراءى فيها البراعة والجددة في التصوير فيقول :

وَمُطَهَّمٌ شَرِيقٌ الْأَدِيمِ كَأَنَّمَا أَلْفَتُ مِعَاطِفُهُ النُّجَيْعَ خِضَابَا
طَرِبُ إِذَا غَنَّى الْحَسَامُ مَمْرُقٌ ثَوْبَ الْعَجَاجَةِ جِيئَةً وَذَهَابَا
قَدَحَتْ يَدُ الْهَيْجَاءِ مِنْهُ بَارِقًا مَتْلَهَبًا يُزْجِي الْقَتَامَ سَحَابَا
وَرَمَى الْجِفَازُ بِه شَيَاطِينَ الْعِدَى فَاَنْقَضَ فِي لَيْلِ الْغُبَارِ شِهَابَا
بَسَامٌ ثَغْرَ الْحَلَى تَحْسِبُ أَنَّهُ كَأَسُّ أَثَارِ بِهِ الْمِرَاجِ حَبَابَا

٦ - يتبين مما تقدم أن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة الالهية في أحضانها ، وكان في وصفه مصوراً بصرياً بارعاً يعتمد على دقة ملاحظته إلى جانب قوة خياله . وقد يكون قد أغرق في الصنعة والمحسنات البديعية ومع ذلك استطاع ألا يجعلنا نشعر بثقلها إلا في بعض أوصافه ، على أن الصنعة عنده أداة للتجميل وقد امتزجت بقوة خياله وأناقة ألفاظه وترف صورته فجاءت مقبولة كقوله في وصف نهر :

لِللَّهِ نَهْرٌ سَالَ فِي بَطْحَاءٍ أَشْهَى وَرُودًا مِنْ لَمَى الْحَسَنَاءِ
مَتَعَطَّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ وَالزَّهْرُ يَكْنُفُهُ مَجْرٌ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصًا مُفْرَعًا مِنْ فُضْيَةٍ فِي بُرْدَةٍ خَضْرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفُ بِه الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُدْبٌ تَحْفُ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ

والماء أَسْرَعَ جَرِيَهُ مَتَحَدِّراً مُتَلَوِيّاً كَالْحِيَةِ الرَّقْطَاءِ
والريحُ تعبثُ بالغصونِ وقد جَرَى ذهبُ الأصيلِ على لُجَيْنِ الماءِ

وابن خفاجة من الشعراء الذين اتصلوا بالطبيعة كما أشرنا ولكن هذا الاتصال لم يبلغ مبلغ الامتزاج الكلي بها إلا في بعض قصائده ولا سيما قصيدته في وصف الجبل ، وتبقى الطبيعة عنده صورة لاعتدال القدر واهتزاز الحصر وابتسام الثغر ، وهي في صورها ترضى لذة الحس وقلما تبعث في النفس لذة الروح . وشأن شاعرنا فيها كشأن باقي أعلام شعراء الطبيعة في أدبنا العربي ، فهم لم يلجأوا في وصفها إلى إدراك حس الطبيعة كما أدركه الشعراء الغربيون وإنما بقيت الطبيعة عندهم متاعاً للعين وفنّاً وصفيّاً تجمله الزخارف والألوان ولا تتشابه فيه العواطف والأحزان إلا نادراً .

* * *

هذه أسماء بارزة في الشعر الأندلسي أتينا على ذكرها لنبين جانباً هاماً من صفات هذا الشعر . على أن ثمة شعراء آخرين لا يقلون عن هؤلاء شأناً لم نأت على ذكرهم لضيق المجال فلترجع أخبارهم في مظاهرها . ولكي يتم لنا فهم صفات هذا الشعر لابد من استعراض خصائص مختلف أغراضه ، فما هي هذه الخصائص التي اتصفت بها أغراض الشعر الأندلسي ؟

الفصل الرابع

أغراض الشعر الأندلسي

نظم شعراء الأندلس الشعر في مختلف الأغراض ، ولم يشذوا ، بوجه عام ، عن القواعد والأساليب التي اتبعها المشارقة في أشعارهم .

المدح :

فقد حافظ المدح على الأسلوب القديم وكان الشعراء يعنون بالاستهلال وحسن التخلص ، وربما جعلوا صدور مدائحهم وصفاً للخمر أو للطبيعة أو للبلد الذي نشأ فيه الشاعر أو للمرأة التي أحبها ، وقلما شذ بعضهم عن هذا السبيل كما وصفوا الفلاة والناقة والحواد ووقفوا على الديار والأطلال ولكنهم لم يطيلوا وصفهم هذا ويستفيضوا به . ولم يغرقوا في استعمال الغريب إلا ما كان من ابن هاني فقد تعمد الغريب وأكثر المغالاة محاولاً تقليد المتنبي . وكانت مدائحهم محشوة بالتملق والاستجداء على طريقة المشارقة .

الرثاء :

وكذلك في الرثاء لم يختلف الأندلسيون عن المشارقة من حيث التفجع على الميت ووصف المصيبة وتعداد المناقب ، فكانت معانيهم وأساليبهم متشابهة . وكانوا يستهلون مرثيتهم بالحِكَم كالمشارقة ، إلا أن حكمهم كانت ساذجة لا عمق فيها ، تتركز على الشكوى من الأيام .

وكان رثاؤهم للممالك الزائلة أكثر روعة أحياناً من رثاء شعراء المشرق ، فقد أشجاهم أن يروا ديارهم تسقط بلداً إثر بلد في أيدي الغرباء من المكتسحين ، فبكوها بكاءً من يبكي على فراق وطن أحبه وفتن بجمال طبيعته ورخاء أيامه . فبكى ابن اللبانة دولة بني عباد . وابن عبدون دولة بني الأفطس عندما أزالهما

ابن تاشفين ، وبكى أبو البقاء الرندي الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى ، وقد بدت لوعة صادقة في هذه القصائد الثلاث ولا سيما في قصيدة أبى البقاء التى يقول فيها :

لكلِّ شىءٍ إذا ما تمَّ نُقْصَانُ فلا يُغَرِّ بِطَيْبِ العَيْشِ إنْسانُ
هى الأمُورُ كما شاهَدَتْها دُورُ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْه أزمانُ
وهذه الدارُ لا تُبْقِي على أَحَدٍ ولا يَدوم على حالٍ لها شانُ
أينَ الملوِكُ ذوو التيجانِ من يَمَنٍ وأينَ منهم أَكاليِلُ وتيجانُ
أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ له حتى قَضَوْا فكَانَ القومَ ما كانوا
وصارَ ما كانَ من مُلِكٍ ومن مَلِكٍ كما حَكَى عن خيالِ الطيفِ وَسنانُ^١

ويتصل بالرتاء الشكوى والاستعطاف وقد امتاز بهذا الغرض الملوك والأمراء لكثرة ما نالهم من المحن والنكبات فذلُّوا بعد عز وهبطوا بعد رفعة ، وقد رأينا نوعاً من هذه الشكوى فى شعر المعتمد ابن عباد بعد أن نكب ونفى إلى أغمات فى إفريقية .

الهجاء :

أما الهجاء فلم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، ولا سيما الهجاء السياسى ، لقلّة الأحزاب السياسية . وقد ظهر فى عهد الأمراء هجاء بين المضرية واليمانية ولكن لم يحفظ لنا منه شىء جدير بالاهتمام . وقد قام بعض الشعراء بهجو الفرنجة أثناء الحروب معهم ، وهجو البرابرة عندما استفحل أمرهم ، وكانت الغاية من الهجاء التكبسب والمجون ، فلم يكن هناك هجاء سياسى بالمعنى المعروف عند المشاركة كالدفاع عن العرب وذم الشعوبية ، لأن الشعوبية لم يكن لها شأن فى الأندلس . وهذا الهجاء العابث كان مشحوناً بالإقذاع والفحش . وعلى الجملة فإن الشعراء الذين

(١) اقرأ تمام القصيدة فى النسخ ج ٦ ص ٢٣٢ (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) .

مارسوا هذا الغرض لم يبلغوا فيه شأن المشاركة . وأشهر من عُرِف بهذا الفن منهم أبو بكر الخزومي الأعمى ، وهو من شعراء المائة الخامسة للهجرة ، وبينه وبين زهون بنت القلاعي الغرناطية معابثات فاحشة . قال فيها الخزومي :

على وجه زهونٍ من الحُسنِ مَسْحَةٌ وتحت الثيابِ العارُ لو كانَ بَاديَا
قواصدُ زهونٍ تواركُ غيرها ومن قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا
فأجابته :

إِنْ كَانَ مَا قَلتَ حَقًّا مِنْ بَعْدِ عَهْدِ كَرِيمِ-
فصَارَ ذِكْرِي ذَمِيًّا يُعْزَى إِلَى كُلِّ لُومِ
وَصِرْتُ أَقْبَحَ شَيْءٍ فِي صُورَةِ المَخْزُومِ

الحكمة :

وكذلك الأمر في الحكمة ، فقد ذكرنا أن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل ، لذلك بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق . وكذلك الفلسفة لم تنتشر في تلك الربوع منذ دخول العرب إليها ، بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس ، في عصر المرابطين والموحدين ، فقد كان هذا العصر عصر نهضة في الفلسفة والتأليف ، فيه ظهر ابن باجه وابن رُشد وابن طفيل صاحب رسالة « حى بن يقظان » وابن ميمون من الفلاسفة وابن خاقان وابن بشكوال والإدريسى وابن جُبيير وابن بسام من المؤلفين ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة . وسبب تأخر نهضة الفلسفة في الأندلس ، واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس فإنهم ضيقوا حرية التفكير ، وكفّروا كل متفلسف وأفتوا بنفيه وإحراق كتبه ، وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور ، وبمعاقة المتهمين

كما فعل صاحب إشبيلية بابن هاني إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة كما ذكرنا .
وقد قلنا إن ابن هاني كان أكثر الشعراء الأندلسيين اهتماماً بالحكمة في
شعره محاولاً بذلك تقليد المتنبي ولكنه بقي مقصراً عنه أشواطاً . وحكمته تدور حول
شكوى الدهر والتحذير من الدنيا ، فكانت كحكمة غيره من الشعراء مبتدلة
بعيدة عن النضج .

فمن قوله في قصيدة يرثى بها ولداً لإبراهيم بن جعفر بن علي أحد ممدوحيه :

وَهَبَ الدَّهْرُ نَفِيساً فَاسْتَرَدُّ رُبَّمَا جَادَ بِخَيْلٍ فَحَسَدُ
كَلَّمَا أَعْطَى فَوْفَى حَاجَةً بِيَدٍ شَيْئاً تَلَقَّاهُ بِيَدِ
خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَاناً دَائِماً تُعْرِفُ البَأْسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدُ
فَإِذَا مَا كَدَّرَ العَيْشَ نَمًا وَإِذَا مَا طَيَّبَ الرَّادَ نَفَدُ
فَلَقَدْ أَذْكَرَ مَنْ كَانَ سَهَاً وَلَقَدْ نَبَّهَ مَنْ كَانَ رَقَدُ

وقال في قصيدة في الرثاء :

إِنَّا وَفِي آمَالِ أَنْفِسِنَا طُولٌ وَفِي أَعْمَارِنَا قِصَرٌ
لَنَرَى بِأَعْيُنِنَا مِصَارِعَنَا لَوْ كَانَتْ الأَلْبَابُ تُعْتَبِرُ
مَّا دَهَانَا أَنَّ حَاضِرَنَا أَجْفَانُنَا وَالعَائِبَ الفِكْرُ
وَإِذَا تَدَبَّرْنَا جَوَارِحَنَا فَأَكْلَهُنَّ العَيْنُ وَالبَصْرُ
لَوْ كَانَ لِلأَلْبَابِ مُتَحِنٌ مَا عُدَّ مِنْهَا السَّمْعُ وَالبَصْرُ
أَيَّ الحَيَاةِ أَلدُّ عَيْشَتَهَا مِنْ بَعْدِ عِلْمِي أَنِّي بَشَرٌ
خَرَسْتُ لِعَمْرِ اللهِ أَلْسِنَا لَمَّا تَكَلَّمْ فَوْقَنَا القَدَرُ

الزهد :

وإذا كانت الحكمة ضئيلة جافة في الشعر الأندلسي ، فلم يكن الزهد كذلك . وقد كان لسلطة الفقهاء تأثير في دفع الناس إلى التعصب الديني والتظاهر بالعبادة والعزوف عن الدنيا ومباهجها ، حتى كثرت المتزهدون وأصبحت صناعة الزهد شيئاً مرغوباً . فكان الشعراء ينظمونه بدافع ديني أحياناً وبدافع تقليدي أحياناً آخر . على أن من الشعراء من نظمه وقد شعر حقاً بندمه وأدرك غرور الدنيا فأخذ يذكر ذنوبه طالباً مرضاة الله وعفوه . وهذه ظاهرة طبيعية لكل إنسان انغمس في الملذات إذ لا بد له من ساعات ندم يخلد فيها إلى نفسه ، ومثال أبي نواس شاهد على ذلك في توبته الأخيرة .

على أن كثرة الحروب والفتن وتقلب الأحوال أثرت في نفوس الشعراء فمالوا إلى الطعن بغدر الأيام وغرور الزمن ، وقادهم هذا الموقف إلى لون من الشعر الشاكي الذي انتهى بهم إلى الزهد والتعسف وذكر الله . فلنسمع ابن عبد ربه وهو يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب :

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غُضَارَةٌ أَيْكَةٌ إِذَا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ
 هِيَ الدَّارُ مَا الْآمَالُ إِلَّا فَجَائِعٌ عَلَيْهَا ، وَلَا اللَّذَاتُ إِلَّا مَصَائِبٌ
 فَكَمْ سَخَّنتُ بِالْأَمْسِ عَيْنًا قَرِيرَةً وَقَرَّتْ عَيْونًا ، دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ
 فَلَا تَكْتَحِلُ عَيْنَاكَ مِنْهَا بِعَبْرَةٍ عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

ولنسمع ابن حمديس يبكي ذنوبه ، فنجد في هذا البكاء برماً بالحياة ونظرة خاشعة إلى الله تتمثل فيها سمات الشعر الزهدي بشكل عام :

يَا ذُنُوبِي ثَقَلْتِ وَاللَّهِ ظَهْرِي بَانَ عُدْرِي فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُدْرِي
 كُلَّمَا تُبْتُ سَاعَةً عُدْتُ أُخْرَى لَضُرُوبٍ مِنْ سُوءٍ فَعَلِي وَهُجْرِي

دبَّ مَوْتُ السُّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ حَرُّ جَمْرِي
 يَا رَفِيقاً بَعْبِدِهِ وَمَحِيطاً عِلْمُهُ بِاخْتِلَافِ سِرِّي وَجَهْرِي
 مِلُّ بَقَلْبِي إِلَى صِلَاحِ فَسَادِي مِنْهُ وَاجْبُرْ بِرَأْفَةِ مَنْكَ كَسْرِي
 وَأَجِرْنِي بِمَا جَنَّاهُ لِسَانِي وَتَنَاجَتْ بِهِ وَسَاوُسُ فِكْرِي

التصوف :

ويتصل بالزهد التصوف ، وقد ظهر بين الشعراء الأندلسيين من نظموا شعراً صوفياً رائعاً كابن عربي شيخ المتصوفين . فقد ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ وانتقل إلى إشبيلية ثم سافر إلى الشرق ومات في دمشق سنة ٦٣٨ هـ ، وله قصائد وموشحات صوفية سائرة . وكان هناك اتصال بين متصوفة المشاركة ومتصوفة المغاربة من جراء تبادل الرحلات والتنقل بين الغرب والشرق ، فلمسنا لهذه وحدة في طرائقهم وأساليبهم .

الشعر الحماسي :

وإذا كان الشعر الزهدي قد دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم فلم يكن الأمر كذلك فيما يختص بشعر الحماسة . فقد كان شعراء الأندلس بعيدين عن أن يعيشوا عيشة الأبطال والفرسان لذلك اقتصر شعرهم الحماسي على مدح الملوك ووصف معاركهم الحربية وكانوا بذلك شعراء مصورين لا شعراء مغاوير يعبرون عما يجيش في نفوسهم ، ولهذا فقد كان المدح غاية الشعر الحماسي ولم يرتفع من أجل هذا شأنه عندهم ، وبقى الدافع إليه التقليد لا العاطفة . وقد كنا نأمل أن تنفخ فيهم غارات الأعداء روح الحماسة ولكن أكثرهم ، ولا سيما شعراء ملوك الطوائف ، قد فضلوا أن يخلدوا إلى شعر الضعف والشكوى والبكاء ، ولعل نفسية الشاعر الأندلسي الوداعة المستسلمة لأحلام الطبيعة والرخاء تلائم هذا النوع من الشعر أكثر من ملاءمتها للشعر الصاحب القوى الذي امتاز به شعراء المشرق ،

ولا شك أن للظروف الإقليمية أثراً في هذا الاتجاه النفسى الذى أضعف فيهم روح الحماسة وقلل من حدة البداوة ، فرأينا الفخر قد قل في شعرهم ، وعندما يظهر نراه يصطبغ في أكثر الأحيان بصبغة دينية لتعلق الشاعر الأندلسى بإسلامه ولما بينه وبين جيرانه النصرارى من العداة . أما صفات البطولة والشجاعة فكانت تأتي على شفاههم متكلفة مصطنعة لفقدان الشعور الصميم بأنهم يتحلون بها كما في حماسيات ابن وهبون من شعراء المعتمد بن عباد ، وقد توفى هذا الشاعر ، كما يظهر ، في النصف الأول من القرن السادس للهجرة .

الوصف :

أما الشعر الوصفى فقد ظهر في أكثر أغراض الشعر ، وأظهر الأندلسيون فيه عبقرية نادرة ولا سيما عندما تعرضوا إلى وصف الطبيعة وجمال العمران ومجالس الأنس والطرب . نعم لم يظهر الوصف في الشعر العربى كغرض مستقل وإنما رأيناه خلال المدح والغزل وغيرهما من الأغراض ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اهتمام الأندلسيين بالوصف كان كبيراً . وعلى الرغم من امتزاجه في أكثر الأغراض الشعرية فقد استطاع الأندلسيون أن يتفننوا به ويمنحوه بعض الاستقلال ، فهناك شعر وصفى لجميع مظاهر الحياة الحضرية الهائلة من وصف لمجالس اللهو والغناء والرقص والشراب وآلته والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن ، وهناك شعر وصفى للطبيعة ولظواهر العمران والقصور كما سنرى ، وهناك شعر وصفى للحروب والسلاح والسفن ، وغير ذلك مما يتناول الحياة برخائها وحربها ، بطبيعتها الحميلة التى من بها الله ، وبقصورها وساحاتها المرمرية التى زخرفها يد الإنسان .

ولا عجب فى أن يكون لوصف المعارك نصيبٌ وافر من الشعر الأندلسى فإن الحروب بين المسلمين وأعدائهم الفرنجة لم تنقطع ، ولم تهدأ حرب إلا لتشن أخرى ، لهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء بذكر المعارك والجيوش والحراقات ، وقد رأينا نموذجاً من هذا الوصف فى قصيدة ابن هانىء الأندلسى الذى يمدح بها المعز لدين الله الفاطمى ويصف حراقاته .

الغزل - الخمر :

وإذا كانت الطبيعة لها المكان الأول بين أغراض الشعر الأندلسي ، فالغزل كان ينساب على شفاه الشعراء ويدعو إليه كل ما في الأندلس من طبيعة جميلة وحياة حضرية ناعمة ومجالس أنس ورخاء وخرم وغناء ، وقد ذكرنا لكم سابقاً بعض المشاهد عن الحياة اللاهية التي كان يحياها الأندلسيون ، كما أن أسواق النخاسة التي كان يباع فيها الجوارى والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وجد الغزل فيها مرتعاً سهلاً . ومن الشعراء من أحب حبا صادقاً ومنهم من تمتع بوهم الحب ولها ، وقد استطاع الشاعر الأندلسي أن يرسم حبه ولطوه بأبيات تعد من الشعر الجيد لأنها استطاعت أن ترسم الأجواء وتعبر عن خوالج النفوس . إلا أن أكثر غزلم كان مقيداً بالتقاليد والتكلف ، ولم يستطيعوا أن يخلقوا في أجواء جديدة إلا عندما استطاعوا أن يهجرروا الأسلوب القديم كذكر البادية والأهوال في سبيل الوصول إلى الحبيب ويتحدثوا عن حبههم ومجالسهم وخلواتهم في كثير من الانطلاق . إلا أن هذا الحديث قد قادهم إلى حرية مؤذية أحياناً ، فيها الكثير من الفحش والمتهتك ، وقد بلغ الغزل في زمن طوائف الملوك حالة مزرية في انحطاط ألفاظه ومعانيه وعبر بذلك عن حياة العصر المتهتك .

وقد كانت أوصافهم مادية تقليدية فتحدثوا عن سهام الألفاظ وخرم الرضاب وليل الشعر ونرجس العيون وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فظهر تقليدهم جلياً ولم يجددوا المعاني ، فالحب ذليل والمعشوقة لا ترحم ، ومن هنا نشأ عندهم ما يسمى بالحب المعذب الذي تفنن الشعراء في وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له ، وقلما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام فهو إذأ في ألم دائم . وقد عقد هنرى به رس^(١) فصلاً قيماً عن الغزل في الشعر الأندلسي بيّن فيه معانيه الأساسية وخصائصه ندعوكم إلى الرجوع إليه ، كما ندعوكم إلى الرجوع إلى الفصل الذي يتحدث فيه

(١) انظر كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً .

هذا المؤلف عن المعاني التي ألهمتها الطبيعة والعمران فهو فصل قيم أيضاً . ولعل أجمل ما في الغزل الأندلسي هو هذه النغمة المحزنة التي يبكي فيها الشاعر أيام سعادته بالقرب من الحبيب ويحن إلى أيامه الآفلة التي قضى الدهر أن تكون ذكرى لحب مقيم ، وهذه النغمة هي التي منحت قصيدة ابن زيدون في صاحبته ولاّدة هذه الشهرة حتى تناقلتها كتب الأدب ، ففي هذه القصيدة التي مطلعها :

أُضْحَى التَّنَائِي بِدِيْلَامٍ تَدَانِينَا وَنَابَ عَن طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

لحن موسيقى ونجوى غرامية شاكية استطاع ابن زيدون أن يخلق بها في جو غزلي جميل كما سرى عند الكلام على هذه القصيدة بشيء من التفصيل . هذا وقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل ابن الحداد في نُويْرَة النصرانية ، كما شاع عندهم التشبيب بالشعر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما كانوا يصيبون من سببى فرنجة الشمال وهم شقر في الغالب . وكانت تشبيباتهم مستمدة غالباً من الطبيعة كما ذكرنا ، ولكن كثيراً ما كان يظهر عليها التكلف والصنعة ، وخير أشعارهم الغزلية ما كانت مجردة عن هذا التكلف كما في قصيدة ابن زيدون السابقة الذكر .

* * *

ولنقل أخيراً إن هذا الشعر في أغراضه المتعددة لا يختلف كثيراً عن الشعر الشرقى بل لعله لم يكن في مرتبته من حيث المعاني والصور الفكرية ، وقد نلاحظ أنه قد كبّل بالصنعة فأسفّ أحياناً ولم يستطع أن يفلت من هذا الإسفاف إلا عندما أطلق الشاعر لقلبه حرية القول غير عابئ بقيود البيان والبديع . على أن للشعر الأندلسي ميزةً هي هذه الرقة المزوجة بالجزالة وقد شعر الأندلسيون بهذه الظاهرة في أدهم حين قال ابن بسام : « ذَهَبَ كَلَامُهُمْ بَيْنَ رَقَّةِ الْهَوَاءِ وَجَزَالَةِ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ » .

* * *

وإذا كانت هذه الأغراض الشعرية التي أتينا على ذكرها قد استطاعت أن تصوّر لنا ، على أنماط مختلفة من الجودة ، بعض صفات الشعر في الأندلس ؛ فإن وصف الطبيعة ، وهو أبداع أشعارهم ، قد عرف هناك ازدهاره ووجد في سماء الأندلس شمسها ونهاره . وقد رأينا كيف كانت الطبيعة مثار قرائح الشعراء الأندلسيين أمثال ابن حمديس وابن خفاجة وغيرهما . فجدير بنا أن نقف عند هذا الشعر – شعر الطبيعة – وقفه نجتلى فيها مزاياه ونوضح أسرار جماله وخفاياه .

وسنوجز الكلام ، في الفصل الآتي ، على مفهوم هذا الشعر ونشأته في أدبنا العربي ، ثم نعرض على ذكر بواعثه وخصائصه في أدبنا الأندلسي ، ونورد في نهاية الحديث بعض المختارات الشعرية لأعلام شعر الطبيعة في الأندلس .

الفصل الخامس

شعر الطبيعة

هام الإنسان بالطبيعة منذ أن فتح عينيه على محاسنها وتطلع بحب إلى جمال روضها ووروق سمائها . وقد وجد فيها الشاعر والكاتب ، منذ القديم ، مرتعاً لخيلته ومقيلاً لأفكاره . وكانت وحى من استلهمها ، تنشيه باهتزاز أزهارها وانسياب جداولها ، وتالأؤ طلّتها ، وهدوء ظلها ، فيجود بالكلم الخالد واللوحه الناطقة .

و « شعر الطبيعة » تعبير جديد في أدبنا ، جاءنا من الآداب الغربية وكان له فيها أصوله وشعراؤه . وقد أطلقه النقاد الغربيون على الشعر الذى كان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية Romantisme فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد وجد الشعراء الإبداعيون فى الطبيعة ميداناً فسيحاً لحرية العمل ، وتربة خصبة لنمو العواطف الإنسانية ، وموضوعاً أكثر ملاءمة للأسلوب القوى الصريح . والطبيعة كما يفهمها « الرومانسيون » صديقة وفية يحبونها لما تمنحه من جمال لحسهم وهدوء لنفوسهم . فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويوحدون إليها بعواطفهم وآلامهم ، ويصورونها بقساوتها وجمالها . وكثيراً ما تكون ملجأً لنفوسهم التعبه القلقة ، ولذا فهم يفرّون إليها ناشدين بالقرب منها طهارة الحياة ونعيم السعادة مع من يحبون ويعشقون . وقد كان جان جاك روسو من أوائل الكتاب الذين غدوا الأدب الفرنسى بهذا الحس الطبيعى العميق .

على أن هذه الحركة كان لها جذور فى الماضى ، فهناك الكثير من الآثار اليونانية التى تغنت بجمال الطبيعة ، وقد ظفرت الإلياذة والأوديسة بقسط جميل من هذا الفن . وفى الواقع إن شعر الطبيعة بمعناه العام لم يكن مقتصرأ على عصر دون آخر ، بل كان قسمةً بين جميع العصور . إلا أنه ساد وعمقت فأسفته وتميز شعراؤه فى الحركة الإبداعية .

شعر الطبيعة في الأدب العربي :

فما هو شعر الطبيعة في أدبنا العربي ؟ وعلى أى شكل قاله الشعراء ؟
عرف الشعرُ العربي القديم شعرَ الطبيعة على الشكل الذى أوحى به البيئة البدوية ، وقد تهيأ للشاعر الجاهلى من هذا الفن حظ وافر ، فأخذ يتأمل الطبيعة ويثبها آلامه ويفتن بها ويصورها تارة ببصره وأخرى بقلبه . ويقف على أطلال الديار فتثير شجونها ، وتملك عليه الناقة والبعير والفرس فؤاده ، وتسهبويه الصحراء بحيوانها ورمالها وآلها وواحاتها ونجومها وبرقها ومطرها . فالشعر الجاهلى مثل الحياة البدوية من هذه الناحية وصورها على النمط الذى مثله الشعر الرعوى فى البيئة الغربية^(١) ، فقد مثل هذا الشعر الرعوى الطبيعة بحيوانها وطيورها وغاباتها وحقولها ، وبدا فيه الحب للحياة الريفية ، ولكنه لم يصدر فى الجملة عن الملاحظة الذاتية والشعور بل عن التقليد والتخيل^(٢) .

وقد نحا شعر الطبيعة فى فجره عند العرب هذا المنحى ، وبقي على الغالب صورة لما تراه العين أكثر من أن يكون مشاركة للعواطف التى توحى بها الطبيعة وانفعالا ذاتياً للشعور .

وقد تناول شعر الطبيعة فى العربية ، كما تناول عند الغربيين ، الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة ، ويقصد بالطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، وبالطبيعة الصامتة مظاهرها ووجودها المتجسد فى سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقولها وما إلى ذلك .

(١) الشعر الرعوى la poésie bucolique فن شعري وثيق الصلة بشعر الطبيعة la poésie de la nature ، وقد نما هذا الفن وازدهر فى عصر النهضة مع الحركة الإنسانية . ولعل الشاعر الإيطالى بترارك من ساعد على نموه بشغفه بالطبيعة وإيوائه إلى الجبال والغابات بينما كان معاصروه يعتبرونها مواطن للشياطين . والقصيد الرعوى مقطوعة غنائية حوارية قصيرة ذات طابع ريفى تمثل مناظر الطبيعة . وقد كان لرعاة اليونان القدماء حظ فى نشأة هذه الأغاني ، وازدهر هذا الفن فى إيطاليا فى عصر النهضة ، وتقدم فى فرنسا فى القرن السادس عشر متأثراً بريفيات القرون الوسطى .

(٢) انظر « شعر الطبيعة فى الأدب العربى » للدكتور سيد نوفل ص ٩ .

وقسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعة طبيعية وهي ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمرية وما شابه ذلك .

والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة « الطبيعة » ، وأكثر إيحاء للحس الطبيعي . فهي التي تحدث في النفس ذلك الحس الشعوري الذي ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها ومنشآت اليد البشرية إلا متممات منفصلة عن روح « الطبيعة » بمعناها الحقيقي . وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً مع شعر الطبيعة من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح والماء . وليس من صميم الطبيعة ، كفن شعري ، أن ندمج فيها وصف الحمل والذئب والأسد وما شابهها ؛ إن هذا الوصف أقرب إلى فن الوصف منه إلى شعر الطبيعة الذي نحب أن نجد فيه خصائص مميزة تبدو في هذا الحس الطبيعي والتجاوب الذاتي .

وإذا كان قد درج بعض النقاد على هذا التقسيم فنحن نقبله كأمر واقع ولكننا لا نستطيع إلا أن نعرف شعر الطبيعة بقولنا :

هو الشعر الذي يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيد جمالاً خيال الشاعر ، وتمثل فيه نفسه المرهفة ووجه لها واستغراقه بمفاتها . وكلما كان شعر الطبيعة معبراً عن هذه المشاركة وهذا الاستغراق ومصوراً جمال الطبيعة وفتنتها في شتى مظاهرها كان هذا الشعر مزدهراً ومحققاً غرض موضوعه . والطبيعة في الواقع معنى كُلي يتعاون كل جزء من أجزائها على جعل هذا المعنى كائناً حياً خالداً يوحى لقلب الشاعر بالحب والجمال ويبعث في نفسه شتى العواطف الإنسانية السامية .

فكيف وصف العرب الطبيعة إذاً بعد أن قدمنا هذا التعريف ؟

لقد وصف الشاعر العربي منذ القديم الطبيعة وأحبها ولم تكن غريبة عنه ، ولكنها لم تتميز حينذاك كفن شعري قائم بذاته ، وقد كان أكثر شعراء الجاهلية يصورون الطبيعة بقسميها الصامت والحى ، وكانوا على الغالب ينظرون إليها نظرة

مصور ومع هذا فقد بدا على وصفهم الشغف بها وبظواهرها ؛ فهذا امرؤ القيس لم يحمد أمام مشاهد الطبيعة فوصف الليل وشبهه بموج البحر ووصف طولته فإذا به لا يتزحزح كأن نجومه شدت بجبال متينة إلى جبل يذبُّل ، ووصف البرق وجعل لمعانه كلمع اليدين تتحركان بسرعة أو كمصباح راهب ، ووصف الغيث وبدت فتنة الشاعر به ، ثم وقف على الأطلال وبكاها ، وبكاء الأطلال مظهر من مظاهر وصف الطبيعة الذي يتجلى فيه البث والشكوى والتجاوب مع البيئة الطبيعية .
وامرؤ القيس وصف أيضاً الطبيعة الحية فصور فرسه على شكل جدير بالإعجاب ، ووصف الناقة وحمار الوحش والظلم والنعامة وكان وصفه يدل على التفنن والاستقصاء .

ومن هنا يبدو أن وصف الطبيعة عند شعراء الجاهلية كان تعبيراً عن البيئة البدوية ببساطة وصدق .

ولما انتقل العرب من البداوة إلى الحضارة وعرفوا نعيم الحياة وترف القصور وجمال الرياض ، تطور شعر الطبيعة ، ولكنه لم يستطع أيضاً أن يستقل كفن خاص وبقي هو والوصف ممزوجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والطرده والحمر . وكانت الطبيعة التي وصفها الشعراء آنذاك تختلف عن طبيعة البدوى في عناصرها ومقوماتها .

وقد كان الحديث عن الطبيعة في العصور العباسية تعبيراً عن بعض مظاهر هذه الحياة الجديدة اللاهية التي عرفتها هذه العصور ووصفاً لهذه الطبيعة الندية التي فتن بها الشعراء وغير الشعراء .

على أن شعراء العصور العباسية ، على رغم وصفهم لمفاتيح الطبيعة بدقة وإعجاب ، لم يكونوا ليستطيعوا الاندماج بها والتعبير عن خفايا شعورهم نحوها . لذلك نزعوا إلى الوصف المادى والعبث اللفظى متأثرين بتيار التأنق والصنعة الذي ساد آنذاك ثم اشتدت وطأته في عصور الانحطاط حتى قضى على الروح العفوية في الشعر .

نقول هذا ونحن نعلم أن بعض الفحول في هذه الفترة قد استطاعوا أن يضيفوا

إلى أوصافهم المادية للطبيعة حساً وذوقاً جعلهم يأتلفون معها ويستغرقون في نشوة جمالها ويبادلونها العاطفة بعاطفة والحب بحب .

فهذا أبو تمام والبحرئى وابن الرومى يقدمون لنا عن الطبيعة صوراً ذات نشاط وحياء ومباهج فاتنة . فلنسمع ابن الرومى يصف غروب الشمس وصفاً تترأى فيه المشاركة الوجدانية على شكل لم يسبق إليه فيقول :

وقد رَنَّقتُ شمسُ الأصيلِ ونَفَّضتُ

على الأفقِ الغربىِّ ورَسماً مُزَعزَعاً^١

وودَّعتُ الدنيا لتقضىَ نَجْبَها وشوَّلَ باقى عمرِها فتَشَعَّشَعَا^٢
ولاحظتُ النُّوارَ وهى مريضَةٌ

وقد وضعتُ خدّاً إلى الأرضِ أضرَعاً^٣

كما لاحظتُ عوَّادَه عينُ مُدَنَفٍ توجَّعَ من أوصابِه ما توجَّعاً^٤
وظلَّتْ عيونُ الروضِ تخضُّلُ بالندى

كما اغرورقتُ عينُ الشجىِّ لتدَمَعَا

يُراعِينِها صُوراً إليها رَوانِيَا وَيُدْحَظُنَّ الحاظاً من الشجوخِ شَعَا^٥
وبينَ إغضاءِ الفِراقِ عليهما كأنهما خِلاً صَفاءٍ تودَّعا

(١) الورس : نبات أصفر . مزعزعاً : متحرك .

(٢) شول : نقص حتى كاد ينتهى .

(٣) أضرع صفة مشبهة بمعنى ضارع : ذليل .

(٤) المدنف : المريض .

(٥) الصور : ج صوراء وهى المائلة العنق .

وقد ضَرَبَتْ في خُضرةِ الروضِ صُفرةً

من الشمسِ فاخضرَّ اخضراراً مُشعَّشعا

وأذكى نسيمَ الروضِ ريعانُ ظلِّه

وغنى مغنىَّ الطيرِ فيه وسَجَّعا^١

وهذا ابن المعتز نراه تسهويه الصورة فيأتى شعره في الطبيعة آيةً على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأصباغ ودقة إخراجه للصور والأشكال كقوله يصور احتجاب الشمس وراء السحب :

كَانَ الشَّمْسُ يَوْمَ الغَيْمِ لِحْظُ مَرِيضٍ مَدْنَفٌ مِنْ خَلْفِ سِتْرِ

وقوله يصف الهلال وصفاً فيه بهاء الصورة وترفها :

انظُرْ إِلَى حُسْنِ هلالٍ بَدَا يَهْتِكُ مِنْ أنوارِهِ الحِنْدِسا

كَمِنْجَلٍ صَيْغَ مِنْ فِضةٍ يَحْصِدُ مِنْ زَهْرِ الدُّجَى نَرَجِسا

ويستوقفنا في القرن الرابع الهجري شاعر عبقرى هو أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى وقد اجتمعت لديه أكثر مقومات شاعر الطبيعة وكان من هذه الكوكبة من شعراء الوصف الذين عاصروا المتنبى فطغت عليهم شهرته العظيمة . لقد كان الصنوبرى شاعر الروض والزهر وقد صدر في شعره عن شعوره الصادق نحو الطبيعة . تلك هي أسماء في سماء الشعر العربى ترسم لنا الشكل الذى قيل فيه شعر الطبيعة في المشرق أتينا بها كمدخل لبحثنا ، فما هي حال شعر الطبيعة في الأندلس ، وما هي الدواعى التي جعلت هذا الشعر يزدهر في تلك الأرض الأندلسية الحبيبة .

(١) أذكى : عطر ونشر الرائحة الجميلة . ريعان الشباب : نضرتة ، وريعان الظل : امتداده وكونه وارفاً .

بواعث شعر الطبيعة في الأندلس وخصائصه الهامة

منح الله الأندلس طبيعةً فاتنةً فكانت أغنى بقاع المسلمين منظرًا وأوفرها جمالا . ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيّار وتنساب الماشية والأنعام في مراعيها الجميلة ويعمل الفلاحون في حقولها الخضراء ويعطر النسيم جوّها المعتدل وبساتينها المشرقة . وقد تحدّث عن جمالها كلُّ من حلها . وأفاض المقرئ في وصف طبيعتها الفتانة وجنانها الهيجة وانتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفي بعبارة ، ومجاري فضلها لا يشق عبارته » .

وقد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب وهامت بها النفوس ، فتعلق بها الأندلسيون جميعاً وأقبلوا يسرّحون النظر في خمائلها ويستمتعون بمفاتها ما شاء لهم الاستمتاع ، وأخذ الشعراء والكتاب ينظمون كلمهم درراً في وصف رياضها ومباهج جنانها بعد أن فتحت في نفوسهم قول الشعر وجعلتهم يرون فيها – كما يقول ابن خفاجة – جنة الخلد بماؤها وظلها وأنهارها وأشجارها :

يا أهلَ أندلسِ لله دُرُكُم ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ
ما جنةُ الخلدِ إلا في ديارِكُم ولو تخيَّرتُ هذا كنتُ أختار
لا تَخْتَشُوا بَعْدَهَا أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا فليس تُدْخَلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ

وقد ملكت معاني هذا الجمال نفوسهم واستحثت قرائح الشعراء فيهم وغدتها أفضل غذاء ، وكان يكفي أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصبح مع شاعرها ابن خفاجة :

إِنَّ لِلْجَنَّةِ فِي الْأَنْدَلُسِ مُجْتَلَى حُسْنٍ وَرِيًّا نَفْسِ

فَسَنَا صُبِّحَتْهَا مِنْ شَنْبٍ وَدَجَى ظَلَمَتِهَا مِنْ لَعَسٍ
 فاذا ماهبت الريحُ صبا صِحتُ : واشوقى إلى الأندلس!

ولم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذى ساعد على ازدهار شعر الطبيعة فيها ، بل إن الحياة اللاهية نفسها التى أشرنا إليها والتي عاشها الشعراء كانت سبيلا لهذا الازدهار ، إذ كانت الطبيعة مسرح حياة الشاعر اللاهية ، وفى أحضانها استسلم للهوه وحبه وخمره ، وعكف يصور هذا اللهو وهذا الحب وهذه الحمرة فى إطار الطبيعة مقدماً لنا لوحات فيها العبير والأصباغ والألوان .

فما هى تلك الخصائص التى امتاز بها شعر الطبيعة فى الأندلس ؟

١ - هو شعر يمثل تعلق الشعراء الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بصور الجزيرة العربية . وقد رأينا كيف أن ابن خفاجة يتعلق بالأندلس ويراهما جنة الخلد ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، ولابن زيدون وابن حمديس ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق وهذا الحب كما رأينا فيما تقدم .

٢ - هو شعر يصف طبيعة الأندلس الطبيعية والصناعية ، فشعراء الطبيعة يصفونها كما أبدعها الله فى الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم ، ويصفونها كما صورها الفن مجلوة فى القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال الطبيعة وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حباً وبها تعلقاً ؛ وهم كذلك قد أتوا على أوصاف جديدة للطبيعة الحية كما فعل ابن خفاجة فى وصف الفرس والذئب .

٣ - وهو شعر يصف الأقاليم الطبيعية المختلفة لبلاد الأندلس ، فكان لبعض الأقاليم شعراؤها الذين اهتموا بوصف ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهراتها . وابن سفر المريني يصف إشبيلية ، وأبو الحسن بن نزار يتعلق بوادى أشات فيصوره تصويراً ينمُّ عن براعة بما يتركه فى النفس من طراوة الندى والظل والشجر فيقول :

وادی الأشبات يهيجُ وجدِي كلما
 لله ظِلُّكُ والهجيرُ مسدَّطُ
 قد برَّدتُ لفحاتِه الأنداءُ
 والشَّمسُ ترغِبُ أن تفوزَ بلحظةٍ
 منه فتَطرِفُ طرفَها الأفياءُ
 والنهرُ يبسِمُ بالحبابِ كأنه
 سدخٌ نضتهُ حيةٌ رقطاءُ
 فلذلكَ تحذرهُ العيونُ ، فمِثلها ،
 أبداً على جنباتِه إيماءُ

وهكذا كان شعراء الأندلس يعبرون عن مشاهد طبيعية رأوها وعاشوا في رحابها وأحسوا بجمالها .

٤ - الطبيعة عندهم طروب تبعث جو الطرب ، ووصفها يمثل الجوانب الضاحكة الندية منها ، وأكثر شعرهم في الطبيعة وصف لمتنزهاتهم ومجالس أنسهم وهوهم في أحضانها كما بدا لنا من الأمثلة التي جئنا على ذكرها فيما تقدم .

٥ - وصف الطبيعة عندهم متصل بالغزل والحمر ، وهو طريق إليهما ، ولذا فقد رأينا شعراء الأندلس لا يذكرون الطبيعة إلا في رحاب الحب بل لا يذكرون الحب إلا في رحاب الطبيعة ، وهم بهذا يمنحون غزلهم لوناً بهيجاً من الجمال تقدمه الطبيعة التي تضم خلواتهم وتفسح لهم مجال اللهو والشراب ، والأمثلة كثيرة في شعر ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وغيرهم على امتزاج الطبيعة بالغزل والحمر وما يقتضيه هذا الامتزاج من لهو وطرب . فغزل الأندلسيين إذن يهتم ، إلى جانب وصف المحبوب ، بالمكان الذي ضم هذا المحبوب وهو غالباً الطبيعة ، بينما كان الغزل بالمشرق يهتم ، على الغالب ، بالوصف المادى وذكر الحوار واللقاء كما كان يفعل عمر بن أبي ربيعة وشعراء مدرسته ومن جاء بعده .

٦ - المرأة صورة من محاسن الطبيعة ، والطبيعة تجد في المرأة ظلها وجمالها ، ولذا كانت الحبيبة روضاً وجنة وشمساً ، وقد قال المقرئ عن شعراء الأندلس « إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً ومن النرجس عيوناً ومن الآس أصداغاً

ومن السفرجل نهوداً ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسُرر التفاح
مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً^(١). وهكذا كانت العلاقة شديدة بين جمال المرأة
وبين الطبيعة فلا تذكر المرأة إلا وتذكر معها الطبيعة .

٧- وشعرهم يعنى بتشخيص الطبيعة وتصويرها على نحو إنسانى تملؤه الحركة
والنشاط كما فى شعر ابن زيدون وابن خفاجة وغيرهما وكما فعل لسان الدين بن
الخطيب فى موشحته التى عارض بها موشحة ابن سهل التى مطلعها :

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلِسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا فِي الْكَرَى أَوْ خِلْسَةَ الْمُخْتَلِسِ

فى هذه الموشحة يجلل الحيا الروض فتبسم ثغور الزهور ، ويتناجى الماء
والحصا فيغار الورد ويحمر حنقاً ، ويتنبه الآس فيسرق السمع ليفهم سر المناجاة .
والشعر الأندلسى يقدم لنا لوحات أخرى تنم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة
وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه .

٨- وشعر الطبيعة عندهم لا يظهر كغرض مستقل إلا نادراً فى بعض
المقطوعات والقصائد ، وقد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء
الأندلسيون ، وكان الغزل كما رأينا أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة ، إلا أن
هذه الثنائية نراها أيضاً فى المدح والرثاء والعتاب والفخر ، فهذا ابن زيدون يصف
خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحك . فيقول :

لِلدَّجْهَوْرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَائِقٌ كَالرَّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي

وكذلك يمدح المعتمد على نعمه فيراها جنة يضل فيها القريض :

أَوْرَثْتَنِي نِعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالٍ فِي وَصْفِهَا فَضْلَ الْقَرِيضِ

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بُرْد ويطلب منه أن يكون مثله دائماً الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى في الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه :

لا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ

وهكذا فذكر الطبيعة يمنح هذه الأغراض صفة أندلسية تتجلى في اقتناص المعاني من طبيعة الأندلس .

٩ - وقد كان لطبيعة الأندلس وما احتضنت من غزل وهو وغناء أثر في اختراع قالب شعري جديد طبعته الأندلس بطابعها ألا وهو « الموشح » ذلك الفن الشعري المستحدث الذي غنى طبيعة الأندلس وهوها وعاش في نعيم ظلالها وعَبَقَ ريحانها .

* * *

هذه جملة المميزات لشعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع شعراؤها أن يصفوها ، في كثير من الحالات ، من خلال نفوسهم ولكنهم نظروا إليها ، على الغالب ، نظرة مصور فبدت لعيونهم كثيرة الأصباغ والألوان وزينوها بصناعة لفظية وخيال بصرى أنيق . ولم يستطيعوا أن يتجردوا من ماضي شعر الطبيعة وإن كانوا قد طبعوه أحياناً بطابعهم وأخضعوه لمقومات بيئتهم . ولئن استطاع بعضهم في عدد من القصائد أن يصف خلجات نفسه نحوها ، فقد قصرُوا بصورة عامة عن الاتحاد بها اتحاداً تاماً على طريقة المفهوم « الرومانتيكى » عند شعراء الغرب .

وهكذا بقي شاعر الطبيعة الأندلسي ، على رغم حسه العميق وحبه للطبيعة ، يصورها ويزخرفها ببصره ويحسّمها ويجمّلها بخياله ، فأجاد الصناعة ولم ينفخ فيها دائماً الروح .

* * *

والخلاصة إن وصف الطبيعة في الأندلس كان ، على الغالب الأعم . شغفاً

بمحاسنها وتصويراً حسيّاً لمباهجها ، تموج به ، بين حين وآخر ، خفقةً من حياة ودفقةً من عاطفة صادقة .

وإننا لواجدون في المنتخبات الشعرية الآتية بعض هذه الخصائص التي أتينا على ذكرها .

* * *

منتخبات

من شعر الطبيعة في الأندلس

من شعر ابن حمديس :

قال ابن حمديس يصف الخمر في ظلال الطبيعة :

نحنُ في جنةٍ نباكرُ منها ساحليَ جدولٍ كسيْفٍ مجردُ
صقلتُ متنةً مداوُسُ شمسٍ من خلالِ الغصونِ صقلاً مُجددًا^١
ومُدَامٍ تطيرُ في الصحنِ سُكْرًا فتُحلُّ العقودُ منها وتُعقدُ
جِسْمها بالبقاءِ في الدنِّ يبلى وقواها مع الليليِّ تجددُ^٢
وإذا الماءُ غاضَ في النارِ منها أخرجَ الدرُّ من حبابٍ منضدُ
يا لها من عصيرِ أوّلِ كرمٍ سكرِ الدرِّ منه قِدماً وعربد
جنةٍ مَجَّتْ الحيا إذ سقاها مُصلحٌ من غمامِهِ غيرُ مُفسد
قد لبسنا غلائلَ الظلِّ فيها مُعلّـماتٍ من الشُّعاعِ بعَسجد^٣

(١) المداوس : مفردها مدوس ومدواس وهي المصقلة .

(٢) الدن : جمعها دنان وهي راقود الخمر .

(٣) معلّـمات : مخططات .

ورأينا نارنجها من غصون هزت الريحُ خصرها فهي ميدٌ
ككُراتٍ محمّرةٍ من عقيقٍ تذرّيها صوالجٌ من زبرجد
وكانَّ الأنوارَ فيها ذُبَالٌ بسليطٍ من الندى تتوقدا
وكانَّ النسيم بالفرج يُفشي بين روضاتها سرائرَ خرد^٢
حيث نُسقى من السرور كؤوساً ونغنى من الطيور وننشد
ذو صفير مُرجعٍ أو هديلٍ أسمعتم عن الغريض ومعبدٍ؟
شاديات تُمسي الغصون وتضحى رُكعاً للصبا بهنَّ وسجد
كان ذا الزمانُ سمحُ السجايا ببوادٍ من الأمانى وعود
والصبا في معاطفي وكأني غصنٌ في يد الصبا يتأود^٣

قال ابن حمديس يصف الليل والثريا والسُّها وظلوع الفجر وشروق الشمس ،
في مقطوعة مطلعها :

وليلٍ رَسَبنا في عُبَابٍ ظلامه إلى أن طفاللصبح في أفقه نجمٌ
كأن الثريا فيه سبعُ جواهرٍ فواصلها جَزَعُ به فصلَ النظم^٤
وتحسبها من عسكر الشُّهبِ سُربَة
عمائمهم بيضٌ وخيلهم دهم^٥

(١) الذبال : مفردها ذبالة وهي الفتيلة . السليط : الزيت .

(٢) فرج الوادى : بطنه . الخرد مفردها خريدة وهي الحبيبة الطويلة السكوت .

(٣) يتأود : يتمايل .

(٤) الجزع : خرز فيه سواد وبياض واحده جزعة .

(٥) السربة : القطعة من خيل وقطا وظباء .

كَأَنَّ السَّهَى مُضْنِيَّ أَتَاهُ بِنَعَشِهِ
 وَظَنُّوا أَنَّ مَوْتَهُ حَتْمٌ
 كَأَنَّ انْصِدَاعَ الْفَجْرِ نَارِيْرِي لَهَا
 وَتَحَسَّبَهُ طِفْلاً مِنَ الرُّومِ طَرَّقَتْ
 وَرَاءَ حِجَابِ حَالِكِ نَفْسٍ يَسْمُو
 بِهِ مِنْ بَنَاتِ الزُّنْجِ نَائِبَةً أُمُّ
 أَعْلَمَ فِي أَحْشَائِهَا أَنَّ عُمُرَهُ
 - لَدَى وَضَعِهِ - يَوْمٌ؟ فَشَيْبَةُ الْهَمِّ
 وَدَرَّتْ لَنَا شَمْسُ النَّهَارِ مَذِيبَةً
 عَلَى الْأَرْضِ رُوْحًا فِي السَّمَاءِ لَهُ جِسْمٌ

نرح ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقية سنة ٤٧١ هـ وهو في سن الحداثة
 وصحب العرب هناك ، فقال هذه الأبيات التي تصور تشوقه للطبيعة وهوائها وتصف
 ترحاله وتغربه في فيا فيها :

إِنِّي لِأَبْسُطُ لِلْقَبُولِ إِذَا سَرْتُ خَدِّي وَأَلْقَاهَا بِتَقْبِيلِ الْيَدِ
 وَأَضْمُ أَجْنَابِي عَلَى أَنْفَاسِهَا كَمَا تَبْرُدُ حَرَّ قَلْبٍ مُكْمَدِ
 مَسَحْتُ كِرَاقِيَةَ عَلِيٍّ بِكَفِهَا وَنَقَابُهَا نِدٌّ مِنَ الزَّهْرِ النَّدِيِّ
 وَعَرَفْتُ فِي الْأَرْوَاحِ مَسْرَاهَا كَمَا عَرَفَ الْمَرِيضُ طَبِيْبَهُ فِي الْعُودِ
 مَا لِي أُطِيلُ إِلَى الدِّيَارِ تَغْرِبًا أَفْبَالَتَغْرِبِ كَانَ طَالِعُ مَوْلَدِي
 أَبَدًا أَبَدًا بِالنَّوَى عَزْمِي إِلَى أَمَلٍ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ مُبَدَّدٌ

(١) السها : نجم خفي من بنات نعرش الصغرى .

(٢) القبول : ريج الصبا وتقابلها الدبور .

(٣) الراقية : التي تقوم بالرقية . ند : المثل والنظير .

(٤) النوى : البعد .

كم من فلاة جُبَّتْها بنجبية^١ عن منسم^٢ دام وخطم^٣ مُزِيد^٤
 أَبْقَى الجزيل لها جميل ثنائ^٥ في العيس موصولاً بقطع الفد^٦
 ضربت مع الإعناق أعناق الفلا^٧ بحسام^٨ ماء في حشاها مغمدا^٩

قال ابن حمديس من قصيدة يصف فيها مظاهر الطبيعة :

نثر الجوُّ على الأرض بردٌ أَيُّ دُرٍّ لنُحورٍ لو جمدٌ
 لؤلؤٌ أصدافه السحبُ التي أنجزَ البارقُ منها ما وعدٌ
 آرقَ الأَجفانَ رعدٌ صوتُهُ كهديرِ القرمِ في الشولِ حفدٌ
 بات يجتاح بإبكارِ الحيا بلداً يرويه من بعدِ بلدٌ
 وكان البرقُ فيها حاذفٌ بضرامٍ كلما شُبَّ خمداً
 تارةً يبدو وَيَخْفَى تارةً كحسامٍ كلما سُلَّ غمداً
 يذعُرُ الأبصارَ محمراً كما قَلَّبَ الحملاقُ في الليلِ الأسدُ
 وعليلُ النبتِ ظمانُ الثرى عَرَّجَ الرائدُ عنه فزهداً
 خلَعَ الخِصبُ عليه حُللاً لبديعِ الرِّقمِ فيهن جدداً
 وسقاه الرِّيُّ من وَكَافَةٍ فتَحَ البرقُ بها الليلَ وسدداً

(١) النجبية : الناقة . المنسم : طرف خف الناقة . الخطم : مقدم فم الدابة .

(٢) العيس : الإبل . الفد : الفلاة .

(٣) الإعناق : السير الواسع الفسيح .

(٤) القرم : من الجمال ما لم يمسه جبل . حفد : أسرع .

(٥) حملاق العين : باطن أجفانها .

(٦) الرقم : الوشى . (٧) الوكافة : سحابة كثيرة المطر .

ذاتِ قَطْرٍ دَاخِلٍ جَوْفَ الثُّرَى
 كحياةِ الرُّوحِ في موتِ الجسدِ
 فَتَشَنَّى الغصنُ سَكْرًا بالنَّدَى وتَغْنَى
 وساجعُ الطيرِ غَرْدُ
 وَكَأَنَّ الصَّبْحَ كَفُّ حَدَلَتْ مِنْ ظِلَامِ اللَّيْلِ
 بالنُّورِ عُقْدُ
 وَكَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي ذَهَابًا طَائِرًا
 فِي صَيْدِهِ مِنْ كُلِّ يَدِ

قال ابن حمديس يصف غديراً شقه نهر :

وزرقاءَ في لونِ السماءِ تَنبَهَتْ
 لِتَحْبُكِهَا رِيحٌ تَهْبُ مَعَ الفَجْرِ
 يَشُقُّ حَشَاها جَدُولٌ مَتَكَفَّلٌ
 بِسَقَى رِياضِ ألبَسَتْ حُلُلَ الزَّهْرِ
 كَمَا طَعَنَ المَقْدَامُ فِي الحَرْبِ دَارِعًا
 بِعَضْبٍ فَشَقَّ الخَصْرَ مِنْهُ إِلَى الخَصْرِ
 يُرِيكَ رَوْسًا مِنْهُ فِي جِسْمِ حَيَّةٍ
 سَعَتْ مِنْ حَيَاةٍ فِي حَدَائِقِ الخُضْرِ
 فَلَ رَوْضَةٌ إِلَّا اسْتَعَارَتْ لُشْكُرِهِ
 لِسَانَ صَبَاً تَسْرِي مَطِيَّبَةَ النَّشْرِ

من شعر ابن خفاجة

وصف الجبل :

قال ابن خفاجة يصف الجبل وهي من درر قصائده التي تمثل امتزاج الشاعر
 بالطبيعة :

بِعَيْشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهْوَجُ الجَنَائِبِ
 تَخُبُ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النِّجَائِبِ؟^١

(١) هوج الجنائب : رياح الجنوب الهوجاء . النجائب : مفردها نجيبة وهي الناقة الكريمة .

فما لُحْتُ في أُولَى المشارق كوكباً
 فأشرفْتُ حتى جئتُ أُخْرَى المغارب
 وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلى وجوهَ المنايا في قِنَاعِ الغياهب^١
 ولا جارٍ إلا من حُسَامٍ مُصمِّمٍ ولا دارٍ إلا من قُتُودِ الرُكائبِ^٢
 ولا أنْسٍ إلا أن أضاحك ساعةً
 تغورَ الأمانى في وجوهِ المطالب
 وليلٍ إذا ما قلتُ قد بادَ فانقضى
 تكشَّفَ عن وعْدٍ من الظنِّ كاذب
 سحبتُ الدِّياجى فيه سودَ ذوائبٍ
 لأعتنقَ الآمالَ بيضَ ترائبِ^٣
 فمزقتُ جيبَ الليلِ عن شَخْصِ أَطْلِسِ
 تطلَّعَ وضَّاحِ المَضاحِكِ قاطبِ^٤
 رأيتُ به قِطْعاً من الفَجْرِ أغْبِشاً تأمَّلَ عن نجمٍ توقَّدَ ثاقبِ^٥

(١) تهاداني الفيافي : تهديني واحدة إلى أخرى . أجتلى : أنظر . الغياهب جمع غيب : الظلمات .

(٢) جار : حام وناصر . المصمم : الماضي . القتود جمع قتد : أخشاب الرجل . الركائب

جمع ركوبة : النوق .

(٣) الدياجى جمع دجى : الظلمات . الترائب : جمع تريبة وهي العظمة في الصدر .

(٤) الجيب : ما يلي العنق من الثوب . عن شخص أطلس : أى عن شخص أفق أطلس والأطلس

الذى في لونه غبرة إلى سواد ، وهو وضاح المضاحك لأن الصبح بدأ يطلع فيه ، وهو قاطب لأن بقية من الظلام لا تزال فيه .

(٥) قطعاً : جانباً . تأمل : هنا انكشف ويقصد بالنجم في البيت الزهرة أو عطارد لأنهما يظهران

في الأفق على التناوب عند مطلع الفجر .

* * *

وَأَرَعْنَ طَمَّاحِ الذُّوَابَةِ بِأَذْخٍ يُطَاوِلِ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِغَارِبٍ^١
 يَسُدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنِ كُلِّ وُجْهَةٍ وَيَزَحْمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَنَاكِبِ
 وَقُورٌ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاحِ كَأَنَّهُ طَوَالَ اللَّيَالِي مُفَكِّرٌ فِي الْعَوَاقِبِ
 يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سَوْدَ عَمَائِمٍ لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حَمْرُ ذَوَائِبٍ^٢
 أَصْحَتْ^٣ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسُ صَامِتٌ
 فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ^٣
 وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأً قَاتِلٍ وَمَوْطِنَ أَوَاهٍ تَبْتَلُ تَائِبٍ^٤
 وَكَمْ مَرَّبِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوَّبٍ وَقَالَ بَظْلِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبٍ^٥
 وَلَا طَمَّ ، مِنْ نَكْبِ الرِّيَّاحِ ، مِعَاطِفِي
 وَزَا حَمَّ ، مِنْ خُضْرِ الْبِحَارِ ، غَوَارِبِي^٦
 فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّتْهُمْ يَدُ الرَّدَى وَطَارَتْ بِهِمُ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَائِبِ
 فَمَا خَفَقَ أَيُّكِي غَيْرُ جَفَّةٍ أَضْلَعِ وَلَا نُوحُ وُورَقِي غَيْرُ صَرْخَةٍ نَادِبٍ^٧

(١) الأرعن : الجبل الشديد النتوء . الغارب : الظهر .

(٢) يلوث : يعصب ويلف .

(٣) أصحيت : أصغيت .

(٤) الأواه : هنا التائب الذي يتوه من ذنوبه . تبتل : تنسك وانقطع إلى العبادة .

(٥) المدلج : السائر في الليل . المؤوب : الراجع . قال : نام القيلولة .

(٦) النكب : جمع نكباء وهي الرياح الشديدة .

(٧) الأيك جمع أيكة : الشجر الكثيف الملتف . الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

وما غيَّضَ السلوانُ دمعِي وإنما نَزَفَتْ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الصَّوَابِ^١
 فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيُظَنُّ صَاحِبٌ أُوذِّعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبٍ
 وَحَتَّى مَتَى أَرْعَى الْكَوَاكِبَ سَاهِرًا

فَمِنْ طَالِعٍ ، أُخْرَى اللَّيَالِي ، وَغَارِبٍ
 فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ يَمُدُّ إِلَى نِعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبًا^٢
 فَاسْمَعْنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ يُتَرَجَّمُ عَنْهَا لِسَانُ التَّجَارِبِ
 فَسَلِّ بِمَا أَبْكِي وَسَرِّ بِمَا شَجَا

وَكَانَ ، عَلَى عَهْدِ السَّرِيِّ ، خَيْرَ صَاحِبٍ^٣
 وَقُلْتُ ، وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ لِطِيَّةٍ : سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبٍ^٤

وصف الليل :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وليلٍ كما مدَّ الغرابُ جناحَه وسالَ على وجه السَّجِلِ مداً
 به من وميض البرق ، والليلُ فحمةٌ شرارٌ ترامي والغمامُ زناد
 سرَّيتُ به أُحْيِيه ، لَاحِيَةُ السَّرِيِّ تموت ولا مَيَّتُ الصِّبَاحِ يَعَادُهُ^٥

(١) غيَّضَ : غور ، جملة ينضب .

(٢) البيت من كلام الجبل ومولاه هو الله .

(٣) سرى : بدد الحزن وأبعد الهموم . شجا : أحزن .

(٤) الطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر ، وهنا بمعنى السفر .

(٥) يعاد : يزار .

يقَلَّبُ منى العزمُ إنسانَ مُقلِّدٍ لها الأفقُ جفنٌ والظلامُ سواد
 بخرقٍ لقلبِ البرقِ خفقةٌ روعةٌ به ، ولجفنِ النجمِ فيه سهادٌ^١
 سحيقٌ ولا غيرَ الرياحِ ركائبٌ هناك ولا غيرَ الغمامِ مزادٌ^٢
 كَأَنى وأحشاءُ البلادِ تُجِنُّنى سريرةٌ حبٌّ والظلامُ فؤادٌ^٣
 أجوبُ جيوبَ البِيدِ والصبحُ صارمٌ له الليلُ غمْدٌ والمجرُّ نِجادٌ
 وفي مُصطَلَى الآفاقِ جَمْرٌ كواكبٍ
 علاها من الفجرِ المُطلِّ رَمادٌ
 ولَمَّا تعرَّى من دُجى الليلِ طِحْلِبٌ
 وأعرَضَ من ماءِ الصباحِ ثِمادٌ^٤
 حننتُ وقد ناحَ الحمامُ صبايةً وشقَّ من الليلِ البهيمِ حدادٌ
 على حينِ شطَّتْ بالحبائبِ نيةٌ وحالتِ فيافٍ بيننا وبلادٌ^٥

وصف متنزه :

قال ابن خفاجة :

وَمَجْرٌ ذِيلِ غِمَامَةٍ قَدْ نَمَقَّتْ وَشَى الرَّبِيعَ بِهِ يَدُ الْأَنْوَاءِ^٦

(١) الحرق : القفر .

(٢) سحيق : بعيد . المزاد : واحدتها مزادة ، وهى جلود يضم بعضها إلى بعض ويوضع فيها الماء .

(٣) تجننى : تسترئى .

(٤) تعرئى : انشق . الثاد : الماء القليل .

(٥) شطت : بعدت . النية : الرحلة البعيدة . الفيافى : القفار واحدتها فيفاء .

(٦) نمقت : زينت . الوشى : النقش بالألوان .

أَلْقَيْتُ أَرْحُلَنَا هُنَاكَ بِقَبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ مِنْ سَرْحَةٍ غَنَاءٍ^١
 وَقَسَمْتُ طَرْفَ الْعَيْنِ بَيْنَ رَبَاوَةٍ مَخْضَرَةٍ وَقَرَارَةٍ زَرْقَاءٍ^٢
 وَشَرِبْتُهَا عَذْرَاءً تَحْسَبُ أَنَّهَا مَعْصُورَةٌ مِنْ وَجْتَنَى عَذْرَاءٍ^٣
 حَمْرَاءُ صَافِيَةٌ تَطِيبُ بِنَفْسِهَا وَغَنَائِمًا وَخِلَاطِقِ النَّدْمَاءِ^٤
 خُذْهَا كَمَا طَلَعَتْ عَلَيْكَ عَرَاةٌ مُفْتَرَّةٌ عَنْ لَوْلُو الْأَنْدَاءِ^٥

قال ابن خفاجة يصف سرحة على نهر :

وَسَرْحَةٌ خَاضَ مِنْهَا ظِلُّهَا نَهْرًا أَوْفَتْ عَلَيْهِ فَلَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدِ^٥
 كَمَا تَدَانِيَتْ مِنْ ثَغْرِ لِمَرْتَشِفٍ ثُمَّ انْثَنِيَتْ فَلَمْ تَصُدِّرْ وَلَمْ تَرِدِ
 كَأَنَّ أَفْنَانَهَا طَيِّبًا ، حِمَى مَلِكٍ أَغْضَى وَأَعْطَى فَلَمْ يُوعِدْ وَلَمْ يَعِدِ^٦

وقال يصف سحابة تمشى على الظلماء :

وِغْمَامَةٌ لَمْ يَسْتَقِلَّ بِهَا السُّرَى فَمَشَتْ عَلَى الظُّلْمَاءِ مَشَى مَقِيدِ
 حَمَلَتْ بِهَا رِيحُ الْقَبُولِ سَحَابَةً سَحَابَةَ الْأَذْيَالِ تُلْمَسُ بِالْيَدِ
 فِي لَيْلَةٍ قَدْ بَاتَ يَلْحَسُ تَحْتَهَا حَبْرًا لِسَانُ الْبَارِقِ الْمُتَوَقِّدِ^٧

(١) السرحة : الشجرة الطويلة . الغناء : الكثيرة الأغصان .

(٢) الرباوة : المرتفع . القرارة : المكان المظلم .

(٣) شربتها عذراء : أى خمرة بكرة غير ممزوجة .

(٤) العرارة ، واحدة العرار : بهار ، أى نبت طيب الرائحة ناعم أصفر . مفترّة : مبتسمة .

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أغضى : سكت .

(٧) شبه شدة الظلام بالحبر يلحسه لسان البرق .

نَسَجَ الضَّرِيبُ بِهَا الظَّلَامَ حَمَامَةً ۚ فابيضُّ كلُّ غرابٍ ليلٍ أسوداً^١
شابت وراءَ قِنَاعِهَا لِمَمِّ الرَّبِّيِّ ۚ واشمطَ مَفْرِقُ كلِّ عَضْبٍ أَمْلَدُ^٢

حديث كالنسيم :

قال ابن خفاجة في إحدى قصائده :

وليلٍ تعاطينا المدامَ وبيننا حديثٌ كماهبَ النسيمُ على الوَرْدِ
نعاودُهُ والكأسُ يَعْبِقُ نَفْحَةً ۚ وَأَطِيبُ مِنْهُ ما نُعيدُ وما نُبدِي
ونَقْلِي أَقاحُ الثَغْرِ أو سَوْسُنُ الطَّلِي

ونرجسةُ الأَجْفانِ أو وردةُ الخدِ^٣
إلى أن سرت في جسمه الكأسُ والكرى

ومالا بعطفيه فمالَ على عَضْدِي
فأقبلتُ أستهدى، لمابين أضلعي من الحرِّ، مابين الضلوعِ من البَرْدِ

* * *

وأكثر مطالع مدائح ابن خفاجة أبيات في وصف الطبيعة يمازجها الغزل ،
وإليك ، بعد مقدمة غزلية ، هذه الأبيات التي يصف بها الطبيعة من قصيدة
بمدح بها الأمير أبا يحيى بن إبراهيم :

ومجرُّ ذيلِ غمامةٍ لبستُ به ، وشيَ الحَبَابِ معاطفُ الأنهارِ

(١) الضريب : الثلج .

(٢) أراد بالعضب الغصن . الأملد : الناعم .

(٣) النقل : ما ينتقل به على الشراب من فستق وتفاع ونحوهما .

خَفَقَتْ ظِلَالُ الْأَيْكِ فِيهِ ذَوَائِبًا وَارْتَجَّ رِدْفًا مَائِجُ التِّيَّارِ
 وَلَوَى الْقَضِيبُ هُنَاكَ جِيدًا أَتَدَعَا قَدْ قَبَّلْتُهُ مِبَاسِمُ النُّوَارِ
 بَاكَرْتُهُ وَالغَيْمُ قِطْعَةً عُنْبِر مَشْبُوبَةٌ وَالْبَرْقُ لَفْحَةٌ نَارِ
 وَالرِّيحُ تَلَطِّمُ فِيهِ أَرْدَافَ الرَّبِيِّ لَعِبَاءً وَتَلَشَّمُ أَوْجُهَ الْأَزْهَارِ
 وَمَنَابِرُ الْأَشْجَارِ قَدْ قَامَتْ بِهَا خَطْبَاءُ مُفْصِحَةٌ مِنَ الْأَطْيَارِ

وكان ابن خناجة يمهّد لمذائحه بغزل رقيق فيه صنعة العبقرى ، ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يقوده المطاف إلى الممدوح ، وقصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع صاحب قرطبة تتبع هذه الخطة فلنسمعه وقد اتخذ من الطبيعة طريقاً لمدح الممدوح قال :

وغمامةٍ نَشَرْتُ جَنَاحَ حَمَامَةٍ وَالْبَرْقُ قَدْ نَسَجَ الظَّلَامَ نَهَارَا
 مَتَأَلَّقُ صَدْعَ الدَّجَى وَسَمَقَى الثَّرَى فَابْيَضُّ ذَا نُورًا وَذَا أَنْوَارَا
 فِي أَجْرَعٍ خَلَفَ الرَّبِيعُ بِهِ ابْنَهُ كَرَمًا فَأَخْصَبَ رَبْوَةً وَقَرَارَا^١
 هَمَّتِ الصُّبَا مِنْهُ بِمَسْرَى دِيمَةٍ هَطَلَاءَ قَرَّبَهَا الْعَجَاجَ وَقَارَا
 وَكَفَّتْ فَسَالَتْ فِضَّةً وَلرَبَّمَا طَبَعَتْ بِكُلِّ قَرَارَةٍ دِينَارَا
 أَرْضٌ هَبِطَتْ بِهَا سَمَاءٌ طَلْقَةً وَخَبِطَتْ مِنْ سَدَفٍ بِهَا أَنْوَارَا
 عَاطِيَتْ ذَكَرَ أَبِي الْحَسَنِ بِهَا السَّرَى
 رِيحَانَةٌ يَشْتَمُّهَا مِعْطَارَا

(١) لعله أراد بابن الربيع المطر ، وذلك بدليل قوله فأخصب .

وسلافةً خَفَّتْ بنا طرباً لها واسترقت من فتية ومهاري
عبثت بهامنة الكرى فَمَا يَدَّتْ في ملتقى أمسحارها أشجارا

قال ابن خناجة يصف الطبيعة في جو من الحمر :

أَحْسُ المُدَامَةِ والنسيم عليلٌ والظل خَفَّاقُ الرواقِ ظليلٌ^١
والنَّوْرُ طَرْفٌ قد تنبّه داعمٌ والماءُ مُبْتَسِمٌ يروقُ صقيلٌ
وتطلَّعتُ من برق كل غمامة في كل أفق رايةً ورعيلٌ^٢
حتى تَهَادَى كلُّ خُوْطَةٍ أَيَكَّةٍ رِيًّا وغصت تدعةً ومسيلٌ^٣
عَطَفَ الأَرَاكَةَ فانثنت شكراً له

طَرَباً وَرَجَعٌ في الغصونِ هَدِيلٌ^٤
فالروضُ مهتز المعاطفِ نعمةً نشوانٌ يعطفه الصبا فيميل
ريَّانٌ فضضه الندى ثم انجلى عنه فذهبَ صفحتهِ أصيلٌ
وارتدَّ ينظر في نقاب غمامةٍ طَرْفٌ يمرضه النعاسُ كليلٌ^٥
ساجٍ كما يرنو إلى عُوَّادِهِ شاكٍ ويلتمح العزيز ذليلٌ

(١) الرواق : مقدم البيت ، وقد شبه الظل ببيت مضروب يخفق هواء رواقه .

(٢) الرعيل : الجماعة من الخيل ، شبه السحب بجاعات الخيل وكتائبها في الحرب ، وشبه البروق المنبثثة منها بالرايات المنشرة الحمر فوق رؤسهم .

(٣) كل خوطة : كل غصن . الأيكة : الشجر الملتف . التلعة : مجرى الماء من الجبل إلى

الوادي .

(٤) عطف الأراكاة : أى عطف النسيم الأراكاة .

(٥) طرف : أى طرف كل شارب منا . فبعد أن كان ينظر إلى الأزهار في النهار ارتد ينظر

في غمامة كأنها النقاب ، وهذا الطرف كليل من السكر .

قال ابن خفاجة يحن إلى حبه في ظلال الطبيعة :

لَكَ اللهُ مِنْ بَرْقِ تَرَاءَى فِلسَمَا

وصافح رسماً ، بالعُذيب^١ ، ومَعْلَمًا^١

إِذَامَاتِجَاذِبْنَا الْحَدِيثَ عَلَى السُّرَى بِكَيْتٍ عَلَى حُكْمِ الْهَوَى وَتَبَسَّمَ

وَلَمْ أَعْتَنِقْ بَرْقَ الْغَمَامِ ، وَإِنَّمَا وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدِي تَأَلَّمًا

وَمَا شَاقَنِي إِلَّا حَفِيفُ أَرَاكَةِ وَسَجْعُ حَمَامٍ بِالْغُمِيمِ تَرَنَّمًا^٢

وَسِرْحَةٌ وَادٍ هَزَّهَا الشُّوقُ لَا الصَّبَا

وَقَدْ صَدَحَ الْعُصْفُورُ فَجْرًا ، فَهَيَّئِنَّمَا^٣

أَطْفَتُ بِهَا أَشْكَو إِلَيْهَا وَتَشْتَكِي

وَقَدْ تَرَجَّمَ الْمُكَّاءُ عَنْهَا ، فَأَفْهَمَاءُ

تَحَنُّنٌ وَدَمَعُ الشُّوقِ يَسْجُمُ وَالنَّدَى وَقَرَّ بَعِينِي أَنْ تَحَنُّنٌ وَيَسْجُمَا

وَحَسْبُكَ مِنْ صَبِّ بَكِيٍّ وَحَمَامَةٍ فَلَمْ يَدِرْ شَوْقًا أَيَّمَا الصَّبِّ فَهَمَا

وَلَمَّا تَرَاءَتْ لِي أَثَافِيُّ مَنْزِلٍ أَرْتَنِي مُحِيًّا ذَلِكَ الرَّبْعَ أَهْيَمَاهُ

تَرَنَّحَ بِي لَذَعٌ مِنَ الشُّوقِ مَوْجَعٌ

نَسِيتُ لَهُ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ تَأَلَّمًا

(١) العذيب : موضع . معلم الشيء : معهده ، ومنه معالم الطريق عكس مجاهلها .

(٢) الغميم : وادٍ في بلاد العرب .

(٣) السرحة : الشجرة العظيمة .

(٤) المكاء : طائر سمى هكذا لأنه يمكو أى يصفر .

(٥) الأثافي : حجارة الموقد . الأهميم : المظلم .

فَأَسْلَمْتُ قَلْباً بَاتَ يَهْفُوبُهُ الْهَوَىٰ وَقَلْتُ لِدَمْعِ الْعَيْنِ أَنْجِدْ فَأَتَهُمَا
وَوَخَّلَيْتُ دَمْعِي وَالْجَفُونَ هَنِيهَةً فَأَفْصَحَ سِرًّا مَا فَغَرْتُ بِهِ فَمَا
وَعُجِبْتُ الْمَطَايَا حَيْثُ هَاجَ بِي الْهَوَىٰ

فَوَحِيَّتُ مَا بَيْنَ الْكَثِيبِ إِلَى الْحِمَىٰ
وَقَبَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ حَبَاباً لِأَهْلِهَا وَمَنْ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَعِيداً تَيْمَمًا
وَحَنَّتْ رِكَابِي وَالْهَوَىٰ يَبْعَثُ الْهَوَىٰ

فَلَمْ أَرَ فِي تَيْمَاءٍ إِلَّا مَتَيْمًا
فَهَا أَنَا وَالظُّلْمَاءُ وَالْعَيْسُ صَحْبَةٌ

تَرَامِي بِنَا أَيْدِي النَّوَىٰ كُلَّ مُرْتَمَىٰ
أُرَاعِي نَجُومَ الدَّلِيلِ حَبَاباً لِبَدْرِهِ وَلَسْتُ كَمَا ظَنَّ الْخَلَىٰ مُنْجَمًا
وَمَا رَاعَنِي إِلَّا تَبَسُّمٌ شَبِيهٌ نَكَرْتُ لَهَا وَجَهَ الْفَتَاةُ تَجْهَمًا
فَعَفْتُ غُرَابًا يَصْدَعُ الشَّمْلَ أَيْضًا

وَكَانَ عَلَى عَهْدِ الشَّبِيهَةِ أَسْحَمًا
فَإِهٍ طَوِيلًا ثُمَّ آهِ لِكَبْرَةٍ بَكَيْتُ عَلَى عَهْدِ الشَّبَابِ بِهَا دَمًا

قال ابن خفاجة يصف فرساً كريماً ويذكر الطبيعة :

تَخَيْرْتُهُ مِنْ رَهْطٍ . أَعُوجَ سَابِحًا . أَغْرَّ كَرِيمَ الْوَالِدِينَ نَجِيبًا^٤

(١) عجت المطايا : عطفتها .

(٢) تيماء : موضع في بلاد العرب .

(٣) عفت : زجرت . شبه شبيهه بغراب أبيض يفرق الشمل ، وكان في شبابه أسود .

(٤) رهط : جماعة . أعوج : فرس كريم تنسب إليه الخيول العتاق . السابح : السريع .

النجيب : النفيس في نوعه .

خفيفاً ولم يحلم بسوطٍ كأنما
 سرى وانتمى برقُ بذى الأثل ليلةً
 وحنَّ إلى سفرٍ فطار إلى السرى
 يومٌ بها أرضاً على كريمةً
 ونهراً كما ابيضَّ المقبلُ سلسلاً
 ورب نسيمٍ مرَّ بي وهو عاطر
 وجدتُ به من ذلك الماء بلةً
 فصافحتُ ريعانَ النسيم تشوقاً
 وقد قلَّد النوارُ جيداً لربوةٍ
 وأفصحت الورقاء في كل تلةٍ
 وكان على عهد الشباب تغنياً
 دعا لغروبِ الدمع والدار غربةً
 يفوت عدواً أو يومٌ حبيباً^١
 فبات بها هذا لذاك نسبياً^٢
 يخوضُ خليجاً أو يجوب كشيياً
 ومرتبعاً فيها إلى حبيباً
 وجزعاً كما اخضرَّ العذار خصيباً^٣
 رقيقُ الحواشي لا يحسُّ دبيباً
 ومن نور هاتيك الأباطح طيباً
 إليها ولازمت القضيبة رطيباً
 هناك ونحراً للفضاء رحيباً
 نشيداً وقد رقَّ النسيم نسيباً
 يشوقُ أخا وجدٍ فعاد نحيباً
 فلم أرَ إلا داعياً ومجيباً^٤

قال ابن خفاجة من شعره الوجداني الغزل :

قل للقبيحِ الفعالِ : يا حسنا ! ملأت جفني ظلمةً وسنا^٥
 قاسمَني طرفك الضني أفلا قاسمَ جفني ذلك الوَسنا ؟

(١) يفوت : يسبق ، ويغلب عدوه .

(٢) ذى الأثل : موضع فيه شجر الأثل ، وهو شجر عظيم صلب تصنع منه الحفان والقصاع .

(٣) المقبل : الثغر . السلسل : العذب . الجزع : من الوادى حيث يقطع .

(٤) غروب الدمع : مسيل الدمع ، واحدها غرب .

(٥) السنا : الضياء .

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ هَضْبَةً جَلَدًا اهتزَّ للحسن . لوعةً ، غُصْنَا^١
 قَسوتُ بِأَسًا وَلِنْتُ مَكْرَمَةً لَمْ أَلْتَزِمِ حَالَةً وَلَا سَنَانًا^٢
 لَسْتُ أُحِبُّ الْجَمُودَ فِي رَجُلٍ تَحْسِبُهُ مِنْ جَمُودِهِ وَثَنَا
 لَمْ يَكْحَلِ السَّهْدُ جَفْنَهُ كَلْفًا وَلَا طَوَى جِسْمَهُ الْغَرَامُ ضَنِي
 فَمَنْ عَصَا دَاعِيَ الْهَوَى فَقَسَا وَكَانَ جِلْدًا مِنَ الصِّفَا خَشِنًا
 فَإِنِّي وَالْعَفَافُ مِنْ شِيَمِي أَبِي الدَّنَايَا وَأَعَشَقْتُ الْحَسَنَانَا
 طَوْرًا مَنِيْبًا وَتَارَةً غَزَلًا^٣ أَبْكِي الْخَطَايَا وَأَنْدَبُ الدَّمْنَانَا^٤
 إِذَا اعْتَرَتْ خَشِيَّةٌ شَكَا فَبِكِي أَوْ انْتَحَت رَاحَةَ دَنَا فَجَنِي
 كَأَنِّي غَصَنٌ بَانَةٌ خَضَلٌ تَشْنِيهِ رِيحُ الصَّبَا هُنَا وَهُنَا^٥

أشعار متفرقة :

قال ابن هاني الأندلسي يصف أيام الربيع :

أَلْوَلُوْ دَمْعُ هَذَا الْغَيْثِ أَمْ نُقَطُ مَا كَانَ أَحْسَنَهُ لَوْ كَانَ يُلْتَقَطُ
 أَهْدَى الرَّبِيعِ إِلَيْنَا رَوْضَةٌ أَنْفًا^٥ كَمَا تَنْفَسُ عَنْ كَافُورِهِ السَّفَطُ^٥
 غَمَائِمٌ فِي نَوَاحِي الْجَوِّ عَالِقَةٌ حُمْلٌ تَحْدَرُ مِنْهَا وَابِلٌ سَبِطٌ^٦

(١) الجلد : بسكون اللام : القوى الشديد . فتح اللام فيه للضرورة .

(٢) السنن : الطريقة .

(٣) المنيب : من أناب إلى الله : رجع إليه وتاب .

(٤) الخضل : الرطب الندى .

(٥) الروضة الأنف : الجديدة التي لم يرعها أحد . السفت : السلة أو وعاء يحفظ فيه النساء .

الطيب .

(٦) وابل سبط : شديد متدارك .

بين السحاب وبين الريح ملحمة^١ معامع^٢ وظبي^٣ في الجو تختلط^٤
 كأنه ساخط^٥ يرضى على عجل^٦ فما يدوم رضى^٧ منه ولا سخط^٨
 كأن تهتانها في كل ناحية^٩ مد^{١٠} من البحر يعلو ثم ينهبط^{١١}
 ولله جديدين من طول^{١٢} ومن قصر^{١٣} حبلان منقبض^{١٤} عنا ومنبسط^{١٥}
 والأرض تبسط^{١٦} في خد الثرى ورقاً^{١٧} كما تنشر^{١٨} في حافات^{١٩} البسط^{٢٠}
 والريح تبعث أنفاساً معطرة^{٢١} مثل العبير بماء الورد مختلط^{٢٢}

في هذا الوصف يعتمد ابن هاني ، على عاداته ، إلى طرافة التشبيهات ويقدم لنا صورة حية للطبيعة بما فيها من عوارض الغيث ومعركة السحاب والريح ، وشعره في وصف الطبيعة لا يجعل منه شاعراً فذاً في هذا الغرض لأن عبقريته تبدو في الأغراض التقليدية كالممدح والوصف والحكمة . وهو في جميع هذه الأغراض يبحث عن المعاني التي تساعد على تصوير ما يريد من الأخيالة في أسلوب يعتمد المبالغة والصنعة والكلمات الطنانة .

قال بعض الأندلسيين يصف بركة عليها عدة فوارات :

غَضِبَتْ مجاريها فأظهر غيظها ما في حشاها من خفي^١ مضمَر^٢
 وكان نبع الماء من جنباتها والعين تنظر منه أحسن منظر^٣
 قُضِبُ من البلور أثمر فرعها لما انتهت باللؤلؤ المتحدر^٤

(١) تختلط : تسل وتجرد من أعمادها ، والظبي جمع ظبة وهي طرف السيف .

(٢) يريد أن الليل والنهار يطول أحدهما فيقصر الآخر كأنهما حبلان أحدهما منقبض والآخر

منبسط .

قال ابن صارة الأندلسي يصف ماء بالركة والصفاء :

والنهر قد رقت غلالةٌ خصره وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقق الأمواج فيه كأنها عكنُ الخصور تهزها الأعجاز

قال بعض أدباء الأندلس :

والنهرُ مكسُوٌ غلالةً فضيةً فإذا جرى سيلاً فثوب نضار
وإذا استقام رأيت صفحةً مُنصلٍ وإذا استدار رأيت عطفُ سوارٍ

قال أبو القاسم بن العطار أحد أدباء إشبيلية يصف نهراً :

عبرنا سماءَ النهر والجو مُشرقٌ وليس لنا إلا الحبابَ نجومٌ
وقد ألبسته الأيُّكُ بردَ ظلالها وللشمس في تلك البرود رُقومٌ

وله :

لله بهجةٌ منزهِ ضربتُ به فوق الغدير رواقها الأنسامُ
فمع الأصيل النهرُ درعٌ سابغٌ ومع الضحى يلتاحُ منه حُسامٌ

وله :

ما كالعشيَّةِ في رُواءِ جمالها وبلوغِ نفسى منتهى آمالها
ما شئتُ شمسَ الأرضِ مشرقةً السنى

والشمسُ قد شدتْ مطى رحالها

في حيث تنساب المياه أراقماً وتعيرك الأفياء بردَ ظلالها

وله :

لله حُسْنُ حَديقَةٍ بَسَطَتْ لَنَا منها النفوسُ سِوَالفِ وَمَعاطِفُ
تَخْتالُ فِي حُلُلِ الرَّبيعِ وَحَلِيهِ ومن الرَّبيعِ قِلائِدُ وَمِطارِفُ

قال الأديب أبو عمر أحمد بن فرح الحياتي :

للروض حُسْنٌ فَقِفْ عَلَيْهِ واصرف عِنانَ الهوى إِلَيْهِ
أما ترى نرجساً نَضِيراً يرنو إِلَيْهِ بِمِقلتيهِ

قال الأديب الأسعد ابن بليطة :

لو كنت شاهِدَنا عِشِيَةَ أَمْسِنا والمُزْنُ يَبكِنا بِعِني مُذنب
والشمسُ قد مَدَّتْ أديمَ شِعاها فِي الأَرْضِ تَجَنَحَ غَيرَ أنْ لَمْ تَغرب

قال الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين :

وروضٍ كِساها الطَّلُ وشِياً مَجَدِّداً فأضحى مَقِيماً لِلنَّفوسِ وَمُقَعِّداً
إِذا صا فِاحتَهُ الرِّيحُ حِلَّتْ غِصونَهُ رواقِصٌ فِي خُضْرٍ مِنَ العِصْفِ مِيداً
إِذا ما انْسكابَ الماءِ عَايَنْتَ خِلْتَهُ وَقَدْ كَسَرْتَهُ راحَةَ الرِّيحِ مِبْرِداً
وَإِنْ سَكَنْتَ عَنْهُ حَسِبْتَ صَفاءَهُ حُساماً صَقِيلاً صا فِي المَتَنِ جُرِّداً
وَغَنَّتْ بِهِ وَرَقُ الحِمامِ بَيننا غناءً يَنْسِيكَ الغَريضُ وَمَعْبِداً
فلا تَجفونَ الدَهرَ ما دامَ مُسَعِّداً وَمَدَّ إِلَيَّ ما قَدْ حَباكَ بِهِ يَداً
وَخُذْها مُداماً مِنْ غِزالِ كِأَنَّهُ إِذا ما سَقَى، بَدِرتُ حَمَلٌ فَراقِداً

قال علي بن أحمد شعراء بلنسية :

قُمْ فاسقني والرياضُ لابسَةٌ
والشمسُ قد عَصَفَتِ غلائلها
في مجلسٍ كالسماءِ لاح به
والنهرُ مثلُ المجرِّ حفٌّ به
وَشَيْئاً من النورِ حَاكِهَ القَطْرُ
والأرضُ تَنَدَى ثيابها الخُضْرُ
مِنْ وَجهِ مَنْ قد هَوَيْتُهُ بَدْرُ
من النَّدَامَى كواكبُ زُهْرُ

قال سعيد بن محمد بن العاص المرواني :

والبدر في جو السماءِ قد انطوى
فتراه من تحتِ المَحَاقِ كأنه
طَرَفَاهِ حَتَّى عادَ مِثْلَ الزُّورِقِ
غَرِقَ الكَثِيرُ وبعضُهُ لم يَغْرُقِ

قال عمر بن يوسف الحنطلي :

أوميضُ برقِ أمِ سيوفٍ تُبْرِقُ
دَعَهُ إِذَا ارتَدَّتْ إِلَيْكَ وجوهها
في عارضٍ أَكْنافُهُ تتَأَلَّقُ
أَضْحَتُ وَجْهَهُ الأَرْضُ منها تُشْرِقُ
ترمي بأجفانِ الوميضِ كما انثنت
أَجْفَانُ عاشِقَةٍ إِلى مَنْ يَعْشَقُ

قال عثمان بن إبراهيم بن النضر :

أَلا يا حَمَامَ الأيِّكِ مالِكِ باكِياً
تَغَنَّ ولا تَنْشِجْ فَإِنَّكَ حاضِرُ
وَعُصْنُكَ نَضْرُ والجَنابُ مَرِيعُ
قَرِيبُ وإِنِّي غائِبٌ وَشَسُوعُ
بَكَيتُ بلا دَمْعٍ وتَرَفُّضُ مُقْلَتِي
وَقَلْبِكَ خَلُوْ من تَباريحِ لوعتي
شَابِيبَ منها في المَصِيفِ ربيعُ
وَقَلْبِي بلِوَعاتِ الفِرَاقِ صَرِيعُ

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه :

ويحتاج قلبي كلما كان ساكناً دعاء حمام لم يَبِتْ بُوْكَون
وإن ارتياحي من بُكاءِ حمامةٍ كذى شَجَن داويته بِشُجون
كأن حَمَامَ الأيِّكِ لما تجاوبت حزينٌ بَكَى من رحمةٍ لحزين

قال ابن وهبون من شعراء شرقى الأندلس يصف النيلوفر وهو ضرب من الرياحين ينبت فى المياه الراكدة :

وبركةٍ تزهُو بنيلوفرٍ نسيمه يشبه رُوح الحبيب
حتى إذا الليلُ دنا وقته ومالت الشمسُ لعين المغيب
أطبقَ جفنيه على إلفه وغاص فى الماء حذارَ الرقيب

قال ابن سهل الأشبيلي فى جمال الطبيعة :

الأرضُ قد لبست رداءً أخضرا والطلُّ ينثرُ فى رُباها جوهرا
هاجت ، فخلتُ الزهرَ كافوراًها وحسبتُ فيها التُّربَ مسكاً أذفرا
وكان سوسنها يصفحُ وردها ثغرٌ يقبلُ منه خدّاً أحمرأ
والنهرُ ما بينَ الرياضِ تخالهُ سيفاً تعلقَ فى نجادٍ أخضرا
وجرتُ بصفحتها الربا فحسبتُها كفاينمق فى الصحيفة أسطرا
وكانه إذ لاح ناصعُ فضةٍ جعلته كف الشمسِ تبراً أصفرا
والطيرُ قد قامتُ به خطباؤه لم تتخذُ إلا الأراكة منبرا

وقال ابن سهل يصف مشهد الأصيل .

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت خدًا من الإشفاق
لاقت بحمرتها الخليج فآلفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة كالخمر خرت من أنامل ساق

الباب الثالث

ابن زيدون

(٣٩٤ - ٤٦٣ هـ)

الفصل الأول

ابن زيدون : عصره ونشأته ، حبه لولادة

البيئة التاريخية والسياسية :

بلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج مجدها زمن خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وابنه الحكم الثاني من بعده . ثم كان حُكْمُ الحاجب المنصور الذي استبد بالخلافة امتداداً لهذا العهد الذهبي الذي عرفته بلاد الأندلس . وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م ثم جاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر فتابع سياسة العامريين الاستبدادية ولكن الأندلس استطاعت أن تحافظ على عهد ازدهارها خلال الأعوام الستة التي حكم فيها والتي مات في نهايتها مسموماً عام ٣٩٩ هـ .

ومنذ هذا التاريخ يبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون العرب « عهد الفتنة » . وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى سنة ٤٢٢ هـ . وهي السنة التي مات فيها آخر خليفة أموي هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله . وقد كانت قرطبة خلال هذه السنين مسرحاً لاضطرابات دامية لعب فيها البرابرة دوراً هاماً لميلهم إلى العامريين . وتوالى في هذه الفترة عدد من الخلفاء ، كان كل واحد منهم يشن العداء على الآخر فيجد أنصاراً يؤازرونه من البربر أو من الأسبانيين على السواء . وقد لاقت قرطبة من جراء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنُهبَت وخرَّبَ أجمل قصورها^(١) . وهكذا لا يكاد يطل القرن الخامس للهجرة حتى رأينا شمس الخلافة الأموية

(١) إليكم من تعاقب من الخلفاء في أثناء الفتنة :

عبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤ هـ)	محمد المهدي (٣٩٩ - ٤٠٠ هـ)
محمد المستكفي بالله (٤١٤ - ٤١٦ هـ)	سليمان المستعين بالله (٣٩٩ - ٤٠٧ هـ)
هشام الثالث المعتمد بالله (٤١٨ - ٤٢٢ هـ)	عبد الرحمن المرتضى (٤٠٨ - ٤٠٩ هـ)

في الأندلس تخبو شيئاً فشيئاً ، ورأينا إزاء هذه الاضطرابات وهذا الضعف يتقوض ذلك البناء الضخم الذي شاده العرب في قرطبة ورأينا تلك الدولة الأموية في الأندلس تتجزأ في دويلات صغيرة عُرِفَت بدول طوائف الملوك ، فأخذ كل أمير في إقليم بل كل حاكم في مدينة يستردّ حريته ويستقلّ في إقليمه أو مدينته ويكون دولة لها استقلالها ونظامها ، فكان في قرطبة بنو جهور ، وفي إشبيلية بنو عباد ، وفي طليطلة بنو ذى النون ، وفي بطليوس بنو الأفطس ، وفي سرقسطة بنو هود ، إلى آخر ما هنالك من الطوائف التي كان يناهض بعضها بعضاً .

على أن هذه المناهضة لم تحل دون الازدهار الأدبي ، فقد عرفت دول ملوك الطوائف عهداً زاهراً للآداب وبلغ النشاط الأدبي أقصاه . وكنت ترى قصر كل ملك منتمى لأهل الشعر والأدب ، وقد تنافس هؤلاء الملوك في اجتلاب الشعراء والكتاب والمغنين إلى قصورهم ليباهوا بهم من حولهم من الملوك والسلاطين . وكان منهم أدباء وشعراء كالمظفر وابنه المتوكل مَلِكِي بطليوس ، والمعتضد وابنه المعتمد ملكي إشبيلية .

* * *

في غمرة هذا النشاط الأدبي ، وفي فورة هذه الفتن المضطربة نشأ شاعرنا ابن زيدون وأتمّ حياته في فجر عهد ملوك الطوائف ، واتصل في جملة ما اتصل بملوك دولتين كبيرتين من دول الطوائف هما الدولة الجَهْورِيَّة والدولة العبَّادِيَّة .

أما الدولة الجَهْورِيَّة فقد نشأت في أعقاب الفتنة سنة ٤٢٢ هـ عندما صار الأمر في قرطبة إلى طبقة الخواص فقام عميدها أبو الحزم بن جَهْور واستولى على الأحكام في قرطبة وتأسست فيها حكومة شورية عرفت بالدولة الجَهْورِيَّة حكمت من سنة ٤٢٢ إلى ٤٦١ هـ .

أما الدولة العبَّادِيَّة فهي دولة عربية من بني لحم قامت في إشبيلية ونزح إليها شاعرنا ابن زيدون — كما سنرى — وحكمت من سنة ٤١٤ إلى ٤٨٤ هـ . وهي من أبهج الدول في الفضل والكرم وحب الأدب ، وقد تفيأ شاعرنا ابن زيدون في عهد ملكيها المعتضد والمعتمد ظلّال النعيم والهناء .

فمن هو ابن زيدون الذي نشأ في هذا الجو المضطرب ؟

مولد ابن زيدون ؛ نشأته وثقافته :

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣ م ، وهو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون الخزومي الأندلسي القرطبي ، وهو ، كما نرى من نسبه ، عربيّ صريح ينتمى إلى قبيلة مخزوم القرشية التي ذكرها المقرئ بين القبائل التي رحلت إلى الأندلس وذكر منها ابن زيدون .

كان أبوه قاضياً في قرطبة وجيهاً ثرياً غزير العلم والأدب ، ويذكر المؤرخون أنه توفي بالبيرة ، بالقرب من غرناطة ، وهو متوجه إليها لتفقد بعض ضياعه . وحُمل إلى قرطبة فدفن فيها ، فرثاه صديقه الشاعر القرطبي أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء فقال :

أَيُّ رُكْنٍ مِنَ الرِّيَاسَةِ هَيْضًا وَجَمُومٍ مِنَ المَكَارِمِ غَيْضًا ١
حَمَلُوهُ مِنْ بَلَدَةٍ نَحْوِ أُخْرَى كِي يُوَافُوا بِهِ ثَرَاهُ الأَرِيضًا ٢
مِثْلَ حَمَلِ السَّحَابِ مَاءً طَبِيبًا لِيَدَاوِيَ بِهِ مَكَانًا مَرِيضًا ٣

ولم يذكر ابن زيدون أباه في ديوانه إلا مرة واحدة حيث يقول في قصيدته الطائية التي يخاطب بها بعد فراره من السجن أستاذه الأديب أبا بكر بن مسلم مستهنضاً همته للشفاعة :

عَلَيْكَ أبا بَكْرٍ بَكَرْتُ بِهَمَّةٍ لَهَا الخَطَرُ العَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطٌّ
أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التَّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطٌ ٤

(١) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء .

(٢) الأريض : الزكي المعجب للعين .

(٣) انظر نفتح الطيب (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٤) الديوان ص ١٣ - ١٥ .

وكانت وفاة والده سنة ٤٠٥ هـ ، وولادته سنة ٣٠٤ هـ^(١) .
أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين في آثاره ، الأولى عند ما زارته في السجن
فبكت فقال قصيدته :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَيَّ مِثْلِي وَيَطْلُبَ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلَتِ النَّصْلِ^٢

والثانية في رسالته إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم التي يقول فيها :

« وقد هجرتُ الأَرْضَ التي هي ظئري والدارَ التي كانت
مَهْدِي وَغَبْتُ عن أمِّ أَنَا واحِدُهَا ، تمتدُّ أَنفاسُهَا شَوْقاً إِلَى
وَتَغُضُّ أَجْفَانَهَا حُزْناً عَلَيَّ . . . ٣ »

ويظهر أنه كان يحبها حباً جماً ، ولا تفيدنا المصادر عن تاريخ وفاتها ولكننا
نعلم أنها ما زالت حيةً عند خروجه من السجن سنة ٤٣٣ هـ .

هذا ولا نعلم شيئاً عن زوجته ولا عن تاريخ زواجه ، ولكننا نعلم أن له ابناً
يدعى أبا بكر وَزَرَ للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة ٤٦٣ هـ ، وقتل يوم
سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة ٤٨٤ هـ .

ونشأة الشاعر في قرطبة ساعدته على الانكباب على العلم والتحصيل فقد كانت
هذه المدينة موئل العلوم والآداب في الأندلس ، ولا شك أنه قد بدأ يتلقى العلم
على يد أبيه الذي وصله بالعلماء والفقهاء والأدباء من أصحابه ، ولكن الذي تلقاه
عن أبيه لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً فقد كان ابن زيدون في الحادية عشرة من عمره
عند وفاة والده ، وهذا الموت المبكر لم يمنع شاعرنا من متابعة علومه . ويصفه من
ترجم له بأنه كان كثير الميل لعلوم العرب وفنون اللغة فحفظ كثيراً من آثار الأدباء

(١) انظر نفع الطيب (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ج ٥ ص ١٦٨ .

(٢) الديوان ص ١١٢ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٥٣ .

وأخبارهم وأمثال العرب وحوادثهم ومسائل اللغة ، وكانت له أيضاً ثقافة فلسفية تدلنا عليها ما ورد له في رسالته الهزلية من بعض مصطلحات الفلاسفة وأسمائهم كأفلاطون وأرسطاطاليس وبقراط وجابر بن حيان وغيرهم. وإنما لى في رسالته الهزلية والحدية فيضاً من المعارف التاريخية والثقافة الإسلامية وعددًا كبيراً من الأمثال والأشعار ، ولا شك أن هذه الثقافة قد تلقاها في حلقات العلم والأدب في قرطبة على يد مشاهير علمائها. ويذكر المستشرق (كور) في رسالته عن ابن زيدون أستاذين له . هما أبو بكر بن مسلم بن أحمد وكان نحوياً أديباً متقدماً في علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، والقاضي أبو بكر بن ذكوان^(١) . وقد ذكر ابن زيدون هذين الأستاذين أكثر من مرة في آثاره ، فهو يذكر أبا بكر بن مسلم في قصيدته الطائية التي أشرنا إليها^(٢) ، ويوجه إليه رسالة أشرنا إليها أيضاً عند الحديث عن أمه نجدها في الذخيرة^(٣) وقد رثى أيضاً القاضي أبا بكر بن ذكوان في قصيدة مطلعها :

اعجَبَ لِحَالِ السَّرْوِ كَيْفَ تُحَالُ وَلِدَوْلَةِ الْعَلْيَاءِ كَيْفَ تُدَالُ
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ الْمُنَى إِنْ اغْتَرَارَكَ بِالْمُنَى لَضَلَالُ

فثقافة الشاعر إذن ثقافة واسعة ، ولعله قد استقى معارفه من أكثر الكتب العلمية والأدبية الشائعة في عصره .

ولم تكن قرطبة مسرحاً للعلم فقط بل كانت مسرحاً للهو والطرب ، وكان أهلها

(١) يرى الدكتور شوق ضيف أن أبا بكر بن ذكوان هذا كان قاضي أبي الخزم بن جهور ولم يكن أستاذاً لابن زيدون بل كان صديقه ورفيقه في التلمذة والدراسة وتوفي سنة ٤٣٥ هـ وقد خلطوا بينه وبين أبي العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضي القضاة بقرطبة الذي امتدت حياته إلى سنة ٤١٣ هـ ، ويظن الدكتور شوق ضيف أن ابن زيدون لزم أبا العباس بن ذكوان هذا . وكان صديقاً لأبيه ، وأفاد من علمه وأدبه ، انظر كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ .

(٢) الديوان ص ١٣ .

(٣) المجلد الأول ص ٣٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٥٣ .

في رخاء من العيش ميالين إلى هذا اللهو وهذا الطرب ، ولم تبعدهم الحوادث السياسية والفتن الداخلية عن الانهماك في لهوهم ، بل لعل هذه الدسائس كانت تحاك في مجالس اللهو هذه ، ونستطيع أن نقول إن ابن زيدون قد مثل أهل قرطبة في شخصه أحسن تمثيل ، فقد وصفته المصادر التاريخية بأنه خفيفُ الروح كثير الدُّعابة ، ميالٌ إلى المجون إلى جانب طموحه السياسي ، لهذا فقد نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وقد كان للنساء دورٌ في هذه المجالس ، وكان لبعض هؤلاء النساء منتديات أدبية يخاطبها الشعراء والأدباء ، فأثر هذا الوسط في نفس شاعرنا ، وكان ابن زيدون من بين هؤلاء الشعراء الذين ظهر على نظمهم آثار هذه الحياة الاجتماعية ومن نالوا حظوة في مجالس النساء هذه ولا سيما في مجلس ولادة التي سنتحدث عنها . فلهذا يمكننا أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : إنه شاعر متأثر بالجمال مشغوف بمجالس اللهو وهذا ما سيقودنا إلى الحديث عن علاقاته مع ولادة ، ثم هو شاعر سياسي طموح وهذا ما ستجولوه لنا علاقاته مع الجمهوريين وما ناله من سجن ، ثم انتقاله إلى بني عباد وحظوته عند ماوكهم وما رافق هذه الحياة المضطربة من شعرٍ مدحٍ وشعرٍ شكوى وشعرٍ غزل .

ابن زيدون وولادة :

شغف ابن زيدون بولادة ملبياً بذلك دواعي قلبه ، فمن هي هذه المرأة وما هي أطوار هذا الحب الذي فتن قلب الشاعر العربي وجعله ينطق بالشعر الخالد .

ولادة هذه هي بنت المستكفي بالله الخليفة الذي جاء قبل المعتمد بالله آخر خلفاء بني أمية في الأندلس ، وقد كانت بيعته سنة ٤١٤ هـ ، ولم يدم حكمه إلا سنتين في فترة مضطربة . وكان ماجناً كما يحدثنا عنه ابن بسام فيقول : « لم يجلس في الإمارة مدة الفتنة أسقط منه ولا أنقص »^(١) وقد ترك بنتاً لم يذكر المؤرخون سنة

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .

ولادتها، ولكنهم ذكروا وفاتها فقال المقرئ إن وفاتها كانت سنة ٤٨٠ أو سنة ٤٨٤هـ^(١) وقالوا إنها عمرت طويلاً ، فإذا حددنا سنة ولادتها حوالى سنة ٤٠٠ يكون عمرها عند وفاة والدها يقارب الستة عشر عاماً أو العشرين أو أكثر من هذين الرقمين بقليل. ولا شك أن هذا مجرد افتراض وهو افتراض لا يبعد كثيراً عن الحقيقة كما نراه من الأرقام ، ويبدو أن أبا ولادة قد اهتم بتثقيفها فأحصر لها المعلمين والمؤدبين . ولم تلبث أن تفتحت مواهبها . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها (سنة ٥٤١٦هـ) حتى تطلق لنفسها العنان وتجاهر بحياتها الحرة . وقد خصها المقرئ بفصل خاص تحدث عنها وعن جمالها وأورد لها شيئاً من الشعر . وقال ابن بسام فى ذخيرته^(٢) إنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ، ولعله لم يبتذل حجابها إلا بعد وفاة أبيها ، كما يبدو من كلام ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون الهزلية إذ يقول « ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله وتغلب ملوك الطوائف^(٣) » . وإذا صح ما روى عنها وعن غيرها من بنات الملوك والأمراء من أخبار اللهو والعبث ومجالس الأئس فإن الحرية التى كانت تتمتع بها المرأة العربية فى الأندلس تفوق ما ألفه المشرق ، وقد ذكر ابن بسام فى ذخيرته أن ولادة على علو نصابها وكرم أنسابها وطهارة أثوابها اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها . كتبت فيما زعموا على أحد عاتى ثوبها مطرزاً بالذهب :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتية تيهها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى وأعطى قبلى من يشتهيها

(١) المقرئ ج ٢ ص ١٠٩٨ .

(٢) القسم الأول ، المجلد الأول ص ٣٧٦ - ٣٨٧ .

(٣) سرح العيون ص ٧ .

(٤) الذخيرة ص ٣٧٦ .

وهكذا كان لها أن تعبت ، وكان لها جماها وشعرها تغنيه ويغنى لها في مجلسها الأدبي الذي كان يضطرم فيه الهوى والفن والشعر .

ولم تكن ولادة فريدة في الحرية والجرأة في التعبير عن عواطف الحب أو اللهو بل كان يشاركها في هذه الظاهرة كثيرات من حرائر ذلك العصر . وقد ذكر الرواة لحفصة بنت الحاج ، من أشرف غرناطة ، شعراً لا يقل مجاهرة عن شعر ولادة قالت :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقولُ على علمٍ وأنطقُ عن خبرٍ
وأنصفها لا أ كذبُ الله إنني رشفت بهاريقاً أرق من الخمر

وهكذا نرى أن ولادة مع ميلها للأدب ونظمها للشعر كانت مولعة بالحب مستسلمة للعبث ولكنها لم تتزوج طوال حياتها ، وقد أولع بها ابن زيدون وأولعت به وربط المؤرخون ذكرها بذكره .

لا شك في أن ابن زيدون كان من جملة الشعراء الذين يقصدون منتداها الأدبي ، وهو في ميعة الشباب ، وفي هذا المنتدى تمكنت بينهما أواصر الصداقة ووقع في أشراك حبها . على أننا لا نعلم متى كان اللقاء الأول الذي تطارحا فيه الغرام . وها هو ذا ابن بسام يصفه لنا على لسان ابن زيدون :

« قال أبو الوليد كنتُ في أيام الشباب وغرة التصابي هائماً بغادة تسمى ولادة فلما قدِم اللقاء وساعد القضاء كتبت إلى » :

ترقّب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتَمَ للسرِّ
وَبني منك مالو كان بالبدرِ مابداً وبالشمسِ لم تطلُعْ وبالبدْرِ لم يسرْ

وذهب إلى الموعد المضروب ، ويقص علينا ابن بسام وصف هذه الخلوة على لسان شاعره بل وصف هذه الغادة التي أحبها ، فتساب على شفثيه الأوصاف

التقليدية ويقول : « فلما طوى النهار كافوره ونشر عنبره^(١) ، أقبلت بقدر كالقضب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الحجل ، فلما إلى روض مدّ بجم^(٢) وظل سجسج^(٣) ، وقد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودُرُّ الطل منشور ، وجيب الراح مزور ، فلما شبينا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كلُّ منا بجمه ، وشكا إليه ما بقلبه ، وبيتنا بليلة نجى أقبحوان الثغور ... »^(٤)

هل كان هذا هو اللقاء الأول ، ألم يسبق هذا اللقاء خلوات وأحاديث صريحة غير تلك التي كانا يتبادلانها في مجلسها الأدبي ؟ على أننا لا نزعم أن هذا المنتدى كانت تجرى فيه أحاديث الأدب الرفيع فقط ، ولعل حرية القول والعبث كانا فيه على جانب كبير . ونرى أن هذه الكلمات التي نقلها لنا ابن بسام ليس فيها وصفٌ حار أو صدق عاطفة ، بل هي كلمات يطغى عليها فن الكاتب النثرى وتأنقه اللفظي الذي يسود أساليب العصر ، ومهما يكن من أمر فهو لقاء ماجن وحب مهتك . ويضيف ابن زيدون بعد ما وصف من اللقاء قوله :

« فلما انفصلنا صباحاً أنشدتها ارتياحاً :

وَدَّعَ الصَّبْرَ مَحَبُّ وِدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا اسْتَوَدَّعَكَ
يَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخَطَا إِذْ شَيَّعَكَ
يَا أَخَا الْبَدْرِ سَنَاءً وَسَنَى حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَعَكَ
إِنْ يَطُلُ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَيْتٌ أَشْكُو قِصَرَ الدَّلِيلِ مَعَكَ »

وقد نسب صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هذه الأبيات لابن زيدون ، إلا أن المقرئ نسبها لولادة ، فقال : « وَوَفَتْ بِمَا وَعَدَتْ ، ولما أراد الانصراف

(١) كافوره : بياضه ، عنبره : سواده ، وهنا استعارتان .

(٢) مديج : مزين بالأزهار .

(٣) سجسج : الهواء المعتدل اللطيف .

(٤) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧ .

ودعته بهذه الأبيات .

ونفضل نحن نسبتها لابن زيدون ، إذ أن صاحب القلائد وصاحب الذخيرة هما أقرب عهداً بالشاعر من المقرئ ، والديوان الذى بين أيدينا ينسبها لابن زيدون أيضاً .

وقد كانت حدائق قرطبة وبساتينها مرتعاً لحيهما ، وفي خمائلها أخذنا يتساقيان كؤوس الهوى ويعبان من شذى النعيم تغمرهما ظلال الحب ودفؤه .

على أن أيام هذا الحب المتبادل لم تدم طويلاً على ما يظهر ، ويذكر بعض من أرخ لابن زيدون أن جفوة حصلت بين الشاعر وصاحبه ، فكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرُّقِ سبيلٌ فيشكو كلُّ صبٍّ بما لقي؟
وقد كنت أوقاتَ التزاورِ في الشتا أبيتُ على جمرٍ من الشوقِ مُحْرِقِ
فكيف وقد أمسيتُ في حالِ قِطْعَةٍ لقد عَجَّلَ المقدورُ ما كنتُ أتقى
تمرُّ الليالى لا أرى البينَ ينقضى ولا الصبرَ من رِقِّ التشوقِ مُعْتَقِ
سَقَى اللهُ أرضاً قد غدت لك منزلاً بكلِّ سَكوبٍ هاطلِ الوَبْلِ مُغْدِقِ
فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بِمُلْتَقِ مُحْيَاكِ من أَجْلِ النَّوَى والتفرُّقِ
وكيفَ يطيبُ العيشُ دونَ مَسْرَةٍ؟ وأىُّ سرورٍ لِدَكْئيبِ المورِقِ؟
ويبدو أن هذه الجفوة لم تطل ويعود العاشقان إلى سابق عهدهما يتشاكيان الصباية والهوى ، ولكن ولادة لم تلبث أن تتبدل ، فتظهر من الجفا ما تظهر وتذيق صاحبها عذاب المهجر بينما يبدى لها من التلطف والتذلل ما ينم لنا عن وجده .

ونحاول أن نجد سبباً لهذا الازورار فلا نعثر إلا على ما ينقله لنا ابن بسام

من أن ابن زيدون أشار إلى جاريتها أن تعيد له صوتاً غنته فظنت أنه يغازلها من
دونها فغضبت غضباً شديداً وكتبت إليه :

لو كنت تُنصِفُ في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غُصناً مُشمرًا بجماله وجنحت للغُصن الذي لم يُثمر
ولقد علمت بأننى بدرُ السما لكن ولِغَتَ لِشِقْوَتِي بِالْمُشْتَرَى

وهكذا تلعب الغيرة في قلب المرأة وتكون سبباً من أسباب جفاء ولادة لعاشقها
الشاعر الذي أخذ يبكى ويئن . ونحن لا نظن أن هذا السبب هو ، وحده ، الذي
أدى إلى الجفاء ثم إلى القطيعة ، وقد يكون انضمام ابن زيدون لحركة الجهاورة قد
ترك في نفسها أثراً سيئاً وهى بنت خليفة أموى فجاءت الغيرة تذكى في نفسها شتى
الوساوس :

ومهما يكن من أمر فقد حصلت القطيعة ، وكانت ولادة هى البادئة ،
وسمحت لعاشق جديد ، ليس بالشاعر المرهف هذه المرة وإنما هو بالوزير الخطير ،
أن يتقرب منها ، هو الوزير أبو عامر بن عبدوس ، ولسنا ندرى ما إذا كان ابن
عبدوس ينتظر هذه الجفوة ليتقرب من الغادة التى أخذت أصداء حلاوتها ورنات
أشعارها تتجاوبها أندية قرطبة الالهية ، ولكن المقرئ يجعل لقاءها لابن عبدوس
وتحولها إليه على غير ميعاد فيقول : « ولما مرت بالوزير أبى عامر بن عبدوس وأمام
داره بركة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشيء مما هنالك من الأقدار ،
وقد نشر أبو عامر كميته ، ونظر في عطفه ، وحشر أعوانه إليه . فقالت له :

أنت الخصيبُ وهذه مِصرُ فتدققاً ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً^(١) .

وهكذا كانت الضربة الصاعقة التى أصابت قلب الوزير فجعلته يتبعها بعد

أن صادته بجائلتها وبادلته بالعشق عشقاً وبالغرام غراماً .
ويشتد الأمر على ابن زيدون ، ويتألم أشد الألم ، ويتضرع لها ويتوسل ولكنها
لا تلين ، فلا يجد بداً من أن يتوعد ابن عبدوس نفسه ويتهدهه فيكتب له قصيدة
نقرأ في مطلعها هذه الأبيات (١) :

أَثَرَتْ هَزَبَرَ الشَّرَى إِذْ رِبْضٌ وَنَبَهْتَهُ إِذْ هَذَا فَاغْتَمَضُ
وَمَا زِلْتَ تَبْسُطُ مَسْتَرَسِلاً إِلَيْهِ يَدَ الْبَغَى لَمَّا انْقَبِضُ
حَذَارِ حَذَارِ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا سِيمَ خَسِيفاً أَبِي فَاغْتَمَضُ
فَإِنَّ سَكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ سِ لَيْسَ بِمَانِعِهِ أَنْ يَعْضُ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرِضُ
أُعِيدُكَ مَنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَايَا انْقَبِضُ

ولكن ابن عبدوس لم يصنع إلى تعريضه ووعيده ، وكذلك ولادة لم ترق لآلام
حبه . ويعلم ابن زيدون أن منافسه يستخدم في مراسلاته سيدة تزينه في عيني
صاحبته وتصف لها غناه وجماله ، فيستغل هذا الأمر ليكتب إلى ولادة رسالته
الهزلية يسخر فيها على لسانها من ابن عبدوس ويتهم عليه ويعبث به ويهجو عليها
تفصم حبل وصلها مع خصمه . ولكن ولادة لم تفعل بل تغضب غضباً شديداً
وتهجو بيتين هجاء مقذعاً فاحشاً . ويعظم الخلاف بينهما وتحتدم العداوة بينه
وبين منافسه ابن عبدوس . وستكون هذه العداوة من جملة الأسباب التي أدت إلى
سجن الشاعر .

ويستمر شاعرنا في الأنين والشكوى ، وهنا يبدو لنا إخلاصه لحبيته ، ويتمثل
لنا حبه وألمه ، كما تتكشف لنا نفسية معشوقته المتهتكة ، وكيف أنها لم تكن في

(١) الديوان ٢٣٧

(٢) النهوس : العضوض ، الشجاع : الذكر من الحيات .

حبها الأول إلا لاهية عابثة كما هي تلهو الآن وتتساقى كؤوس الهوى مترعة مع ابن عبدوس .

ويكتب لها ابن زيدون كثيراً من القصائد ذاكراً حبه ، متشوقاً لأيامه السعيدة ولكن ولادة تصم الأذن وتغلق القلب .

ولا بد لي هنا من ملاحظة ، هي أن أكثر غزل الشاعر بولادة قد قاله بعد أن ساءت العلاقة بينهما ، فهو شعر شكوى وألم وذكري ، فأين هو ذلك الشعر الضاحك الذى وصف أيام غرامهما السعيد ، وما السر فى هذا الصمت عن وصف ذلك الحب ؟ هل بخلت قريحة الشاعر فى أيامه الهائلة ، أم أن حبه كان فى البدء حباً مهتكاً تافهاً ، ثم انقلب إلى حب حقيقى عند ما ألب البعاد قلبه فانجس بالشكوى ووصف غرامه المعذب ؟ هذا ممكن . على أن فترة حبهما الهائى كانت قصيرة ، ولم يحدثنا الشعراء كثيراً فى أدبنا العربى عن أفراح الغرام ، وأكثر غزلنا وصف لتباريح الهوى وعذاب الشوق وقسوة المحبوبة .

هذا وقد كانت معانى شاعرنا فى قصائده الغزلية هذه تحوم حول إثبات حبه وإخلاصه لولادة ، فليس لها إلا أن ترق وتعطف وتعود لأيام الحب الأول . إنها أصغت لكلام الحساد والوشاة ولم يرتكب ما يسمح لها بهذه القطيعة ، وهو ما يزال يذكرها دائماً لأنه فى حنين دائم . حول هذه المعانى وأضرابها كانت تدور أكثر قصائده الغزلية وكانت على شكل مقطوعات إلا أننا نجد بعض القصائد الكبيرة كقصيدته الشهيرة التى أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية ، ومطلعها :

أضحى التنابى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

وكهذه القصيدة التى يقول فى مطلعها^(١) :

لئن قصر اليأس منك الأمل وحال تجنّيك دون الحيل

وراقك سحرُ العدا المُفترى وَغَرَّكَ زورهمُ المُفتعلُ
 فإنَّ ذمامَ الهوى لن أزالَ أُبقِيه حِفْظاً كما لم أزلُ

ففيها تتمثل حرقه الشاعر وانكساره ورجاؤه لحب جديد يجنى فيه سعادة النعيم

الآفل .

الفصل الثاني

ابن زيدون في بلاط بني جَهْورَ وبني عَبَّاد

الشاعر في بلاط أبي الحزم وسجنه :

لامرية في أن ابن زيدون كان من أكابر الرجال الذين لم يكونوا في معزل عن حوادث الفتنة . وقد كان ، كما يبدو من مدائحه لبني جهور ، من مناصريهم . وليس بعيداً أن يكون ما أظهره من العطف على حركتهم هو الذي حدا بأبي الحزم ابن جهور إلى تقريبه واستخدامه ، إلى جانب ما توسّم فيه من الصفات الممتازة والأدب الرفيع . وقد نقل ابن بسام في الذخيرة عن ابن حيان في وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته فقال : « ونوّهَ بفتى الآداب وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة السنية بقربطبة ، والوساسة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلطة ، وقوة العارضة ، والافتنان في المعرفة وقدّمه للنظر على أهل الذمة ، لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعدد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف في ذلك ، وغلب على قلوب الملوك »^(١).

ويقول المؤرخون بعد ذلك إن أبا الحزم بن جهور قد تغير على ابن زيدون فسجنه ، وقد قال ابن بسام في صدد سجنه ما يلي : « وكان علقه من عبد الله بن أحمد المكوي ، أحد حكام قرطبة ، ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم فشفع له وانتشله من نكبته وصيره من صنائعه^(٢) » .

ونحن لا ندرى الدوافع الحقيقية إلى هذا السجن ، وهناك من يرى أن ابن

(١) الذخيرة ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) ديوان ابن زيدون ٤٠٩ .

عبدوس نسب إليه أنه يحاول القيام بثورة على أبي الحزم بن جهور ، فسيق من أجل هذا إلى المحاكمة ، وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ، الذى ولى قضاء قرطبة فى المحرم سنة ٤٣٢ والذى أشار إليه ابن بسام فيما قدمناه ، فعند ما عرضت قضيته عليه أمر بسجنه على الفور لموجدة قديمة بينه وبين الشاعر . فإذا افترضنا أن هذه المحاكمة قد جرت فى السنة التى ولى ابن المكوى قضاء قرطبة يكون الشاعر قد دخل السجن وعمره ثمانية وثلاثون عاماً .

على أن قصة محاكمته تأخذ شكلاً آخر عند ما يرويها ابن بسام فى ذخيرته ، ويرى أن السبب المباشر لسجنه التهمة التى ألصقت به ، وتتلخص فى أن ابن زيدون قد حاول استغلال إرث أحد الأسياد بعد وفاته ، فكان أن قيد إلى المحاكمة ، فحكم عليه القاضى ابن المكوى بالسجن ، إلا أن خبر هذه التهمة يدفعها ابن زيدون عن نفسه فى رسالة أرسلها إلى أستاذه أبى بكر بن مسلم ، وهو مختف بقرطبة بعد هربه من السجن^(١) ، ويثبت فيها أن هذا السيد كان لا يملك شيئاً حتى يستطيع أن يكسب إرثه . وقد أشار المستشرق (كور) إلى هذه التهمة عند الحديث عن سجنه ، وقال إنه سجن بعد المحاكمة ، ولكنه لم يفهم النص فهماً دقيقاً^(٢) .

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرت ، وكان فى طليعة هؤلاء الحساد منافسه ابن عبدوس فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه . وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضاً ضده قضية حبه لولادة .

وهكذا يقضى الشاعر ما ينوف عن خمسمائة يوم سجيناً حائراً يستعطف ابن جهور ويناشده العفو دون فائدة ، محاولاً أن يجد تعزية فى ذكرى حبيبته التى كان ينظم الأشعار فى استعطافها وعتابها ويذكر أيام حبهما .
وقد نظم الشاعر أثناء سجنه عدة قصائد جميلة تغلب عليها رنة الاستعطاف

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) كور ، كتابه عن ابن زيدون بالفرنسية ، ص ٥١ .

والحنين والعتاب منها هذه القصيدة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فنعلم أن بياض الشيب قد وخط عارضيه قبل أن يخلع برد الشباب وقبل أن يبلغ ثلاثين ربيعاً ، فيقول (١) :

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدْهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبٌ وَلِلشَّبِيبَةِ غُصْنٌ غَيْرٌ مُهْتَصِرٍ
هَا إِنَّهَا لَوْعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبِي طَائِرُ الشَّرَرِ

ومنها هذه القصيدة الشهيرة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، التي بعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن برد والتي جاء ذكرها في قلائد العقيان ومطلعها :

مَا عَلَيَّ ظَنِّي بِأَسَى يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو^٢

ولعله أيضاً قد نظم في هذه الفترة هذه القصيدة الرقيقة القصيرة التي نقرأ فيها هذه الأبيات فيخيل لنا أنها قيلت في السجن وابن زيدون لا يستطيع أن يطير إلى محبوبته ولادة :

وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي اخْتِلَاسًا أَكْفُ الدَّهْرِ لِلدَّحِينِ الْمُتَاحِ
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ وَغُصْنِ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ
فَلَوْ أَطَّيْعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ^٣؟

(١) الديوان ص ٩٢

(٢) الديوان ص ١

(٣) الديوان ص ٢٦١

ومن سجنه أرسل ابن زيدون رسالته الجدية إلى ابن جهور يستعطفه فيها وأرسل معها قصيدة يمدحه بها ويستعطفه أيضاً ومطلعها (١) :

الهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمُنَى فِي هَبُوبِ ذَاكَ النِّسِيمِ

وقد ذكر في هذه القصيدة أنه مكث في السجن خمسمائة يوم فقال :

أَفْصَبِرُ مِثِينَ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ ، نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ

وعلى هذا تكون هذه الرسالة قد أرسلت إلى أبي الحزم في أواخر أيام سجن

الشاعر .

لم يلق ابن زيدون من ابن جهور على رغم استعطافه له إلا الجفاء ، فلم يعف عنه وذهبت توسلاته عبثاً ، عندئذ عزم على الفرار ، ونزعم مع المستشرق كور (٢) أن أبا الوليد بن جهور قد ساعد الشاعر على الحرب ، فقد كان صديقه وكان يزوره في سجنه . وقد أشار ابن بسام إلى ذلك عند ما قال : إن أبا الوليد قد انتشل الشاعر من نكبته .

وهكذا يفر الشاعر من سجنه في غضون سنة ٤٣٣ هـ ، بعد أن أخفقت وسائله وتوسلاته في استعطاف أميره أبي الحزم ، ويقصد إشبيلية للمرة الأولى فيجد الشاعر فيها صدرًا رحباً حيث أدناه المعتضد منه وقرّبه إليه وغمره بعطفه . ولكن نفس الشاعر كانت تجذبه إلى قرطبة ، موطن صباه ومسرح هواه ، فكتب إلى حبيبتة قصيدته النونية الخالدة التي أسهلها بقوله :

أَضْحَى التَّنَائِي بِدِيْلَامِن تَدَانِينَا وَطَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا

وختمها بقوله :

أَوْلى وِفَاءً ، وَإِنْ لَمْ تَبْدُلِي صِلَةً فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا

(١) الديوان ص ٤٩

(٢) كور : ابن زيدون ص ٦٨ .

وفي الجواب متاعٌ إن شَفَعْتَ به بيضُ الأيادي التي ما زلتِ تولينا
عليك منا سلامُ الله ما بقيتُ صبايةً بكِ نخفيها فتحفينا

ولم يطق البقاء بعيداً عن هواه فعاد إلى قرطبة واستخفى بضاحتها الزهراء وأخذ يرسل أصدقاءه مستشفعاً بهم لدى أبي الحزم، فكتب رسالته الرائعة إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم^(١) وفيها أبان سبب هربه بعد أن أعيته وسائل الاستعطاف وعاتب أستاذه لتقاعسه في إخراجه من السجن، ثم أتبعها بقصيدته الطائفة البارعة الوحيدة في الديوان، وكنا قد أشرنا إليها^(٢). ولم يكتب الشاعر بهذا بل واصل مساعيه عند ولي العهد أبي الوليد.

بقي ابن زيدون محتفياً في الزهراء، وفي هذه الفترة كتب إلى حبيبته قصيدته العاطفية التي استهلها بقوله:

إني ذكرتُك بالزهراءِ مُشتاقاً والأفقُ طَلَقَ ومرأى الأرضِ قدراقاً
وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله كأنه رَقَى لي فاعتلَّ إشفافاً^٣

وفي صدد هذه القصيدة يقول ابن خاقان^(٤): «... فلما حلَّ بذلك القرب . وانحلَّ عقد صبره بعد الكرب . كرتُ إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ويتسلى برؤية ما فيها، فوافاها والربيع قد خلع عليها بُرده، ونثر سوسنه وورده، وأترع جداؤها وأنطق بلابلها... فتشوق إلى ولادة وحن، وخاف تلك النوائب والمحن، فكتب إليها يصف فرط قلقه، وضيق أمدته إليها وطلّقه، ويعاتبها على إغفال تعهده، ويصف حسن محضره بها ومشهده»، ثم يذكر ابن خاقان جميع القصيدة وهي في خمسة عشر بيتاً.

(١) الذخيرة ج ١ ص ٣٤٤ .

(٢) انظر ص ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان ص ٢٥٧ .

(٤) قلائد العقيان ص ٨٢ .

وقد يكون الشاعر قد أهدى أبا الحزم بن جهور في هذه الفترة بعض قصائد المدح والاستعطاف ، ولكن يصعب علينا تحديد تاريخها .

ويحظى ابن زيدون في النهاية بعفو أبي الحزم وكان لابنه أبي الوليد الفضل الأول في ذلك ، فتوثق المودة بين الشاعر وأبي الوليد فيمدحه ويمدح أبا الحزم أيضاً . ثم لم يلبث أبو الحزم أن توفي في السادس من محرم سنة ٤٣٥ هـ فيريثه بقصيدة مطلعها :

ألم تر أنّ الشمس قد ضمّتها القبر وأنّ قد كفانا فقدّها القمر البدر^١

وليس في هذه القصيدة ما يدل على أنها تنبض بالعاطفة الصادقة . فالمطلع كما نلاحظ تقليدي يمهد السبيل فيه لمدح ابن المتوفى أبي الوليد الذي أحبه ولم ينس فضله في سبيل خلاصه من السجن . والقارئ لهذه القصيدة يرى أن معانيها تتردد في قصائد أخرى كتلك التي قالها في رثاء المعتضد بن عباد^(٢) وكأن الشاعر قد أراد من رثاء أبي الحزم تمكين مكانته عند ابنه أبي الوليد على طريقة (مات الملك عاش الملك !) ، فالشاعر يبكي الفقيده ولكنه يتطلع دائماً إلى البدر الذي حل محل الشمس التي ضمها القبر ، ثم يأتي بالأوصاف التقليدية التي لا تلمح فيها خلجات قلب شاعر متأثر .

الشاعر في بلاط أبي الوليد :

بعد وفاة أبي الحزم سنة ٤٣٥ هـ تقلد زمام الأمور ابنه أبو الوليد ، وهنا نرى نجم ابن زيدون يتألق ويعلو ، فيقر به أبو الوليد منه ويعينه للنظر على أهل الذمة ، فينظم الشاعر قصيدة جميلة تعبر عن بهجته ورجائه فيه يفتتحها بهذا المطلع :

ما للمدّام تديرها عيناك فيميل في سُكر الصِّبا عطفاك^٣

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) الديوان ص ١٤٠ و ١٥٠ و ١٧٤ .

(٣) الديوان ص ٩ .

إلى أن يقول :

قلدنى الرأى الجميل فإنه حَسْبى ليومى زينةٍ وعِراكِ
وفى هذه القصيدة تتجلى فرحة الشاعر بأمره وقد ارتقى أريكة السيادة والحكم
فيصيح بأعلى صوته :

بُشْرَاكِ يا دنيا وبشيرانا معاً هذا الوزيرُ أبو الوليد فتاك
يا أيها القمرُ الذى لسنائه وسنائه تعشوا السَّبْعُ فى الأفلاكِ
فَرَحُ الرِياسةِ إذ ملكتِ عِنانها فَرَحُ العروسِ بصحة الإِملاكِ^٢
وينظم ابن زيدون فى هذه الفترة أيضاً قصيدة أخرى فى مدح مليكه أبى الوليد
مطلعها^(٣) :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاوْهَا الْأَسَدُ مَهَاةٌ حَمَتْهَا فِى مَرَاتِعِهَا أُسْدُ
ونرى الشاعر فيها يتدفق مدحاً لآل جمهور ويعرّض بمطلب لعله الوزارة التى
رفعه إليها مليكه أبو الوليد فيما بعد ، فىقول :

فديتُكُ إِنْى قائلٌ فمعرّضٌ بأوطارِ نفسٍ منك لم تقضِها بعدُ
منى كالشجادة ونالها تعرّضتُ فلم يك للمصدر من نفثها بدُ
أمثلَى غُفْلٌ خاملٌ الذكْرُ ضائعٌ ضياعَ الحسامِ العُصبِ أصداءُ الغمْدِ^٤

(١) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، وبالقصر : الضوء. تعشو : تقصد ، عشا النار وإلى النار :
رأها ليلاً فقصدتها راجياً هدى أو قرى .

(٢) الإملاك : الزواج .

(٣) الديوان ص ١٧٧ ، وقد جاء فيه أنها قيلت فى مدح أبى الحزم بن جمهور ، وهو خطأ .

(٤) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الخلق .

(٥) العُصب : القاطع .

بدأت بنعمى غصةٍ إن توالها فحسُن الألى في أن يواليها سرُّد^١
لعمرك ما للمال أسعى فإنما يرى المال أسنى حظّه الطبع الوغد
ولكن لحالٍ إن لبستُ جمالها كسوتك ثوب النضح أعلامه الحمد^٢

وهكذا يظني الشاعر عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده التي نسمع خلال
أبياتها رنة الإخلاص ، وتشيع في تضاعيفها نبضات الحب لملك خلصه من السجن
ثم رفعه إلى مراتب الوزارة والأمر والنهي ، فلا عجب أن نراه يصيغ ألفاظه درراً في
مدائحه فيقول :

مَلِكٌ لَدَّ جَنَى العيش به حيثُ ورِدُ الأَمْنِ للصادى علكُ
يا بنى جهورِ الدنيا بكم حَلَيْتُ أَيامُها بعد العطلُ
نحن من نعمائكم في زهرةٍ جددت عهدَ الربيعِ المقتبلُ
زَهَرَتِ أخلاقكم فابتسمتُ كابتسامِ الوردِ عن لؤلؤِ طلُ^٣

وعند ما نكب بنو ذكوان سنة ٤٤٠ هـ ، وهي الأسرة التي ينتسب إليها أستاذه
القاضي أبو بكر بن ذكوان أرسل الشاعر إلى أبي الوليد مدحة^(٣) نستشم من خلالها
قلق الشاعر وعدم اطمئنانه لمستقبله . فهل بدأ يخشى أن يصيبه من الابن
ما أصابه من الأب ؟ وما معنى هذا التضرع الذي نقرؤه خلال هذا البيت من
القصيدة المذكورة ؟ :

لا تستجز وضع قدرى بعد رفعكهُ فالله لا يرفعُ القدرَ الذى تَضَعُ

ويبدو ، كما يشير بعض المؤرخين ، أن ابن زيدون قد أخذ منذ هذا التاريخ

(١) الألى : النعمة وجمعها آلاء . سرْد : تتابع .

(٢) الديوان ص ٦٢ - ٦٥ .

(٣) الديوان ص ١٣٠ .

يحذر سيده وتعتوره الوسوس ، إذ رآه يصغى إلى أقوال الوشاة الراغبين بتنحيته عن مركزه .

وأكبر الظن أن سبب جفاء أبي الوليد لابن زيدون ما كان من أمر نكبة بنى ذكوان ، أصدقاء الشاعر ، عند ما حاول بعض منهم الوثوب على السلطان بقرطبة . فكان أن أحاطت بالشاعر الشبه ، فحاول أن ينفياها عن نفسه بالقصيدة المشار إليها . وفي هذه الفترة يحدث أن يرسله أبو الوليد سفيراً إلى حضرة إدريس الحسنى بمالقة فيطيل الثواء هنالك ويتقرب من إدريس ، فيعتب عليه أبو الوليد ويصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس . وهكذا تنقطع أيام الشاعر عن قرطبة ، ولا يعود إليها خشية من أبي الوليد بن جمهور الذي أرسل إليه يتهده بعد أن تابع خصومه في إيغار صدر أبي الوليد عليه ، فيقصد بلنسية ويستقبله أميرها أبو عبد الله ابن عبد العزيز استقبالا حسناً ، ولكنه لا يقيم فيها طويلاً ، وقد أسف على فراق أبي عبد الله في قصيدة نقرأ فيها هذه الأبيات :

راحت فَصَحَّ بها السقيم ريحٌ معطَّرةٌ النسيمُ
مقبولةٌ هبت قبو لا فهي تعبق في الشميمُ
أفضيض مسكٍ أو بلدٌ سيةٌ لريّاها نميمُ
بلدٌ حبيبٌ أفقه لفتى يحلُّ به كريمُ

* * *

مهما ذمتُ فما زما نى فى ذمامك بالذميمُ
زمنٌ كمالوف الرضا ع يشوق ذكراه الفطيمُ
الله يعلم أن حبك من فوآدى فى الصميمُ
ولئن تحمّل عنك لى جسمٌ فعن قلبٍ مقيمُ

وقد أم أيضاً طرطوشة ، أثناء وجوده بأقصى شرق الأندلس ، وهي مدينة قائمة على البحر الأبيض من أعمال بلنسية ، وفيها قال هذين البيتين متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصبا تحمّلها منه السلام إلى الغرب
وماضراً أنفاس الصبا في احتمالها سلام هوى يهديه جسم إلى قلب

ثم يقصد بطليوس في الغرب فيلاقي من أميرها من الاحتفاء ما لاقاه من أمير بلنسية ، وكان قدومه إليها في عيد الأضحى سنة ٤٤١ هـ فهاجه أن يرى نفسه وحيداً فتذكر معاهده في قرطبة ، وأخذ يعدّها معهداً معهداً ، ويتحسر على أيامه الخوالي في قصيدة نظمها في هذه المدينة ، مطلعها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى فما حال من أمس مشوقاً كما أضحى^١

والقصيدة تنم عن شوق الشاعر وأساه ، وتصوّر ما أثارته الذكرى في نفسه من الحب والحنين لمدينة ترعرع فيها حبه ، وقضى فيها أيام شبابه وسعادته وشقائه . وقد نظم أيضاً في هذه المدينة قصيدة أخرى تصور صبايته وشوقه وهي أرجوزة مطلعها :

يادمع صب ما شئت أن تصوبا ويا فؤادي آن أن تذوبا^٢

وقد لاقى ابن زيدون من المظفر صاحب بطليوس كل إكرام مما جعل لسانه ينطق بشكره ، وقد كتب إليه أيضاً قصيدة ورسالة نجدهما في ديوانه^(٣) :

وهكذا لم يستطع هذا التنقل والرحيل أن ينسيه حبه أو يشغله عن هواه ، فظل في حنين دائم وتلهف مقيم .

ولكن ابن زيدون كان يتطلع إلى بلاط أوسع مما رأى ليرضى طموحه ،

(١) الديوان ص ٥٤ .

(٢) الديوان ص ١٩ .

(٣) ص ١٢٢ و ص ٣٤٦ .

فصحت عزيمته على الرحيل مرة ثانية إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية ، الملك الذى كان الأدباء يجدون فى كنفه عطفاً ورعاية . وفى سنة ٤٤١ هـ ، رحل إليه بعد أن تأكد برسائل أرسلها إلى المقربين من المعتضد وإلى المعتضد نفسه أنه سينزل على الرحب والسعة .

ابن زيدون فى بلاط بنى عباد :

ها هو ذا ابن زيدون فى إشبيلية مرة أخرى يرعاه المعتضد ويحتفى به احتفالاً رائعاً ، وقد ولاه الوزارة ولقبه بذى الوزارتين وأسبغ عليه الخلع ، وقلده أمور دولته واستكتبه « فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس فيقال تأتى كتب من إشبيلية هى بالمنظوم أشبه منها بالمنثور^(١) » . وقال ابن زيدون فى أديبه أحسن المدائح نجدها منشورة فى ديوانه ومنها قصيدته التى قالها فى عيد الأضحى سنة ٤٤٥ هـ ، ولعلها من خير مدائحه ومطالعها :

أَمَا فى نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفٌ مُعْرَفٌ

لَنَا هَلْ لِدَاتِ الوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفٌ^٢

ولا يقتصر الشاعر فى هذه القصيدة على مدح المعتضد بل يبتدئها بمطلع غزلى رأى فيه ابن خاقان فى قلائده أنه حين لولادة ، ونحن إذا ما تدبرنا هذا المطلع الغزلى لم نجد فيه ما يجعلنا نعتقد بأنه قيل فى ولادة . وهو فى جملمته غزل تقليدى تفتتح به عادة قصائد المدح على الرغم مما يشيع فيه من أصداء خافتة لشاعر عرف العشق واكتوى بناره .

وقد بقى ابن زيدون وزير المعتضد وشاعره المفضل إلى أن توفى سنة ٤٦١ هـ ، فلما تولى الملك ابنه المعتمد (وكان له من العمر ثلاثون عاماً) حظى بالمكانة نفسها التى كان يتمتع بها عند أبيه ، ولا عجب فى ذلك فقد رأينا المعتمد شاعراً محبباً للأدباء ،

(١) الذخيرة ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الديوان ص ٢٣ ، الجزع : منعطف الوادى . الوقف : السوار من العاج وغيره .

وكان بلاطه قبلة كل أديب وموئل كل فنان عبقرى . وقد حاول أعداء ابن زيدون بعد وفاة المعتضد الإيقاع به ولكن المعتمد لم يصنع لأقوال هؤلاء الأعداء ، فبقى أثيراً عنده ، وقد حفظ الشاعر لمليكه هذا الموقف النبيل فدحه بقصيدة عرض فيها بحساده وبعثهم بالبغاة ومطلعها :

الدهرُ إن أَملى - فصيحٌ أعجمٌ يُعْطى اعتبارى ما جهلتُ فأعلمُ
إن الذى قَدَرَ الحوادثَ قَدَرَهَا ساوى لديه الشهدَ منها العلقمُ

ولابن زيدون مدائح كثيرة جليلة غير هذه ، وله معه مداعبات ومساجلات نجدتها فى ديوانه .

وهكذا فقد كانت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد مفعمة بالمسرة والهناء ، ولم يكن ليشجيتها إلا أطياف حب قديم مقيم . وكانت إشبيلية تضمه بشعرها وغنائها ولهوها وخمرها وتبسط أمامه هو الحياة وعز السلطان ، ويكفى أنه كان فى بلاط المعتمد وقد اجتمعت فيه مباحج الدنيا ولذاتها .

ولكن هذه اللحظة العظيمة التى تمتع بها ابن زيدون عند المعتمد لم تستطع أن أن تنسيه قرطبة أو أن تحد من شوقه إليها ، ولعل الشاعر كان يغرى لمليكه بالاستيلاء عليها ، وحدث سنة ٤٦٢ هـ أن المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، قد هاجم قرطبة يريد احتلالها فاستنجد ملكها أبو الوليد بن جمهور بالمعتمد فأرسل له جيشاً يقوده أحد أبنائه ، فما كان من جيش المأمون إلا أن ينسحب بينما نزل جيش بنى عباد فى ضاحية المدينة وأخذ يتصل بأهل قرطبة حتى ثار هؤلاء على ابن جمهور واستولى الجيش الإشبيلي على قرطبة ونادى أهلها بالمعتمد ملكاً عليها .

وهكذا يعود ابن زيدون مع مليكه إلى قرطبة قرير العين برؤية أهله ووطنه فيرتفع حظه ويزداد إقبال الدنيا عليه ويبلغ من الحظوة عند المعتمد ما يجعل وزيريه ابن مرتين وابن عمار يكيدان له ويسعيان فى إبعاده . وتساعدهما الظروف ،

فتحدث فتنة في إشبيلية ويضطر ابن عباد لإرسال جيش كثيف بقيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، إلا أن ابن مرتين وابن عمار يسولان للمعتمد أن يرسل معه ابن زيدون ، ففي إرساله نجاح لمهمة سراج الدولة وحقق للدعاء لما له من المحبة في قلوب أهل إشبيلية . وفي الواقع لم يكن يقصد الوزيران من وراء ذلك إلا إبعاد ابن زيدون ليصفو لهما الجو وينفردا بالمعتمد بعد أن ساءت لهما الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها الشاعر في قرطبة .

وهكذا يغادر ابن زيدون قرطبة على الرغم من مرضه برفقة سراج الدولة والجيش قاصدين إشبيلية وذلك في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٤٦٢ ، ويترك ابنه أبا بكر بن زيدون خلفاً له في الوزارة ، ولكن ابن مرتين وابن عمار ما زالوا يسعيان لدى المعتمد حتى أصدر أمره إلى أبي بكر بن زيدون بأن يلحق بأبيه إلى إشبيلية ، فكان ابنه قد لحقه ليشهد موته ، ويعتنى بتشييعه ودفنه فيها . وفي الواقع فقد كانت هذه الرحلة سبباً في تعجيل موته ، إذ ساءت حالته الصحية يوماً بعد يوم ، فهلك بعيداً عن المدينة التي أحبها ، في الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة ، وكان لنبا موته رنة أسي في قرطبة ، وحزن عليه أهلها حزناً كبيراً . وصمت ذلك الصوت الذي غنى حياته ، بآلامها وحبها وعزها ، شعراً خالداً .

الفصل الثالث

آثار ابن زيدون وأدبه

الديوان :

لابن زيدون ديوان نشره في القاهرة سنة ١٩٣٢ الأستاذان كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة^(١). وإنما لنجد في نهاية هذه الطبعة قسماً من رسائل الشاعر مع طائفة من الأبحاث عن حياة ابن زيدون وشعره بقلم طائفة من الأدباء القدماء والمعاصرين .

ومع أن الأستاذين كيلاني وخليفة قد بذلا جهداً مشكوراً في طبع هذا الديوان وكان لهما فضل السبق في نشره ، إلا أنهما لم يتبعا في عملهما أسلوب النشر العلمي الحديث ، فلم يصفيا المخطوطات التي اعتمدا عليها ، ولم يذكرنا مختلف الروايات في الهوامش ، ولم يثبتا الفهارس المختلفة التي تيسر سبيل البحث والمراجعة . وقد اعتمدا في نشر هذا الديوان ، كما علمنا ، على النسختين الخطيتين رقم ٤٩٦ أدب ورقم ٥٥٥ أدب ، المحفوظتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة^(٢).

والديوان ، كباقي دواوين الشعر العربي ، ليس فيه ما يدل على الدافع والظروف التي قيلت فيها القصائد إلا بعض الإشارات العابرة في تقديم بعضها . وقد

(١) طبع هذا الديوان أيضاً في بيروت سنة ١٩٥١ ، والطبعة ناقصة ، وهي بإشراف مكتبة صادر . وفي سنة ١٩٥٧ قام الأستاذ علي عبد العظيم مدير إدارة المخطوطات بدار الكتب المصرية بالقاهرة بطبع ديوان ابن زيدون طبعة علمية مع رسائله النثرية ، وقد شرح قصائده ونصّوصه وحققها وعلق عليها ووضع له مقدمة طويلة عن حياة الشاعر وشعره ونثره ، ويؤسفنا أننا لم نطلع على هذه الطبعة إلا بعد إعداد بحثنا وكان اعتمادنا فيما دوناه على طبعة الأستاذين كيلاني وخليفة .

(٢) أشار المستشرق بروكلان إلى هاتين المخطوطتين في كتابه « تاريخ الآداب العربية » الملحق الأول ص ٤٨٠ ، وأشار أيضاً إلى مخطوطة للقصيدة النونية الشهيرة محفوظة في اكسفورد . ولديوان ابن زيدون ، عدا المخطوطتين السابقتين ، نسختان خطيتان محفوظتان أيضاً بالقاهرة : إحداها النسخة رقم ٧٦ شعر تيمور بالمكتبة التيمورية ، والأخرى النسخة رقم ٤٤٣ أدب بمكتبة الأزهر .

توالت القصائد أيضاً دون نظام ، ولم يراع فيها الترتيب التاريخي ، وهذا عيب من عيوب دواويننا الشعرية يجعل دراسة شعر الشاعر والغوص على أسرار عبقريته محاطاً بكثير من الصعوبات .

ويلاحظ أن الأغراض الأساسية التي عاجلها الشاعر هي الغزل والمديح والاستعطاف ، ولعمري إنها لموضوعات تتجاوب مع قصة حياته . ونرى أن المديح يشغل معظم صفحات الديوان ويليه الغزل ثم الأغراض الثانوية الأخرى .

الرسالة الهزلية :

طبعت هذه الرسالة لأول مرة مع ترجمة لاتينية سنة ١٧٥٥م في مدينة ليبسك من قبل المستشرق رايسك ، وطبعها المستشرق هيرت مرة ثانية في إينا سنة ١٧٧٠م . وقد شرحها ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م وطبعت في القاهرة سنة ١٢٧٨ هـ تحت عنوان « شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » ، ولهذا الشرح عدة مخطوطات موزعة في المكتبات الأوربية .

وقد ذكرنا أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لمنافسه ابن عبدوس يهزأ به ، وقد جاءت رسالة طريفة جمعت بين أفانين التهكم وضروب المعرفة ، وساق فيها طائفة من الأمثال والأبيات المنشورة من الشعر ، وذكر فيها الكثير من الأحداث والأعلام وأسماء الرجال .

الرسالة الجدية :

لهذه الرسالة عدة مخطوطات أيضاً موزعة في المكتبات الأوربية وفي مكتبات القاهرة والموصل . وقد شرحها الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، في كتاب سماه « تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون » ، ولها شرح ثان طبعه مصطفى عناني بالقاهرة سنة ١٩٠٦م في كتاب سماه «إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون» وطبعت أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٩ م بعنوان « الدر المخزون في شرح رسالة ابن زيدون » كما طبعت في بغداد سنة ١٣٢٧ هـ .

وقد مرّ بنا أن ابن زيدون قد كتب هذه الرسالة وهو في السجن ، يستعطف بها أبا الحزم بن جهور ليعيد إليه حريته ، وهي لا تقل جمالا عن سابقتها ، نلمح خلال سطورها الانفعال والقلق .

والرسالة مفعمة كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، وهي تزخر بالأمثال ونثر الشعر القديم واقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث .

خصائص الرسالتين الأسلوبية :

هاتان الرسالتان قويتا الصلة بحياة الشاعر ، فالرسالة الهزلية تتصل بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة ، والرسالة الجدية تتصل بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطف .

ونلاحظ أن الرسالة الأولى قد استطاعت أن تبلغ ما تريد من السخرية بمنافسه ابن عبدوس على رغم تكلفها والتزام السجع والصناعة فيها ، وقد تصل السخرية فيها أحيانا إلى حد سلاطة اللسان فتبعد عما يقتضيه التهمك من رقة ودقيق تورية ، ولهذا فهي تتصف بالانفعال القوي الصريح المعبر عن سخط الشاعر وألمه من منافسه الذي لعب بقلب من أحبّ ولعبت هي به .

أما الرسالة الجدية فتزعم أنها لم تستطع أن تبلغ هدفها في استعطف أبي الحزم ابن جهور ، لما في أسلوبها من تكلف وغريب ، ولما احتوته من الأسماء التاريخية والإشارات الأدبية التي تلهي القارئ وتجعله ينصرف إلى استقصاء معانيها وفهم مقاصدها وحلّ رموزها . أضف إلى ذلك أن موضوع الاستعطف يقتضى دفقة في العاطفة وتلهفاً حاراً يرسم المستعطف في عذاب وضيق ، ولعمري إن هذه الصفة لا تظهر جلية في هذه الرسالة ، وإنما الذي يسيطر عليها الصنعة والمعرفة التي تتجلى خلال عباراتها ، فتأتي الرسالة متناً مشحوناً بالأمثال والوقائع والأشعار ، لا صرخةً تنبض بالحسرة والتلهف والألم الدفين .

والرسالتان تعكس خصائص أسلوب ابن زيدون في النثر ، فهو لا يلتزم السجع

دائماً . وهو لا يلتزمه في الرسالة الجدية بينما نراه يلتزمه تقريباً في الرسالة الهزلية ، ويبدو إنشائه فيهما قليلاً ضئيلاً إذا ما قيس إلى ما يذكره من أمثال العرب وأسماء رجال التاريخ والوقائع الشهيرة .

ثم هو يكثر من الجمل المترادفة على معنى واحد ، ويظهر جلياً على أسلوبه خصائص أسلوب أهل عصره الذين جروا على طريقة ابن العميد والصاحب بن عباد والهمداني والحوارزى ، فنراه يعمد إلى نثر الأبيات الشهيرة من الشعر وتضمينها في كتابته ، والاستشهاد بعدد كبير منها دون الإشارة إلى قائلها ، ثم إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث بلفظهما أو ببعض التغيير ، وتضمين الحكم والأمثال بنصها أو بتحويل فيها .

وعلى الجملة فأسلوب ابن زيدون في نثره قوى جزل كشعره ، وقد فلنا إنه لا يتقيد بالسجع ، ولكنه لا يترك الموازنة ، فجملة متشابهة في النغمة ، متناسقة في الطول . وقد حظيت هاتان الرسالتان بشهرة كبيرة في الأدب العربي لبراعة أسلوبيهما ولما احتوتا من أفانين القول وحوادث التاريخ وأسماء رجاله ، ولما ضمته من الشعر الجليد والأمثال المناسبة . وإذا كنا لا نشعر عند قراءتهما بما نشعر عند تلاوة شعره من هزة وطرب ، فنحن لا نستطيع إلا أن نعجب بهذا النثر لما يبدو فيه من علم وسعة اطلاع وجزالة ، ويبقى ابن زيدون شاعراً أكثر منه ناثراً .

أغراض ابن زيدون الشعرية :

طرق ابن زيدون أكثر أغراض الشعر العربي المعروفة لعهد ، وأجاد أكثر ما أجاد في فنون الغزل والمدح والاستعطاف ، وقد كان شعره صدى لحياته ، فجاء غزله معبراً عن تجربته الغرامية ، وجاء مدحه متجاوباً مع حياته السياسية ، معبراً عن عزها واضطرابها ، وكان استعطافه يعثور الغزل حيناً فإذا به استعطاف عاشق ذليل ، ويعثور المدح حيناً آخر فإذا به استعطاف أمير ذل يتطلع إلى المجد الذي استلب منه .

ويعدّ ابن زيدون من شعراء عهد التحرر ، وهو الطور الذي أخذ فيه الشعراء

يصدرون عن نفوسهم ويمثلون البيئة ومظاهرها دون أن يتخلوا مع هذا عن التقليد .
وقد اتسم شعره بحب طبيعة الأندلس وبخاصة قرطبة ، فجاء وصفه لها ممزوجاً بقصة
حبه التي أثرت في نفسه تأثيراً كبيراً .

فما هي أهم خصائص هذه الأغراض الشعرية ؟

الغزل :

شعر ابن زيدون الغزلي يكاد يكون النغمة التي تظهر فيها أصالة الشاعر ، فهو
شعر انبجس من صميم قلبه ، وعبر عن حبه وآلامه ، ولئن كان شعر الحب عند
ابن زيدون أقل من شعر المدح ، فقد كان يفوقه إخلاصاً وجودة ، لأنه كان
صدى لانفعالاته وتعبيراً عن خفقات قلبه . ونكاد ، بعد أن علمنا قصة
حياة الشاعر ، نستطيع أن نميز أطوار هذا الشعر ، فقد علمنا حبه لولادة ثم
هجرها له ثم يأسه منها وحنينه الدائم لها . وقد جاء شعره ممثلاً لهذه الأطوار ، ولكنه
بقى على الغالب ممثلاً لطور يأسه وحنينه الدائم وذكراه الحية لهذا الحب . فقد لعب
دور المهجر في قلبه لعباً قاسياً شديداً وفجّر فيه شعر الحرق واللوعة وشعر الذكرى
والحنين ، أما أيام هناءه وسعادته فقد كانت قصيرة ، ولذا لا نجد له إلا قليلاً
من المقطوعات التي عبرت عن هذه الهناءة ، في ألفاظ بسيطة وتراكيب لينة ومما
لم تلهبها تجربة الحب الصادق ولوعة الفراق والهجر كقوله :

هل لداعيك مجيبٌ ؟ أم لشاكيك طيبٌ ؟

يا قريباً حين ينأى حاضراً حين يغيبُ !

كيف يسلكُ مُحِبُّ زانه منك حبيبٌ ؟

إنما أنت نسيمٌ تتلقَّاهُ القلوبُ

وكقوله :

متى أبثُّكَ مابى يا راحتى وعذابى
متى ينوبُ لسانى فى شرحه ، عن كتابى
الله يعلمُ أنى أصبحتُ فىك لما بى
فلا يطيبُ منامى ولا يسوغُ شرابى^١

وكقوله :

يا ليلُ طُلْ ، لا أشتكى - إلا بوصل - قِصرَكَ
لو بات عندى قَمَرى ما بتُّ أرعى قمرَكَ
يا ليلِ خَبَّرْ ؛ إننى ألتدُّ عنه خَبَرَكَ
باللهِ قلْ لى : هلْ وفى ؟ فقال : « لا ، بلْ غَدَرَكَ^٢ »

فمثل هذه الأبيات ، يجيبها إلى النفس رقتها وما تعكسه من قلق يغمره الرضى ، ولكنها لا تلهب النفس لأنها لا تصور حباً عميقاً مقيماً .
هذا التصوير علينا أن ننشده فى الأشعار التى قالها أيام الهجر واليأس والذكرى ، ونجد شاعرنا قد اقتصر فى أول أيام الفراق على شكوى جياشة باللوعة والحسرة ، ونلمح هذه الشكوى خلال ألحان يردد فيها أمثال هذه الأبيات فيقول :

كم ذا أريدُ ولا أُرَادُ يا سُوءَ ما لَقِيََ الفؤادُ!
أُصْفِى الودادَ مُدَلِّلاً ، لم يَصْفُ لى منه الودادُ
يَقْضِى عَلَى دلالتهُ - فى كلِّ حين - أو يكادُ

(١) الديوان ص ٢٦٤ .

(٢) الديوان ص ٢٧٢ .

كيف السلوُّ عن الذي مشواه ، من قلبي ، السَّوَادُ؟
 مَلَكَ القلوبَ ، بِحُسْنِهِ فلها إذا أمر انقيادُ
 يا هاجري كم أستفِيءُ الصبرَ عنكَ فلا أفادُ
 هلاً رثيتَ لمن يبيءُ تُوحِشُو مَقْلَتِهِ السَّهَادُ؟
 إن أجنُ ذنباً في الهوى خطأً فقد يكبو الجوادُ
 كان الرضى ، وأُعِيدُهُ ، أن يُعقِبَ الكونَ الفسادُ

ثم يشتد على شاعرنا ظلام الهجر والبعد فإذا به يئن في شعره ويستصرخ محبوبته في لحن كله ارتجاف وذكرى . ويدخل السجن ، وهو على هذه الحال ، وتعتلج في جوانحه تباريح الهوى ، ويأخذ منذ هذا التاريخ يرسل الشعر مناجاة وذوب نفس معذبة .

هذه النفس المعذبة المحبة لم تنس غرامها ، بل لعلها كانت تجد في النسيان ختاماً لتلك النشوة الحبيبة التي يشعر بها المحب المخلص ، ولهذا ما كانت لترغب في النسيان بل ما كانت لترغب في الاستسلام إلى اليأس :

كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضهُ وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
 بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم وما جفت مآقينا
 نكادُ حينَ تناجيكُمُ ضمائرنا يَقْضِي علينا الأسى لولاتنا سينا

وعلى هذا اللحن من الغزل الرقيق صاغ ابن زيدون أكثر شعره الخالد ولا سيما في قصيدته النونية الشهيرة التي أشرنا إليها ، وفي قصيدته القافية التي جعل الطبيعة فيها مسرحاً لنجواه الغرامية فقال في مطلعها :

إني ذكركِ بالزهراءِ مشتاقاً والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
 وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله كأنه رقٌّ لي فاعتلَّ إشفاقا
 والروضُ عن مائه الفضيُّ مبتسمٌ كما شققتَ عن اللباتِ أطواقا
 هذا الشعر الغزلي لم يكن كله جديداً ، فقد عزف ابن زيدون في معانيه
 وصياغته على قيثارة القدماء ، إلا أنه استطاع أن يمنحه لوناً خاصاً عند ما جعله
 شعراً للحنين وللذكرى ، ولهذا فالميزة الأولى لغزل ابن زيدون هي في هذه القفزة التي
 كان يقفزها إلى الماضي فيصور لنا بالمقارنة سعادة الحب الآفل وعذاب الهجر
 المقيم ، ثم يمنحنا لحناً للمناجاة يشيع منه الإخلاص ويصور حباً لا يفنى في قلب
 عاشق يحيا بالذكرى ويبقى للحب .

المدح :

مدح ابن زيدون متصل بحياته السياسية أشد الصلة ، ولذا إذا تقصينا
 مدائحه استطعنا أن نرسم جانباً هاماً من هذه الحياة ، فقد اتصل ابن زيدون أول
 ما اتصل بأبي الحزم بن جهور ، ثم لم يلبث هذا الأمير أن قذف به إلى السجن ،
 كما رأينا ، فأخذ الشاعر يرسل إليه مدائحه مستعظفاً مسترحماً كما يرسل إلى ابنه
 أبي الوليد ، وهذه المدائح تتصف بصفة الاستعطاف ويبدو فيها الشاعر شاكياً
 يريد أن يدفع عنه التهمة التي أودت به إلى السجن كما في قصيدته التي أرسلها إليه
 في نهاية الرسالة الجدية ، وفيها نقرأ هذه الأبيات :

أيهذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدءٌ قرعها للحليم^١
 ما عنانا أن يأنفَ السابقُ المرُّ بَطَ في العتق منه والتطهيم^٢

(١) في هذا البيت تضمين للمثل العربي : « إن العصا قرعت لذي الحلم » ، وهو يضرب للذكي
 إذا نهته انتبه .

(٢) السابق : الفرس ، العتق في الخيل الكرم ، والتطهيم : الجمال فيها .

وبقاء الحسام في الجفن يثنى منه بعد المضاء والتضميم
 أفصبر^١ مئين خمساً من الأيا م ؟ ناهيك من عذاب أليم !
 ومعنى من الضنى بهنات نكأت بالكُوم قرَح الكُوم^٢
 سقم لا أعاد فيه وفي العا ئد أنس يفى ببرء السقيم
 نارُ بغى سرى إلى جنة الأم ن لظاها ، فأصبحت كالصريم^٢
 بأبي أنت ! إن تشأ ، تك برداً وسلاماً كذار إبراهيم

ويضرب الشاعر على هذا الوتر في أكثر مدائحه لأبي الحزم ، ولكنه يمزجها بتعداد مآثره وصفاته في شيء من الفتور ، وطبعي ألا نرى الشاعر مندفعاً في مدح أميره وهو الذي ألقى به إلى السجن .

أما مدائحه في أبي الوليد بن جهور فهي تم عن إخلاص الشاعر وجهه له ، وليس هذا عجيباً فنحن نعلم فضل أبي الوليد على الشاعر في خلاصه من السجن ، ونعلم الحظوة الكبرى التي نالها بالقرب منه ، بعد وفاة أبي الحزم .

ثم تأتي بعد ذلك مدائحه التي قالها في إشبيلية وأهداها خالصة للمعتضد والمعتمد ، ففي هذا الدور من حياة ابن زيد ون ترتفع مدائحه إلى ذروة كمالها الفني وتعبّر عن صادق عواطفه نحو هذين الملكين اللذين أحسنا رعايته وبوّآه أرفع المناصب .

وللشاعر مدائح أخرى قالها في بعض ملوك الطوائف ووزرائهم عند ما زارهم أثناء تجواله في طرطوشه أو بطليوس أو بلنسية وقبل أن يستقر في بلاط بني عباد ، وهي مدائح يبدو عليها النضج والإخلاص ، وله أيضاً مدائح أخرى في بعض أصدقائه وأساتذته .

(١) هنات : الشدائد ، الكُوم : الجروح .
 (٢) كالصريم : كالليل في السواد بعد الاحتراق .

هؤلاء هم أشهر ممدوحيه فما هي الصفات العامة التي سيطرت على مدح الشاعر؟
 لم يكن مدح ابن زيدون طلباً للمال وإنما كان طلباً للجاه ، كما كان في
 بعض المواقف تعبيراً عن عاطفته ، وقد جرى فيه على ما ألفه الأقدمون من ركوب
 البحور الطويلة واللجوء إلى النظم الرصين الجزل . واستهل على الغالب مدائحه بالغزل
 ثم أخذ يعدد محامد الممدوح وما أثره متبعاً الطريقة التقليدية ، ولذا نجده مترسماً في
 مدحه أساليب القدماء لا يجيد عنهم كثيراً ، ولا تبدو عبقرية الشاعر إلا في
 القصائد التي أملتها العاطفة ، ومن هنا كانت مدائحه في المعتضد والمعتمد وبعض
 مدائحه في أبي الوليد أفضل شعره في هذا الغرض .

الاستعطاف والشكوى :

وشعر الاستعطاف والشكوى على قلته يُعدُّ من الأغراض التي أجاد بها شاعرنا
 وصدَرَ بها عن عاطفته ، وهذا الشعر مبثوث خلال غزله ومدحه ، كما قلنا ، وقلما
 انفرد في قصائد خاصة ، إلا ما نجده في تلك القصيدة الخالدة التي أرسلها إلى
 صديقه أبي حفص بن برد والتي كانت درةً في نسجها ونغمتها الصافية الهادئة
 المتألِّمة .

بقية الأغراض :

يبقى ابن زيدون في أغراضه الأخرى ، كالرثاء مثلاً ، ضيق النفس فاتر
 العاطفة ، ورثاؤه قاله على الغالب في بعض ممدوحيه أو من يلوذ بهم فجاء بكاءً
 على الراحل ولكنه وسيلة لمدح المقيم كما فعل في رثاء أبي الحزم بن جمهور^(١) ، أو في
 رثاء أم المعتضد وابنته ، أو في رثاء المعتضد نفسه^(٢) .

على أنه ينبغي أن نشير في النهاية إلى عدد من المقطوعات قالها في مناسبات
 مختلفة كالتهناني والإخوانيات . وقد نظم أيضاً عدداً من المقطوعات الخفيفة في

(١) الديوان ص ١٥٠ .

(٢) انظر الديوان ص ٧٥ و ١٤٠ و ١٧٤ .

الألغار والأحاجى أجابه عليها المعتمد محاوراً وفاكهاً لمعمياتها ، ولكنه في جميع هذه الأغراض الثانوية لم يصدر عن حسه ولم يستلهم شاعريته .

خصائصه الفنية :

إن الخاصة الأولى التي ميزت شعر ابن زيدون هي أن هذا الشعر شديد الصلة بحياة الشاعر . فقد رأينا ابن زيدون محباً لولادة مشغوقاً بها ، ورأيناه أيضاً خلال هذا الحب يتقلب في مناصب الحكم والوزارات ويندس في حمأة السياسات ، ثم يُلقى به في السجن ، ثم تعود إليه الحرية ويواصل لعب دوره في قصور الأمراء مقرباً منهم معزراً في ظلال عطفهم ورعايتهم ، أو بعيداً عنهم طريداً . فجاء شعره صورة لهذه الحياة التي يتوزعها الحب والسلطان . فيمكننا إذاً أن ننظر إلى شاعرنا من وجهين : فهو يبدو لنا شاعراً ذاتياً من ناحية ويبدو لنا شاعر بلاط من ناحية أخرى ففي أى الوجهين تتجلى عبقرية ابن زيدون ، وهل تتجلى في الوجهين معاً ، وهل خضع للشروط التي يجب أن يتصف بها هذان الشاعران اللذان اجتمعا في نفسه ؟

أما الشاعر الذاتي فيتجلى في غزله وهوه واستعطافه وشكواه . وأن كانت الحياة التي عاشها قد فرضت عليه هذا اللون من الشعر فإن تجاربه النفسية قد عدت لها ومنحتها صورتها الجديدة . في هذه الأغراض لم ينظم شاعرنا الشعر لإرضاء شخصٍ آخر غير نفسه ، ولئن كان يرغب من وراء غزله إرضاء تلك التي يحبها ويود استعطافها ، فذلك لأنه يرى فيها صدى لانفعالاته وسبباً لبقائه في هذه الدنيا . إنه محب ، ونحن نعلم حبه لولادة ، هذا الحب الذي تراءى لنا لاهياً عابثاً في مطلعته ، ثم لم يلبث أن انقلب إلى جذوة نار تآكل قلب الشاعر عند ما شعر بالازورار واللعب والاستهزاء يصيبه منها ، وهنا بدأت تجربة الإخلاص ، لأنه بدأ يشعر خلالها بلذة قد تعوّض عليه ما فاته من حب ضائع ، إنه بقي يذكرها طول حياته . حين لم تحفظ ودّه ، وتغيرت عليه ، وأنزلت في قلبها منافسه . هذه الذكرى الدائمة الطويلة تمنح هذا الشعر الذاتي لوناً يحبه إلى نفوسنا ، ففيه الصدق ، وفيه شيء آخر ليس بالأنين الممض الذي اعتدنا سماعه من شعراء الغزل العذري ،

إنه بكاء ولكننا لا نسمع النحيب ، ولا تعترينا الكآبة . إنه شوق وطفة ، إنه شعر يرسم أجواء الماضي ... فخاصة غزل ابن زيدون في أنه يرسم لك ذلك الجو الضاحك الآفل ، فتنحسر عليه وتلهف .

ومن يسمع الأبيات الآتية يدرك معنا أنها تعبر عن هذه الحسرة وهذه اللفهة خير تعبير على رغم سذاجة المعاني التي تضمنتها ، يقول :

أضحى التنأى بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا
مَنْ مُبْلِغُ المُلْبِسِينَا بانتزاحِهِمْ حزنًا مع الدهر لا يبلى ويُبَلِينَا
أَنَّ الزمانَ الذي مازالَ يُضحِكنا أنسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عادَ يُبْكِينَا
غِيظَ العِدامِ نَسَاقِينَا الهوى فدَعَوَا بأنَّ نَغصَّ فقال الدهرُ آمِينَا

* * *

ياسارى البرقِ غادِ القصرَ واسقِ به مَنْ كانَ صِرْفَ الهوى والودِّ سَقِينَا
ويا نسيم الصَّبَا بلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ على القُرْبِ حَيًّا كانَ يُحِينَا

* * *

ياجنةَ الخلدِ أبدِنا بِسِدْرَتِها والكُوثرِ العذبِ زُقومًا وَغَسَلِينَا
كأننا لم نَبِتْ والوَصْلُ ثالِثنا والسَّعدُ قد غَضَّ مِنْ أَجفانِنا وَاشِينَا
سِرَّانِ في خاطرِ الظلماءِ يَكْتُمُنَا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفْشِينَا

* * *

هذه أبيات تقع في نفوسنا موقعاً حسناً ، فما هي هذه الأمور التي جعلتها مع باقي القصيدة تسهونا ؟ أهى المعاني ونحن نراها بسيطة ساذجة أكثرها مطروق ، أم هذه الديباجة السهلة ، البعيدة عن التكلف والصنعة ، أم هذه الموسيقى التي

تنساب خلال هذه الأبيات ، أم ما تحييه في نفوسنا من عواطف تتجاوب مع عواطف الشاعر ؟ والحق أن هذه القصيدة تكون عالماً شعرياً ، وإذا كان الشاعر لا يبلغ ذروة الشعر إلا عند ما يحقق ما يسمى بـ «التجاوب الموسيقي» ، فهذه القصيدة حققت هذا التجاوب ، لأنها رمتنا بلين ورفق في الجو الذي يتلهم له الشاعر ودوت موسيقاها في أجزاء نفوسنا ، وأملى علينا عاطفته ، وأسكرتنا بنشوته . وترانا ، بعد أن استطاعت هذه القصيدة تحقيق رسالة الشعر ، عاجزين عن تجزئة عناصرها الفنية التي اشتركت في إحداث هذه اللذة البديعية في نفوسنا ، فالعالم الشعري لا يمكن تجزئته ، ولهذا كان بعض نقادنا حينما يحاولون في تقديم هذه التجزئة يبتعدون عن فهم أسرار الجمال الشعري ويحصرون أنفسهم في دراسات بلاغية ضيقة .

لا شك في أن هذه القصيدة خير ما قاله ابن زيدون ، ولكن هل يقترب باقي شعره الذاتي من جمال هذه القصيدة ؟ يمكننا الإجابة على ذلك بالنفي إذا استثنينا قصيدته التي مطلعها «إني ذكرك بالزهراء مشتاقاً» وقصيدة أخرى أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد شاكياً سوء حظه وبعض المقطوعات والمطالع الغزلية . أما باقي شعره الذاتي فلا يبلغ هذه الإجابة المحلقة كما لا ينحدر إلى الإسفاف ، ولكنه يبقى صدى لتجاربه القلبية العنيفة ولما انتابه من ألم في سجنه وتقلب في أيامه فشكا الدهر ساخطاً حيناً ، مستعظفاً حيناً آخر . على أنه من الخير لنا ألا نبحث عن عبقرية ابن زيدون إلا في شعره الذاتي الذي عبر فيه عن هواجس قلبه وعمما جاش فيه من لواعج الحب والألم ، ففي هذا الشعر خضع لشرطه الأوحده الأوهو الإصغاء لحديث النفس وهمسات الفواد . ثم جاءت الألفاظ والأوزان والصور دون كد ، عفو البديهة والحاطر .

أما الوجه الثاني الذي تقنع به ابن زيدون فهو وجه شاعر البلاط ، فقد دفعه إلى هذا الموقف طموحه وظروفه فاتخذ له العدة اللازمة ورأيناه يخضع لصفات شاعر القصر ، بل لعله تدرّب عليها منذ نشأته ، فهو إلى جانب ميله الطبيعي إلى هذه الحياة المترفة ، يتمتع بثقافة شعرية ونثرية تجعل منه شاعراً ناثراً يستطيع

أن يشغل هذا المقام ، ولعل خطة الشعراء المداحين الشرقيين كالمثني مثلاً والمكانة التي تمتعوا بها كانت تغريه دائماً بالسير على مناجها وشروطها ، لذلك ذابت شخصيته في مدح الملوك الذين تقرب منهم طمعاً بالجاه لا طمعاً بالمال فأخذ يعدد فضائلهم على طريقة المداحين التقليديين في المشرق والمغرب ، ورأيناه يطلب عون بلاغته ولغته وفته فيأتيه طائعاً منقاداً ولكن العاطفة كانت تعوزه على الغالب . ومع هذا لا يمكننا أن نقول إنه قد هوى ، فقد استطاع أن يقوم بمهمة شاعر القصر خير قيام ، إذ لا شأن للعاطفة في هذا المضمار وإنما الشأن للبلاغة والمقدرة الفنية . وقد كان شاعرنا مالكاً زمامهما . ومن الخطأ أن نبحت عن أصالة ابن زيدون في إنتاجه الذي قاله بين أيدي الملوك فعبقرية شاعرنا لا تبدو واضحة إلا في شعره الذاتي ، ومهما تنوعت المدائح وصور هذا الشعر الرسمي فإننا نراها بعيدةً عن الجدة والطفرة راسفةً في قيود التقليد لا تختلف عن نمط الأبيات الآتية في مدح ابن جهور ، وهي أبيات لا نزعماً أنها تخلد الشاعر على الرغم من متانة أسلوبه فيها وقوة أسره للكلام :

أَشَارَحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مَعْمَسٌ وَعَامِرَ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابٌ^١
 مُحْيَاكَ بَدْرٌ وَالْبَدُورُ أَهْلَةٌ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبَحُورُ ثِغَابٌ^٢
 رَأَيْتُكَ جَارَاكَ الْوَرَى فَعَلَبَتْهُمْ كَذَلِكَ جَرَى الْمَذَكِيَاتِ غِلَابٌ^٣
 فَفَقَرْتُ بِهَا مِنْ أَوْلِيَائِكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابٌ

* * *

وبعد ، فشعر ابن زيدون يعكس بيئته ويمثل ميلها إلى اللهو والحجون وشرب

(١) الديوان ص ٤٥ ، معمس : خفى مبهم .

(٢) ثغاب : جمع ثغب وهو الغدير .

(٣) المذكيات : الخيل التي بلغت تمام السن ونهاية الشباب ، وفي المثل : « جرى المذكيات

غلاب » أي تغالب الجرى غلاباً .

الخمير ومجالسة النساء ، ولولا هذه البيئة لما استطاع - وهو الوزير - أن يجاهر بحبه هذه المجاهرة ، بل لعله استمد هذه الشجاعة من صراحة معشوقته التي صورت بيئتها ، هي أيضاً ، خير تصوير كما رأينا .

ولم يشذ شاعرنا عن عادات شعراء الأندلس في تأثرهم بالطبيعة فقد كانت الطبيعة مسرح حبه ، فإذا خلا إليها ذكّرتَه رياضها بنعيم ذلك الحب في ظلّاتها ، وكثيراً ما استمد معانيه وأخيلته الغزلية منها كما في هذه الأبيات :

يومٌ ، كأَيامِ لَدَاتِ لَنَا انصَرَمَتْ بِيَتْنَالِهَا ، حِينَ نَامَ الدَّهْرُ ، سُراقَا
نَلَهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ العَيْنَ مِنْ زَهَرٍ جَالَ النَّدى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
كَأَنَّ أَعْيُنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرْقِي بَكَتْ لِمَا بِي فِجَالَ الدَّمْعِ رَقْرَاقَا

فالتبيعة تثير في نفس شاعرنا معاني الهوى وتحرك لواعجه وتصل بينه وبين

الحبيبة :

الهوى في طلوع تلك النجومِ والمُنَى في هبوبِ ذاك النسيمِ

وإذا اضطرم الشوق في نفسه طلب إلى سارى البرق أن يباكر قصرها فيسقى

فيه من كان يسقيه الهوى الخالص ، وفي هذه المخاطبة تشخيص للطبيعة وامتزاج بها .

إنه ليمتزج بها عند ما يخال اعتلال النسيم شكواه فيقول :

ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلته شكواى رقت فاقترضت شكواك

وهكذا فالطبيعة والشاعر إلفان لا يفترقان ، والحب عنده أساس لتعلقه

بالطبيعة ، فيجعل الشاعر لحن المناجاة سبيلاً إلى تشخيصها والارتقاء في رحابها ،

وهو بهذا يقترب من بعض شعراء الرومانسيه الذين صوروا حُبهم في أحضان الطبيعة

ورشفوا في خمائلها الحب والحنان .

* * *

أما أسلوبه فهو ، على الجملة ، متين رصين في مدائحه ، رشيق في غزله .

وقد تحرر أحياناً من قيود القصيدة الجاهلية ، إلا أنه لم يستطع التخلي عن مطالعه الغزلية في المدائح ، وقد يدخل أحياناً في الموضوع مباشرة ، هذا في القصائد التي يستمد وحيها من قلبه والتي تدخل في نطاق الشعر الذاتي الغنائي .

وعلى الرغم من قلة اختراعه للمعاني ، فقد وفق في بعض معانيه الغزلية فألبسها ثوباً قشياً استمده من معين قلبه وخلجات عواطفه ، فبدت كأنها جديدة . ولكنه لم ينجح ، مع هذا ، من تكرار بعض المعاني فقاده هذا الأمر إلى الاستطراد .

ولعل أجمل ظاهرة فنية في شعره هي الموسيقى ، فتناغم الألفاظ وانسجام جرسها جعلاً لشعره وقعاً جميلاً وعدوبة في السمع ، ولعلّ صدق العاطفة وطبيعة الأندلس الحميلة وحفيف أشجارها وتغريد بلابلها قد اشتركت في إرهاف حسه الذوقى . وهذه الموسيقى الشعرية ، إلى جانب غيرها من المميزات ، حملت بعض الأندلسيين على تلقية ببحرى المغرب ، ورأينا بعض الأدباء المعاصرين يرون هذا الرأى — على الرغم مما بين الشاعرين من فوارق — ونحن لا نشك بموسيقا ابن زيدون ، إلا أننا نرى أن بين الشاعرين فرقاً كبيراً من حيث قوة الشاعرية ، ولئن اجتمعا بموسيقا الشعر في بعض القصائد فإنهما ليفترقان في نواح أخرى ، ومما لا شك فيه أن ابن زيدون قد فُتن بطريقة البحرى ولكنه ، على الرغم من ذلك ، فقد أكسبها شخصيته وصدَرَ في عامة صورّه عن نفسه وعبّر عن شعوره ، وهو في نظرنا صورةٌ صحيحة للشاعر الأندلسى بتحليقه وكبوته ، بحريته وعبوديته .

منزله :

أجمع النقاد على أن ابن زيدون شاعر من الطبقة الأولى من شعراء الأندلس ، فقد كان قوىّ أسر الكلام ، جيد التعبير الأدبى ، يشتد ويلين في ديباجته الشعرية حسبما يقتضيه القول ويدعو إليه الغرض .

وقد أعجب الأدباء والكتاب ، منذ القديم ، بروعة نظمه ورونق أساليبه ، ووجدوا لشعره موسيقا فيها الخفة والرشاقة فشبهوه بالبحرى . قال ابن بسام : « يقول

بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا ، وصدّقوا لأنه حدّا حدّو الوليد في بعض قصائده .

وقد رأينا أن لشعر ابن زيدون جرساً وانسياباً يذكرنا بجرس شعر البحترى وانسيابه ، وعذوبة موسيقاه .

وشعر ابن زيدون يدلّ ، فوق ذلك ، على أنه طُبع بالطابع العربية الأصيلة . وكان نتيجة لثقافة عربية متينة وتمرّس بشعر الأقدمين وتأليفهم ، ولذا جرى على الشائع المعروف من أساليبهم ، إلا أن شاعرنا استطاع أن يلبس أقواله شخصيته ويصدر فيها عن عصره ووحيه .

قال الدكتور شوقي ضيف : « وكان ابن زيدون يحسن ضرب الخواطر والمعاني القديمة أو الموروثة في عملة أندلسية جديدة ، فيها جمال الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته ... وابن زيدون من خير النماذج التي تكشف لنا الممتزعين ، فهو لا يخرج في شعره عن القواعد الموروثة ، وفي الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق في الحس والخمر واللذة . فاتصاله بالماضي لم يحل بينه وبين تصوير الحاضر الذي عاش فيه » (١) .

وإذا أردنا أن نصور هذه الحياة المنفعلة التي عاشها ، كان علينا أن نبحث عنها في شعر حبه وشكواه ، ففي هذا الشعر استطاع ابن زيدون أن يرسم لنا الهوى في عمق وعذاب وحرقة ، واستطاع أيضاً أن يدغدغنا في لحن من المناجاة والذكري ، تاركاً في نفوسنا أصداء مرتجفة مبهمة . وقصيدته النونية التي أشرنا إليها خير مثال لهذا الشعر الذي اعتصر فيه فؤاده ، وأودعه أسرار ألحانه الشجية .

وليكن ختام بحثنا هذه الأقوال التي تصوّر نواحي شعره وفنه وتفصح عن منزلته :

قال ابن بسام في كتابه « الذخيرة » :

« كان أبو الوليد — ابن زيدون — غايةً منشورٍ ومنظومٍ وخاتمةً شعراء مخزوم .

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤٠

أحد من جرّ الأيام جرّاً، وفاق الأنام طُراً، وصرف السلطان نفعاً وضراً، ووسّع البيان نظماً ونثراً. إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزهر اقترانه، وحظّ من النثر غريب المباني، شعريّ الألفاظ والمعاني.»

وقال الأستاذ كامل الكيلاني في بحث عن حياة ابن زيدون وأدبه نشره في مقدمة الديوان :

« ميزة ابن زيدون التي تكاد تفرده من شعراء العربية هي الفن . فهو شاعر فني قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكيماً أو غواصاً على المعاني أو وصّافاً . الفن وحده هو الذي أكسب ابن زيدون زعامة الشعر في عصره ، وأغرى فحول الشعراء في زمنه وبعد زمنه بمحاكاته والانصواء تحت رايته . »

وقال :

« إنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل إليك لسهولته أنك تحلق في أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضى والمجنون ، ثم تقرأ إخوانياته فيخيل إليك لاسترساله وافتنانه في ضروب القول ، أنك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهمزيتة المشهورة ، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف والتهكم ، أو رسائل المعري في سعة الإحاطة وكثرة الاستشهاد ، والولوع بالأمثال . »

وقال الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » :

« وكل قصائد ابن زيدون التي أرسلها يستعطف بها ابن جمهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور البؤس الذي حرّك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة المملوءة همماً وغمماً . ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من المعاني برسالته الجدية ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فإنه لم يخرج عن عاداته في ضروب الأمثال والفخر بنفسه ، وإنه أفضل إنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض . »

غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاّب ،

تظهر عليه سيما الابتكار والصدق في التعبير ، فإنه ليس من الخيالات الشعرية
الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملها عليه شعوره . «
وقال :

« وأقرب عبارته وصولاً إلى القلوب بكائه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان
فيه من النعيم . . . ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حيناً مؤملاً ، فإذا
قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنك واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي
وبكيت معه . »

وقال :

« إذا كان لابن زيدون ميزة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي
لم يسبق إليها ، وإنما هي في طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على
القلوب وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير
والأسلوب . ولقد يسمع الإنسان أنينه في شعره ، ويرى أنه الحزينة من خلال
كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق
ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . »

وقال في نثر ابن زيدون :

« لقد عرف ابن زيدون كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ،
بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره
ويرصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ،
واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة جميلة ، وكان
كالمهندس الماهر الذي يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان
الذي يؤلف بين اللون واللون . »

الفصل الرابع

مختارات من آثار ابن زيدون

١- الغزل

ذكري وحنين :

أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلًا مِنْ تَدَانِينَا وَنَابَ عَنِ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا^١
 أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَّحْنَا حَيْنٌ فِقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا^٢
 مَنْ مُبْلَغُ الْمُدْبِسِينَا بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْنًا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَاءً بِقُرْبِهِمْ قَدَ عَادَ يُبْكِينَا
 غِيظَ العِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى فِدَعَا بَأَنَّ نَغَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا^٣
 فَانحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا
 وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
 يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نَعْتَبْ أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ العُتْبَى أَعَادِينَا^٤
 لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيًا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
 مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرُّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا وَلَا أَنْ تَسْرُوا كَاشِحًا فِينَا^٥

(١) التناؤى : البعد وعكسه التدانى . التجافى : المقاطعة .

(٢) ألا : لغة فى هلا وهى كلمة تخصيص مركبة من هل ولا . الحين : الموت .

(٣) غص بالماء : شرق به .

(٤) نعتب : نرضى ، من العتبى وهى الرضا .

(٥) الكاشح : العدو .

* * *

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِينَا عَوَارِضَهُ
 بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا
 نَكَادُ ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا ،
 حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَامُنَا فَعَدَتْ
 إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا
 وَإِذْ هَصَرْنَا غُصُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً
 لِيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السُّرُورِ فَمَا
 لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
 وَاللَّهِ مَا طَلَبْتُ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا
 وَقَدْ يَعْسِنَا فَمَا لِلْيَأْسِ يُغَيِّرُنَا
 شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآقِينَا^١
 يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا^٢
 سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا^٣
 وَمَرْبَعُ اللَّهْوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
 قُطُوفُهَا فَجَنِينَا مِنْهُ مَا شِينَا^٤
 كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
 إِنْ طَالَ مَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحْبِينَا
 مِنْكُمْ وَلَا انْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* * *

يَاسَارَى الْبَرَقِ غَادِ الْقَصْرِ وَاسْقِ بِهِ
 وَاسْأَلْ هُنَالِكَ هَلْ عَنِّي تَذَكَّرْنَا
 مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا^٥
 إِفَاءً تَذَكَّرَهُ أَمْسَى يَعْنِينَا^٦

(١) بنتم : بعدتم . الجوانح : جمع جانحة وهي الضلع ، والمراد بالجوانح ما بداخلها من القلب والحشا . المآقي : العيون .

(٢) الأسى : الحزن . التأسى : التصبر والتعزى .

(٣) حالت : استحالت أى تحولت من حال إلى حال .

(٤) هصرنا : أملنا ، وهنا شبه الوصل بشجرة فالاستعارة مكنية . القطوف : الثمار التى تجنى

وتقطف . شينا : مخففة من شينا .

(٥) غاد : باكر .

(٦) عنى : شغل .

ويا نسيم الصبا بلِّغْ تَحِيَّتَنَا مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحِينَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْبًا تَقْاضِينَا^١

* * *

رَبِيبُ مُلْكٍ كَانَ اللهُ أَنْشَاءَهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وَتَوَجَّهَهُ مِنْ نَاصِعِ التَّبْرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينَا^٢
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَةً تُوْمُ الْعُقُودِ وَأَذْمَتُهُ الْبُرَى لِينَا^٣
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظُئْرًا فِي أَكْلَتِهِ بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا^٤
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِيهِ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيْذًا وَتَزْيِينَا^٥
مَاضِرًّا أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا

* * *

يا روضةً طالما أَجْنَتُ لَوَاحِظَنَا وَرَدًّا جَلَاهُ الصَّبَاغُضَا وَنِسْرِينَا^٦
ويا حَيَاةً تَمَلِّدُنَا بِزَهْرَتِهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلِدَاتٍ أَفَانِينَا^٧

(١) غباً : الغب في الزيارة الإقلال .

(٢) الورق : الفضة .

(٣) تأوَّد : تثنى . آدته : أثقلته . توْم : لآلى ، مفردها تومة وهي حبة من فضة ، وجمعها

توْم بفتح الواو وإسكانها . البرى : الخلاليل ، ومفردها البرة وهي حلقة الخلدال .

(٤) الظئر : المرصعة . أكلة : جمع كلة وهي ستر رقيق يوضع فوق الفراش .

(٥) التعويد : الرقية .

(٦) النسرين : نوع من الورد أبيض عطرى الرائحة .

(٧) تملينا : تمتعنا ونعمنا .

ويا نعيمًا خَطَرْنَا من غَضَارَتِهِ
 لَسْنَا نُسَمِّيكِ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
 إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِ كُنْتَ فِي صِفَةٍ
 فِي وَشَى نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا^١
 وَقَدْرِكَ الْمُعْتَلِيَّ عَن ذَاكَ يُغْنِينَا
 فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضْحَاحًا وَتَبِينَا

* * *

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبَدْنَا بِسِدْرَتِهَا
 كَأَنَّا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
 سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
 لَا غُرُوفِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحَزْنَ حِينَ نَهْتِ
 إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا
 أَمَا هَوَاكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
 لَمْ نَجْفُ أَفْقَ جَمَالٍ أَنْتِ كَوَكْبُهُ
 وَلَا اخْتِيَارًا تَجَنَّبْنَاهُ عَن كَثَبِ
 نَأْسَى عَلَيْكِ إِذَا حُثَّتْ مَشْعَشَعَةً
 لِأَكْوَسِ الرَّاحِ تَبَدَّى مِن شِمَائِلِنَا
 وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زَقُّومًا وَغَسَلِينَا^٢
 وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِينَا
 حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِينَا
 عَنْهُ النَّهْيَ وَتَرَ كُنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا^٣
 مَكْتُوبَةً . وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
 شَرِبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِينَا
 سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا^٤
 لَكِنْ عَدَّتْنَا عَلَى كُرْهِ عَوَادِينَا^٥
 فِينَا الشَّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا^٦
 سِيمَا ارْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا

(١) الغضارة النعمة وخفض العيش . الوشى : ثوب من الحرير منقوش .

(٢) السدرة : شجرة النبق وهي كبيرة عظيمة الظل ، الإشارة هنا إلى « سدرة المنتهى » . الكوثر :

نهر في الجنة . الزقوم والغسلين : من أطعمة أهل جهنم .

(٣) النهي : جمع نهية وهي العقل .

(٤) قالين : كارهين .

(٥) كَثَب : قرب . عدتْنَا : صرفتْنَا . العوادي : صروف الدهر .

(٦) الشمول : الخمر ، ومشعشة : ممزوجة بالماء .

دُومِي عَلَى الْعَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً ۱ فَا لِحُرِّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا ۱
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا ۲ وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَثْنِينَا ۲
وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ ۳ بِدِرِّ الدَّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا ۳
أَوْلَى وِفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْدُلِ صَلَاةً ۴ فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالذِّكْرُ يَكْفِينَا ۴
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ ۵ بِيضَ الْأَيْدَى الَّتِي مَازَلْتَ تُؤَلِّينَا ۵
عَلَيْكَ مِنِّي سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ ۶ صَبَابَةٌ مِنْكَ نُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا ۶

دراسة القصيدة

المناسبة :

جاء في الديوان أن ابن زيدون « كتب هذه القصيدة الفذة يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته ولادة بنت المستكفي أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة » . وقد نظم الشاعر هذه القصيدة فى الفترة التى تلت فراره من السجن ، أى بعد سنة ٤٣٣ هـ ، عند ما رحل إلى إشبيلية للمرة الأولى . وتراءى لنا خلال أبياتها عبقرية الشاعر الفذة ونضجه الشعرى بعد أن مرّ بتجربة السجن وآلامه وعذاب البعاد وأتراحه ، فجاءت عصارة نفس متألمة ، مقيمة على الحب ، لا تسلو ولا تنسى .

ولا جدال فى أن هذه القصيدة قد جمعت بين أفانين شتى من الإجابة

(١) دان : جزى

(٢) صبا : مال . يصبيننا : يستهويننا .

(٣) أولى : أنعمى .

(٤) نخفيها فتخفيننا : نسترها فتظهرنا ، أخفيت الشيء وخفيته بمعنى سترته وبمعنى أظهرته وهى

من الأضداد .

وعبرت عن عاطفة الشاعر الصادقة ونالت من الشهرة ما جعل كثيرين من الشعراء يعارضونها . فعارضها صفي الدين الحلبي والصفدي وأخيراً شوقي في قصيدته التي يحن فيها إلى وطنه ومطلعها :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم نأسى لوادينا
وقد قال عنها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان : « إنها قصيدة ضربت في
الإبداع بسهم ، وطالعت في كل خاطرٍ ووهَم ، ونزعت منزعاً قصراً عنه حبيبٌ
وابن الجهم » .

أقسام القصيدة ومعانيها :

تكاد تكون هذه القصيدة وحدة شعرية لا يخرج فيها الشاعر عن دائرة قلبه المحطم ، ولكن يمكننا أن نتبين بعض الفواصل في هذا الكيان الشعري المتماusk .

١- من البيت (١ - ١٩) وصفٌ لحال الحاضر ووصف للماضي ، ويتخلل هذا القسم أبيات تؤكد الوفاء والحب المقيم والتجلد على الواقع الأليم (الأبيات ٩ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩) .

٢- المناجاة وإشراك الطبيعة في إحساسه (٢٠ - ٢٣) .

٣- وصف المحبوبة (٢٤ - ٣٤) .

٤- عودة إلى المناجاة مع مقارنة الحاضر المقيم بالماضي الآفل وتأكيد للوفاء ينتهي إلى الاستعطاف والاستسلام لهدوء ذليل (٣٥ - ٥٠) .

١- يفتتح الشاعر قصيدته دون تمهيد ، ويقذف بنا في جو آلامه بوثة عاطفية تصور لنا حاله وما آل إليه . لقد أصبح قربه بعداً ، وأصبح الهجر والموت سواءً في نظره . ويود أن يُعلم ذلك الذي ألبسه حزنًا دائماً ببعده عن حبيبته ، يود أن يُعلمه أن ضحكته قد حال إلى بكاء ، وأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه وحقق لهم ما أرادوا من إيقاع بين حبيين ، فلم يعودا يرجوان التلاقي بعد أن كانا لا ينجشيان الفراق .

ثم ينتقل الشاعر إلى عرض ما يكنه من وفاء لولادة وبيثها آلامه ولوعته ، وبين في بيت جميل أن الحزن - لولا تأسيه - يكاد يقضى عليه . ويعود إلى وصف أيام هنائه وأنسه ويقارنها بحالته الراهنة مستعيناً بالصناعات العفوية التي يملئها الفن قدر ما يملئها القلب ، فأيامه الحاضرة سود بينما كانت ليليه معها بيضاء ينال من روضته ما يشتهي ويجنى من ثمرها ما يريد ، ولكن هذه الحسرة ما كانت تملئ عليه السخط والثورة ، بل يؤكد ، في ذل ، أن النأي لا يغيره ولن ينسى ذلك العهد الرطيب ، مهما خبت جذوة الحب في قلوب المحبين النائين فقد كنتم الرياحين لأرواحنا وما زلتم تلك الرياحين .

٢ - هذه الحسرة النائحة تقوده إلى المناجاة فيطلب من الطبيعة أن تشاركه في إحساسه ، ويخاطب سارى البرق أن يباكر قصرها فيجود أهله بغيثه اعترافاً منه له على ما أعطاه من حب ومودة ، ويحمل النسيم تحيته إلى تلك التي يحييه سلامها ، ويذكر خلال ذلك صوراً جميلة لماضٍ راحل وعهد حائل .

٣ - وذكر القصر يقوده إلى مَنْ يسكنه ، إلى هذا المحبوب الذى ليس كسائر البشر ، فهو صنيع الملوك وطينة من المسك ، وجسم من اللجين يكلله تاج من التبر هو ذاك الشعر الذهبى الذى كان يتوج رأس محبوبته . وأنت تلمح خلال هذا الوصف عبر القصور الملكية ، ورفاهة الحسان ، ونعيم السلطان ، فجمال المحبوب هنا ليس من الجمال الذى تضمه الشوارع ، وإنما جمال أرسقراطى تلمح خلاله ليونة النعيم وغضارته وتأود القد المرهف ورخصته ، حتى ليديمه مس العقود والمجوهرات .

٤ - وفي غمرة هذا الوصف يتلهف على ماضيه ويعود إلى المناجاة بلحن حزين فيندب تلك الجنة التى أبعد عنها ويحن إلى ذلك الكوثر العذب الذى أبدل به ماءً آجناً وغسليناً . وكم هى جميلة تلك القفزة فى الماضى يقفزها الشاعر ليحدثنا عن تلك العزلة التى كان يتمتع بها العاشقان وقد حالفهما السعد فكانا سريين مطويين فى خاطر الظلماء لا يفضحهما إلا لسان الصبح . نعم قد تكون الصورة قديمة فى بعض تفاصيلها كاستعارته اللسان للصبح ، إلا أننى أراها جديدة كل

الحدة في تركيبها وصدقها فقد استطاع الشاعر أن يعبر عن شخصين ماديين بكلمة معنوية جسدت الكتمان خير تجسيد ، ورسمت خلوة من خلوات الحب ، وآلف بين الصنعة والعاطفة خير تألف .

وتأتى بعد ذلك أبيات في المناجاة (البيت ٣٩ - حتى النهاية) ليس فيها ما يستدعى الوقوف ، ويبدو فيها أن الشاعر يلهث . على أن الخاتمة منطقية فيها نوع من الهدوء وكثير من الاستسلام ، وفيها تأكيد دائم على الوفاء يطلبه ممن أحب كما يطلبه من نفسه ، بل لعله لا يستطيع التخلي عن هذا الوفاء في الحب لأنه سبب من أسباب بقاءه . فليقنع بالقليل إذن ، وليودّعها وفي نفسه ذلةً وانكسار وفي الجحوى الذى خآتمه ارتجاف وحسرةٌ ورنين .

العاطفة والأسلوب :

إن الميزة التي تبدو في أسلوب ابن زيدون هي « الفن » فهو شاعر فنى قبل أن يكون حكيماً أو فيلسوفاً أو غواصاً على المعانى أو وصافاً ، وهذه الخصائص الفنية تتجلى على أصدق صورة في هذه القصيدة ، فألفاظها حلوة عذبة تتلقفها الأذن في لينٍ وَيُسْرٍ وتحدث في النفس في تأليفها وتنسيقها تناغماً وجِرساً يعكس عاطفة الشاعر ويعبر عنها خير تعبير ، ونرى أن أكثر الكلمات تتساند ويستدعى بعضها بعضاً ، ولئن كان الشاعر يلجأ إلى الطباق في العاطفة فإنه يلجأ إليه في اللفظ أيضاً ، لذلك رأينا هذه المزاوجة في المعانى والألفاظ ، وعلى هذه المزاوجة والمقابلة يقوم الكثير من جمال هذه القصيدة . ويكثر الشاعر من الألفاظ والأوزان التي تدل على المشاركة ليبين أن العاطفة هي في تجاوب مستمر ، فلا انفصام وإنما رجفة متصلة ، بين ماضٍ حبيب وحاضرٍ مؤلم . ومما يزيد في هذه الرجفة طولاً هو هذه القافية الممدودة وهذه (النونات الطويلة) التي تضيف إلى جرس القطعة أننا موسيقياً حزيناً .

وأكثر معانى القصيدة ينظر إلى معانى المشرقين ، ويدل على تعلق الأندلسيين بالشرق ، على أن معانى الغزل لم تتحرر من التقليد في الشرق والغرب ، وما فتئ

الشاعر يصف لنا ذل الغرام وقساوة المحبوبة ، غير أن واقعية التجربة الغرامية التي عاشها ابن زيدون سترت عنه الكثير من العيوب ، وجعلت القصيدة تستقى وحيها من نبضات قلب الشاعر ، وقد استطاع أن يؤلف بين هذه النبضات وبين الفن الذي تمليه عليه ثقافته وبيئته وعبوديته أحياناً . ومن هذه المعاني التقليدية مخاطبته للنسيم والدعاء بالسقيا ، إلا أن الشاعر استطاع أن يمنح عبارته فيها رنة الإخلاص ، فأحيا الطبيعة وجعلها إنساناً يشارك الشاعر آلامه ويشفق على المحبين المتباعدين .

ونجد أن أكثر أبيات القصيدة مشتملٌ على فنون البيان والبديع ، ولكنها ما كانت لتأتي متكلفة ، بل أحياناً ثبتت المعنى وأعطته نوعاً من التجسيم كقوله :

أَنَّ الزمانَ الذي مازال يُضحكنَا أنساً بقربكم قد عاد يُبكيُنَا

ففيه استعارة وطباق . وكقوله أيضاً :

وإذ هصرنا غصون الوصل دانيةً قطوفها فجنينا منه ماشينا

ففيه استعارة جميلة .

وفي استعماله « الوصل ثالثاً » كنايةٌ جميلة عن عزلتهما وخلوتهما عند ما يقول :

كأننا لم نَبِتْ والوصلُ ثالثنا والسعد قد غَضَّ من أجفانِ واشينا

سِرَّانِ في خاطر الظلماءِ يكتُمنا حتى يكادَ لسانُ الصبحِ يُفشيُنَا

وإننا نجد نفحة قرآنية في هذا البيت :

ياجنة الخلدِ أبدلنا بسِدْرَتِها والكوثر العذب زَقُوماً وغَسَلينا

وهذا النداء في « يا سارى البرق » وفي « يا روضة » و « يا حياة » و « يا نعيماً »

يزيد في لحن المناجاة .

على أن هناك أبياتاً ثقيلة على السمع ضعيفة الجرس كقوله :

مَنْ مَبْلِغُ الْمُدْبِسِينَا بَانْتِزَاحِهِمْ حُزْنَآمِعِ الدَّهْرِ لَايَبْلَى وَيُبْلِينَا
 أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا أَنْسَاءً بِقَرَبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
 فاستعماله « الملبسين حزناً » ثقيل على الأذن ، واستعماله لكلمة « حاشاك »
 في البيت الآتي حَشْوٌ بغيض :

ولو صَبَا نَحُونَا مِنْ عُلُوِّ مَطْلَعِهِ بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُصْبِينَا
 أضف إلى ذلك ابتدال المعنى في هذا البيت السابق . على أن القصيدة
 لا تضيئها هذه الهنات وهي ، بعد هذا كله ، فياضة بالألم ، حلوة الوقع في السمع ،
 موسيقية الجرس ، مفعمة بالحياة ، ترك في النفس صدى حزيناً .

ذكرى ولادة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة بعد خروجه من السجن وقبل العفو عنه يتشوق
 إلى حبيبته ويناجيها ويتلهف على لقائها :

إِنِّي ذَكَرْتُكَ بِالزَّهْرَاءِ مُشْتَاقًا وَالْأَفْقُ طَلَقٌ وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْرًا قَا
 وَللنَّسِيمِ اعْتِلَالٌ فِي أَصَائِلِهِ كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي فَاعْتَلَّ إِشْفَا
 وَالرَّوْضُ عَنْ مَائِهِ الْفِضْيُ مَبْتَسِمٌ كَمَا شَقَّتْ عَنِ اللَّبَّاتِ أَطْوَاقَا
 يَوْمٌ كَأَيَّامٍ لِدَاتٍ لَنَا أَنْصَرَمَتْ بِتْنَا لَهَا حِينَ نَامَ الدَّهْرُ سُرَّاقَا
 نَلَهُوْ بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهْرٍ جَالَ النَّدَى فِيهِ حَتَّى مَالَ أَعْنَاقَا
 كَانَ أَعْيْنَهُ إِذْ عَايَنْتُ أَرَقِي بَكَتْ لِمَا بِي فَجَالَ الدَّمُ مَعَ رَقْرَقَا

(١) راق : بمعنى أعجب .

(٢) اللبات : جمع لبة وهي موضع القلادة من الصدر . والأطواق : جمع طوق وهو ما يحيط
 بالعنق من الثوب ، والطوق أيضاً من الحلى .

وَرَدُّ تَأَلَّقَ فِي ضَا حِي مَنَابِتِهِ فَازْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى فِي الْعَيْنِ إِشْرَاقًا^١
 سَرَى يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبَقُ وَسَنَانَ نَبَهُ مِنْهُ الصَّبْحُ أَحْدَاقًا^٢
 كُلُّ يَهِيْجُ لَنَا ذِكْرَى تُشَوِّقُنَا إِلَيْكَ ، لَمْ يَعْذُ عَنْهَا الصَّدْرُ أَنْ ضَاقَا
 لَا سَكَّنَ اللَّهُ قَلْبًا عَنْ ذِكْرِكُمْ فَلَمْ يَطِرْ بِجَنَاحِ الشُّوقِ خَفَاقًا
 لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصَّبْحِ حِينَ سَرَى وَافَاكُمْ بِفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى
 لَوْ كَانَ وَفَى الْمُنَى فِي جَمْعِنَابِكُمْ لَكَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَنْخَاقًا
 يَا عِلْقِي الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِي إِذَا مَا اقْتَنَى الْأَحْبَابَ أَعْلَاقًا^٣
 كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوَدْمِ مُذْمَنٌ مِيدَانِ أَنْسٍ جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقًا
 فَالآنَ أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ سَلَوْتُمْ وَبَقَيْنَا نَحْنُ عُشَّاقًا

التعليق :

تصوّر هذه القصيدة فتنة الطبيعة وما يثيره جمالها من صور الحبيب وجماله في جوّ من الذكرى . ويقول الدكتور سيد نوفل عنها : إنها قصيدة « تموج فيها عاطفتان : عاطفة الماضي الجميل تكسبه الطبيعة الحلوّة مزيداً من الحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والكآبة . والشاعر إذا تحدث عن الماضي ابتسمت الطبيعة في طلاقة الأفق وصفاء وجه الأرض وابتسام الروض وطرب الزهر وتألق الورد وإشراق الضحى ، وإذا تحدّث عن الحاضر تمثل له في اعتلال النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمه الرقراق ، ونعاس النيلوفر ؛ وبذلك

(١) ضاحي المنابت : المنابت البارزة للشمس ، المرتفعة .

(٢) نيلوفر : نبات ينبت في المياه الراكدة ويورق على سطحها وله زهر يتفتح في النهار وينام

في الليل .

(٣) العلق : الشيء النفيس الذي يعلق . الأخطر : ذو الشأن والقيمة .

(٤) التجارى : التسابق . أطلاق : جمع طلق وهو الشوط في السباق .

يبدو اشتباك الطبيعة مع عواطف الشاعر التي يذكرها جو الذكرى باعثاً في النفوس
لحناً من الأسى والإشفاق والصدى العميق . (شعر الطبيعة في الأدب العربي
ص ٢٦٧) .

وقال مخاطباً ولادة :

يانازحاً وضميرُ القلبِ مثواهُ أنستكَ دنياك عبداً أنت دنياهُ
ألَهتكَ عنه فُكاهاتٌ تلذُّ بها فليس يَجْرِي ببالِ منك ذِكْرَاهُ
علَّ الليليَّ تُبْقيني إلى أمل الدهرُ يعلمُ والأيامُ معناهُ

مدام العيون :

قال ابن زيدون الأبيات الآتية يحن بها إلى ولادة ، وهي في مطلع قصيدةٍ
مدَّح بها أبا الوليد بن جهور عند ما اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه أبي الحزم بن
جهور سنة ٤٣٥ للهجرة :

ما لِلْمُدَامِ تَدِيرُهَا عَيْنَاكَ فيمِيلُ في سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكَ
هَلَّا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكَ سُلَافَهَا بِرُودِ ظَلْمِكَ أَوْ بَعْدِ لَمَاكَ^١
بل ما عليكِ وقد مَحَضْتُ لَكَ الهَوَى في أَنْ أَفُوزَ بِحُظُوتِ الْمِسْوَاكَ^٢
ناهيكِ ظُلْمًا أَنْ أَضْرَبَ بي الصدى بِرَحًا وَنَالَ البرءَ عُوْدُ أَرَاكَ^٣
واهاً لِعِطْفِكَ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا صَبِغَتْ غَضَارَتُهُ بِبُرْدِ صِبَاكَ^٤

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان . وبرود : بارد . اللمى : سمة في الشفة .

(٢) محضت : أخلصت . المسواك : جمعه مساويك وهو عود تطهر وتنظف به الأسنان .

(٣) الصدى : العطش . البرح : الشدة والمشقة .

(٤) الغضارة : المهجة .

والليلُ مهما طالَ قَصَرَ طَوْلُهُ هاتى ،وقد غَفَلَ الرقيبُ ،وهاك
ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلتهُ شكواى رقت فاقترضتُ شكواك
إن تَأَلَّفى سِنَةَ النوومِ خَلِيَّةً فلطالما نافرَتِ فى كَرَاكِ^١
أو تَحْتَبى بالهجرِ فى نادى القلى فلكم حَلَلتِ إلى الوصالِ حُباكِ^٢
أما مُنى نفسى فأنتِ جميعها يا ليتنى أَصَبحتُ بعضَ مُناك
يدنو بوصلِكِ حينَ شَطَّ مزارُهُ وهُمُّ أكادُ به أُقْبَلُ فاكِ^٣
ولئن تجنَّبتُ الرشادَ بِغَدْرَةٍ لم يَهوِ بى فى الغى غيرُ هَواكِ

لهفة محب :

نظم الشاعر هذه المقطوعة بعد أن هجرته حببته ، وفيها يتلهف لو تعود إلى
الوصل ، قال :

إليكِ من الأنامِ غداً ارتياحى وأنتِ على الزمانِ مَدَى اقتراحى
وما اعترضتُ همومُ النفسِ إلا ومن ذِكراكِ رِيحانى وراحى
فديتكِ إنَّ صَبْرى عنكِ صَبْرى ،لدى عَطَشى ،على الماءِ القَرَّاحِ^٤
ولى أَمَلٌ لَوِ الواشونَ كَفُوا لأَطْلَعُ غرْسُهُ ثمرَ النَّجَاحِ
وأعجبُ كيفَ يَغْلِبُنى عدو رِضاكِ عليه من أَمْضى سلاحِ^٥

(١) ذافر هنا بمعنى عادى . الكرى : النوم

(٢) احتبى : اشتغل بالثوب ، من الحبوة وتجمع على حبى . القلى البغض الشديد .

(٣) شط : بعد .

(٤) القراح : الصافى .

(٥) يريد بالعدو منافسه ابن عبدوس .

ولمَّا أَن جَلَّتْكَ لِي اخْتِلاَسًا ۱ أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَّاحِ ۱
 رَأَيْتَ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابِ ۲ وَغُصْنَ البَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحِ ۲
 فلو أُسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ شَوْقًا ۳ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الجِنَاحِ
 على حَالِي وَصَالِ واجْتِنَابِ ۴ وفي يَوْمِي دُنُوٌّ وانْتِزَاحِ
 وحسبي أَن تَطَالِعَكَ الأَمَانِي ۵ بأُفُقِكَ فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحِ
 وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَى غَيْبًا ۶ وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ ۳
 فوَادِي مِنْ أَسَى بكَ ، غَيْرُ خَالٍ ۷ وَقَلْبِي عَنْ هَوَى لِكَ غَيْرُ صَاحِ

وداع :

في هذه المقطوعة لحن حزين يعبر الشاعر فيه عن يأسه بعد أن هجرته صاحبتة
 وأصبح في شقاوة اليأس وفراغ الدنيا ، يقول :

لئن قَصَّرَ اليأسُ مِنْكَ الأَمْلُ ۱ وَحَالَ تَجَنُّبِكَ دُونَ الحِيلِ ۱
 وناجَاكَ ، بالإفكِ ، فِي الحَسُودِ ۲ فَأَعْطَيْتِهِ - جَهْرَةً - مَا سَأَلَ ۲
 وراقِكَ سِحْرُ العِدَى المُفْتَرَى ۳ وَغَرَّكَ زُرُومُ المُفْتَعَلِ ۳
 فَإِنْ ذِمَامَ الهوى لَنْ أزالَ ۴ أَبْقِيَهُ حِفْظًا كَمَا لَمْ أزالَ
 فديتُكَ إِنَّ تَعْجَلِي بِالْجَفَا ۵ فَقَدِيهَبُ الرِّيثِ بَعْضُ العَجَلِ ۵

(١) الحين : الهلاك .

(٢) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

(٣) غيباً : حيناً بعد حين .

(٤) الإفك : الكذب .

(٥) في هذا البيت تضمين للمثل المشهور : « رب عجلة تهب ريثاً » والريث : البطء .

علامَ اطَّبتكِ دواعي القلي؟
 ألمَ أَلزمِ الصبرَ كما أَخِفَّ
 ألمَ أَرَضَ منكِ بغيرِ الرُّضا
 ألمَ أَعْتَفِرُ موبقاتِ الذنوَ
 وما ساءَ ظَنِّي في أَنِّ يسيءُ
 على حينِ أَصَبَحْتَ حَسْبَ الضميرِ
 سعيتِ لتكديرِ عهدِ صفا
 فما عُوْفِيَتْ مِقْتِي من أذى
 ومهما هَزَزْتُ إِلَيْكَ العِسا
 كأنكِ ناظرتِ أَهلَ الكلامِ
 ولو شئتِ راجعتِ حُرَّ الفَعَالِ
 فلم يَكُ حَظِّي مِنْكَ الأَخَسَّ
 عليكِ السلامُ سلامُ الوادِعِ
 وما باختيارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ
 وفيمَ ثَنَّتْكِ نواهي العَدَلِ؟
 ألمَ أَكْثِرَ الهجرَ كَيَّ لا أُمَلِّ
 وأبدي السرورَ بما لم أَنلِ
 بِ عَمَدًا أَتَيْتِ بها أَم زَلَلِ؟
 بيَ الفَعْلَ حُسْنُكَ حتى فَعَلُ
 ولم تَبِعِ مِنْكَ الأمانِي بَدَلُ
 وحاولتِ نَقْضَ وِدَادِ كَمَلُ
 ولا أُعْفِيَتْ ثِقْتِي من خَجَلِ؟
 بِ ظاهَرَتْ بينِ ضُرُوبِ العِلَلِ
 وأوتيتِ فهِمًا بعِلْمِ الجَدَلِ
 وَعُدَّتِ لَتلكِ السجايا الأَوَّلِ
 ولا عُدَّ سَهْمِي فيكَ الأَقْلِ
 وَدَاعِ هَوَى مات قَبْلَ الأَجَلِ
 ولكنني مُكْرَهُ لا بَطْلُ

(١) اطبتك : استأنتك .

(٢) موبقات : مهلكات .

(٣) المقه : الحب .

(٤) ظاهر : طابق .

(٥) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .

(٦) تضمين للمثل المشهور : « مكره أخاك لا بطل » يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه ولا في

ولم يدْرِ قلبِي كيفَ النزوعُ إلى أنْ رأى سيرةً فامثِل
وليتَ الذي قادَ عفواً إليكَ أبايَ الهوى في عِنانِ الغزلِ
يُحيلُ عذوبةَ ذاكَ اللَّمى ويشفي من السُّقمِ تلكَ المُقل

وقال :

أني أُضيعُ عهدَكَ ؟ أم كيفَ أخلفُ وَعْدَكَ
وقد رَأَتكَ الأمانى رِضىً ، فلم تتعدَّكَ
يا ليتَ مالِكَ عندي من الهوى ليَ عندي !
فطال ليكَ بَعدي كطولِ ليلي بَعْدَكَ
سَلنى حياتي أهبها فلستُ أملكُ رَدَّكَ
الدهرُ عبدي ، لما أصبحتُ في الحُبِّ عبْدَكَ

وقال :

أرخصتني من بَعْدِ ما أغديتني وحططتني ولطالما أغديتني
بادرتني بالعزل عن حطط الرضا ولقد محضت النصح إذ وكَّيتني
هلاً ، وقد أغدقتني شرك الهوى ، عللتني بالوصل أو سلَّيتني
الصبرُ شهدهُ عندما جرَّعتني والنارُ برَّد عندما أضدَّيتني
كنتِ المنى فأذقتني غصص الأذى يا ليتني ما فهتُ فيك : بليتني

لا أهل ولا وطن (١) :

وقال ابن زيدون هذه الأبيات وهي من أشجى مقطوعاته في مناجاة حبيبته والشوق إلى مواطنيه وقد قالها نائياً عن أهله ، بعيداً عن قرطبة :

هل تذكرون غريباً عادته شجنٌ من ذكركم وجفاً أجفانه الوسن^٢
يخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن^٣
يا ويلتاه! أيبقى في جوازجه فواده، وهو بالأطلال مرتهن^٤؟
وأرق العين، والظلماء عاكفة^٥ ، ورقاء، قد شفاها، إذ شفى حزن^٦
فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن^٧

ياهل أجالس أقواماً أحبهم؟ كنا وكانوا على عهدٍ فقد ظعنوا^٥
أو تحفظون عهداً لا أضيعها إن الكرام بحفظ العهد تمتحن^٦

ومنها :

إن كان عادكم عيدٌ فرب فتى بالشوق قد عادته من ذكركم حزن^٥
وأفردته الليالي من أحبته فبات ينشدها، مما جنى الزمن :
« بسم التعلل؟ لا أهل، ولا وطن^٥ ولا نديم^٥ ، ولا كأس ، ولا سكن ! »^٦

(١) لم ترد هذه القصيدة بالديوان ، وقد أثبتناها عن المعجب .

(٢) الشجن : الحزن ، الوسن : النوم .

(٣) ورقاء : حماسة ، شفاها الحزن : أضعفها وأنحلها .

(٤) الأيكة : الشجرة الضخمة أو الأجمة بجوار الماء ، يهفو : يتحرك ويتمايل .

(٥) ظعنوا : رحلوا .

(٦) تمتحن : تختبر .

(٧) اقتبس الشاعر البيت من مطلع قصيدة للمتنبي . السكن : ما يسكن إليه الإنسان من أهل

ومال وغير ذلك ، ويطلق في الغالب على الزوجة أو الحبيبة .

٢ - الشكوى والاستعطاف

لوعة في السجن :

نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ، وهو في السجن ،
وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب أبي حفص بن بُرد :

ما عَلَى ظَنِّي بِأَسْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُوا^١
رَبِّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرِّ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُ
وَلَقَدْ يُنْجِيكَ إِغْفَا لٌ وَيُرْدِيكَ احْتِرَاسُ^٢
وَالْمَحَازِيرُ بِسِهَامٍ وَالْمَقَادِيرُ قِيَّاسُ^٣
وَلَكُمْ أَجْدَى قُعُودٌ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَّاسُ^٤
وَكَذَا الدَّهْرُ ، إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسٌ
وَبَنُو الْأَيَّامِ أَخْيَا فُ : سَرَاةٌ وَخِسَاسُ^٥
نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مَتَعَةٌ ذَاكَ اللَّبَّاسُ
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَا وَكَ فِي فَهْمٍ إِيَّاسُ^٥

(١) ياسو : يأسو يداوى .

(٢) قياس : هنا جمع قوس .

(٣) أجدى : أغنى وأفاد ، أكدى : أخفق .

(٤) أخيف : مختلفون ، قال بعضهم : « الناس أخيف وشي في الشيم » .

(٥) هو إياس بن معاوية من قضاة العراق في عصر بني أمية وكان يضرب به المثل في الذكاء والفهم ،

وعناه أبو تمام في قصيدته التي يمدح بها أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

مِنْ سَنَا رَأَيْكَ لِي فِي غَسَقِ الْخَطْبِ اقْتِبَاسٌ^١
 وَوَدَادِي لَكَ نَصٌّ لَمْ يُخَالِفْهُ الْقِيَاسُ
 أَنَا حَيْرَانٌ وَلِلَّامِ رُوضُوحٌ وَالتَّبَاسُ
 مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنْ الْعَهْدِ وَخَاسُوا^٢
 وَرَأَوْنِي سَمَامِرِيًّا يَتَّقَى مِنْهُ الْمِسَاسُ^٣
 أَذُوبُ هَامَتْ بِلَحْمِي فَانْتَهَاشُ وَانْتِهَاسُ^٤
 كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذَّئِبِ اعْتِسَاسُ^٥
 إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلِئِمَّا ۚ مِنْ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ^٦
 وَلئنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُوبًا فَلِلغَيْثِ احْتِبَاسُ
 يَلْبِدُ الْوَرْدُ السَّبْنَتِي وَلِهْ بَعْدُ افْتِرَاسُ^٧
 فَتَأَمَّلْ كَيْفَ يَغْشَى مَقْلَةَ الْمَجْدِ النُّعَاسُ
 وَيُفْتِ الْمِسْكَ فِي التُّرْبِ بِفِيْوَطَا وَيُدَاسُ
 لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًّا إِنْ عَهْدِي لَكَ آسُ^٨

(١) سنا : ضوء . غسق : ظلمة .

(٢) خاسوا : خاذوا .

(٣) السامري : كان من قوم موسى ، فعبد العجل وتحاماه الناس ، وقصته مشهورة في القرآن

الكريم .

(٤) الانتهاس : الغض .

(٥) الاعتساسة : طلب الصيد بالليل .

(٦) انبجس : نبع .

(٧) يلبد : يلصق بالأرض . الورد : الأسد . السبنتي : الجريء .

(٨) لا يكن عهدك سريع الذبول كالورد فإن عهدي كالآس لا يذبل .

وَأَدِرُّ ذِكْرِي كَأْساً مَا أَمْتَطْتُ كَفِّكَ كَأْسُ
 وَاغْتَنِمِ صَفْوَةَ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
 وَعَسَى أَنْ يَسْمُحَ الدَّهْرُ فَقَدْ طَالَ الشَّمَّاسُ^١

ألم وشكوى :

نظم ابن زيدون في فاتحة سجنه هذه القصيدة يعاتب فيها أبا الحزم بن جهور ويدفع عن نفسه التهمة متضرعاً في إباء ، مستعطفاً في حرقة . وإنك لتشعر خلال هذه الأبيات بألم الشاعر الذي أعيته المحنة ، ولكنه بقي متجلداً ، مدركاً لمزاياه ، غير مسترسل في مدح ابن جهور إلا من خلال نفسه التي أمضتها السجن وآذاها ، قال :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلَتِ النَّصْلِ^٢
 وَهَلَّا أَقَامَتْ أَنْجَمُ الدَّلِيلِ مَأْتَمًّا لَتَنْدُبَ فِي الْآفَاقِ مَاضِعَ مَنْ نُبُلِي
 وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الدُّلِّ لَمَارَاتِ ذُلِّي
 وَلَا فَتَرَقَتْ سَبْعُ الثَّرِيَّا وَغَاطِظَهَا بِمَجْمَعِهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي
 لَعَمْرُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرُطَسْتُ بِالنَّبْلِ فِي مَوْضِعِ النَّبْلِ^٣
 تَحَلَّتْ بِآدَابِي ، وَإِنْ مَارَبِي لَسَانِحَةٌ فِي عَرَضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ
 أَخَصُّ لِفَهْمِي بِالْقَلْبِ وَكَأَنَّمَا يَبِيْتُ لِيذِي الْفَهْمِ الزَّمَانَ عَلَى ذَحْلِ^٤

(١) الشَّمَّاسُ : التمرد والنفور . سَمِحَ الرَّجُلُ وَأَسْمَحُ : اتصف بالجوهر والسهولة واليسر .

(٢) مُنْصَلَتٌ : ماضٍ قاطع .

(٣) النَّزْعُ : الرمي بالسهام والنبال . قَرُطَسْتُ : أصابت .

(٤) الذَّحْلُ : الثَّأْرُ .

وَأَجْفَى عَلَى نَظْمِي لِكُلِّ قِلَادَةٍ مَفْصَلَةِ السَّمْطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ
 وَلَوْ أَنِّي أَطِيعُ كَمَا أُرْضَى الْعِدَا شَرَيْتُ بِيَعْضِ الْحَلْمِ حِظًّا مِنَ الْجَهْلِ
 أَمْ مَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَاءِ أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَبْلِي ١
 أَقْلَى بَكَاءٍ لَسْتَ أَوْلَ حُرَّةٍ طَوَتْ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضْفُضِ الشُّكْلِ ٢
 وَفِي أُمَّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَأَسْئَلِي ٣
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكْمٍ عَدْلٍ ٤
 وَإِنْ رَجَائِي فِي الْهَمَامِ بْنِ جَهْوَرٍ لَمْ سَتَحْكِمِ الْأَسْبَابِ مُسْتَحْصِدِ الْحَبْلِ ٥
 كَرِيمٌ عَرِيقٌ فِي الْكِرَامِ وَقَلَمًا يُرَى الْفَرْعُ الْإِمْسْتِمِدَّ مِنَ الْأَصْلِ
 نَهَوْضٌ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالتَّقَى سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمَلِيمُ فَإِنَّهُ وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوضَحُ بِالشُّكْلِ
 يَرِفُّ عَلَى التَّامِيلِ لِأَلَاءِ بَشَرِهِ كَمَا رَفَّ لِأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ ٦
 مُحَاسِنٌ مَا لِلْحُسْنِ لِلْبَدْرِ عِلَّةٌ سَوَى أَنَّهُ بَاتَتْ تَمِلُّ فَيَسْتَمَلِي ٧

(١) الخطاب هنا لأمه ، وقد زارته في السجن فبكت .

(٢) الكشح : الخاصرة ، وطوى كشحاً عن فلان أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالتميه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك » ، فألقته فالتقطته امرأة فرعون ، والشاعر يطلب أن تعتبر بهذه القصة وتصبّر .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلأأ ويبرق .

(٧) تمل مضارع أمل ، يقال أملاه القول وأمله ألقاه عليه ليكتبه ، والمعنى : هذه محاسن للمدوح الشبيهة بالبدر لا عيب فيها سوى أنها باتت تمل على الشاعر وهو يكتب ويستكتبها فتمليه .

وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ اِكْتِفَاءً بِسُرُوبِهَا غِنَى الْمَقْلَةِ الْكِحْلَاءِ عَنِ زِينَةِ الْكُحْلِ^١
 أَبَا الْحَزْمِ إِنْ فِي عَتَابِكَ مَائِلٌ عَلَى جَانِبِ تَأْوِيٍّ إِلَيْهِ الْعُلَا سَهْلٌ
 حَمَائِمٌ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا تَنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آدَابِي الْهُدْلِ^٢
 جَوَادٌ إِذَا اسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى تَمَطَّرُ فَاسْتَوَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ^٣
 ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبِطِ الْهُونِ يَشْتَكِي بِتَضَاهَالِهِ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّكْلِ^٤
 أَفَى الْعَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكْنِ وَضْعَ الْهَافِي يَدَى عَدْلٍ
 أَعِدُّكَ لِلْجَلِيٍّ وَأَمَلٌ أَنْ أُرَى بِنِعْمَاكَ مُوسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
 وَمَا ذَاكَ وَعَدُّ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شِمْتُ بَارِقَةَ الْمُحْلِ
 أَئِنَّ زَعَمَ الْوَاشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُنِي نَضْرِيٍّ وَتُعَذِّرُنِي خَذْلِيٍّ^٥
 وَأَصْدَى إِلَيَّ إِسْعَافِكَ السَّائِغِ الْجَنَى وَأَضْحَى إِلَيَّ إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ
 وَلَوْ أَنَّنِي وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً لَمَا كَانَ بَدْعًا مِنْ سَجَايَاكَ أَنْ تُمْلِيَّ^٦
 فَلَمْ اسْتَشْرُ حَرْبَ الْفِجَارِ وَلَمْ أُطِغْ مُسَيْلِمَةً إِذْ قَالَ: إِنْ مِنْ الرَّسْلِ^٧
 وَمِثْلِي قَدْ تَهَفُوْا بِهِ نَشْوَةَ الصَّبَا وَمِثْلِكَ مَنْ يَعْفُوْا وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلِ

(١) السرو : الشرف .

(٢) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام . والهدل : جمع أهدل وهو صفة الأفنان من تهدلت أى تدلت .

(٣) استن الجياد : مضت مسرعة في السابق ، تمطر : أنصت . استولى على أمد الخصل : كناية عن إحراز قصب السبق .

(٤) الصافن من الجياد : الذى قام على ثلاثة قوائم ولوى الرابعة . الشكل : شد قوائم الدابة بالشكال .

(٥) تعذر الأولى : تفقد العذر ، وتعذر الثانية : تجد العذر .

(٦) واقعت : دانيت . تملى : تمهل ولا تتعجل العقوبة .

(٧) كانت هذه الحرب في الجاهلية بين قريش وقيس وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

وإني لتنهاني نُهاىَ عن التى
 أَفْقُضُ فيك المدح من بعدِ قُوَّةِ
 أَشَادُ بها الواشى وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي^١
 فَلَأَقْتَدِي إِلا بِنَاقِضَةِ الغَزَلِ^٢
 ذِمَّتُ إِذَا عَهْدَ الحِياةِ وَلَا يَزَلُ^٣
 وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدِي إِلى السُّودِّ دِالِخَنَا
 وَمَالِي لَا أَتْنِي بِآلَاءِ مُنْعَمِ
 هِيَ النِّعْلُ زَلَّتْ بِي فَهَلْ أَنْتُ مُكْذِبُ
 أَلَا إِنَّ ظَنِّي بَيْنَ فِعْلِكَ وَاقِفُ^٤
 فَنَ تُمْنَلِي مِنْكَ الأَمَانِي فَشِيمَةُ^٥
 لِذَلِكَ الفِعَالِ القَصْدِ وَالخُلُقِ الرَّسْلِ^٥
 وَإِلا جَنَيْتُ الأُنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى
 وَهَوْلِ السَّرَى بَيْنَ المِطِيَةِ وَالرَّحْلِ^٦
 سَيُعْنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظُ^٦
 وَيُلْتَقِي لَمَّا أَرَخَصْتَ مِنْ خَطَرِي مُغْلِي
 وَأَيْنَ جَوَابُ مِنْكَ تَرْضَى بِهِ العُلا
 إِذَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أَلْسَنَةُ الحَفْلِ

لا يهنا الشامت :

وقال أيضاً هذه الأبيات ، من قصيدة كتبها إلى أبي الحزم بن جمهور في السجن ، يعبر فيها عن ألمه وقلقه وعذابه ويشيد بشعره ويحاول أن يتأسى بصروف الأيام . قال بعد مقدمة غزلية تحدث فيها عن أرقه وسهاده لهجر حبيبته :

(١) يعقلني : يحبسني ويمعني .

(٢) يشير إلى الآية الكريمة « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .

(٣) ممرأ من أمر الطعام صيره مرأ .

(٤) الحسل : الحسة والدناءة ، وبكسر الحاء : ولد الضب .

(٥) الرسل : السهل والطلق .

(٦) يشير إلى أنه سيرحل إن أطلقه ولم ينله أمنيته .

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدْهَا
 لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شِبَابِي كَبْرَةً وَأَرَى
 قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدَ الصَّبَا كَثَبٌ
 هَا إِنَّهَا لَوَعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ
 لَا يَهْنَأُ الشَّامِتَ الْمُرْتَا حَ خَاطِرُهُ
 هَلِ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ
 إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيدَاعِي فَلَا عَجَبٌ
 وَإِنْ يُثَبِّطُ أَبَا الْحَزْمِ الرُّضَا قَدَرٌ
 مَا لِلذَّنُوبِ ، الَّتِي جَانِي كِبَائِرِهَا
 مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأَنِّيهِ عَلَى ثِقَةٍ
 ذُو الشِّيمَةِ الرَّسَلِ إِنْ هِيجَتْ حَفِيظَتُهُ
 وَزِيرُ سِلْمٍ كَفَاهُ يَمُنُّ طَائِرِهِ
 أَغْنَتْ قَرِيحَتُهُ مَغْنَى تَجَارِبِهِ
 مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْخَبَرِ
 بَرَقَ الْمَشِيبَ اعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرَا
 وَلِلشَّبِيبةِ غُصْنٌ غَيْرٌ مُهْتَصِرٌ
 نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبي طَائِرُ الشَّرَرِ
 أَنِّي مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ
 أَمْ الْكُسُوفُ لغيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
 قَدْ يُوَدِّعُ الْجَفْنَ حَدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 عَنِ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبَ عَلَى الْقَدَرِ
 غَيْرِي ، يُحْمِلْنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي ؟
 وَلَمْ أَزَلْ مِنْ تَجَنِّيهِ عَلَى حَذَرِ
 وَالْجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ الْيَسْرِ
 شَوْمَ الْحُرُوبِ وَرَأَى مُحْصَدُ الْمِرْرِ
 وَنَابَتِ اللَّمْحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفِكْرِ

(١) العارض : صفة الخلد .

(٢) كَثَب : قريب . مهتصر : مائل .

(٣) نجم الأرض : ما نجم على وجهها من النبات ولم يقيم على ساق ، وهذا البيت تعليل للبيت السابق أي لا تفرح أيها الشامت فالرياح لا تعصف إلا بما له ساق من النبات والكسوف لا يكون لغير الشمس والقمر .

(٤) الوزر : الملجأ ويقصد أبا الحزم .

(٥) الشيمة الرسل : السمحة . المستعتب : مصدر ميمي بمعنى الاستعتاب وهو الاسترضاء .

اليسر : السهل .

(٦) المرر : جمع مرة وهي قوة الخلق وشدته ، ومحصد : قوى متين .

قد كنتُ أَحْسَبُنِي والنجمَ في قرانٍ
 أحينَ رفًّا على الآفاقِ من أدبي
 وسيلةٌ سببٌ إلا تكن نسباً
 وبائن من ثناءٍ حسنه مثلٌ
 يُستودعُ الصُّحفَ لا تخفى نوافجه
 لي في اعتمادك بالتأميل سابقه
 ففيمَ غَضَّتْ همومي من علاهمي
 هل من سبيل ، فماء العتب لي أسنٌ ،
 نذرتُ شكرَكَ لا أنسى الوفاءَ به
 لا تله عني فلم أسألكَ مُعتسِفاً
 هبني جهلتُ فكان الصنعُ سيئةً
 إن السيادةَ بالإغضاءِ لابسَةٌ
 ففيمَ أَصْبَحْتُ منحطاً إلى العفرِ^١
 غرسٌ له من جناهُ يانعُ الثمرِ^٢
 فهو الودادُ صفاً من غير ما كدر
 وشيُّ المحاسنِ منه مُعلمُ الطررِ^٣
 إلا خفاءً نسيمِ المسكِ في الصررِ^٤
 وهجرَةٌ في الهوى أُولَى من الهجرِ
 وحاصٌ بي مَطْلبي عن وجهه الظفرِ^٥
 إلى العذوبةِ من عُتباك والخصرِ^٦
 إن أسفرتُ لي عنها أوجهُ البشرِ^٧
 ردَّ الصبا بعد إيفاءٍ على الكبرِ^٨
 لا عذرَ منها سوى أني من البشرِ
 بهاءها ، وبهاء الحُسنِ في الخفرِ

(١) العفر . التراب .

(٢) رف النبات : اهتز .

(٣) الطرر : جوانب الثوب ، ومعلم الطرر : المميز بعلامات دالة .

(٤) النوافج : جمع نوافجة وهي وعاء المسك . الصرر : جمع صرة وهي الكيس .

(٥) حاص . مال .

(٦) العتبي : الرضا . الخصر : البرودة . يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذي يشبه الماء العذب

الخصر فإن ماء العتب أصبح أسنا كدرا .

(٧) الضمير في « عنها » عائد إلى العتبي ، والبشر : جمع بشري .

(٨) أي لم يعتسف في السؤال ولم يطلب مستحيلاً ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد توفى على

المشيب .

فاشْفَعُ أَكُنْ مِثْلَ مَمْطُورٍ بِبِلْدَتِهِ جَذْلَانِ بِالْوَطَنِ الْمَأْلُوفِ وَالْوَطْرِ
وَالْبَسْ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءِ أَيَكْتَتَهَا ظِلًّا حَرَامًا عَلَى الْآفَاتِ وَالْغَيْرِ
نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا إِنَّ هِيَ أَنْصَرَمَتْ نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَاتِ وَالنَّهْرِ

* * *

أَيْنَ أَيَّامُنَا ؟

قال ابن زيدون هذه الأبيات من قصيدة كتبها إلى صديقه أبي القاسم بن
رفق يعاتبه ويذكر فيها أيامه الماضية معه ويصف خلالها بعض مشاهد الطبيعة :

عِذْرِي ، إِنْ عَذَلْتِ فِي خَلْعِ عُدْرِي ،
غُصْنٌ أُمِرْتُ ذُرَاهُ بِبَبَدْرٍ^١
هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَهْطَرًا وَتَجَانَى عَنِ الْوِشَاحِ بِشَطْرِ
رَشًّا أَقْصَدَ الْجَوَانِحَ قَصْدًا عَنِ جَفُونِ كُحْلِنَ عَمْدًا بِسِحْرٍ^٢
كُسِي الْحَسَنَ فَهُوَ يَفْتَنُ فِيهِ سَاحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبِكِ^٣
تَحْتَ ظِلٍّ مِنَ الْغَرَارَةِ فِينَا نَ وَرَوْقٍ مِنَ الشَّبِيَةِ نَضْرُءُ
أَبْرَزَ الْجَيْدَ فِي غَلَائِلَ بَيْضٍ وَجَلَا الْخَدَّ فِي مَجَاسِدَ حُمْرٍ
وَتَشَنَّتْ بِعِطْفِهِ إِذْ تَهَادَى خَطْرَةٌ تَمْرُجُ الدَّلَالِ بِكِبْرِ^٤

(١) عذر : أى معاذير . عذُر : جمع عذار وهو الحياء ، وخلع العذار أى ترك الحياء .

(٢) أقصد : طعن .

(٣) المسبكر : المسترسل .

(٤) روق الشباب : أوله .

زارني بعدَ هجعةٍ والثريا راحةٌ تقديرُ الظلامِ بِشِبْرِ^١
والدُّجَا من نجومِهِ في عقودٍ يتلألأن من سماكٍ ونَسْرِ
تحسبُ الأفقَ بينها لأزورداً نُشرتُ فوقه دنانيرُ تَبْرِ
فرشفتُ الرضابَ أعذبَ رَشْفِ^٢ وهَصرتُ القضيْبَ أَلطفَ هَصْرِ
ونَعِمنا بِلِفِّ جسمٍ بجسمٍ للتصافي ، وقرعِ ثَغْرِ^٣ بثغرِ
يا لها ليلةٌ تجلَّى دُجَاهَا من سَنَا وَجَنَّتِيهِ عن ضوءِ فجرِ
قَصَّر الوصلُ عُمَرها، وبِوُدِّي أن يطولَ القصيرُ منها بِعُمَرِي

* * *

مَنْ عَذيري من ريبِ دهرٍ خوؤنٍ كلَّ يومٍ أراعُ منه بغدرِ
كلما قلتُ : حاكٍ فيه مَلامِي، نَهَسْتِي منه عقاربُ تَسْرِي^٢
وترتني خطوبُهُ في صَفِي^٣ فاضلٍ نابِهٍ ، من الدهرِ، وتر^٣
بانَ عني ، وكانَ روضةَ عيني ، فَعدا اليَوْمَ وهو روضةُ فكري
فَكِهْ يُبهِجُ الخليلَ بوجهِ تَرِدُ العينُ منه يَنْبوعَ بشرِ
لو ذعى إنَّ يَبْلُهُ الخُبْرُ يوماً أَخجَلَ الوردَ عن خلائقِ زهرِ
وإذا غازَلتَهُ مقلَّةٌ طَرْفِ كادَ من رقةٍ يذوبُ فيَجْرِي

* * *

(١) تقدر : تقيس .

(٢) حاكٍ : رسخ أو أثر فيه . نهستني : عضتني .

(٣) وترتني : أصابتني بظلم أو مكروه . وتر : فرد فذ

يا أبا القاسم الذي كان ردئي وظهيري على الزمان وذخري^١
يا أحقّ الورى بمحوّصٍ إخلاصي وأولادهم بغاية شكري
طرق الدهر ساحتى من تنائيك بجهم من الحوادث نكري

* * *

ليت شعري! والنفس تعلم أن لي سبباً بمجدٍ على الفتى «ليت شعري»
هل لي حالي زماننا من رجوع؟ أم لماضى زماننا من مكرٍّ؟

* * *

أين أيامنا وأين ليالي كرياض لبسن أفواف زهر
وزمان كأنما دبّ فيه وسنّ أو هفابه فرط سكر
حين نغدو إلى جداول زرق يتغلغلن في حدائق خضر
في هضاب مجلوة الحسن حمر وبواد مصقولة النبت عفر
نتعاطى الشمول مذهبة السرّ بال والجو في مطارف غبر^٢
في فتو توشّحوا بالمعالى وتردّوا بكلّ مجدٍ وفخر^٣
وضّح تنجلي الغياهب منهم عن وجوهٍ مثل المصابيح غرّ
كلّ خرق يكاد ينهل ظرفاً زان مرآته بأكرم خبر^٤

(١) الردء : الناصر ، العون .

(٢) مطارف : جمع مطرف - بضم الميم وكسرهما - رداء مربع من خز ذو أعلام .

(٣) فتو : جمع فتى .

(٤) الحرق : من الفتيان الظريف في سماحة ونجدة . مرآته : منظره الجميل .

وسجايا كأنهن كئوس أو رياض قد جادها صوب قطر
يتلقى القبول مني قبول كلما راح نفحها ارتاح صدري
فهو يسرى محملاً من سجايا لك نسيما يزهي بأفوح عطر

* * *

٣ - المديح

ملك أطاع الله :

قال ابن زيدون هذه الأبيات يمدح أبا الحزم بن جهور ويعرض بالوشاة بعد
مطلع غزلي :

مالي وللأيام ؟ ليج مع الصبا عدوانها فكسا العذار مشيبا
مَحَقَّتْ هِلَالَ السِّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ وَذَوَى بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيْبَا
لَأَلَمَّ بِي مَا لَوْ أَلَمَّ بِشَاهِقٍ لَانْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيْبَا
فَلَيْتَن تَسْمُنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَى لِلجَفْنِ فِي الْعَضْبِ الطَّرِيرِ نُدُوبَا^١
وَلَيْتَنَ عَجِبْتُ لِأَنَّ أَضَامَ وَجْهَهُ نِعَمَ النَّصِيرِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيْبَا
مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ زَحْفًا وَلَا تَمْشِي الضَّرَاءُ دَبِيْبًا^٢
مَلِكٌ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ مَا زَالَ أَوَابًا إِلَيْهِ مُنِيْبَا

(١) تسمى : تجشني مكروهاً . الجنين : الغمد . العضب الطرير : السيف القاطع . الندوب :
جمع ندب وهو الجرح وهنا أثر الصدا الذي يعلو السيف لطول مكثه في الغمد .

(٢) تعدي : تسرع في العدو . يمشي الضراء : يمشى مستخفياً .

يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيًا وَمُؤَالِيًا وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبًا وَمُشِيبًا
مَتَمَرِّسٌ بِالذَّهْرِ يَقَعْدُ صَرْفُهُ
بَسَامٌ تُغْرِ الْبِشْرَ إِنْ عَقَدَ الْحُبَّ
فَرَأَيْتَ وَضَّاحًا هُنَاكَ مَهِيبًا
مَلَأَ النَّوَظَرَ صَامِتًا وَلِرَبِّمَا
مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَمُجِيبًا
عِقْدٌ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَاةِ
نَسَقَ اللَّالِيءِ مُنْجِبًا وَنَجِيبًا
يَغْشَى التَّجَارِبَ كَهَلْمِهِمْ مُسْتَغْنِيًا
بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِبِيًا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَلَيْدِهِمْ لِعَظِيمَةٍ
لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيبًا
هَمَمٌ تَنَافِسُهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا
فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبًا
وَمَحَاسِنٌ تَنْدَى رِقَائِقُ ذِكْرَهَا
فَتَكَادُ تُوهَمُكَ الْمَدِيحُ نَسْبِيًا
كَالْأَسِّ أَخْضَرَ نَضْرَةً وَالْوَرْدِ أَحَدُ
مَرَّ بِهَجَةٍ ، وَالْمِسْكَ أَذْفَرَطِيبِيًا
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ
فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمَرَادُ غَرِيبًا
غَالِيًا بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مَوَاقِعِ
سَرَفًا وَلَا مُتَوَقِّعٍ تَكْذِيبًا
كَانَ الْوَشَاةُ ، وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكَهِمْ ،
أَسْبَاطُ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الذِّيبَا
وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضُّ الْجَنِي
هُزَّتْ ذَوَائِبُهَا فَلَا تَثْرِيبًا

(١) الحبا : جمع حبة ، وعقد الحبا : جلس ضاماً رجله إلى بطنه .

(٢) أذفر : ذكى طيب الريح .

(٣) مواقع : مدان . المتوقع : المنتظر ، يقول : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً
إفراطاً ولا متخوفاً تكذيباً .

(٤) يريد أنه برىء مما ابتلى به من كذبهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

أَنَاسِيفِكُ الصَّدَى الَّذِي مَهْمَاتِشَاءُ نَعِدِ الصِّقَالِ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيبَا
 كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبٍ فَشَنَيْتَهُ فُسِحَ الْمَجَالُ رَحِيبَا
 وَزَهَا جَنَابُ الشُّكْرِ حِينَ مَطَّرْتَهُ بِسَحَائِبِ النُّعْمَى فَرُدَّ خَصِيبَا

فرحة الشاعر :

كتب الشاعر هذه القصيدة يمدح بها صديقه أبا الوليد بن جهور بعد أن اعتلى عرش قرطبة بعد وفاة أبيه ، وفيها تتجلى فرحة الشاعر بملكه واستبشاره بولايته ، قال بعد مطلع غزلي يحن به إلى ولادة * :

لِلجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَاتِقُ كَالرُّوْضِ أَضْحَكُهُ الْغَمَامُ الْبَاكِي
 مَلِكٌ يَسُوْسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مَهْدَبٌ تَدْبِيرُهُ لِلْمَلِكِ خَيْرٌ مِلَاكٌ ٢
 جَارِي أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى فَتَلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ
 شَمْسُ النَّهَارِ وَبَدْرُهُ وَنَجْوَمُهُ أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرَقْدٍ وَسِمَاكٍ ٣
 يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبِ مِنْهُمْ تُنِيرُ غِيَاهِبَ الْأَحْلَاكِ
 بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبِشْرَانَا مَعَا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ
 تُلْفِي السِّيَادَةَ ثُمَّ إِنْ أَضَلَّتْهَا وَمَتَى فَقَدْتَ السَّرَّوَ فَهُوَ هُنَاكِ ٤
 وَإِذَا سَمِعْتَ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فِرْقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ

(١) التذريب : التحديد .

* انظر منتخبات الغزل ص ٢١٨ من هذا الكتاب .

(٢) ملاك الأمر : قوامه .

(٣) الفرقد والسماك : نجان فيران .

(٤) تُلْفِي : تجدى ، والخطاب للدنيا . ثم : هناك . السرو : الشرف .

صمصامٌ بادِرَةٌ وطَوْدٌ سَكِينَةٌ وجوادٌ غاياتٍ وجِذْلٌ حِكَاكٌ^١
 طَلَقٌ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ وَجَاهِلٌ مَنْ يَسْتَشْفَى النَّارَ بِالْمِحْرَاكِ^٢
 صَنَعُ الضَّمِيرِ إِذَا أَحَالَ بِمُهْرَقٍ يَمْنَاهُ فِي مَهَلٍ وَفِي إِيشَاكِ^٣
 نَظْمِ الْبَلَاغَةِ فِي خِلَالِ سَطْوَرِهِ نَظْمَ اللَّالِي التُّومِ فِي الْأَسْلَاكِ^٤
 نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مَنَافِسًا أَحْرَزَتْ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ^٥
 مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامِرُهُ النَّدَى مَتَحَلِّيًّا إِلَّا بِبَعْضِ حُلَاكِ^٦
 كَلًّا وَلَا الْمِسْكُ النَّمُومُ أَرِيحُهُ مَتَعَطَّرًا إِلَّا بِبُوسْمِ ثَنَاكِ^٧
 اللَّهُ ذِكْرُكَ لَا غِنَاءٌ مُرْجِعٌ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ^٨
 طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَائِكَ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسْفًا قُلُوبٌ عِدَاكِ^٩
 يَأْمُهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ وَسَنَاهُ تَعَشَوُ السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ^{١٠}
 فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكْتَ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ^{١١}
 مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدَ فِي النَّهْيِ وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ بِالْإِشْرَاكِ^{١٢}

(١) صمصام بادرة : سيف حدة . الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحتك به الإبل الجربي .

(٢) يقول إنه باش الوجه سمح والكرم طبيعة فيه وليس يزيده تفنيد الجاهلين إلا تمادياً في الكرم كالنار يزيدها المحرك اشتعالاً .

(٣) صنع الضمير : صناع حاذق . المهرق : الصحيفة . إيشاك : إسراع .

(٤) توم اللآلي : الكبيرة منها .

(٥) النموم : الساطع . الثنا : الثناء .

(٦) مرجع : مردد . الإطلاق والإمساك : الإنطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٧) السناء بالمد : الرفعة والشرف ، والسنا بالقصر : الضوء . تعشو : تقصد .

(٨) الإملاك : الزواج .

قَلَّدَنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِي زَيْنُهُ وَعِرَاكُ
وَإِذَا تَحَدَّثَتِ الْحَوَادِثُ بِالرَّنَا شَزْرًا إِلَى فِقْلِ لَهَا : إِيَاكَ
وَالدَّجْنَ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالجَفْنَ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَاكِ
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتَدِمْتَ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

ملتمس الوزارة :

قال ابن زيدون هذه القصيدة في مدح أبي الوليد بن جهور (لا في مدح أبي الحزم بن جهور كما جاء في الديوان) ، وفيها نجد الشاعر يعرض بمطلب لعله منصب الوزارة بعد أن أبدى ابتهاجه في القصيدة السابقة باعتلاء أبي الوليد عرش قرطبة ، وهو يفتحها بمطلع غزلي تقليدي ثم يسترسل في مدح مليكه وتعداد مناقبه في جو من النشوة يدل على إقبال الدنيا عليه . قال بعد المقدمة الغزلية ومطلعها :

أَجَلٌ إِنْ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأَسَدُ مَهَاةٌ حَمَّتْهَا فِي مَرَاتِعِهَا أُسْدُ

* * *

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الْفِعْلَ مَرَّةً فَمَنْ خَطِيئًا ، لَكِنْ إِسَاءَتَهُ عَمْدُ
حَدَارِكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبٍ فِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِبِهِ سَعْدُ^٢
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيْدُ مِنْ آلِ جَهْوَرٍ لِأَعْوَزَ مِنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو^٣

(١) الرنا : النظر .

(٢) يقال : « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » هو مثل يضرب في الشر ويريدون به أن في كل جهة كفاءها من الشر والأذى .

(٣) أعدى فلاناً على فلان : نصره وأعانه وقواه .

ملوك لبسنا الدهر في جنباتهم
بحيث مقييل الأمن ضاف ظلالة
هم النفر البيض الذين وجوههم
كرام يمد الراغبون أكفهم
فلا ينزع منهم هالك، فهو خالد
أليس أبو الحزم الذي غب سعيه
أغر تمهدنا به الخفض بعدما
فشمّر حتى أنجاب عارض فتنة
هو الأثر المحمود إن عاد ذكره
تولى فلولا أن تلاه محمد
ملك يسوس الملك منه مقلد
سجيته الحسنى وشيمته الرضا
همام إذا زان الندي بحبوة
زعيم لأبناء السيادة بارع

رقيق الحواشي مثل ما فوف البرد^١
وفي منهل العيش العذوبة والبرد^٢
تروق فتستشفى بها الأعين الرمد
إلى أبحر منهم لها باللها مد^٣
بآثاره إن الثناء هو الخلد
تبصر غاويننا فبان له الرشد
أقض علينا مضجع ونبا مهّد
تألق منها البرق واصطخب الرعد^٤
تطلعت العلياء واستشرف المجد
لأوطأ خد الحر أخصه العبد^٥
روى عن أبيه فيه ما سنه الجد
وسيرته المثلى ومذهبه القصد
ترجح في أثنائها الحسب العد^٦
عليهم به تشنى الخناصر إن عدوا

(١) فوف : رقق . البرد : الثوب .

(٢) مقييل : مكان القيلولة ، وهو هنا بمعنى منزل . ضاف : سايق .

(٣) اللها جمع لهوة : العطايا .

(٤) يشير إلى قيام أبي الحزم بشؤون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بني أمية .

(٥) يقول لولا أن أبا الوليد محمد بن جهور قد خلف أبا الحزم لساءت العاقبة وسادت دولة العبيد

على دولة الأحرار فأذلّوهم وداسوا خاودهم بأرجلهم .

(٦) العد : الكثير .

بعيد منال الحال داني جنى الندى
 ممر لمن عاداه إذ أولياؤه
 إذا اعترف الجاني عفا عفو قادر
 له عزيمة مطوية في سَكِينَةٍ
 كما الآن متن السيف واخشوشن الحد
 وباع إلى ما يحرز الفخر ممتد
 فله ما يخفى والله ما يبدو
 وبالله معتد وفي الله مُشْتَدُّ
 بأوطار نفوس منكم لم تقضها بعد
 فلم يك للمصدر من نفثها بد
 ضياع الحسام العضب أصداه الغمد
 إذا ما نبا السيف الذي تطبع الهند
 فحسنى الألى في أن يوالها سرد
 يرى المال أسنى حظه الطبع الوغد
 كسوتك ثوب النصح أعلامه الحما
 من الغيب فاقبلها فما غرك الشهد

بعيد منال الحال داني جنى الندى
 ممر لمن عاداه إذ أولياؤه
 إذا اعترف الجاني عفا عفو قادر
 له عزيمة مطوية في سَكِينَةٍ
 كما الآن متن السيف واخشوشن الحد
 وباع إلى ما يحرز الفخر ممتد
 فله ما يخفى والله ما يبدو
 وبالله معتد وفي الله مُشْتَدُّ
 بأوطار نفوس منكم لم تقضها بعد
 فلم يك للمصدر من نفثها بد
 ضياع الحسام العضب أصداه الغمد
 إذا ما نبا السيف الذي تطبع الهند
 فحسنى الألى في أن يوالها سرد
 يرى المال أسنى حظه الطبع الوغد
 كسوتك ثوب النصح أعلامه الحما
 من الغيب فاقبلها فما غرك الشهد

(١) ممر : من المرارة .

(٢) الشجا : ما يعترض في اللهة أو الخلق .

(٣) العضب : القاطع .

(٤) الغرب : الحد . تطبع : تصنع .

(٥) الألى : النعمة . سرد : تتابع .

(٦) يشير في هذا البيت إلى الوزارة التي يرغب بها .

مدح وتهنئة :

ها هو ذا ابن زيدون في إشبيلية يتفياً ظلال النعيم بقرب مليكها المعتضد بعد أن جعله وزيره وأغدق عليه نعمه وإحسانه . فليلهج لسان الشاعر بالشكر له ولينثر فوق تاجه درر شعره . وهذه القصيدة إحدى مدائحه الرائعة قالها يهنئه بحلول عيد الأضحى سنة ٤٤٥ ، وقد ذكر ابن بسام طرفاً منها في ذخيرته ونقد بعض أبياتها ، وذكر أيضاً ابن خاقان طائفة منها في قلائده . وإننا لنشعر ونحن نتلو أبياتها بذلك النسج المتناسك وتلك الديباجة الفخمة التي تنم عن قوة أسره للكلام وحسن اطلاعه على شعر الفحول . وقد رأى ابن خاقان في مطلعها الغزلي حيناً لولادة وعهدا ونحن نرى كما أشرنا أنه مطلع تقليدي ليس فيه ما يربطه بولادة ، فلنستمع إلى الشاعر ولنتدبر معاً هذه الجزالة وهذه القوة :

أَمَا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفٌ مُعَرَّفٌ لِنَاهِلِ لِدَاتِ الْوَقْفِ بِالْجِزْعِ مَوْقِفٌ^١
فَنَقْضِي أَوْطَارَ الْمُنَى مِنْ زِيَارَةٍ لِنَا كَلْفٌ مِنْهَا بِمَا نَتَكَلَّفُ^٢
ضَمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا رِقَاقُ الطُّبَا وَالسَّمَهْرِيِّ الْمُثَقَّفِ^٣
وَقَوْمٌ عِدَى يُبَدُونَ مِنْ صَفْحَاتِهِمْ وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحِقْمِ دَأْ كَلْفُ^٤
غِيَارَى يَعْدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةً بِهَا ، وَالهُوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُوسِفُ
يُودُونَ لَوْ يَشَى الْوَعِيدُ زَمَاعَنَا وَهِيَّاتِ رِيحِ الشُّوقِ مِنْ ذَاكَ أَعْصَفُ^٥
يَسِيرٌ لَدَى الْمَشْتَاقِ فِي جَانِبِ الْهُوَى نَوَى غُرْبَةً أَوْ مَجْهَلٌ مُتَعَسِفٌ

(١) العرف : الشذى والرائحة الطيبة . الوقف : السوار . الجزع : منعطف الوادى .

(٢) كلف : ولع .

(٣) الطبيا : جمع طبة وهي حد السيف . السمهرى : الريح . المثقف : المقوم .

(٤) يبدون من صفحاتهم : كناية عن العداوة . أزهر : مشرق .

(٥) الزماع : العزم على الزبارة .

هل الرُّوعُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي فِي السَّيْرَاءِ الرَّقْمِ وَسَطَ قَبَابِهِمْ
 وَأَمُّ الْهَوْلِ إِلَّا غَمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ تَبَايِنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبْلٌ مَنْعَمٌ
 بِعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرٌ أَوْطَفٌ^١ فَلِلْعَانِكِ الْمَرْتِجِ مَا حَازَ مِئْزَرَ
 تَأَوَّدَ فِي أَعْلَاهُ لَدُنْ مَهْفَهْفٍ^٢ حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَنْ نَسَرَ بَوْصَلِيهِ
 وَلِلْغُصْنِ الْمَهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفٌ^٣ وَلَيْلَةٌ وَافِينَا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدِ
 إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَاهُ وَنُسَعَفُ تَهَادَى أُنَاةَ الْخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا
 سُرَى الْأَيْمِ لَمْ يَعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَزْحَفٌ^٤ فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَاتِيهَا
 كَمَا رِيحٌ يَعْفُورُ الْفَيْلَا الْمُتَشَرِّفُ^٥ فَدَيْتُكَ أَنِّي زَرْتُ نَوْرَكَ فَاضِحٌ
 سَوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمَنْصَفُ^٦ هَبِيكَ اعْتَرَّتْ الْحَىِّ وَاشِيكَ هَاجِعٌ
 وَعِطْرُكَ نَمَامٌ وَحَلِيكَ مُرْجِفٌ^٧ فَأَنَّى اعْتَسَفْتَ الْهَوْلَ خَطْوِكَ مُدْمَجٌ
 وَفَرَعُكَ غَرِيبٌ وَلَيْلُكَ أَغْطَفٌ^٨ لَجَاجٌ تَمَادَى الْحَبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا
 وَرَدْفُكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفٌ^٩ وَأَمُّ الْهَوَى الْأُفُقَ الَّذِي فِيهِ نَشْنَفُ^{١٠}

- (١) السيرة : ثوب مخطط . الرقم : المرقوم أى المعلم . أوطف : طويل شعر أهداب العين .
 (٢) عبيل : أى ردف ضخم .
 (٣) العاذك : من الرمال ما تعقد وارتفع .
 (٤) الأيم : الحية وذكر الأفعى .
 (٥) يعفور : ظبي . المتشرف : المستطلع من مكان عال .
 (٦) إياة الشمس : حسنها وضوءها . المنصف : الذى عليه النصف وهو الحمار .
 (٧) مرجف : من أرجف إذا تحرك واضطرب .
 (٨) اعتررت الحى : جثته وجزت به على غير علم . فرعك غريب : شعرك شديد السواد .
 أغطف : حالك السواد .
 (٩) مدمج : داخل بعضه فى بعض . مخطف : ضامر .
 (١٠) أم الهوى : قصد الهوى . نشنف : ذبغض .

وَأَنْ نَتَلَقَى السَّخَطَ عَانِينَ بِالرُّضَى لِغَيْرَانِ أَجْفَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطَفُ
كفانامن الوصل التحيه خلسة فيومئ طرف أو بنان مطرف^١
خليلى مهلاً لا تلوما فإننى فوادی أليف البث والجسم مدنّف^٢
وَأَعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمَحَبُّ لِحَاجَةً عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحَبِّ حِينَ يَعْنَفُ
وَإِنِّي لَيْسْتُ هَوِيْنِي الْبَرْقُ صَبُوءٌ إِلَى بَرْقِ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادِي خَطْفَ
وَمَا وَلَعَى بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُمٌ لِظَلْمٍ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ يُتَرَشَّفُ^٣
وَتَذَكِّرُنِي الْعِقْدَ الْمُرِنَّ جَمَانَهُ مُرِنَاتُ وُرُقٍ فِي ذُرَى الْأَيْكِ تَهْتِفُ
فَمَا قَبَلَ مِنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرِ هَوْدَجٌ وَلَا صَانَ رِيْمٍ الْقَفْرِ خَدْرٌ مَسْجَفٌ^٤
وَلَا قَبَلَ (عَبَادٍ) حَوَى الْبَحْرِ مَجْلِسٌ وَلَا حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ رَفْرَفٌ^٥
هُوَ الْمَلِكُ الْجَعْدُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ تَكْفُ صُرُوفِ الْحَادِثَاتِ وَتُصْرَفُ^٦
هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلَهُ مَلِكٌ فَفِيهِ كَاتِبٌ مِتْفَلْسَفٌ
يَتِيهِ بِمِرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمَنْبَرٌ وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمَصْحَفٌ
رَوِيْتَهُ فِي الْحَادِثَاتِ الْإِدَّ لِحِظَةً وَتَوَقِّعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرَفٌ^٧

(١) مطرف : مصبوغ بالخناء .

(٢) مدنّف : مريض من الوجد .

(٣) الظلم : الريق وماء الأسنان .

(٤) الجمان : حب اللؤلؤ . الورق : جمع ورقاء وهى الحمامة .

(٥) ريم : ظبي . مسجف : عليه ستور .

(٦) الرفرف : كل ما أعد للجلوس وهنا العرش .

(٧) الجعد : شديد الأسر .

(٨) الإد : العظيم . يريد أن توقيعاته موجزة أى بليغة .

يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خَيْفَةً بِأَسْهٍ وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطَّرُ^١
 حِذَارَكَ إِذْ تَبَغَى عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَى وَدُونَكَ فَاسْتَوْفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ
 سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى
 أَغْرُمْتِي نَدْرُسُ دَوَاوِينَ مَجْدِهِ كِتَابُ تَزْجِي أَوْ سِفَائِنُ تَجْدَفُ^٢
 إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَرَ مُطْنِبُ يَرْقُنَا غَرِيبٌ مَجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفٌ^٣
 وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغِي أَخَاهُ مُبْلَغٌ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفٌ
 مُمَرُّ الْقَوَى لَا يَمَلَأُ الْخَطْبُ صَدْرَهُ مِنْهُ وَلَا الرَّاجِي نِدَاهُ مُسَوِّفٌ
 لَهُ ظِلٌّ نَعْمَى يَذْكَرُ الْهَمَّ عِنْدَهُ وَبَلَّغٌ لَيْسَ لِأَمْرٍ فَائِتٍ يَتْلَهْفُ^٤
 جَحِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ ظِلَالُ الصَّبَابِلِ ذَاكَ أَنْدَى وَأُورْفُ^٥
 مَحَاسِنُ غَرْبِ الدَّمِ عِنْدَهَا مُفْلَلٌ وَجَنَّةُ عَدْنِ اللَّمَطِيِّعِينَ تَزْلَفُ^٦
 تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفْصَلٌ كَهَامٌ وَشَمَلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُؤَلَّفٌ^٧
 طَلَّاقُهُ وَجْهٌ فِي مِضَاءٍ كَمِثْلٍ مَا سَنَاءٌ وَبَرْدُ الْفَخْرِ فِيهَا مُفَوِّفٌ^٨
 فِرْنَدُ السِّيفِ وَالْحَدْمَرُ هَفٌ يَرُوقُ فِرْنَدُ السِّيفِ وَالْحَدْمَرُ هَفٌ^٩

(١) الأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٢) ستعتامهم : ستختارهم . التوى : الهلاك .

(٣) المجلل : المحتاج إلى التفسير والبيان . المصنف : المميز بعضه من بعض . وفي هذا البيت

تصنع ولعله يريد ذكر « الغريب المصنف » وهو كتاب لأنى عبيد القاسم بن سلام .

(٤) ممر القوى : أصله شديد القتال ، فهو وصف من أوصاف الحبل ، ويريد به أنه مستحکم

القوى .

(٥) الهم : الشيخ الكبير .

(٦) تزلف : تقرب .

(٧) غرب الذم : حده . كهام : كليل .

(٨) المفصل : من الفاصلة وهي الخرزة تفصل بين الخرزتين في العقد . مفوف : رقيق .

(٩) فرند السيف : جوهره ولعانه .

على السيف من تلك الشهامة ميسم
 سجايا لمن والاه كالأزى يجتنى
 يراقب منه الله (معتضد) به
 فقل للملوك الحاسديه متى ادعى
 أليس بنو عبّاد القبلة التي
 ملوك يرى أحياءهم فخر دهرهم
 بهم باهت الأرض السماء فأوجه
 أشارح معنى المجد وهو معمس
 لعمر العدا المستدرجيك بزعمهم
 لكالكوك صاع الغدر لوّم سجية
 لقد حاولوا العظمى التي لاشوى لها
 ولما رأيت الغدر هب نسيمه
 وفي الروض من تلك الطلاقه زخرف
 تعود لمن عاداه كالشرى ينقف^١
 يد الدهر، يقسو في رضاه ويرأف^٢
 سباق العتيق الفاتت الشأو مقرّف^٣
 عليها لآمال البرية معكف
 ويخلف موتاهم ثناءً مخلف
 شمس وأيد من حيا المزن أو كف^٤
 ومجزل حظّ الحمد وهو مسفسف^٥
 إلى غرة كادت لها الشمس تكسف^٦
 وكيلا لهم صاع الجزاء المطف^٧
 فأعجلهم عقد من الهم مخصف^٨
 تلقاه إعصار لبطشك حرجف^٩

(١) الأرى : العسل . الثرى : الخنظل . ينقف : يشق لأخذ ما في داخله .

(٢) يد الرهد : مدى الدهر . يريد أنه يرأف ويعنف دائماً في سبيل مرضاة الله وحده .

(٣) العتيق : النجيب . الشأو : الغاية والفاتت الشأو : السابق . مقرّف : هجين .

(٤) أو كف : أغزر .

(٥) معمس : مبهم . مسفسف : هابط ونازل .

(٦) غرة : غفلة . لعمر العدا : يقسم بحياتهم متبكماً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، وهنا

يبدأ في التكلم عن حروب المعتضد واذ تصاراته .

(٧) في الأصل المطف : المنقوص المبخوس وقد يستعمل بمعنى الوافي التام وهو المراد هنا .

(٨) لا شوى لها : لا تصيب الأطراف بل تصيب المقاتل . فأعجلهم عقد : أى رأى وتدبير من

عزمك . مخصف : محكم شديد .

(٩) الحرجف : البارد وصف بها الإعصار .

أَظَنَّ الْأَعَادَى أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ
دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرْتُكَ بِأَنَّهُ
تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكُلَّهُمْ
فَإِنْ يَكْفُرُوا وَالنَّعْمَى فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالسُّرُورِ مُظَلَّلٌ
بَشِيرٌ بِأَعْيَادٍ تُوَفِّيكَ بَعْدَهُ
تُجَرِّدُ فِيهِ سَيْفَ دَوْلَتِكَ الَّذِي
هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حُدُّهُ
هُمَا سَمَا لِلْمُلْكِ إِذْ هُوَ يَافِعٌ
كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قِنِيَّةٍ
غَدَاً بِخَمِيْسٍ يُقْسِمُ الْغَيْمُ إِنَّهُ
هُوَ الْغَيْمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرْقُهُ
وَمَا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ

لقد تعدُّ الفسَلَ الظنونُ فتُخْلِفُ^١
سَيْشِرَى وَيذَوَى العَضُو من حيث يشَأفُ^٢
بِنِعْمَاكَ مُوَصُولُ التَّنَعْمِ مُتْرَفٌ
بِسَيْفِكَ قَاعُ صَفْصَفِ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
وَبِالْحِظِّ فِي نَيْلِ الْمَنَى مُتَكْنَفُ^٣
كَمَا يَنْسَقُ النِّظْمَ المَوَالِي وَيَرْصَفُ
دِمَاءُ العِدَا دَابَّأً بِغَرْبِيَّةٍ تُظْلَفُ^٤
وَحَلِيَّتُهُ بَذَلُ النَّسْدَى وَالتَّعَفُّفُ
وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ^٥
فِيوَلَعُ بِالفِعْلِ الجَمِيلِ وَيُشْغَفُ^٦
لأَحْفَلُ مِنْهُ مَكْفَهْرًا وَأَكْثَفُ^٧
وَلِلطَبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ
وَكَلُّمَا يَرْضِيكَ دَاعٍ فَمُلْحِفُ^٨

(١) الفسل : الدفء الرذل .

(٢) يشرى العضو : يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكى . يشأف : تكوى شأفته أى ترحته

لتذهب بالكى .

(٣) متكنف : مشمول .

(٤) بغربيه : بجديه . تظلف : تهدر .

(٥) الغلام اليافع : الذى شارف الاحتلام . المخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم

يقول قد احتلم وأدرك وبعضهم يقول غير مدرك .

(٦) قنية : مكسب .

(٧) خميس : جيش . مكفهراً : مسوداً .

(٨) أداؤه : أى أداء الصلاة فى العيد . ملحف : ملح .

قرنا بحمدِ الله حمدك إنه
 وَعَدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ
 فَإِذْ نَحْنُ طَالِعُنَاهُ وَالْأَفُقُ لَابَسٌ
 رَأَيْنَاكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا
 وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالدهرُ خَادِمٌ
 وَصَلْنَا فَقَبِلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ
 لَقَدْ جَدَّتْ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خِصَاصَةٌ
 وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهَلْ مِنَ الدهرِ جَانِبٌ
 لَكَ الْخَيْرُ أَنِّي لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ
 أَفَدْتَ بِهِمَ الْحَالَ مِنْ غُرَّةٍ
 وَبَوَّأْتَهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ
 وَكَمْ نِعْمَةٌ أَلْبَسْتَهَا سُندُسِيَّةً
 مَوَاهِبُ فَيَاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا
 فَإِنَّ أَكْ عَبْدًا قَدْ تَمَلَّكَتْ رِقَّةً

لَأَوْ كَدُّ مَا يُحِظِي لَدَيْهِ وَيُزْلِفُ
 يُغَادِيهِ مِنَّا نَاطِرٌ أَوْ مُطَوِّفٌ
 عَجَاجَتُهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ
 تَطَّلَعَ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يَوْسُفُ
 تُشِيرُ فَيَمْضِي وَالْقَضَاءُ مُصْرَفٌ
 بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ
 وَأَمَّنْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ تَخَوُّفٌ
 وَلَا ذَلَّ مُنْقَادٌ وَلَا لَانَ مِعْطَفٌ
 وَكَيْفَ أَوْدَى فَرَضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفٌ
 يُقَابِلُهَا طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيَطْرَفُ
 بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلٌّ مَقْطَفٌ
 أَسْرُ بَلُّهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأَلْحَفٌ
 مِنَ الْمَزْنِ تُمْرِي أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُغْرَفُ
 فَارْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنِي وَأَشْرَفُ

(١) العجاجة : الغبار في الحرب .

(٢) خصاصة : فقر .

(٣) المعطف : السيف .

(٤) نهضة : قدرة . مسلف : مقدم .

(٥) بهيم : أسود . يقول : أكسبت سواد الحال منى غرة بيضاء يواجهها طرف الطموح الذي يمد

بصره إلى الشيء فيطرف أى من قولهم فلان مطروف العين أى محملق ذاهل .

(٦) أسربلها : ألبسها .

(٧) تمرى : تدر وتسكب .

٤ - الرثاء

توفي أبو الحزم سنة ٤٣٥ للهجرة وتولى من بعده ابنه أبو الوليد ، فظم الشاعر هذه القصيدة التي يرثى بها الفقيه ويعزى الابن ويمدحه . ويبدو أن ابن زيدون قد أعجب بصياغة هذه القصيدة فردد كثيراً من معانيها في مرثياته الهامة ؛ ولذا كانت قصيدته التي رثى بها أم أبي الوليد تنظر إلى هذه المرثية وهي على وزنها ورويها ، وقصيدته التي رثى بها المعتضد وعزى المعتمد هي أيضاً على وزنها ورويها وفيها يكرر الشاعر كثيراً من أبيات القصيدة السابقة . ونلاحظ أن الشاعر يتخذ رثاء الملوك ومن يلوذ بهم وسيلة لمدح من سيخلفهم . وهو في هذا الغرض فاتر العاطفة على رغم جودة سبكه ومتانة صوغه قال :

ألم ترَ أَنَّ الشَّمْسَ قد ضَمَّهَا القَبْرُ وَأَنْ قد كَفَمْنَا فَمَقَدَهَا القَمَرُ البَدْرُ
وَأَنَّ الحَيَا إنْ كانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ فمقد فاض للآمال في إثره البحرُ
إِسَاءَةٌ دَهْرٌ أَحْسَنَ الفَعْلَ بَعْدَهَا وَذَنْبٌ زَمَانٌ جَاءَ يَتَبَعُهُ العُدْرُ
فلا يَتَهَنَّ الكَاشِحونَ فَمَا دَجَا لنا الدليلُ إلا ريثما طَلَعَ الفَجْرُ
وَإنْ يَكُ ولى جَهْورٌ فمحمَدٌ خليفته العَدْلُ الرِّضَا وابنه البَرُّ
فَتى يَجْمَعُ المَجْدَ المَفْرَقَ هَمَّهُ وَيُنظِمُ في أَخلاقه السُّوددُ النَّشْرُ
أَهَابَتْ إليه بِالقُلُوبِ مَحَبَّةٌ هِىَ السَّحْرُ للأهواءِ بل دونها السَّحْرُ
سَرَتْ حَيْثُ لا تَسرى مِنَ الأنْفُسِ المَنى وَدَبَّتْ دَبِيباً لَيْسَ تُحْسِنُهُ الخَمْرُ
لَبِسْنَا لَدِيهِ الأَمْنَ تَنْدى ظلالُهُ وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ ما أَيْنَعُ الزَهْرُ

(١) الحيا : المطر . صوبه : انصبابه .

(٢) الكاشحون : الأعداء .

وعادتُ لنا عاداتُ دنيا كأنها
مليكٌ له منا النصيحةُ والهوى
فقل للحيارى قد بداعلمُ الهدى
أبا الحزم قد ذابتُ عليك من الأسي
دع الدهرَ يفجعُ بالذخائرَ أهله
تهونُ الرزايا بعدُ وهى جليدةٌ
فقدناكَ فقدانَ السحابةِ، لم يزل
مساعيكَ حلّىً لليالى مُرَّصعٌ
فلا تبعدنُ إن المنيةَ غايةٌ
عزاءً فدتكَ النفسُ عنه فإن ثوى
وما الرزءُ فى أن يُودعَ التُّربَ هالكٌ
أمامكَ من حفظِ الإلهِ طليعةٌ
وما بكَ من فقرٍ إلى نصرٍ ناصرٍ
لكَ الخيرُ إنى واثقٌ بكَ شاكرٌ

بها وَسَنٌ أو هزَّ أعطافها سكر
ومنه الأيادى البيضُ والنعمُ الخضرُ
وللطامعِ المغرورِ قد قُضِيَ الأمرُ
قلوبٌ منهاها الصبرُ لو ساعدَ الصبرُ
فما لنفيسٍ مُذ طواك الردى قدرُ
ويُعرفُ مذ فارقتنا الحادثُ النكرُ
لها أثرٌ يثنى به السهلُ والوعرُ
وذكرُكَ فى أردانٍ أيامها عطرُ^١
إليها التناهى طال أو قصرَ العُمُرُ
فإنك لا الوانى ولا الضرعُ الغمرُ^٢
بل الرزءُ كلُّ الرزءِ أن يهلكَ الأجرُ
وحولكَ من آلائه عسكرٌ مجرٌ^٣
كفتكَ من الله الكلاءةُ والنصرُ^٤
لِمِثْنى أياديكَ التى كُفَرها الكُفَرُ^٥

(١) أردان : أكمام .

(٢) الضرع : الضعيف . الغمر : من لم يجرب الأمور .

(٣) المجر : الكثير .

(٤) الكلاءة : الرعاية والحفظ .

(٥) مثنى : مضاعف .

تَحَامَى الْعِدَامَا اعْتَلَقْتُكَ جَانِبِي
يَلِينُ كَلَامٌ كَانَ يَخْشَنُ مِنْهُمْ
وَقَالَ الْمَنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ عَمَرُوا
وَيَفْتَرُّ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّرُ
لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فخر
فَصَدَّقُ ظَنُونًا لِي وَفِيَّ فَإِنِّي
وَمَنْ يَكُ لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ سَعِيهِ
فَتَقْرِيْبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُكَ الْوَفْرُ

(١) اعتلق فلاناً وبه : هويه وأحبه .

(٢) النظر الشرر : النظر الغاصب وما فيه إعراض .

(٣) الوفر : المال .

٥ - الرسالة الهزلية

أما بعد أيها المصائبُ بعقله ، المورطُ بجهله . البينُّ
سَقَطُهُ^١ ، الفاحشُ غلطُهُ ، العاثرُ في ذيلِ اغتراره ، الأعمى
عن شمسِ نهاره ، الساقطُ سقوطَ الذبابِ على الشرابِ ،
المتهافتُ تهافتَ الفراشِ في الشَّهابِ^٢ ، فإنَّ العُجبَ أكذبُ^٣ ،
ومعرفةُ المرءِ نفسه أصوبُ . وإنك راسلتني مُستَهدياً ، مِنْ
صِلَّتِي ، ما صَفِرَتْ^٤ منه أيدي أمثالك ، مُتَصَدِّياً من خِلَّتِي
لِما قُرِعَتْ دونه صنوفُ أشكالك ، مُرْسِلاً خليلتك مُرتادة^٥ ،
مستعملاً عشيقتك قوادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزلُ
عنها إلى ، وتَخْلِفُ ، بَعْدَها ، عليَّ :

ولستَ بأولِ ذى همةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بالنَّائلِ^٦
ولا شكَّ أَنَّها قَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنْ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) أى المعجب يكذب نفسه لأنه يتخيل في نفسه مالا صحة له .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) الخليفة هنا التى كان يرسلها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٦) البيت للمتنبي والنائل : ما ينال .

تَغَرُّ عَلَيْكَ ، فَإِنِّهَا أَعْذَرْتُ^١ فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرْتُ
 فِي النِّيَابَةِ عِنْدَكَ ، زَاعِمَةٌ أَنَّ المَرْوَةَ لَفِظٌ أَنْتَ مَعْنَاهُ ،
 وَالإِنْسَانِيَةَ اسْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهُيُولَاهُ^٢ ، قَاطِعَةٌ^٣ أَنْكَ
 انْفَرَدْتَ بِالجَمَالِ ، وَاسْتَأْثَرْتَ بِالكَمَالِ ، وَاسْتَعْلَيْتَ فِي
 مَرَاتِبِ الجَلَالِ ، وَاسْتَوْلَيْتَ عَلَى مَحَاسِنِ الخِلَالِ ، حَتَّى
 خَيَّلْتَ أَنَّ يُوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَاسِنُكَ^٤ فغَضِبْتَ مِنْهُ ،
 وَأَنَّ امْرَأَةَ العَزِيزِ^٥ رَأَتْكَ فَسَلَّتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ^٦ أَصَابَ
 بَعْضَ مَا كَنَزَتْ ، وَالنَّظْفَ^٧ عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَارَكَنْزَتْ^٨ ،
 وَكَسْرَى^٩ حَمَلَ غَاشِيَتِكَ^{١٠} ، وَقَيْصَرَ^{١١} رَعَى مَاشِيَتَكَ ،
 وَالإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارًا^{١٢} فِي طَاعَتِكَ ، وَأَرْدَشِيرَ^{١٣} جَاهَدَ مَلُوكَ

(١) أعذرت : أتت بما صارت به معذورة ، أى أن صاحبتة بلغت الجهد في السفارة وهي وساطتها في الصلح .

(٢) هيولاه : مادته وحقيقته .

(٣) قاطعة : موقنة .

(٤) حاسنك : باراك في الحسن .

(٥) امرأة العزيز مشهورة في قصة يوسف وأنها أحبته .

(٦) قارون : من قوم موسى ، اشتهر بالكنوز والغنى .

(٧) النظف : رجل من تميم نهب أمولا لكسرى في الجاهلية فأثرى ، فضرب به المثل بما أصاب

من ثروة .

(٨) من الركنز : وهو المال الذي .

(٩) من ملوك الفرس .

(١٠) الغاشية : حديدة فوق مؤخرة الرجل .

(١١) ملك الروم .

(١٢) ملك الفرس الذي انتصر عليه الإسكندر .

(١٣) أردشير من ملوك الفرس ومثله الضحاك .

الطوائف بخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى
 مُسالمَتَكَ ، وَجَدِيمَةَ الْأَبْرَشِ تَمَنَّى مَنَادِمَتَكَ ، وَشِيرِينَ^٢ قَد
 نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ ، وَبَلْقَيْسَ^٣ غَايَرَتْ الزَّبَاءَ عَلَيْكَ ،
 وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُؤَيْرَةَ^٤ ، إِنَّمَا أَرَدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ^٥ بْنَ جَعْفَرٍ
 إِنَّمَا رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكَلَيْبَ^٦ بْنَ رَبِيعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى
 بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسًا^٧ إِنَّمَا قَتَلَهُ بِأَنْفَتِكَ ، وَمُهَلِّهَلًا^٨ إِنَّمَا
 طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهَمَّتِكَ ، وَالسَّمْوَعْلَ^٩ إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ ،
 وَالْأَحْنَفَ^{١٠} إِنَّمَا احْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ ، وَحَاتِمًا إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ ،
 وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ بِبِشْرِكَ ، وَزَيْدًا^{١١} بْنَ مُهَلِّهَلٍ إِنَّمَا رَكِبَ
 بِفَخْدَيْكَ ، وَالسُّلَيْكَ^{١٢} بْنَ السُّلَاكَةِ إِنَّمَا عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ ،

(١) من ملوك العرب في الجاهلية .

(٢) شيرين زوجة كسرى ، وبوران : ابنته .

(٣) بلقيس : ملكة سبأ والزباء ملكة تدمر .

(٤) من شجعان العرب في الجاهلية والإسلام قتل في حروب الردة ، الرادفة أن يكون للشريف تابع

يجلس عن يمينه .

(٥) كان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك .

(٦) هو رئيس الحيين من بكر وتغلب .

(٧) جساس : صهر كليب وقتله .

(٨) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة .

(٩) اشتهر السموعل بالوفاء فضرب به المثل .

(١٠) هو الأحنف بن قيس وقد اشتهر بحلمه .

(١١) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية وقد أدرك الإسلام وأسلم .

(١٢) عداء مشهور في الجاهلية .

وعامرَ ابنَ مالِكٍ إنما لَاعَبَ الأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسَ ٢ بنَ زُهَيْرٍ إنما اسْتَعَانَ بِدِهَائِكَ ، وإِيَّاسَ ٣ بنَ معاويةَ إنما اسْتَضَاءَ بِمِضْبَاحِ ذِكَاكَ ، وَسَحْبَانَ ٤ إنما تَكَلَّمَ بِلسَانِكَ ، وَعَمْرَوَ ٥ ابنَ الأَهْتَمِ إنما سَحَرَ بِبَيَانِكَ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ ٦ بينَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ تَمَّ بِرِسَالَتِكَ ، وَالْحَمَالَاتِ ٧ بينَ عَبْسٍ وَذُبْيَانَ أُسْنِدَتْ إِلَى كِفَالَتِكَ ، وَأَنَّ احْتِيَالَ هَرَمٍ ٨ ، لِعَلْقَمَةَ وَعَامرٍ حَتَّى رَضِيَا ، كَانَ ذَاكَ عَنِ إِشَارَتِكَ ، وَجَوَابَهُ لِعَمْرٍ ٩ ، وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ أَيِّهِمَا كَانَ يُنْفَرُ ، وَقَعَّ عَنِ إِرَادَتِكَ ، وَأَنَّ الْحَجَّاجَ تَقَلَّدَ وِلَايَةَ العِرَاقِ بِجَدِّكَ ، وَقُتَيْبَةَ ١٠ فَتَحَّ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ ، وَالْمُهَلَّبَ ١١ أَوْهَنَ شَوْكَةَ الأَزَارِقَةِ بِأَيْدِكَ ،

(١) عامر الملقب بملاعب الأسننة من شجعان العرب في الجاهلية .

(٢) قيس : سيد عبس وداهيتهما في حروبها .

(٣) قاضي البصرة في أواخر العصر الأموي واشتهر بذكائه .

(٤) سحبان من بلغاء العرب مات في عصر معاوية .

(٥) من سادات تميم وخطبائها في الجاهلية والإسلام .

(٦) هو صلح حرب البسوس .

(٧) الحملات : الدييات .

(٨) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب لرجحان عقله ، واحتكم إليه علقمة

وإبن عمه عامر ، وهما جميعاً من بني عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر فتقع حرب بين عشيرتهما .

(٩) هو عمر بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك ؟ فقال لو

قلت الآن كلمة لنشبت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب في المنافرة .

(١٠) بطل حروب الشرق في عهد الوليد بن عبد الملك .

(١١) المهلب : أشهر قواد الأمويين في حروب الخوارج .

وَفَرَّقَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ بِكَيْدِكَ ، وَأَنَّ هِرْمَسَ^١ أَعْطَى بِلِينُوسَ^٢
 مَا أَخَذَ مِنْكَ ، وَأَفْلَاطُونَ أوردَ عَلَى أَرِسْطَطَالِيْسَ مَا نَقَلَ
 عَنْكَ^٣ ، وَبَطْلَيْمُوسَ^٤ سَوَى الْأَصْطُرُولَابَ بِتَدْبِيرِكَ ، وَصَوَّرَ
 الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ ، وَبِقِرَاطٍ^٥ عِلِمَ الْعِلَلِ وَالْأَمْرَاضِ بِلُطْفِ
 حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ^٦ عَرَفَ طِبَائِعَ الْحَشَائِشِ بِدَقَّةٍ حَدْسِكَ ،
 وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ، وَاسْتَوْصَفَكَ
 تَرْكِيْبَ الْأَعْضَاءِ ، وَاسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ
 نَهَجْتَ لِأَبِي مَعْشَرٍ^٧ طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانٍ^٨
 عَلَى سِرِّ الْكِيْمِيَاءِ . وَأَعْطَيْتَ النَّظَّامَ^٩ أَصْلًا أَدْرَكَ بِهِ
 الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكَنْدِيِّ^{١٠} رَسْمًا اسْتَخْرَجَ بِهِ الدَّقَائِقَ ،
 وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتَرَعُكَ ، وَتَأَلَّفَ الْأَوْتَارَ وَالْأَنْقَارَ

(١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(٢) بليينوس : خليفة هرمس .

(٣) أفلاطون أستاذ أرسططاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(٤) بطليموس : فيلسوف يوناني اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والاصطربلاب : ميزان الشمس ،

و به يعرف مقدار الساعات .

(٥) من أطباء اليونان .

(٦) عالم وطبيب يوناني .

(٧) أبو معشر : منجم عباسي مشهور ، والقضاء هنا : القدر ، وطريقةاه : الخير والشر .

(٨) من أعلام العرب في الكيمياء .

(٩) النظام : من أئمة المعتزلة وهو أستاذ الجاحظ .

(١٠) الكندي : أول فلاسفة العرب .

توليدك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى^١ بارى
أقلامك . وسهل بن هارون^٢ مدون كلامك ، وعمرو بن
بحر^٣ مستمليك ، ومالك بن أنس^٤ مستفتيك ، وأنك الذي
أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية^٥ وبين
الكيفية والكمية ، وناظر في الجوهر والعرض ، وميز الصحة
من المرض ، وفك المعنى^٦ ، وفصل بين الاسم والمسمى ،
وضرب وقسم ، وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ،
وبوب الظرف والحال ، وبنى وأغرب ، ونفى وتعجب ،
ووصل وقطع ، وثنى وجمع ، وأظهر وأضمر ، واستفهم
وأخبر ، وأهمل وقيد ، وأرسل وأسند^٧ ، وبحث ونظر ،
وتصفح الأديان ، ورجح بين مذهبي ماني وغيلان^٨ ، وأشار

(١) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين .

(٢) سهل بن هرون : بليغ مشهور وهو أستاذ الجاحظ .

(٣) هو الجاحظ .

(٤) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذي دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(٥) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تهكم واضح .

(٦) المعنى : المलगز من اللغز .

(٧) إشارة إلى المسند في الحديث ، والمرسل وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٨) ماني : صاحب نحلة دينية عند الفرس تسمى المانوية ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو

يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام . وغيلان أول من تكلم في القدر بين المسلمين في العصر
الأموي وهو دمشق .

(٩) الجعد : مولى لبني الحكم ، تكلم في القدر وغيره ، وتجاوز الحدود فقتله خالد القسري في

العراق في أثناء ولايته هناك .

بِذَبْحِ الْجَعْدِ ١ ، وَقَتْلِ بَشَارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ
 خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ الْمَعْهُودَاتِ ، فَأَحَلَّتْ الْبِحَارَ
 عَذْبَةً ، وَأَعَدَّتْ السَّلَامَ ١ رَطْبَةً ، وَنَقَلْتَ غَدًا فِصَارًا أَمْسًا ،
 وَزِدْتَ فِي الْعُنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ، وَأَنَّكَ الْمَقُولُ فِيهِ : كُلُّ
 الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا ٢ ، وَ :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ ٣

وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ
 وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَبْيَاتِهَا

فَكَدَّمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ٤ ، وَاسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ
 فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ٥ ، وَلَمْ تَجِدْ لِرُمَحٍ مَهْزًا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْزًا ٦ ،
 بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ٧ ، وَتَمَنَّيْتَ الرَّجُوعَ بِخُفْيٍ

(١) السلام : الحجارة الصلبة .

(٢) مثل يضرب في الشيء الذي يزيد غيره ويفضله .

(٣) هذا البيت لأبي نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٤) عضضت في غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه .

(٥) نفخت في غير ضرم : أي نفخت في رماد لا في نار .

(٦) المحز : مكان الحز أي القطع .

(٧) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه في مطلبه .

حَنِينٍ^١ ، لِأَنِّي قُلْتُ : « لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ^٢ »
وَأَنْشَدْتُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صَرْنَتْ كُلَّهَا عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبٌ^٣
وَنَخَرَتْ^٤ ، وَبَسَرَتْ^٥ ، وَعَبَسَتْ^٦ وَكَفَرَتْ . وَأَبْدَأَتْ^٧
وَأَعَدَّتْ^٨ ، وَأَبْرَقَتْ^٩ وَأَرَعَدَتْ^{١٠} ، « وَهَمَمْتُ^٩ وَلَمْ أَفْعَلْ
وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي » ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ، وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ،
لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَدَالِ الدَّمَسْتِيقِ^{١٠} ، وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ
عَادَتْ الْعَقْرَبُ ، وَالْعَقُوبَةُ مُمْكِنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمُدْنِبُ .

وَهَبَّهَا لَمْ تُلَاحِظْكَ بَعِينٍ كَلِيدَةٍ عَنِ عَيْوَبِكَ ، مِلْوُهَا
حَبِيبِهَا ، حَسَنٌ فِيهَا مَنْ تَوَدُّ ، وَكَانَتْ أَنْ حَلَّتْكَ بِحُلَاكَ ،
وَوَسَمَتْكَ بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ،

(١) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٢) شطر بيت هو : « أرب يبول الثعلبان برأسه - لقد هان من بالت عليه الثعالب » قاله رجل من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى يوماً ثعلباً يبول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى الرسول وأسلم .

(٣) البيت من قصيدة في الرثاء لأبي تمام .

(٤) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٥) بسر : غضب .

(٦) عبس : أظهر العبوس والغضب .

(٧) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(٨) يقال أبرق وأرعد إذا هدد .

(٩) هممت بشيء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٠) الدمستيق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، والقذال : القفا .

بل صدقت سن بكرها فيما ذكرته عنك^١ ، ووضعت الهناء
 مواضع النقب^٢ بما نسبته إليك ، ولم تكن كاذبة فيما
 أثنت به عليك ، فالمعدي تسمع به خير من أن تراه :
 هجين القدال^٣ ، أرعن السبال^٤ ، طويل العنق والعلاوة^٥
 مفراط الحمق والغباوة^٦ ، جاني الطبع ، سيى الجابة والسمع^٦ ،
 بغيض الهيئة ، سخيף الذهب والجيئة^٧ ، ظاهر الوسواس ،
 منتن الأنفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك
 متممة^٧ ، وحديثك غمغمة^٨ ، وبياناتك فهفهة^٩ وضحكك
 قهقهة^٨ ، ومشيئك هرولة^٨ ، وغناك مسألة^{١٠} ، ودينك زندقة^٨ ،
 وعلمك مخرقة^{١١} :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق^{١٢}

(١) يقال صدقت سن بكرها : أى لم تقل إلا صدقاً .

(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر فى موضعه ، والهناى : القطران ، والنقب مبادئ الحرب فى

البعير . . .

(٣) كناية عن خسة الأصل .

(٤) السبال : الشنب ، يريد أنه أحمق .

(٥) العلاوة : الرأس ، وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحمافة .

(٦) الجابة : الإجابة .

(٧) التردد فى التاء .

(٨) الغمغمة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .

(٩) عى عن النطق بترديد الفاء .

(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .

(١١) مخرقة : من الخرق وهو الحمق .

(١٢) البيت لأبى تمام من قصيدة فى الهجاء .

حتى إنَّ باقلاً^١ موصوفٌ بالبلاغةِ إذا قرِنَ بك ، وهبَنقة^٢
مُسْتَوْجِبٌ لِاسْمِ الْعَقْلِ إذا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطَوَيْساً^٣ مأثورٌ
عنه يُمْنُ الطَّائِرِ إذا قِيسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالْاِغْتِبَاطُ
بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ^٤ ، كَيْفَ
رَأَيْتَ لَوْمَكَ لِكَرَمِي كِفَاءً^٥ ، وَضَعْتِكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ؟
وَأَنِّي جَهَلْتُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرَ إِنَّمَا
تَقَعُ عَلَى الْأَفْهَامِ ؟ وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ،
وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ لَا يَتَقَارِبَانِ ، وَقُلْتَ : الْخَبِيثُ
وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ^٦ ، وَتَمَثَّلْتَ :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ^٧ ؟

وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلِقُ^٨ لَا يَبَاعُ مِنْ زَادٍ ، وَطَائِرٌ لَا يَصِيدُهُ
مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضٌ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَنْ أَجَادَ ؟ مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا

(١) باقل : يضرب به المثل في العي .

(٢) هبنقة : يضرب به المثل في الخبل وضعف العقل .

(٣) مغن بالمدينة في العصر الأموي كانوا يتشاءمون منه .

(٤) سقر : جهنم .

(٥) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : « لا يستوى الخبيث والطيب » .

(٧) البيت لعمر بن أبي ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيل بن عمر بن عبد العزيز .

(٨) العلق : النفيس .

قد تَهَيَّأتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْ أَنَّ جُرْحَ
 الْعَجْمَاءِ جُبَّارٌ ٢ ، لِلْقَيْتِ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى يَسَارٌ ٣ ،
 فَمَا هَمٌّ إِلَّا بِبَعْضِ مَا هَمَمْتَ بِهِ ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِأَيْسَرِ
 مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ ، أَيَّنَ ادِّعَاؤُكَ رِوَايَةَ الْأَشْعَارِ وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ
 السِّيَرِ وَالْأَخْبَارِ ، أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :
 بَنُو دَارِمٍ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتَعَقَّدُ فِي أَكْفَانِهَا الْحَبِطَاتُ ٤ ،
 وَهَلَّا عَشَّيْتُ ٥ وَلَمْ تَغْتَرَّ ، وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ تَكُونُ وَافِدًا
 الْبَرَاجِمِ ٦ أَوْ تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ٧ ، وَهَلْ عَضَلَنِي ٨
 هَمَامٌ بِنُ مَرَّةٍ فَأَقُولُ : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ ، خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ .
 وَلِعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَا رَتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْحِطَّةِ .

(١) الترفية : الرفاهية .

(٢) حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ، والعجاء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، والمعنى
 أن البهيمة إذا جرحت لا دية لها ولا قصاص ، ويريد ابن زيدون أن يستهين بابن عبدوس .

(٣) يسار : عبد دميم آذته مولاته حين توهم أنها تحبه .

(٤) البيت للفرزدق ، وهو في هجاء حى الحبطات ، والمعنى أن بنى دارم يصهرون إلى بنى مسمع ،
 أما الحبطات فيصهرون إلى من يشابههم في الخسة .

(٥) عشيت : رفقت .

(٦) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند ، والبراجم خمسة من أولاد حنظلة ،
 والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً من بنى تميم لثأر له عندهم ،
 وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مر رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القنطار
 فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقبل له : من أنت ، فقال : أنا وافد البراجم ، فألقى في النار .

(٧) المتلمس : شاعر جاهلي وتخصته معروفة مع عمرو بن هند ملك الخيرة .

(٨) عضل المرأة : منعها من الزواج ، وكان همام بن مرة قد منع بناته الأربع من الزواج وخرجن

على رغبته فضرب به وهن المثل .

ولا رَضِيتُ بهذه الخِطَّةِ ، فالنارُ ولا العارُ ، والمنيةُ ولا الدنيةُ ،
والحرَّةُ تجوعُ ولا تأكلُ بِشَدِيدِهَا ١ :

فكيفَ وفي أبناءِ قوميَ منكَحُ ٢ وفتيانُ هزَّانِ الطَّوالِ الغرانيقةُ ٣

وما كنتُ لأتخطَّى المِسْكَ إلى الرَّمادِ ، ولا أمتطى الثَّورَ
بعدَ الجوادِ ، فإنما يتيمُّ مَنْ لم يجدْ ماءً ، ويرعى الهشيمَ ٤ ،
مَنْ عَدِمَ الجميمَ ٥ ، وَيَرْكَبُ الصَّعْبَ ٦ مَنْ لا ذُلُولَ له .
ولعلَّكَ إنما غرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صبوتى إليه ، وشهدتَ مساعفتى
له ، مِنْ أقمارِ العصرِ ، ورياحينِ المِصرِ ، الذين همُّ الكواكبُ
عُلُوَّ هِمَمٍ ، والرياضُ طيبَ شِيمٍ :

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقْلًا لاقيتُ سيِّدَهُمْ ٧ مثلَ النجومِ التي يسرى بها السارى ٨

تَجِنُّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا ٩ ، ما أَنْتَ وَهُمْ ؟ وَأَنْىَّ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟
وهل أَنْتَ إِلاَ وَأُوْ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وكالوشِيطَةِ ١٠ فى العَظْمِ بَيْنَهُمْ .

(١) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبح الأحدثة .

(٢) اسم قبيلة والغرانيقة الشباب والبيت للأعشى .

(٣) الهشيم : النبت اليابس .

(٤) الجميم : النبت الرطب .

(٥) الصعب : الذى لا يطيع فهو ضد الذلول .

(٦) البيت لشاعر يسمى العرندس .

(٧) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدهح : أحد قدهاح الميسر .

(٨) الوشيطة : النتوء فى العظم .

وإن كنت إنما بلغت قعرَ تابوتك^١ ، وتجافيت عن
بعض قوتك^٢ ، وعطرت أردانك^٣ ، وجررت هميانك^٤ ،
واختلت في مشيتك^٥ ، وحذفت فضولَ لحيتك^٦ ، وأصلحت
شاربك^٧ ، ومططت حاجبك ورقتَ خطِّ عذارك^٨ ، واستأنفت
عقدَ إزارك^٩ ، رجاء الاكتنان فيهم^{١٠} ، وطمعاً في الاعتداد
منهم^{١١} ، فظننت عجزاً ، وأخطأت الغرض . والله لو كساك
مُحرقُ البردين^{١٢} ، وحلتك مارية^{١٣} بالقرطين^{١٤} ، وقلدك
عمرو^{١٥} الصمصامة^{١٦} ، وحملك الحارث^{١٧} على النعام^{١٨} ، ما
شككت فيك ، ولا سترت^{١٩} أباك^{٢٠} ، ولا كنت إلا ذاك .
وهبك ساميتهم في ذروة المجد والحسب^{٢١} ، وجاريتهم في

(١) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٢) الأردن : الأكام .

(٣) الهميان هنا : السروال .

(٤) العذار : ما تنبت على الحد من الشعر .

(٥) كناية عن التجمل في الثياب .

(٦) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة ، لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ، فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذها .

(٧) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالشام اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(٨) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدي اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى في

الفتوح .

(٩) النعام : فرس الحارث بن عباد البكري سيد وائل في الجاهلية .

(١٠) ولا سترت أباك : أى لم تخف على شأنك ونسبك .

غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدْبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى بَيْتٍ قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ ١
 إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبٌ خَالِي الذَّرَاعِ ٢ وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ
 لَا أُغْلَبُ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخْسِّ مِنْهُ ٣ ، وَهَلْ يَجْمَعُ لِي
 فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسَوْءُ الْكَيْلَةِ ٤ ، وَيَقْتَرُنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا
 الْغَدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ ٥ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمَ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ٦

مَا كَانَ أَنْ خَلَقَكَ بَأَنَّ تَقْدِرَ بِذِرْعِكَ ٧ ، وَتَرَبَّعَ بِذَلِكَ عَلَى
 ظَلْعِكَ ٨ ، وَلَا تَكُنْ بَرَاقِشَ ٩ الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزَ السَّوِّءِ
 الْمُسْتَشِيرَةَ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ بِكَ الْعِشَاءُ عَلَى
 سِرْحَانٍ ١٠ ، وَبِكَ لَا بِيْظِي أَعْفَرَ ١١ ، قَدْ أَعْذَرْتُ إِنْ أَعْنَيْتُ

(١) القعيدة : الزوجة . واللکاع : اللئيمة .

(٢) خالی الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالی اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .

(٣) المعنى : كيف أوازن بين زوج أنفرد به ، وآخر لا أنال منه إلا فضلة غيرى من الزوجات ؟

(٤) مثل يضرب في الخلتين السيئتين تجتمعان ، والحشف : أردأ التمر .

(٥) امرأة من بنى سلول . دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل ، فظهر في رقبتة

غدة ، ومات في بيت سلولية (من بنى سلول) فقال : غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلولية .

(٦) البيت لأبي العتاهية .

(٧) تقدر بذرعك . تقيس الأمر بجهدك .

(٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه . وتربع : تقيم ، والظلع : العرج في البعير .

(٩) يشير إلى المثل : جنت على أهلها براقش ، وهى كلبة غزا أهلها قوم ، فلم يعرفوهم حتى

نبحث ، فكانت شؤماً عليهم .

(١٠) السرحان : الذئب .

(١١) مثل يضرب للشهامة ، والأعفر : الذى لونه لون العفار أى التراب .

شَيًّا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا :

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ^١ وَالشَّيْءُ تَحَقَّرَهُ^٢ وَقَدْ يَنْمِي^٣

وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ،

كَنتَ قَدْ اشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قَلْتَ :

جَعَجَعَةٌ وَلَا طِخْنَ^٣ ، وَرَبِّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ^٤ ، وَأَنْشَدْتَ :

لَا يُؤَيِّسُنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ^٥ قَوْلٌ تُغَلِّظُهُ^٦ وَإِنْ جَرَحَا^٧

فَعُدْتَ لَمَّا نُهِيتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ،

بَعَثْتُ مَنْ يَزْعِجُكَ إِلَى الْخَضْرَاءِ^٦ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا

وَكُزًّا^٧ وَصَفْعًا ، فَإِذَا صَرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ^٨ أَكَّارُوهَا بِكَ^٩ ،

وَتَسَلَّطَ نَوَاطِيرُهَا^٩ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ،

لِتَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

(١) مثل للتحذير .

(٢) مثل للتحذير أيضاً والبيت للحارث بن وعله البشكري .

(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين .

(٤) الصلف : قلة الخير ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير الرعد . وهو مثل يضرب لمن

يتوعد من غير أن يفعل .

(٥) البيت لبشار بن برد .

(٦) الخضراء : الناحية المزروعة من البلد .

(٧) الوكز : ضرب الظهر مع الدفع .

(٨) الأكارون : الفلاحون .

(٩) النواطير : جمع ناطور وهو البستاني .

٦ - الرسالة الجديدة

يا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وِدَادِي لَهُ ، وَاِعْتِدَادِي بِهِ ،
 وَاِعْتِمَادِي عَلَيْهِ ، أَبْقَاكَ اللَّهُ مَاضِيَّ حَدِّ الْعِزْمِ ، وَارَى زَنْدِ
 الْأَمَلِ^١ ، ثَابِتَ عَهْدِ النِّعْمَةِ . إِنَّ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
 لِبِئْسَ نِعْمَائِكَ ، وَعَظَّمْتَنِي مِنْ حَلَى إِيْنَائِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى
 بَرُودِ إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَنِي بِكَ كَفَّ جِيَاظَتِكَ ، وَغَضَضْتَنِي
 عَنْ طَرَفِ حِمَايَتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ،
 وَسَمِعَ الْأَصْمَّ ثَنَائِي عَلَيْكَ ، وَأَحْسَسَ الْجَمَادُ بِاسْتِنَادِي إِلَيْكَ ،
 فَلَا غَرَوْ قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاءُ الْمُسْتَشْفِيَّ
 بِهِ ، وَيُوْتِي الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنِّيِّ فِي أُمْنِيَّتِهِ ،
 وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحُسَادِ
 وَإِنِّي لِأَتَجَلَّدُ وَأُرِي الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا
 أَتَضَعُضَعُ ، فَأَقُولُ : هَلْ أَنَا إِلَّا يَدٌ أَدْمَاهَا سِوَارُهَا ، وَجَبِينُ
 عَضَّهُ إِكْلِيلُهُ^٢ ، وَمَشْرِفِي^٣ أَلْصَقَةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمَهْرِي^٤

(١) وري الزند : أخرج منه النار واقتدحه .

(٢) الاكليل : التاج .

(٣) المشرف : السيف .

(٤) السمهرى : الرمح .

عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفَهُ ١ ، وَعَبْدٌ ذَهَبَ بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ
الذی یقول ٢ :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلِيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ

هذا العتبُ محمودٌ عَوَاقِبُهُ ، وهذه النبوةُ غَمْرَةٌ ثم
تَنْجَلِي ٣ ، وهذه النكبةُ سحابةٌ صَيْفٌ عن قليل تَقَشَّعُ ،
ولن يَرِيْبَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ أَبْطَأَ سَيْبُهُ ٤ ، أو تَأَخَّرَ - غيرَ
ضَنِينٍ - غَنَاوَهُ ٥ ، فَبْأَبْطَأَ الدِّلَاءُ فَيَضًا أَمْلُوهُا ، وَأَثْقَلُ
السَّحَابِ مَشِيًا أَحْفَلُهَا ، وَالذُّ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَلِيلاً
ومع اليومِ غَدٌ ، ولكلُّ أَجَلٍ كِتَابٌ . له الحمد على اهْتِبَالِهِ ٦
ولا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ :

فَإِنْ يَكُنُ الْفَعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّائِي سَرَرْنَ أُلُوفُ

وَأَعُودُ فَأَقُولُ : لَيْتَ شِعْرِي مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لِمُ

(١) مثقفه : صانعه وصاقله .

(٢) هو أبو تمام .

(٣) النبوة : الجفوة . والغمرة : الشدة ، وهو مثل يضرب لليسر بعد العسر .

(٤) السيب : العطاء .

(٥) الغناء : المال والنفع .

(٦) الغليل : شدة العطش .

(٧) الاهتبال : الاهتمام وإتاحة الفرصة .

يَسَعُهُ عَفْوُكَ ، والجهل^١ الذى لم يأت من ورائه حِلْمُكَ ،
والتَّطَاوُلُ^٢ الذى لم يستغرقه تَطَوُّلُكَ^٣ ، والتحامل^٤ الذى
لم يَفِ به احتمالك ، ولا أَخْلُو من أن أكون بريئاً فأين
العدل؟ أو مُسِيئاً فأين الفضل؟ :

إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ

حَنَانِيكَ! قد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبِّيَّ^٥ ، ونالني ما حَسِبِي بِهِ
وَكَفَى ، وما أَرَانِي إِلَّا لو أُمِرْتُ بالسُّجُودِ لِآدَمَ^٦ فَأَبَيْتُ^٧
وَاسْتَكْبَرْتُ ، وقال لِي نُوحٌ : ارْكَبْ مَعَنَا^٨ فَقُلْتُ «سَأْوَى
إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ» وَأُمِرْتُ بِبِنَاءِ الصَّرْحِ^٩ لَعَلِّي
أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ^{١٠} ، وَاَعْتَدَيْتُ فِي
السَّبْتِ^{١١} . وَتَعَاطَيْتُ فَعَقَرْتُ^{١٢} ، وَشَرِبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي

(١) الجهل : الحمق .

(٢) التطاول : الاستعلاء .

(٣) التطول : الفضل .

(٤) حنانيك : رحمتك .

(٥) الزبي : جمع زبية وهي الحفرة في المكان المرتفع ، وهو مثل يضرب حين يتفاقم الأمر .

(٦) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ،

وفي ذلك قال تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٧) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه فقال كما في القرآن الكريم

« سأوى إلى جبل يعصمني من الماء » فغرق .

(٨) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمر هامان أن يبني له صرحاً أى قصرأ عالياً لعله يرى إله موسى .

(٩) يشير إلى قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى .

(١٠) يشير إلى قصة بنى إسرائيل حين نهام عن الصيد . يوم السبت فخالفوا ما نهاها عنه فحق بهم

العذاب .

(١١) يشير إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله

وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .

ابتلى به جيوش طالوت^١ ، وقُذتُ الفيلَ لأبرهة^٢ ، وعاهدتُ قريشاً
على ما في الصحيفة^٣ ، وتآولتُ في بيعةِ العقبة^٤ ، وانخذلتُ
بثلثِ الناسِ يومَ أُحدٍ^٥ ، وتَخَلَّفْتُ عن الصلاةِ في بني
قُرَيْظَةَ^٦ ، وجئتُ بالإفكِ^٧ على عائشةِ الصديقةِ ، وَأَنْفَتُ
مِنْ إِمَارَةِ أُسَامَةَ^٨ ، وزعمتُ أَنَّ بيعةَ أَبِي بكرٍ كانتُ فلتةً^٩ ،
وَرَوَيْتُ رُمْحِي من كتيبةِ خالدٍ^{١٠} ، وَمَزَّقْتُ الأديمَ^{١١} الذى

(١) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر ، فخالفوه ووقعوا في الإثم .

(٢) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشي وخروجه في جيش لهدم الكعبة .

(٣) هي الصحيفة التي كتبها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .

(٤) بيعة العقبة بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة قد تأول فيها أى خالف الإجماع ، وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(٥) يشير إلى واقعة أُحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .

(٦) بنو قريظة : طائفة من اليهود ، وقد أمر النبي أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر في قريظة يعنى بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم ، على أن من تخلف لم يمتبر هذا ذنباً له !

(٧) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضی الله عنها مشهورة .

(٨) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولى رسول الله عليهم أسامة بن حارثة .

(٩) قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبي بكر ، فن الخطأ أن يتمثل في الذنوب بهذه العبارة ، والشيعه يرون أن على بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ولعله يشير إلى هذا الرأي .

(١٠) يشير إلى من حاربوا خالداً في أيام الردة .

(١١) يشير إلى أديم عمر الذي مزقه أبو لؤلؤة حين قتله وإلى قول الشاعر في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَضَحَّيْتُ بِالْأَشْمَطِ ١ ، الَّذِي عُنْوَانُ
السُّجُودِ بِهِ ، وَبَدَلْتُ لِقَطَامٍ ٢ :

ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرَبَ عَلِيٌّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ
وَكَتَبْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ ٣ : أَنْ جَعَجِعَ ٤ بِالْحُسَيْنِ ،
وَتَمَثَلْتُ عِنْدَمَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ ٥ :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بَبَدْرِ عِلْمُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ
وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَةَ عَلَى الثَّنِيَّةِ ٦ - لَكَانَ ٧
فِيمَا جَرَى عَلَى مَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُسَمَّى نَكَالًا . وَيُدْعَى وَلَوْ عَلَى
الْمَجَازِ عِقَابًا :

وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بَامْرِي ٨ تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَا
فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَيْمَةً ٩ أَهْدَاهَا كَاشِحٌ ١٠ ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ

(١) الأشمط عثمان وفيه يقول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرأ ذا

(٢) قطام : صاحبة ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب .

(٣) يشير إلى قتل الحسين .

(٤) جعجع : ضيق الحناق .

(٥) المتمثل يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبير الذي نظم في واقعة أحد وذلك حين

علم يزيد بهزيمة جيوشه لأهل المدينة الخارجين عليه .

(٦) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله بن الزبير ، على

الثنية وهي طريق الكعبة .

(٧) جواب « لو » المذكورة في الجملة السابقة « لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت » .

(٨) كاشح : عدو ، ومن هنا أخذ يبرئ نفسه من التهمة التي دسها عليه النمامون كذباً .

فاسقٌ . وَهُمْ الْهَمَّازُونَ^١ الْمَشَّائُونَ^٢ بِنَمِيمٍ ، وَالوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَصْدَعُوا الْعَصَا^٣ ، وَالغَوَاةُ الَّذِينَ لَا يَتْرَكُونَ أَدِيمًا^٤ ؛ صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : مَا ظَنُّكَ بِقَوْمِ الصَّدَقِ مُحَمَّدٍ إِلَّا مِنْهُمْ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً^٥ وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ^٥

وَاللَّهُ مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا انْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ^٦ ، وَلَا نَصَبْتُ^٧ لَكَ بَعْدَ التَّشْيِيعِ فِيكَ ، وَلَا أَزْمَعْتُ^٨ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفَلْتُ بِهِ الثِّقَةَ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عِبَثِ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي^٩ ، وَعَاثِ الْعُقُوقِ فِي مَوَدَّتِي^{١٠} ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي؟ وَلِمَ ضَاقَتْ مَذَاهِبِي ، وَأَكَّدَتْ^{١١} مَطَالِبِي؟ وَعِلَامَ رَضِيَّتِي مِنَ الْمَرْكَبِ

(١) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .

(٢) المشائون : الساعون بالنميمة .

(٣) كناية عن التفريق .

(٤) الأديم أى الجلد ، كناية عن الشخص كله .

(٥) البيت للنايعة .

(٦) الصاغية : الأذن ، وهى هنا كناية عن خاصة الشخص الذين يصغون اليه ويغشون مجلسه .

(٧) نصب : عادى .

(٨) أزعم : أقدم .

(٩) الأذمة : الحرمات جمع ذمام .

(١٠) العقوق : كفران النعمة .

(١١) أكادت : بخلت .

بالتعليق ، بل من الغنيمه بالإياب^١ ، وأني غلبني المغلب^٢
 وفخر على العاجز الضعيف^٣ ، ولطمتني غير ذات سوار^٤ ؟
 ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس^٥ ، وتدركني ولما أمزق^٦ . أم
 كيف لا تتضرم جوانح الأكفاء^٧ حسداً لي على الخصوص
 بك ، وتتقطع أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك ،
 فكيف وقد زاني قديم خدمتك ، وزهاني وسم نعمتك ،
 وأبلت البلاء الجميل في سباطك^٨ ، وقمت المقام المحمود
 على بساطك ؟ .

ألست المولى فيك غر قصائد هي الأنجم اقتادت من الليل أنجما
 ثناءً يُظن الروض منه منوراً ضحى ويخال الوشى فيه منمنما
 وهل لبس الصباح إلا برداً طرّزته بنمضائك وتقلدت
 الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرِك ، واستملى الربيع إلا ثناءً
 ملأته بمحاسنِك ، وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدِك ؟

(١) يشير إلى قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمه بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) في المثل لو ذات سوار لطمتني . أي اللاطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السباط : الصف .

ما يومٌ حليمةً بِسِرٍّ^١ ، وإن كنتُ لم أَكُسِكَ سَلِيباً ،
 ولا حَلِيَّتِكَ عُطْلاً ، ولا وسمتِكَ غُفْلاً ، بل وجدتُ آجُرًا
 وجِصًّا فبنيتُ ، ومكانَ القولِ ذا سَعَةٍ فقلتُ . حاشَ لكَ
 أنْ أُعَدَّ من العَامِلَةِ النَّاصِبَةِ^٢ ، وأَكُونَنَّ كَالذُّبَالَةِ المنصوبةِ
 تُضِيءُ للناسِ وتُحترقُ^٣ ، فلكَ المَثَلُ الأعلى ، وهو ، بِكَ
 - وَبِي فِيكَ - أَوْلَى .

ولعمري إنَّ صرِيحَ الرَّأْيِ أنْ أَتَحَوَّلَ؛ إِذَا بَلَغْتَنِي الشَّمْسُ
 وَنَبَا بِي المَنْزِلُ ، وَأَصْفَحَ عن المَطَامِعِ التِّي تُقَطِّعُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ ،
 وَلَا أَسْتَوِطِي العُجْزَ ، وَلَا أَطْمئنُّ إِلَى الغُرُورِ ، فَيُضْرَبُ بِي
 المَثَلُ : « نَخَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ^٤ » . وَإِنِّي مَعَ المَعْرِفَةِ بِأَنَّ الجَلَاءَ^٥
 سِبَاءٌ^٦ ، وَالنَّقْلَةَ مُثَلَّةٌ^٧ :

وَمَنْ يَغْتَرِبُ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْحَبًا

(١) مثل يضرب في كل أمر مشهور .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية » .

(٣) نثر قول العباس بن الأحنف :

صرت كأني ذبالة نصبت تضياء للناس وهي تحترق

(٤) هنا ثارت نفس ابن زيدون وأخذ يهدد بفراقه للوطن وأذنه لا يصبر على الهوان .

(٥) أصفح : أضرب .

(٦) مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ولم تمنعه معرفته أن يميل إليها ويغتر بها .

(٧) الجلاء : النزوح عن الوطن .

(٨) السبأ : الأسر .

(٩) مثلة : نكال وعقاب .

وتُدفنُ منه الصالحاتُ وإن يُسىءُ^١ يكنُ ما أساءَ النارُ في رأسِ كَبْكَبَا^١
لَعَارِفٌ أَنّْ الأَدبَ الوَطَنُ الذي لا يُجشَى فراقَهُ ،
والخَلِيطُ الذي لا يُتَوَقَّعُ زِيالُهُ^٢ ، والنَسَبُ الذي لا يُجَنَى ،
والجَمالُ الذي لا يُخْفَى . ثمَّ ما قرانُ السعدِ بالكواكبِ أبهى
أثراً ، ولا أَسنى خَطراً ، من اقترانِ غنىِ النفسِ به ،
وانتظامِها نَسقاً معه ، فإنَّ الحائزَ لهما ، الضاربَ بسهمٍ
فيهما - وقليلٌ ما هُم - أيما توجَّهَ ورَدَّ أعذبَ منهلٍ ، وحطَّ
في جنابِ قبولٍ فنزَلَ ، وضوحكُ قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ، وأعطى
حُكْمَ الصبيِّ على أهلهِ :

وقيلَ له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَبِيتٌ صالحٌ ومَقِيلٌ^٣
غيرَ أَنَّ الموطنَ محبوبٌ^٤ والمنشأُ مألوفٌ ، واللبيبُ يحنُّ^٥
إلى وطنه ، حنينَ النَّجيبِ ° إلى عَطْنِهِ ، والكريمُ لا يجفو
أرضاً فيها قوابله^٦ ، ولا يَنسى بِلداً فيها مراضعُهُ :

(١) كَبْكَب : اسمُ جبلٍ في الحجاز .

(٢) الزِيال : المفارقة .

(٣) مقِيل : من القيلولة وهي هنا تقابل « مَبِيت » فيراد بها قضاء اليوم كله .

(٤) هنا هُدأت ثورة ابن زيدون ، فأخذ يعلن أنه لن يزايل جوار أبي الحزم بن جهور ولا مدينته

التي هي وطنه وبلده .

(٥) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٦) القوابل : جمع قابلة وهي التي تستقبل المولود عند نزوله .

أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعِجٍ^١ إِلَى وَسَلْمَى أَنْ يَصُوبَ^٢ سَحَابُهَا
 بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي^٣ وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِدِيدِي تَرَابُهَا
 هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ^٤ جِوَارِكِ ، وَمُنَافَسَتِي فِي الْحِظِّ
 مِنْ قُرْبِكَ ، وَاعْتِقَادِي أَنَّ الطَّمْعَ فِي غَيْرِكَ طَبَعٌ^٥ ، وَالغِنَى
 مِنْ سِوَاكَ عَفَاءٌ ، وَالْبَدَلَ مِنْكَ عَوَزٌ^٦ ، وَالْعِوَضَ لَفَاءً^٧ :
 وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَمِيرِي زَادَنِي ضَنًّا بِهِ نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ
 وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا^٨ ، وَفِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ ،
 وَاسْتَمَجَدَ الْمَرْخُ وَالْعَفَارُ^٩ .

فَمَا هَذِهِ الْبِرَاءَةُ^{١٠} مِمَّنْ يَتَوَلَّاكَ ؟ وَالْمَيْلُ عَمَّنْ يَمِيلُ إِلَيْكَ ؟
 وَهَلَّا كَانَ هَوَاكَ فَيَمُنْ هَوَاهُ فِيكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :
 يَأْمَنُ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدَانَنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ^{١١}

(١) منعج : موضع .

(٢) يصوب : يهطل .

(٣) التأمم : جمع تميمية وهي العوذة التي تعلق على الصبي لاتقاء الحسد .

(٤) العقد : الضمان والعهد .

(٥) الطبع : الدناءة والخسة .

(٦) عوز : فاقة .

(٧) لفاء : خسة .

(٨) مثل يضرب في الشيء الذي يفضل غيره .

(٩) المرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعاً الاتقاد ، واستمجد : زاد ناراً واتقاداً ، وهو مثل

يضرب أيضاً في الشيء الذي يفضل غيره .

(١٠) رجع ابن زيدون يستعطف ابن جهور متذللاً خاضعاً لعله يلين له .

(١١) البيت للمتنبي .

أَعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيمَ خُلْبًا^١ ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا^٢ ،
 وَأَكْدِمَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ^٣ وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ
 وَالرَّخَمِ^٤ . وَإِنَّمَا أَبَسَسْتُ^٥ لَكَ لِتَدْرَ ، وَحَرَّكَتُ لَكَ الْحَوَارَ^٦
 لِتَحِنَّ ، وَنَبَّهْتُكَ لِأَنَامَ ، وَسَرَيْتُ إِلَيْكَ ، لِأَحْمَدَ السُّرَى
 لَدَيْكَ . بَعْدَ الْيَقِينِ أَنْكَ إِنْ سَنَيْتَ^٧ عَقْدَ أَمْرِي تَيْسَّرَ ،
 وَمَتَى أَعْذَرْتَ^٨ فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ ، وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ
 بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمْرَةَ النِّعْمَةِ ، وَالشِّفَاعَةَ زَكَاةُ الْمَرْوَعَةِ ، وَفَضْلُ
 الْجَاهِ ، تَعَوُّدُ بِهِ ، صَدَقَهُ :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً^٩ مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ^٩
 لَعَلِّي أُلْقِيَ الْعَصَا بِذِرَاكَ^{١٠} ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي ظِلِّكَ ،
 وَأَسْتَأْنِفُ التَّادِبَ بِأَدْبِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا

(١) شام خلباً : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٢) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٣) مثل يضرب لمن يريد الشيء من غير موضعه .

(٤) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبي :

ولا تشك إلى قوم فتشمتم
 شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

(٥) أبست : رفقت . وتدر : تسيل ، الناية عن تحوله إلى الرضا .

(٦) الحوار : ولد الناقة .

(٧) سنى : سهل .

(٨) أعذرتى : طلب العذر .

(٩) البيت لأبي تمام .

(١٠) الذرى : الكنف والجانب .

أُوجِدَ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحِظَةٍ ، وَلَا أَدَعُ لِلْقَادِحِ مَسَاغَ
لَفِظَةٍ ، وَاللَّهُ شَهِيدُكَ مِنْ إِطْلَابِي^١ بِهَذِهِ الطَّلِبَةِ ، وَإِشْكَائِي^٢
مِنْ هَذِهِ الشُّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ بِهَا مَكَانَ المَصْنَعِ^٣ ،
وَتَسْتَوِدُّعُهَا أَحْفَظَ مُسْتَوْدَعٍ ، حَسْبَا أَنْتَ خَلِيقٌ لِي ، وَأَنَا
مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ ، فَذَلِكَ بِيَدِكَ ، وَهَيِّنْ عَلَيَّكَ .

* * *

وَلَمَّا تَوَالَتْ غُرُرُ هَذَا النُّثْرِ ، وَاتَسَقَّتْ دُرَرُهُ . فَهَزَّ
عِطْفَ غُلَوَائِهِ ، وَجَرَ ذَيْلَ خِيَلَاتِهِ ، عَارِضَهُ النِّظْمُ مُبَاهِيَا ،
بَلْ كَايِدُهُ مُدَاهِيَا ، حِينَ أَشْفَقَ مِنْ إِنْ يَعْطِفَكَ اسْتِعْطَافُهُ ،
وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الطَّافُهُ ، فَاسْتَحْسَنَ العَائِدَةَ مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ
بِالفَائِدَةِ لَهُ ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ العَلِيلَ ، وَالخَاطِرَ
الْكَلِيلَ ، حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُودَةً فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةً^٥
بِحَلِيِّهَا وَمَلَابِئِهَا^٦ ، وَهِيَ هِيَ :
الهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ . وَالْمُنَى فِي هَبُوبِ ذَاكَ النِّسِيمِ .

(١) إطلابي : من أطلبه أى أعطاه ما طلبه .

(٢) إشكائي : إزالة شكواي .

(٣) المصنع : الصنع ، مصدر ميمي .

(٤) العائدة : الصنيع والمعروف

(٥) منصوصة : مجلودة .

(٦) الملاب : الزعفران .

سَرَّنَا عَيْشُنَا الرِّقِيقُ الحَوَاشِي
وَطَرٌ مَا انْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى
إِذْ خَتَامُ الرِّضَا المَسْوُغُ مِسْكٌ
وَعَرِيضٌ ٣ الدَّلَالِ غَضٌّ جَنَى
طَالَمَا نَافَرَ الهَوَى مِنْهُ غِرٌّ
زَارَ مُسْتَخْفِيًا وَهِيَهَاتَ أَنْ يَخْذُ
فَوْشَى الحَلَى إِذْ مَشَى وَهَفَا الطَّيِّ
أَيُّهَا المَوْذِنِي بِظُلْمِ اللِّيَالِي
قَمْرُ الأفْقِ إِنْ تَأَمَّلْتَ وَالشَّمِ
وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفِكُ يَنْحُو
بَوًّا اللهُ جَهْورًا شَرَفَ السُّوِّ
وَاحِدٌ سَلَّمَ الجَمِيعُ لَهُ الأُمُّ
لو يَدُومُ السَّرُورُ للمُسْتَدِيمِ
زَمْنٌ مَا ذِمَامُهُ ١ بِالذَّمِيمِ
وَمَزَاجُ الوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ ٢
الصَّبُوبَةُ نَشْوَانٌ مِنْ سُلَافِ النِّعَمِ
لَمْ يَطْلُ عَهْدٌ جَيِّدٌ بِالتَّمِيمِ ٥
فِي سُرَى البَدْرِ فِي الظَّلَامِ البُهيمِ
بُ إِلَى حِسِّ كَاشِحٍ بِالنَّمِيمِ
لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
سُ هَمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
بِالمَصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيمِ
دَدٍ فِي السَّرْوِ ٧ وَالثَّلَّابِ الصَّمِيمِ
رَ فَكَانَ الخِصُوصُ وَفَقَ العُمُومِ

(١) الذمام : العهد .

(٢) التسنيم : ماء الجنة ، وفي القرآن الكريم : « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك

فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) عريضة الدلال : مملوء به .

(٤) غض : ناضر .

(٥) التميم : جمع التميمية وهي العوذة .

(٦) واجد : حاقد .

(٧) السرو : الشرف .

قَلَدَ الْغُمْرُ^١ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ وَاکْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرٌ^٢ يَقْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي خُلِقَ بَارِعٌ وَخَلَقَ وَسِيمٌ^٣
 أَيْهَذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْعَصَا بِيَدِهِ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ^٤
 مَا عَنَانَا أَنْ يَأْنِفَ السَّابِقُ الْمَرَّ بَطَّ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ^٥
 وَبِقَاءِ الْحَسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْمِيمِ
 أَفْصَبُ مَعِينٍ خَمْسًا^٦ مِنَ الْآيِّ أَمْ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمِ
 وَمَعْنَى^٧ مِنَ الضَّنَى بِهَنَاتٍ نَكَاتٌ^٧ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ وَفِي الْعَا ئِدِ أَنْسُ يَفِي بِبُرِّ السَّقِيمِ
 نَارٌ بَغْيٍ سَرَتْ إِلَى جَنَّةِ الْأُمِّ نِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ^٨
 بِأَبِي أَنْتَ إِنْ تَشَأْتُكَ بَرْدًا وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
 لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْ بِ الْحَيَا^٩ لِلرِّيَاحِ لَاللَّغْيُومِ

(١) الغمر : قليل التجربة .

(٢) خطر : شرف .

(٣) وسيم : وقور .

(٤) تضمين للمثل المشهور : « إن العصا قرعت لذي الحلم » .

(٥) السابق : الفرس ، المرابط : اسم مكان ، العتق في الخيل : الكرم ، والتطهيم : تمام الحسن

فيها ، يشبه نفسه ، وهو في الاعتقال ، بالصفافن الذي سُم مكانه الذي ربط فيه لعتقه وكرمه .

(٦) إشارة إلى أنه قضى في السجن خمسمائة يوم .

(٧) نكأ : أدمى . الكلوم : الجروح . القرح : ما بالجرح من فساد .

(٨) الصريم : الليل الأسود .

(٩) الحيا : الغيث .

وزعيم^١ بأن يُذللَ لي الصَّعْ بَ مَثَابِي^٢ إلى الهمامِ الزعيمِ -
 وودادٌ يُغَيِّرُ الدهرُ ماشاءَ وَيَبْقَى بقاءَ عهدِ الكريمِ -
 وثناءٌ أرسلتهُ سلوةَ الظَّاءِ عَنِ عَن شوقِهِ وَلَهُوَ المقيمِ -
 فهو ريحانةُ الجليسِ ، ولا فِخْرَ ، وفيهِ مِزاجُ كأسِ النديمِ -
 ومتى تَبَدَّلِ الصنِيعَةَ يُولِعُ كَ تَمَامُ الخِصَالِ بالتَّتَمِيمِ -
 هاكها - أعزك الله - يَبْسُطُهَا الأملُ ، وَيَقْبِضُهَا الخجلُ ،
 لها ذنبُ التقصيرِ ، وحرمةُ الإخلاصِ ، فَهَبْ ذَنْباً لِحرمةٍ ،
 واشفعِ نعمةً بنعمةٍ ، لِيَتَأْتِيَ لَكَ الإحسانُ من جِهَاتِهِ ،
 وتَسْلُكَ إلى الفضلِ من طُرُقَاتِهِ ، إن شاء اللهُ تعالى .

* * *

(١) زعيم : كفيل .

(٢) مثابي : رجوعى .

الباب الرابع

الموشحات الأندلسية



الفصل الأول

نشوء الموشحات - قالبها الشعري

مما لا شك فيه أن حياة اللهو والمجون ولانتشار السمر والغناء في الأندلس أثراً في اختراع الموشح وظهوره في تلك الأرض ذات الطبيعة الوارفة الظلال . فالشعر الخفيف ، كما نعلم ، مادة الغناء ، فإذا كان انتشار الغناء في الأندلس قد استدعى ظهور الموشح ، فإنه أيضاً قد حدد له وزنه وحرره من قيود الشعر التقليدي وقالب الأوزان المعروفة وعبودية القافية الوحيدة . فالنهضة الغنائية إذاً كانت من دواعي ظهور هذا الفن الجديد ، إلا أن هناك دراسات تبين العلاقة بين الشعر الفرنسي - الإسباني القديم الذي كان ينشده شعراء جنوبي فرانسة المعروفون بشعراء التروبادور Troubadours وبين فن الموشحات (١) . فالشعر الغنائي الذي كان ينشده شعراء التروبادور في مطلع القرن الثاني عشر الميلادي (وفي هذا القرن كانت الموشحات معروفة في الأندلس) قد شابهَ في أغراضه أغراض الموشحات ، وفي طبيعتها الحب والغزل والطبيعة والمدح والحماسة والهجاء ، واتفق معها في بعض قوالبه كالقصائد المسماة (البالاد) (٢) و (الأغاني الوجدانية) (٣) . فهذان النوعان من شعر شعراء التروبادور يتألفان من أسماط وأجزاء تشبه ، إلى حد ما ، في ترتيبها أسماط الموشحات وأجزاءها وتتعدد فيها الأوزان والقوافي ، أضف إلى ذلك أن التروبادور كانوا يعتمدون في نظمهم على الموسيقى والغناء كما هو الشأن في الموشحات . ولكن هذا التشابه لا يكفي ليحل لنا مشكلة التأثير المتبادل . ونرى أن النتائج التي انتهى إليها بعض

(١) راجع كتاب الدكتور نيكل : « الشعر الأندلسي وصلته بشعر التروبادور » (نشر بالإنكليزية في بلتي مور) . وانظر عرضاً لهذا الكتاب للدكتور عمر فروخ مجلة « الأديب » بيروت ، نيسان سنة ١٩٤٧

La ballade (٢)

La chanson courtoise (٣)

الباحثين في بيان الروابط التي تربط بين الموشحات والشعر الأجنبي الذي كان يتأخم المسلمين في إسبانيا أو يتسرب إلى أوساطهم ، إن هذه النتائج لا تزال تحتاج إلى مناقشة ولا يمكننا أن ننظر إليها كحقيقة لا يعتمدها الشك . ولكن إن شككنا في مدى هذا التأثير وشكله فلا يمكننا أن ننكر وجوده ، فالطبيعة الحديدية ، سواء أكانت خاصة بالأندلس أم بما يحيط بها وبما يرددها من أصداء ، قد لعبت دورها في اختراع فن الموشح كما لعب الشعر العربي دوره في حياة الإسبانيين وشعرهم وفي الشعر الأوربي الذي انبثق عن الشعر التروبادوري نفسه . وها نحن نرى أن الغناء العربي قد طبع الغناء الأندلسي بطابعه ، ولا يزال نلمس آثار هذا الطابع في الأغاني الإسبانية حتى الآن .

فلنقبل إذاً تأثير الوسط الجديد في اختراع فن الموشحات دون أن نذهب مع بعض المتطرفين إلى أنه فن مستعرب . ولنقبل أيضاً أثر الشعر العربي فيما جاوره من شعراًجني في تلك الفترة ، ولنترك شرح هذه القضية إلى مجال آخر يتسع فيه تفنيد ما كتب في هذا الموضوع في مختلف اللغات ولا سيما الإسبانية مع بسط المصادر الأولى التي استند إليها الباحثون ، وهذا أمر يجب أن يفرد له بحث خاص وتعوّزنا وسائله ، وهو لا يزال ، في حد ذاته ، في نطاق الجدل العلمي وموضوع بعض الأطروحات الأدبية .

أولية الموشح :

ليس الموشح من اختراع المشاركة ، وقد نسب بعض المؤرخين إلى ابن المعتز الموشحة التي مطلعها :

أَمَّا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَهِيَ ، فِي الْوَاقِعِ ، لَيْسَتْ لَهُ وَإِنَّمَا هِيَ لِابْنِ زَهْرِ الْأَنْدَلُسِيِّ (١) . وَيَعْتَرِفُ

(١) هو أبو بكر محمد بن زهر الإشبيلي من أسرة زهر المشهورة في الأندلس . ولد سنة ٥٠٧ هـ وكان طبيباً وأديباً ، اتصل بدولة المرابطين ثم بدولة الموحيدين ومات مسموماً في آخر سنة ٥٩٥ هـ .

ابن بسام وابن خلدون وغيرهما ممن كتبوا في الموشح بأن فضل اختراع الموشحات يعود لأهل الأندلس .

وإذا كان المؤرخون قد اتفقوا على أن هذا الفن نتاج أندلسي فإنهم قد اختلفوا في مخترع الموشح ، فهناك روايتان مختلفتان تقدم كل منهما اسماً لمخترع هذا الفن يختلف عن الاسم الآخر .

فالرواية الأولى ، وهي ما يورده ابن بسام في ذخيرته ، تقول : « وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفئنا واخترع طريقتها - فيما بلغني - محمد بن محمود (حمود؟) القبري الضريير »^(١) .

أما الرواية الثانية ، وهي ما يذكره ابن خلدون في مقدمته ، فتقول : « وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مُقَدِّمَ بن مُعَاي القَبْرِي^(٢) من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني^(٣) وأخذ عنه أبو عمر^(٤) أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز^(٥) شاعر المعتصم بن صمادح صاحب

(١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١ .

(٢) هذا الاسم (مقدم بن معاني القبري) قد أصابه تحريف وتصحيف في عدد من نسخ مقدمة ابن خلدون وطبعاتها فظهر على الشكل الآتي : مقدم بن معافر الفريري . وهذا التحريف حمل المستشرق (دوسلان) في ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون على أن يجعل مخترع الموشح مولوداً في قرية فارسية تناسب الاسم المحرف (الفريري) . ولكن المستشرق (دوزي) قد أشار إلى هذا الخطأ في الجريدة الآسيوية : (Journal Asiatique. XIV, 186 année 1869) وقال يجب أن نقرأ القبري عوضاً عن الفريري نسبة إلى قرية قبرة في الأندلس .

(٣) كانت خلافته من سنة ٢٧٥ إلى سنة ٣٠٠ هـ .

(٤) لا (أبو عبد الله) كما ورد خطأ في مقدمة ابن خلدون .

(٥) إن أول من برع في هذا الفن وحدد أصوله بعد ظهوره هو عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ، أما عبادة القزاز فهو أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز وقد جاء متأخراً عن عبادة بن ماء السماء واشتهر هو أيضاً بموشحاته في عصره - القرن الخامس - ولكنه لم يكن أول من برع فيها كما يقول ابن خلدون . انظر الذخيرة ، القسم الأول المجلد الثاني ، ص ٢٩٩ .

المرية . . . وزعموا أنه لم يسبقه وشّاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف» (١) .

فهل كان محمد بن محمود القبري غير مقدم بن معاني القبري ؟ كان الشك يعتورنا في حل هذه المعضلة ، وكنت أظن أن الرجلين رجل واحد وأن مخترع الموشح ما هو إلا محمد بن محمود القبري كما جاء في الذخيرة أما مقدم بن معاني الذي يورده ابن خلدون فما هو إلا تحريف لذاك الاسم (٢) .

ولكن الدكتور عبد العزيز الأهواني أزاح النقاب عن هذه القضية عندما أوضح في مقال نشره في مجلة لاندلس الإسبانية (٣) أن كلا الشاعرين الأندلسيين المنسوبين إلى قرية قَبْرَة معروفان ولهما تراجم مدونة (٤) وأن محمد بن محمود كان ضريراً أما مقدم بن معاني فلم يكن كذلك ، وأن هناك نصاً جديداً ظهر منذ حين وهو يثبت الروايتين : رواية ابن بسام ورواية ابن خلدون المنقولة عن الحجارى ، وهذا النص مأخوذ عن كتاب مزية المرية لابن خاتمة الأنصارى وقد نقله عنه المقرئ في أزهار الرياض . ولهذا كله يرى الدكتور الأهواني أن ليس من داع لأن نفترض أن أحد الاسمين تحريف عن الثانى .

لاشك في أننا نقر ونعترف ، بعد هذا التحقيق ، بأن مقدم بن معاني

(١) هذه الرواية ينقلها ابن خلدون عن الحجارى عن طريق ابن سعيد في كتابه (المقتطف في أزهار الطرف) وهو كتاب مخطوط في القاهرة وفي الأسكوريال .

(٢) انظر كتابنا : La poésie profane sous les Ayyubides, P. 172. كان المستشرق الإسباني غارسيا غومس يزعم هذا الزعم أيضاً انظر ما كتبه في مجلة الأندلس : Al-Andalus, II, 1934, p. 215-222 .

(٣) Al-Andalus, XIII, 1948, P. 28-31

(٤) انظر ترجمة مقدم بن معاني القبري في بغية الملتمس للضبي رقم الترجمة ١٣٨٦ وفي الحلة السيرة لابن الأبار ص ٨٥ وفي المقتبس لابن حيان ص ٤٦ و ٦٥ . أما ترجمة محمد بن محمود القبري فتجدها في بغية الملتمس رقم الترجمة ٢٨٥ . ويرى الدكتور الأهواني أن الثعالبي في يتيمة الدهر يذكر في عداد الشعراء الأندلسيين من اسمه محمد بن محمود الوليد الغنوى ويقول إن هذا الاسم ربما كان محرفاً عن اسم شاعرنا محمد بن محمود القبري .

شخص آخر مستقل غير محمد بن محمود . ولكن ألا يحق لنا أن نعجب مع المستشرق غارسيا غومس^(١) من أن يكون مخترع الموشح شاعرين أندلسيين كلاهما من قرية واحدة هي قبرة وكلاهما من عصر واحد هو عصر الأمير عبد الله بن محمد المرواني ؟

نعم لنا الحق في أن نعجب ، كما كان لنا الحق في أن نتردد حول شخص مخترع هذا الفن وحول حقيقة اسمه .

ولكن ليس من الواجب ، على الرغم من عجبنا ، أن نعتقد بضرورة وجود مخترع واحد لفن متعدد المنابع كالموشح ، هذا الفن الذي أسهم في تكوينه عدد من المؤثرات الاجتماعية والإقليمية والأدبية والغنائية . وإننا لنجد طبيعياً ألا يكون ظهوره قد بدأ فجأة بل لا بد ، في بادئ الأمر ، من محاولات مختلفة تظهر على ألسنة عدد من الشعراء ، شأنه في ذلك شأن كثير من الفنون الجديدة التي نتعثر في فاتحة عهدا ثم لا تلبث أن تجد معالمها الواضحة وأسسها الجلية على يد من مارسها واهتم بها ووجد فيها هواه ومبتغاه .

لهذا يمكننا أن نقول إنه منذ نهاية القرن الثالث الهجري بدأت في الأندلس محاولات شعرية في هذا الفن الجديد ، إلا أن المحاولات التي قام بها هذان الشاعران وغيرهما ممن لم تصلنا أسماؤهم كانت محاولات ابتدائية ، لهذا كسدت موشحاتهم ولم يروها الناس ، ولم تصلنا أيضاً موشحات ابن عبد ربه الذي زعم بعضهم خطأ أنه مخترع الموشح . وكان علينا أن ننتظر مجيء الشاعر عبادة ابن ماء السماء (لا عبادة القزاز كما يذكر ابن خلدون)^(٢) المتوفى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٤٠ م لنرى الموشح قد أصبح فناً قائماً بذاته له أسسه وقواعده وله أثره وجماله وشعراؤه . وفي هذا الصدد يقول ابن بسام :

« وكان أبو بكر (عبادة بن ماء السماء) في ذلك العصر شيخ الصناعة

(١) انظر تعليقه على مقال الدكتور الأهواني في العدد نفسه من مجلة الأندلس الإسبانية .

(٢) انظر ص ٢٨٧ من هذا الكتاب الحاشية رقم ٥ .

وإمام الجماعة ، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً . وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها ووضعوا حقيقتها ، غير مرقومة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا مُنادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تُسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته « (١) » .

وهكذا أخذ الموشح ، ابتداء من القرن الرابع الهجري ، يزدهر ويسمو في سماء الأندلس ، وتتابع شعراء وشاحون على جانب من العبقرية كأبي بكر عبادة ابن ماء السماء ، وعبادة القزاز ، وابن اللبانة (٢) والأعمى التُّطَيْيلى (٣) وابن بَقي (٤) وابن باجه (٥) وأبي بكر بن زُهر ، وابن سهل (٦) ولسان الدين بن الخطيب (٧) وتلميذه ابن زمرك (٨) وغيرهم . وقد عجز كثير من المتأخرين عن تقليد موشحات هؤلاء الشعراء وبلوغ عبقريتهم في هذا الفن ، حتى بقيت موشحاتهم إلى اليوم مثالا يحتذى .

-
- (١) الذخيرة ، القسم الأول ، المجلد الثاني ، ص ١ - فوات الوفيات للكتبي ج ١ ص ١٩٩ .
 (٢) هو محمد بن عيسى أبو بكر اللخمي اتصل بالمعتمد ومدحه وأكثر من التردد عليه في سجنه بأغمات وانتقل إلى ميورقة وتوفي سنة ٥٠٧ هـ .
 (٣) هو الأديب أبو جعفر أحمد بن هريرة كان صديقاً وانياً للشاح أبي بكر ابن بقي ، وأخباره قليلة ، وهو رأس الشاحين في عصر المرابطين عاش في مبدأ القرن السادس الهجري في مرسية ثم انتقل منها وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .
 (٤) أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بقي القرطبي ، وشاح بارع توفي سنة ٥٤٠ هـ .
 (٥) هو أبو بكر محمد بن باجة الأندلسي السرقسطي ، الفيلسوف الشاعر المشهور ، كان متقناً لصناعة الموسيقى مات مسموماً بمدينة فاس ٥٣٣ هـ .
 (٦) هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي شاعر إشبيلية وشاحها ، له ديوان مطبوع ، توفي غريقاً سنة ٦٤٩ هـ وهو في الأربعين .
 (٧) هو أبو عبد الله لسان الدين محمد المعروف بابن الخطيب ، ولد سنة ٧١٣ هـ بمدينة غرناطة وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ثم لابنه ، اتهم بالخيانة والزندقة ففر إلى المغرب ، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فسجن بفاس وخنق بسجنه سنة ٧٧٦ هـ . وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً فقيهاً متفلسفاً .
 (٨) هو أبو عبد الله بن زمرك ولد بغرناطة سنة ٧٣٣ هـ وكان وزيراً للغني بالله من ملوك بني الأحمر ، قتل سنة ٧٩٧ هـ .

ويظهر أن جميع هؤلاء الوشاحين الأندلسيين لم يبينوا لنا بصورة واضحة قواعد الموشح ، وإن كنا نرى ، هنا وهناك ، وفي كتب الشعر والتراجم التي تتحدث عن الأندلسيين كالدخيرة ونفح الطيب ، بعض الإشارات إلى أصول هذا الفن . ولعل ابن سناء الملك الشاعر المصري الذي ولد بالقاهرة سنة ٥٥٠ هـ وقضى فيها أكثر أيامه منعماً حتى توفي سنة ٦٠٨ هـ ، هو أول من قام بهذه المهمة فحاول في كتابه « دار الطراز »^(١) أن يحدد قواعد هذا الفن الشعري ويبين خصائصه وطرق نظمه وأوزانه ، فكان بذلك الشاعر الأول المنظم لقواعد الموشح في المشرق والمغرب . والمؤرخون ، عندما يذكرون ابن سناء الملك ، يشيرون إليه كأول مشرقى كان له فضل إدخال فن الموشحات إلى الشرق . إلا أن الشاعر المصري لا يتردد ، هو نفسه ، في الاعتراف بقصوره عن مجارة الأندلسيين في هذا الفن . ومن المؤكد أن موشحاته لا تبلغ جودة موشحات الأندلسيين .

لقد قلنا إن هذا الفن الجديد لم يحدث فجاءة على شكله التام ، وهو أيضاً لم ينظمه الشعراء دون أن يلقي مقاومة من النقاد . فقد كان يرى فيه المحافظون خروجاً على القديم وبدعة شعرية لم يألفوها ، فعابوا لذلك أصحابه في الغرب وفي الشرق واعتبروه ضعفاً وظاهرة من ظواهر الانحطاط الأدبي .

ومما لا شك فيه أن ظهوره في عصور الانحطاط إلى جانب أثره الضار في اللغة ، يؤيد هذا القول ، ولكن يجب ألا ننسى أن بعض المحاولات في الخروج على نظام القصيدة التقليدية قد ظهرت عند المشاركة منذ صدر الدولة العباسية عندما ضاقت الحياة العباسية في بغداد بنظام القصيدة وحاولت التحرر من قيودها لتجارى البيئة الحضرية الجديدة . لذا قام بعض الشعراء كسليم بن الوليد وأبي نواس وأبي العتاهية بابتكار بعض الأوزان وينظمون فيها ، كما اخترعت مولاة للبرامكة (المواليا) وكانت ترثيهم به . ولما حُمِلت إلى الرشيد ،

(١) انظر طبعتنا لهذا الكتاب الذي قمنا بتحقيقه ونشره .

وكان قد منع من يرثيهم بشعر ، قالت الجارية ليس هذا شعراً لأنه عامى
 ملحون ، وهو فى الواقع شعر عامى على وزن البسيط كانت تصيح الجارية بعد
 كل قطعة منه (واموالياه) ، وإلى جانب التحرر من الوزن بدأ تجديد فى
 القافية فظهرت الخماسات ، وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة
 أخرى من الوزن وقافية أخرى إلى آخر القصيدة ، كالقصيدتين المنشورتين فى
 ديوان ابن زيدون تحت عنوان موشح^(١) فهما من الخمسات لا من الموشحات ،
 لمحافظة أسماطها على وزن واحد فى الأبيات والأقفال وعدم اختلاف قوافى
 الأقفال عن قوافى الأبيات إلا فى الجزء الأخير من القفل ، وقد ظهر أيضاً ،
 فيما يتعلق بالقافية ، المُسَمَّط وهو أن يبتدئ الشاعر بيت مصرع ثم يأتى بأربعة
 أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسيماً على قافية البيت الأول ، وربما خلا من
 البيت المصرع وكان على أقل من أربعة أقسمة كقول القائل :

غزالٌ هاجَ لى شَجْنَا فَبِتُّ مُكابِداً حَزَنَا
 عميد القلب مُرْتَهِنَا بذكرِ اللهُو والطربِ

وظهرت المزدوجات وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية
 أخرى كقول أبى العتاهية :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
 إن الشباب حجة التصاى روائح الجنة فى الشباب

ويقال إن أول من نظم المزدوج بشار ثم تبعه أبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية ،
 ولكن نقاد الشعر كابن رشيق رأوا فيه عبثاً واستهانة بالشعر ، حتى إن فحول
 الشعراء ابتعدوا عن هذه الأنواع التى عدوها مظهراً من مظاهر العجز والضعف

(١) الديوان ص ١٠٩ و ٢٢٩ .

وفضلوا التزام القافية الواحدة . فليس غريباً إذاً أن يلاقى الموشح مقاومة ، وهو أكثر حرية من هذه الأنواع ، وأن يبقى في نظر المحافظين والنقاد دليلاً على الانحلال الشعري .

إلا أن سكان الجزيرة الأندلسية على الرغم من ذلك استساغوه وأقبلوا عليه لملاءمته لهوى نفوسهم ، ولأنه استمد مقوماته وعناصر وحيه من هذا الوسط الأندلسي الذي عاش فيه متناغماً مع حياة شعرائه الذين مالوا إلى السهل ونشدوا اللهو والإمتاع والموسيقى . لذلك لم يجدوا حرجاً في أن يغرفوا من معينه في مختلف الأغراض الشعرية متجاهلين ما فيه من إسفاف وضعف ، بل لعل هذا الضعف اللغوي ما كان ليبدو لهم واضحاً لبعدهم عن مواطن اللغة ومنابعها الأصلية ولاختلاطهم بعناصر أجنبية . ولهذا بقيت الموشحات غذاء الأندلسيين يجدون فيها ذلك اللحن الموسيقي وتلك النشوة المتصلة التي لا تعرف اليقظة إلا على بأس جديد وهو جديد . وكان ابتداء فن الموشح فتحاً جديداً في التفلت من قيود الوزن والقافية .

وسرى عند الكلام على أوزان الموشحات كيف أن ابن سناء المملوك يجعلها ملازمة للموسيقى والغناء تستمد منهما أوزانها ونغمتها وتهزأ بعد ذلك بقواعد العروض وبحور الشعر التقليدية .

تعريف الموشحات وعناصرها :

ذكر ابن سناء المملوك في كتابه دار الطراز معرفة الموشح فقال : « الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص . وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات » .

وقد سُمي هذا الفن بالموشح لما فيه من ترصيع وتزيين وتناظر وصنعة فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر .

ويحسن بنا لفهم أجزاء الموشحة ونظامها أن نورد هنا موشحاً يكون تطبيقاً لما نقول :

قال الأعمى التطيلي في موشح له (١) :

ضاحك عن جُمان سافرٌ عن بدر	ضاق عنه الزمان	وحَوَاهِ صدرى
جزء ٢	جزء ٣	جزء ٤
آه مما أَجِد	شَفِنِي ما أَجِد	جزء مركب ١
قامَ بي وَقَعَد	باطِشٌ مُتَّعِد	جزء مركب ٢
كلما قلتُ قد	قال لى أَيْنَ قد	جزء مركب ٣

فمطلع الموشح المؤلف من أربعة أجزاء يسمى اصطلاحاً القفل الأول ، والقفل الثانى هو :

وانشئ خُوطَ بانَ ذامَهزَّ نَضِرٍ عابَثَتُهُ يَدانَ لِلدَّصِبا وَالقَطْرِ

وما بين هذين القفلين يطلق عليه اسم البيت ، وليس من الضرورى أن يكون بيتاً من الشعر مؤلفاً من شطرين كما هو معروف فى القصيدة التقليدية . والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقاً مع بقيةها فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها .

والأبيات هى أجزاء مؤلفة مفردة أو مركبة يلزم فى كل بيت منها أن يكون متفقاً مع بقية أبيات الموشح فى وزنها وعدد أجزائها لا فى قوافيها .

ونلاحظ إذا تلونا هذا الموشح بكامله أن القفل قد تكرر ست مرات مع المحافظة على قوافى أجزائه فى جميع الأقفال . وأن البيت قد تكرر خمس مرات ولم تلتزم قافية واحدة فى جميع الأبيات .

ومثل هذه الموشحة تامة لأنها تبتدىء بقفل وتنهى بقفل . والنوع الذى يبتدىء بالبيت وينهى بالقفل يسمى أقرع كما ذكرنا .

وأقل ما يتركب القفل من جزعين فصاعداً إلى ثمانية أجزاء وعشرة أجزاء .

وأقل ما يكون البيت ثلاثة أجزاء (كما هو فى الموشح المذكور) وقد يكون فى النادر من جزعين وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف ، وهذا لا يكون إلا فيما أجزاءه مركبة ، وأكثر ما يكون خمسة أجزاء .

والجزء من القفل لا يكون إلا مفرداً ، والجزء من البيت قد يكون مفرداً فيسمى البيت بسيطاً ، وقد يكون مركباً ، والمركب لا يتركب إلا من فقرتين أو من ثلاث أو من أربع فقر ، وقد يتركب فى الأقل من خمس فقر .

مما تقدم نرى أن القفل فى هذا الموشح مؤلف من أربعة أجزاء والبيت مؤلف من ثلاثة أجزاء مركبة من فقرتين .

ولنوجز فيما يلى خصائص الأقفال والأبيات التى أشرنا إليها :

القفل :

يتركب القفل من جزعين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر .

البيت :

هو إما بسيط أو مركب .

فإن تألف البيت من أجزاء مفردة سمي بسيطاً .

وإن تألف كل جزء منه من فقرتين أو أكثر سمي مركباً .

والبيت البسيط يتألف من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة . فمثال البيت

البسيط المؤلف من ثلاثة أجزاء قول ابن بقي :

عَبَثَ الشُّوقُ بِقَلْبِي فَأَشْتَكِي أَلَمَ الْوَجْدِ فَلَبَّتْ أَدْمُعِي (قفل من جزئين

بيت بسيط من ثلاثة أجزاء	}	جزء ١	أَيُّهَا النَّاسُ فَوَّادِي شَغِفُ
		جزء ٢	وَهُوَ فِي بَغْيِ الْهَوَى لَا يُنْصِفُ
		جزء ٣	كَمْ أُدَارِيهِ وَدَمْعِي يَكْفُ

أَيُّهَا الشَّادِنُ مَنْ عَلَّمَكَ بِسَهَامِ اللَّحْظِ قَتَلَ السَّبْعِ (قفل من جزئين

أما المركب من الأبيات فهو ما كان كل جزء منه مركباً من فقرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس فقر . فإذا لاحظنا أن البيت نفسه يكون مكوناً من ثلاثة أجزاء أو أكثر ، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة .

فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء موشح الأعمى التطيلي الذي قدمناه ، وهذا الموشح الذي يذكره ابن سناء الملك (١) :

كَذَا يَقْتَادُ سَنَا الْكُوكَبِ الْوَقَادِ إِلَى الْجَلَّاسِ مَشْعَشَةً الْأَكْوَّاسِ

بيت من فقرتين وثلاثة أجزاء	}	أَقِيمْ عُنْدِي فَقَدْ آنَ أَنْ أَعْكَفُ
		عَلَى خَمْرِ يَطُوفُ بِهَا أَوْطَفُ
		كَمَا تَدْرِي هُضِيمُ الْحَشَامِ مَخْطَفُ

ومثال البيت المركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء هذا الموشح الذي يذكره أيضاً ابن سناء الملك (٢) :

(١) دار الطراز ص ٥٥ .

(٢) دار الطراز ص ٦٣ .

من لي به يرنو بمقلتي ساحره إلى العباد
 ينأى به الحسن فينشني نافر صعب القياد
 وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد

بيت من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء

* * *

ونلاحظ أن الأندلسيين حاولوا أن يفتنوا في الأفعال والأبيات ، وعدد
 أجزاءها ، والتزام قوافيها ، ليصلوا من ذلك إلى أنواع جديدة تحمل أسماء
 جديدة ، فمن ذلك أن يسموا القفل لازمة إذا كان القفل بيتين صدرهما قافية
 واحدة وعجزهما كذلك ، ثم يأتي بعد ذلك البيت ثلاثة أجزاء ، كل جزء
 فقرتان ، متفقة صدرها في القافية وكذلك أعجازها ، ثم يأتي القفل وبعده
 بست وهكذا إلى النهاية ، مثال ذلك قول ابن زمرك :

* * *

بالله يا قامة القضيب ومُخْجَلِ الشمس والقمر
 مَنْ مَلَّكَ الحُسْنَ فِي القلوب وَأَيَّدَ اللحظَ بِالْحَوْرِ

لازمة

* * *

من لم يكن طبعه رقيقاً لم يدر ما لذة الصبا
 فربَّ حرٌّ غدا رقيقاً تملكه نفحة الصبا
 نشوان لم يشرب الرحيقا لكن إلى الحسن قد صبا

* * *

فَعَذَّبَ القلبَ بالوجيبِ ونَعَمَ العينَ بالنظرِ } لازمة
وباتَ والدمعُ في صَبِيبِ يُقَدِّحُ في قلبِهِ الشَّرَرُ^١

هذا وكل قفل مع البيت الذى يليه يسمى بالسمط ، ونرى أن الموشحة تتألف من عدة أسماط متشابهة في أفعالها مختلفة في أبياتها ، وهذا ما يكون نوعاً من الترصيع يقربه من وشاح المرأة الذى شبهت به الموشحات .

وقد ذكر ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » أمثلة على جميع ما ذكرنا يمكن الرجوع إليها لتسهيل الإيضاح .

الخرجة :

وأخر قفل من الموشح يسمى الخرجة ، ويفضل الوشاحون أن تكون عامية لبعث الهزل والظرف في الموشحة ، إلا في المديح . وفي ذلك يقول ابن سناء الملك :

« والشرط فيها أن تكون حجاً جيئة^(٢) من قبل السخف ، قزمانية^(٣) من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة ، من ألفاظ العامة ، ولغات الداصة ، فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقوال خرج الموشح من أن يكون موشحاً اللهم إلا إن كان موشحاً مدحٍ وذُكِر الممدوحُ في الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقولى ابن بقی :

إنما يحيى سليلُ الكرامِ واحدُ الدنيا ومَعْنَى الأنامِ

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً ، هزاًة سحرارة خلافة ، بينها وبين الصبابة قرابة ،

(١) العذارى المائسات ص ٩٤ .

(٢) نسبة إلى الشاعر أبى عبد الله الحجاج البغدادي المشهور بمجمونه توفى سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م

(٣) نسبة إلى ابن قزمان القرطبي شاعر الزجل المشهور توفى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .

وهذا مُعْجِزٌ مُعَوِّزٌ وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة كقول
ابن بَقي :

ليلٌ طویلٌ وما مُعینٌ يا قلبَ بَعْضِ الناسِ أَمَا تَلینُ؟

فمن قدر أن يقول هكذا فليعرب وإلا فليغرب « (١) .

ويجعل الوشاحون الخرجة في الغالب على ألسنة الصبيان والنسوان والسكري
أو على ألسنة الحيوانات كالحمام أو المجرذات كالغرام والحرب ويمهدون لها
بكلمة قال أو غنى أو ما يقارب ذلك كقول عبادة :

إِنَّ الحَمَامَ فِي أَيْكهَا تَشْدُو

قل هل عُلِمَ أَوْهَلُ عُهُدٍ أَوْ كَانَ كَالْمَعْتَصِمِ وَالْمَعْتَصِدِ مَلِكِ كَانَ

وهناك صفات أخرى للخرجة ذكرها ابن سناء الملك في كتابه « دار

الطراز » .

الفصل الثاني

أوزان الموشحات - أغراضها وفننها وقيمتها

أوزان الموشحات :

تنقسم الموشحات ، بشكل عام ، إلى قسمين من ناحية أوزانها ، فمنها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لا وزن له فيها ولا إلام له بها كما يقول ابن سناء الملك (١) .

أما القسم الأول ، أى ما جاء على بحور الشعر المعروفة ، فيعدّه الوشاحون مرذولا وهو فى نظرهم أشبه بالمخمسات منه بالموشحات ولا ينظمه إلا الضعفاء من أصحاب صنعة التوشيح ، إلا إذا اختلفت قوافى قفله فإنه يخرج باختلاف قوافى الأقفال عن الخمسات كقول ابن زهر فى موشحته الشهيرة التى هى من بحر الرمل :

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
وَهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ أَنْ يَجُورُوا فِيهِ وَيَخْرُجُوهُ عَنِ الْوِزْنِ الْمَعْرُوفِ بِإِدْخَالِ كَلِمَةٍ
أَوْ حَرَكَةٍ تَتَخَلَّلُ فِقْرَاتِهِ . فمثال الكلمة قول ابن بقی :

صَبْرْتُ وَالصَّبْرُ شِيمَةُ الْعَانِي وَلَمْ أَقْلُ لِلْمَطِيلِ هُجْرَانِي مُعَذِّبِي كَفَانِي

فهذا من المنسرح وأخرجه منه قوله : « معذبى كفانى » .

ومثال الحركة :

يَا وَيْحَ صَبِّ إِلَى الْبَرْقِ . لَهُ نَظْرٌ وَفِي الْبِكَاءِ مَعَ الْوَرَقِ . لَهُ وَطْرٌ

فهذا من البسيط ، والتزام حركة الحفص فى البرق والورق أخرجه عن وزنه .

وقد تكون أقفال الموشح موافقة لأبياته في الوزن وقد تكون مخالفة لها ، وقد شرح ابن سناء الملك في كتابه مختلف الحالات ^(١) .

أما القسم الثاني فهو ما خالف أوزان العرب ولم يخضع لعروض الشعر التقليدي وكان غرضه الغناء أكثر من الإنشاد وهو الكثير الشائع في الموشحات ، وقد أشار إليه ابن سناء الملك بقوله :

« والقسم الثاني من الموشحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب . وهذا القسم منها هو الكثير ، والجسم الغفير ، والعدد الذي لا ينحصر ، والشارد الذي لا ينضبط . وكنت أردت أن أقيم لها عروضاً يكون دفتراً لحسابها ، وميزاناً لأوتادها وأسبابها فعز ذلك وأعوز ، لخروجها عن الحصر وانفلاتها من الكف ، وما لها عروض إلا التلحين ولا ضرب إلا الضرب ، ولا أوتاد إلا الملاوى . ولا أسباب إلا الأوتار فهذا العروض يعرف الموزون من المكسور ، والسالم من المزحوف ، وأكثرها مبني على تأليف الأرعن ، والغناء بها على غير الأرعن مستعار وعلى سواه مجاز » ^(٢) .

وقال في مكان آخر من كتابه :

« والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه ، وهو أكثرها ، وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشى به إلا بأن يتوكأ على لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازاً للمعنى كقول ابن بقي :

مَنْ طَالِبٌ ثَارَ قَتْلِي ظَبْيَاتُ الْحُدُوجِ فَتَانَاتُ الْحَجَجِيجِ

فإن التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول : لالا بين الجزعين الجيمين من هذا القفل » ^(٣) .

(١) دار الطراز ص ٣٥ - ٣٨ .

(٢) دار الطراز ص ٣٥ .

(٣) دار الطراز ص ٣٧ .

يتبين مما تقدم أن العرب إنما اخترعوا الموشحات من أجل الغناء ، فيجدر بنا إذن ألا نطلب من الشاعر الوشاح أن يتقيد بوزن قديم معروف تقيداً شديداً . إن الذى يميز هذا الفن ويكسبه جمالا ليس العروض المقنن بل حرية الوزن ، وهى — مع هذا — حرية تقودها أذن موسيقية وضرورات التلحين ، وعلى هذا فليس العجز هو الذى جعل العرب يحجمون عن إيجاد عروض مقنن للموشح كعروض الشعر العربى التقليدى بل وجدوا ذلك يتنافى مع روح هذا الفن الخاضع للحرية والتجديد والتلحين والغناء . ونلاحظ أن المستشرق الألمانى (هارتمان) فى كتابه القديم عن الموشح قد حاول إرجاع أوزان الموشحات إلى ١٤٦ وزناً أو بحراً مشتقة من محور الشعر العربى الستة عشرة ، ولكن لا يمكننا أن نرى فى هذه المحاولة إلا التصنع والتكلف ، إذ هناك موشحات تشذ عن الأوزان التى ذكرها هارتمان ولا تخضع لها^(١) .

أغراضها ومعانيها ولغتها وقيمتها :

قال ابن سناء الملك : « والموشحات يعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد ، وما كان منها فى الزهد يقال له المكفر ، والرسم فى المكفر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن موشح معروف وقوافى أفضاله ، ويحتم بخرجة ذلك الموشح ليدل على أنه مكفره ومستقيل^(٢) ربّه عن شاعره ومستغفره » .

يتبين لنا من هذا القول إن الموشح قد نظم فى أكثر أغراض الشعر المعروفة ، ولكن لما كانت الموشحات قد اخترعت فى سبيل الغناء كان من الطبيعى أن تنظم بكثرة فى الأغراض التى تناسب هذا الفن كالغزل ووصف مجالس اللهو والخمر ووصف الطبيعة . كما أنهم قد نظموها فى المدح بغية التكسب ، ولأن قصور الخلفاء والأمراء كثيراً ما كانت تضم مجالس الغناء الفخمة فيجد الشاعر والمغنى

(١) Das muwashshah P. 199-200

(٢) دار الطراز ص ٣٨ .

فرصة لإيصال مدحه إلى آذان الأمير عن طريق الغناء فتزداد نشوة المدوح وهو في طربه ويزيد إغداقه وكرمه .

ويظهر أن الموشحات خلقت لتصف حياة الدعة والأنس والهناء ، ولهذا كلما تعرضت لهذه الأغراض بدا تأثيرها وظهرت جدتها وكانت أعلق بالنفوس ، ولا سيما عندما تتعرض لوصف الطبيعة – وما أكثر ما تتعرض – فتصورها بألوانها وأصباغها ، وطيورها وبلابلها ، وأزهارها وأشجارها ، وجداولها وعبيرها ، ويتجلى لنا حب الأندلسى لوطنه ، واختلاط الطبيعة بروحه ، وكيف أنها ملتقى العشاق وساحة اللهو والطرب ، ومبعث السلوان والحنين .

فلنسمع هذه الموشحة الشهيرة لابن زُهْر، إننا لا نجد فيها من المعانى ما يجلب انتباهنا ولكنها تخلق لنا جواً حبيباً وتدغدغنا بموسيقاها فتبعث فينا هذه النشوة الحبية ، نشوة من يرى منظرًا طبيعيًا ندياً تظله الأضواء الخفيفة وتعبق فيه الأشداء المرنحة ينشرها الريحان العائم على الماء الواجم في جريانه :

ما للموَلِّه مِنْ سُكْرِهِ لَا يُفِيْقُ يَا لِه سَكْرَان
من غيرِ خمرٍ ما للدكئيبِ المشوق يندُب الأوطان

* * *

هل تستعاد أيامنا بالخليج وليالينا
أو يستفاد من النسبم الأريج مسك دارينا
أو هل يكاد حسنُ المكان البهيج أن يُحييننا

* * *

روضٌ أظله دوحٌ عليه أنيقٌ مورقُ الأفنان

والماء يجرى وعائمٌ وغريقٌ من جنى الريحان^١

وكذلك موشحة ابن سهل الإشبيلي، إنها تلعب فينا بألفاظها الغزلية وموسيقاها،
على أننا لا نجد فيها من المعاني ما يسترعى الانتباه، وإنما هي قصيدة مرنحة نشعر
بجلاوة قوافيها المتواترة ونغماتها العذبة:

هل دَرَى ظبيُّ الحِمَى أن قَدَحَمَى قلب صَبٍ حَلَّه عن مَكْنِسِ
فهو في حَرٍّ وخَفَقٍ مثلما لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بالقَبَسِ

* * *

يا بدوراً أشرقَتْ يومَ النوى غُرّاً تسلكُ بي نَهْجَ الغَرَرِ
ما لقلبي، في الهوى، ذنبٌ سوى منكم الحسنُ ومن عيني النظر
أجتني اللذاتِ مكلومَ الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكرِ

* * *

كلما أشكوه وَجَدَى بَسَمَا كالرُّبَى بالعَارِضِ المنبجِسِ
إِذ يُقِيمُ القَطْرُ فيها مَأْتِماً وهي من بهجتها في عُرْسِ

* * *

أيها السائلُ عن جرمي لديه لي جزاءُ الذنبِ وَهُوَ المذنبُ
أخذت شمسُ الضحى من وجنتيه مَشْرِقاً للشمس فيه مغربُ

(١) مقدمة ابن خلدون . انظر أيضاً الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٣١ طبع مكتبة صادر ،

ذَهَبَ الدَّمْعُ بِأَشْوَاقِي إِلَيْهِ وَلَهُ خَدٌّ بِلِحْظِي مُذْهَبٌ

يَنْبِتُ الْوَرْدُ بِغَرْسِي كُلَّمَا لَا حَظَّتُهُ مَقْلَتِي فِي الْخُلْسِ
لَيْتَ شَعْرِي أَى شَيْءٍ حَرَمًا ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمَغْتَرِسِ؟^١

وهكذا فإننا لا نجد في معاني الموشحات جيدة وعمقاً . وإنما هي لطيفة حلوة على ابتذالها يستسيغها الذوق لنعومة خيالها وبريق صورها التي تتألف مع ألوان الطبيعة وتأخذ منها عطرها وغضارتها وأشكالها .

وهذه المعاني التافهة يسترها طلاء خارجي مستمد من ضروب البيان والبديع . إلا أن الشاعر كثيراً ما يغرق في استعمال هذا الطلاء فتبدو موشحته كعادة بالغت في الزينة واستعمال المساحيق فخرست الكثير من جمالها ولكنها على الرغم من ذلك قد استطاعت أن تحافظ على رشاقتها ومشيتها المرقصة فألهمتنا بهذا الغنج الذي تبديه عن البحث عن معانيها والغوص على أسرارها . ويبدو لنا أن الوشاح الأندلسي لم يكن همه البحث عن معنى مبتكر ، بل لعله لم يستطع أن يأتي بمعنى مبتكر دقيق بعد أن عجز عن إدراك هذه الغاية في الشعر التقليدي . وإنما يبغى من موشحاته خلق أجواء الحب وإثارة عواطف الحنين وشطحات الخيال بعبارات ساذجة لينة تحف بها موسيقى هادئة تصويرية حيناً ومركبة ملهية حيناً آخر فتطرب لها الروح وتخلد لنوع من الطمأنينة والنسيان والنشوة والمرح .

هذه المعاني الساذجة التافهة إن عبرت عنها موسيقى ناجحة على الأغلب فإنها لم تحوها قوالب متينة من الألفاظ والعبارات . فلغة الموشحات يغلب عليها الضعف

(١) الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٤٣ .

والركاكة . وهي في لينها وحريرتها واثلاؤها مع روح العامة قادت اللغة الشعرية إلى الركاكة وأساعت من هذه الناحية إلى اللغة العربية . فأصبح الشاعر الوشاح لا يجد حرجاً في التساهل اللغوي طالما يبغي إرضاء الأذواق العامة كما ترضى الأغاني الشعبية هذه الأذواق . وكانت الموشحات قفزة من القفزات التي أدت إلى الشعر الشعبي العامي المسمى بالزجل .

على أنه يجب ألا يفهم من ذلك أن الموشحات هي وحدها التي أدت إلى ظهور شعر الزجل . لأن هذا الشعر في نظرنا كان دائماً نتيجة طبيعية لانتشار اللهجات العامية على ألسنة الناس واستساغتها في جميع أنماط أحاديثهم ونتائجهم الأدبي . وهذا الانتشار يمكن أن يحدث في كل زمن وفي كل بقعة تضعف فيها السليقة العربية . ولذا فإن الموشحات ليست السبب كله في ظهور شعر الزجل . إنها لم تدع إلى نشوئه لأنه نشأ من نفسه . وإنما تطورت باتجاهه وساعدت على انتشاره ورواجه . ولعل الموشحات كانت تحمل في طياتها بذور هذا الانحراف عندما نص شعرائها على أن تكون الحرجة عامية وعندما رأينا أن لغتها في الأغلب الأعم مهلهلة ضعيفة .

ولكن من الإنصاف أن نقول إن الموشحات لم تهو إلى هذا الدرك من الضعف والبعد عن الأساليب الفصيحة إلا في عصور الانحطاط . وقد قدّر شعراء العصر الحديث ميزات الفنية وخصائصها فحرروها من العامية وعادوا بها إلى اللغة الفصحى ، وقام شعراء المهجر ينظمون فيها أشعاراً فصيحة صحيحة فياضة برقيق المعنى وجرس الموسيقى مبتعدين عن الإغراق في ضروب البيان والبديع . وإذا رأينا أن شعراء الأندلس وغيرهم من المغاربة قد افتنوا في استعمال هذه الحلية اللفظية فما ذلك إلا لأنهم كانوا في عصر التائق اللفظي فخضعوا لتياره طائعين ولم يدروا ، وقد جرفهم التيار ، أن شعرهم قد أصبح في جميع مظاهره آنية فارغة تزينه الزخارف .

هذه هي أغراض الموشحات وخصائص معانيها وصفاتها العامة فهل استطاعت أن تثبت وجودها كفن ناجح ؟

لا مرأ في أن الموشحات قد لاقت ، لدى ظهورها ، رواجاً وانتشاراً سريعين لاعتمادها على الغناء وللملاءمتها للنفوس الهانئة ، فمثلت بذلك العصر الذي نشأت فيه والأرض التي ترعرعت تحت سمائها ، وهي أرض الأندلس في مطلع القرن الرابع الهجري وما بعده . ولكن لا يمكننا أن نقول إن الموشحات قد مثلت وجه الشعر العربي المزدهر .

فنحن إذا نظرنا إليها من خلال تاريخ الشعر العربي ، نراها ظاهرة من ظواهر الانحطاط ، إذ أنها في أوج ازدهارها في بلاد الأندلس لم تبلغ قوة الشعر التقليدي ولا صفاء خياله وعمق معناه وقوة لغته . ولعل ذلك ناجم عن أن الحرية التي جاء بها الموشح لم تقتصر على الوزن والقافية بل شملت اللغة والأسلوب وقادتهما إلى العمومية والإسفاف كما ذكرنا . ولو قُدِّرَ لشعراء عباقرة ، وهم يستثمرون حرية هذا الفن ، أن يحترموا نقاء اللغة وقوة الأسلوب القديم وأن يرتفعوا عن سفساف القول إلى روعة معاني الشعر التقليدي وصحة أسلوبه ، لكان هذا التجديد الذي جاءت به الموشحات تجديداً ناجحاً . إذ لا يمكننا أن نجحد المجال الرحب الذي فتحه هذا الفن أمام الشعر العربي ، ولكن الذي يدهشنا أن المحاولات التي جرت في هذا المضمار لم تكن موفقة اللهم إذا استثنينا بعض موشحات مشاهير الوشاحين الأندلسيين كابن زهر وابن بقی وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب ، وموشحة ابن سناء الملك التي يقول في مطلعها :

كَلِّى ، يَا سَحْبُ تَيْجَانِ الرَّبِّ بِالْحَلِيِّ

وَاجْعَلِي ، سَوَارَهَا مِنْعَطْفَ الْجَدُولِ

تجاه هذا الفقر في الموشحات نتساءل : هل كان الموشح شكلاً غريباً عن عبقرية اللغة العربية التي لم تتألق ببهاء إلا في الشعر القديم والأدب التقليدي بصورة عامة ؟ أم أن الموشح لم يقدر له شعراء عباقرة كأبي نواس والبحرئى وابن الرومى والمتنبئ ومن لف لف لفهم لكي يرفعوه إلى المكانة التي يستحقها والتي توحى بها ميزاته ؟ إن ظهوره في عهد الانحطاط يؤيد ما قلناه من أنه ظاهرة من ظواهر هذا

الانحطاط . ولكننا نعتقد بأن شعراء أقوياء ذوي ثقافة لغوية متينة يستطيعون أن يستعملوا هذا الفن متجنبين مساوئه التي أشرنا إليها مستثمرين خصائصه الموسيقية البادية في حرية الوزن وتعدد القافية ، وعندئذ يمكنهم أن يرفعوا هذا الفن الجديد إلى مكانة الشعر الكلاسيكي دون أن يفقدوه ميزاته الأصلية . إذ لا يخفى أن الموشح إذا روعيت فيه الفصاحة شائق جميل وهو شعر الحب والنجوى واللهو أكثر من أن يكون شعر التأمل والفلسفة ، ولذا نغتنر له أحياناً سداجة معانيه ولاكننا لا نغتنر له ركاكة أسلوبه وهلهلة ألفاظه وضعف لغته .

وصفوة القول : يجب أن نشير إلى الموشح كفتح جديد في الأدب العربي جدير بأن يقدم لنا نتائج أفضل مما قدم حتى الآن . ولا يجب أن نطلب منه أن يكون غذاء الذهن والفكر بل يكفيننا منه ما يثيره فينا من عاطفة وخيال وما تخلق موسيقاه في نفوسنا من لذة محبة .

* * *

الفصل الثالث

مختارات من الموشحات

١

قال عبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢٢ هـ :

مَنْ وَلى فِي أُمَّةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلْ يَعِزْ إِلَّا لِحَاظِ الرِّشَاءِ الْأَكْحَلِ

* * *

جُرْتُ فِي حَكْمِكَ فِي قَتْلِي يَا مَسْرُفُ
فَانصِفْ فَوَاجِبٌ أَنْ يُنصِفَ الْمُنصِفُ
وَارَأْفِ فَإِنْ هَذَا الشُّوقَ لَا يَرَأْفُ

عَلَّلِي قَلْبِي بِذَلِكَ الْبَارِدِ السَّلْسَلِ يَنْجَلِي مَا بَفُؤَادِي مِنْ جَوِي مُشْعَلِ

* * *

إِنَّمَا تَبْرُزُ كَيْ تَوْقَدَ نَارَ الْفِتَنِ
صَمًا مُصَوِّرًا فِي كُلِّ شَيْءٍ حَسَنِ

إِنْ رَمَى لَمْ يَحْظَ مِنْ دُونِ الْقُلُوبِ الْجَنَنِ
كَيْفَ لِي تَخَلِّصُ مِنْ سَهْمِكَ الْمُرْسَلِ فَصِلِ وَاسْتَبِقْنِي حَيًّا وَلَا تَقْتُلِ

* * *

يا سنى الشمس ويا أبهى من الكوكبِ
يا منى النفس ويا سؤلى ويا مطلبى
ها أنا حلٌّ بأعدائك ما حلَّ بي
عُدلى من ألم الهجران فى مَعزِلِ والخلى فى الحُب لا يسأل عمّن يلى

* * *

أنت قد صيرت بالحسن من الرُّشد غىّ
فاتئدُ فى طرفى حبك ذنباً علىّ
فاتئدُ وإن تشا قتلىّ شيئاً فشىّ
أجملِ ووالى منك يدَ المُفضّلِ فهى لى من حسناتِ الزمن المُقبلِ

* * *

ما اغتذى طرفى إلا بسنى ناظريك
وكذا فى الحب ما بى ليس يخفى عليك
وكذا أنشدُ والقلبُ رهينٌ لديك
يا على سللت جفنيك على مقتلى فابقِ لى قلبى وجُدْ بالفضلِ ياموئلى

* * *

قال أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز ، من شعراء المعتصم بن
صمادح صاحب المرية ، عاش في القرن الخامس الهجرى :

بأبى ظبي حِمى تَكْنُفُهُ أُسْدُغَيْلُ
مذهبي رشف لَمَى قَرَقَفُهُ سَلْسَبِيلُ
يستبي قلبي بما يعطِفُهُ إِذْ يَمِيلُ
ذو اعتدال يُعزى إلى ذى نعمةٍ ثابتِ
فى ظلالٍ تحت حُلَى قطرِ الندى بايتِ
وفتورُ ذو غَنَجٍ ذو مرشفِ أَلْعَسِ
العبيرُ فى أَرَجٍ والحسنُ فى ملبسِ
كم يثيرُ وَجَدَ شَجٍ بالدَّنَفِ مَكْتَسِ
ذو اعتلالٍ لو عُلَّا أنطقَ عن ساكتِ
وغزالٍ لو مُقَلَّا أَلْحَظَ عن باهتِ
نيرٌ حَدُّ الهوى أن يجدوا حَدَّهُ
كوثرٌ سِرُّ الصدى أن يردوا وِرْدَهُ
أنظروا مُحمداً واتءدوا عِندَهُ
فى هلالٍ لو يجتلى جَلَّ عن الناعمتِ
وزُلالٍ لو بُدِلا يَرْتَقَى للِقانتِ

بَدْرُتَمَ شَمْسُ ضُحَى غُصْنُ نَقَا مِسْكُ شَمِّ
 مَا أَتَمَّ مَا أَوْضَحَا مَا أَوْرَقَا مَا أَنْمَ
 لَا جَرَمَ مَنْ لَمَحَا قَدْ عَشِقَا قَا حُرْمَ

فَالْوَصَالَ مَا قَدْ خَلَا مِنْ أَمَلٍ فَايَتِ
 وَالْخِيَالَ مَا قَدْ عَلَا مِنْ نَفْسٍ خَافَتِ

قَاتِلِي أَهْنُ دَمَا مَنْ قَدْ غَدَا مُلْحِدَا
 وَاصْبِلِي كُنْتَ فَمَا عَمَا بَدَا قَدْ عَدَا
 سَأِيلِي مُسْتَفْهِمَا جَيْشَ الرَّدَى أُعْتِدَا

لَا سَوَالَ عَنْ مَبْتَلِي يَنْحَتُ فِي صَامَتِ
 لَيْنَالُ مَا أَمَّلَا وَالْأَمْرُ لِلشَّامَتِ

كَمْ يَتِيَهُ كَمْ وَكَمْ يَا بِي الْجَوَى أَنْ يَحُولُ
 أَرْتَضِيَهُ وَإِنْ حَكَمَ حُكْمَ الْهَوَى فِي الْعَقُولُ
 قَلْتُ فِيهِ وَالْحَبُّ لَمْ يَرْضَ سِوَى مَا أَقُولُ

الْجَمَالَ وَقَفُّ عَلَى ظِي بَنِي ثَابِتِ
 لَا زَوَالَ فِي الْحَبِّ لَا عَنْ عَهْدِهِ الثَّابِتِ

قال محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمي الأندلسي المشهور بابن اللبانة
المتوفى سنة ٥٠٧ هـ :

في نرجس الأحداق وسوسن الأجياد نبت الهوى مغروس بين القنا المياد

* * *

وفي نقا الكافورُ والمندلِ الرطبِ
والهودج الم-زرورُ بالوشى والعصبِ
قُضِبُ من البلورِ حُمِينِ بالقُضْبِ
نادى بها المهجورُ من شدةِ الحبِ

أذابتِ الأشواقُ رُوحى على أجسادِ أعارها الطاووس من ريشه أبردُ

* * *

كواعبُ أترابُ تشابهتُ قَدَا
عَضَّتْ على العنابِ بالبردِ الأندى
أَوْصَتْ بى الأوصابِ وأغرَّتِ الوجدا
وأكثرُ الأحبابِ أعدى من الأعدا

تفتتُّ عن أعلق لآلىءِ أفرادٍ فيه اللّمي محروسٍ باللسنِ الأغمادُ

* * *

من جوهر الذكرى عَطَّلْ نَحورَ الحُورِ
 وَقَلِّدْ الدُّرَا سَلَالَةَ المنصورِ
 جَاوِزُ به البحرَا وَاخْرِقْ حجابَ النورِ
 وَقُلْ له شِعْرَا بِفضلِكَ المشهورِ
 جَمَعْتَ فِي الآفاقِ تَنَافِرَ الأضدادِ فَأَنْتَ لَيْثُ الخِيسِ^١ وَأَنْتَ بَدْرُ النَادِ

* * *

خَرَجْتُ مُحْتَالاً أَبْغِي سَنَى البرقِ
 أَقْطَعُ أَمِيالاً غَرْباً إِلَى شَرْقِ
 مَوْمِلاً حَالاً يَكُونُ مِنْ وَفْقِي
 فَقَالَ مَنْ قَالَا وَفَاهَ بالصِدْقِ
 دَعْ قِطْعَكَ الآفاقِ يَا أَيُّهَا المَرْتَادُ واقْصِدِ إِلَى بادِيَسِ خَيْرِ بَنِي حَمَّادِ

* * *

يَا مَنْ رَجَا الطَّلَا وَأَمَّـيَلِ التَّعْرِيسِ
 إِنْ شِئْتَ أَنْ تَحَلَّ بِطَائِلِ التَّائِسِ
 لَا تَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى عُلا بادِيَسِ

من فرقه أعلی قدرًا من البرجيس
مواطن الأرزاق أولئك الأمجاد فاحطط رجال العيس وانقض بقاء الزاد

٤

قال الأعمى التطيلي وهو من الوشاحين المشهورين في مطلع القرن السادس
توفي سنة ٥٢٠ هـ :

ضاحكٌ عن جمان سافرٌ عن بدرٍ ضاقَ عنه الزمانُ وحواهِ صدرِي
آه مما أجِدُ شفني ما أجِدُ
قامَ بي وقعدُ باطشٌ متدُّ
كلما قلتُ قدُ قال لي أينُ قدُ
وانثنى خوطَ بانُ ذا مهزَّ نضرٍ عابثتهُ يدانُ للصبَا والقطرِ
ليس لي منك بدُ خذُ فوادي عن يدُ
لم تدع لي جلدُ غير أني أجهدُ
مكرع من شهدُ واشتياقي يشهدُ
ما لبنتِ الدنانُ ولذاك الثغرِ أين محيا الزمانُ من حميا الخمرِ
بي هوى مضمُرُ ليت جهدي وفقه

كلما يظهر ففيوادى أفقهُ
 ذلك المنظرُ لا يداوى عشقه
 بيأبى كيف كان فلكى درى راق حتى استبان عذره وعذرى
 هل إليك سبيلٌ أو إلى أن أياساً
 ذُبتُ إلا قليلاً عبرةً أو نفساً
 ما عسى أن أقول ساء ظنى بعسى
 وانقضى كلُّ شأنٍ وأنا أستشبرى خالعاً من عنان جزعى وصبرى
 ما على من يلوم لو تناهى عنى
 هل سوى حبِّ ريمٍ دينه التجنى
 أنا فيه أهم وهو بي يغنى
 قد رأيْتُك عياناً ليس عليك ساءتدرى سايطول الزمان وستنسى ذكري^١

* * *

٥

قال يحيى بن بقی القرطبي ، وهو وشاح بارع في عصر المرابطين ، توفي سنة ٥٤٠ هـ :

عَبَثَ الشَّوْقُ بِقَلْبِي فَاشْتَكَى أَلَمَ الْوَجْدِ فَلَبَّتْ أَدْمَعِي

* * *

أَيُّهَا النَّاسُ فَوَادِي شَغِفُ
 وَهُوَ مِنْ بَغْيِ الْهَوَى لَا يُنْصَفُ
 كَمْ أَدَارِيهِ وَدَمْعِي يَكِفُ
 أَيُّهَا الشَّادِنُ مِنْ عِلْمِكَ بِسَهَامِ اللَّحْظِ قَتَلَ السَّبْعُ

* * *

بَدْرٌ تَمُّ تَحْتَ لَيْلٍ أَغْطَشِ
 طَالَعٌ فِي غَصْنِ بَانَ مُنْتَشِ
 أَهَيْفُ الْقَدِّ بِخَدِّ أَرْقَشِ
 سَاحِرُ الطَّرْفِ وَكَمْ ذَا فَتَكَ بِقُلُوبِ الْأُسْدِ بَيْنَ الْأَضْعِ

* * *

أَيُّ رَيْمٍ رُمْتَهُ فَاجْتَنِبَا
 وَانْثَى يَهْتَزُّ مِنْ سُكْرِ الصَّبَا
 كَقَضِيبِ هَزَّهُ رِيحُ الصَّبَا
 قُلْتُ: هَبْ لِي يَا حَبِيبِي وَصَلَاكَ وَأَطْرِحْ أَسْبَابَ هَجْرِي وَدَعِ

* * *

قَالَ: خَدَى زَهْرُهُ مُدْفَوْفَا
 جَرَدَتْ عَيْنَايَ سَيْفًا مُرْهَفَا

حَذَرًا مِنْهُ بَأَنَّ لَا يُقْطَفَا
إِنَّ مَنْ رَامَ جَنَاهُ هَلَكَا فَأَزِلْ عَنْكَ عِلَالَ الطَّمَعِ^١

ذَابَ قَلْبِي فِي هَوَى ظَبِيٍّ غَرِيرٍ
وَجْهُهُ فِي الدَّجْنِ صَبِيحٌ مُسْتَنِيرٌ
وَفُؤَادِي بَيْنَ كَفِيَّةِ أُسِيرٍ
لَمْ أَجِدْ لِلصَّبْرِ عَنْهُ مَسْلَكًا فَانْتَصَارِي بَانْسِكَابِ الأَدْمَعِ^٢

٦

وله أيضاً هذه الموشحة :

أَدِرْ لَنَا أَكْوَابَ يُنْسِي بِهَا الوجودُ وَاسْتَصْحِبِ الجُلَّاسُ كَمَا اقْتَضَى العَهْدُ

دِنْ بِالهُوَى شَرْعًا مَا عَشْتَ يَا صَاحِـ
وَنَزَّهُ السَّمْعَا عَنْ مَنْطِقِ اللّاحِي
وَالْحَكْمُ أَنْ يُدْعَى إِلَيْكَ بِالـجَـرَاحِـ

(١) علال الطمع : استدراره باستمرار ، من عائل الناقة : حلبها صباحاً ومساءً وظهراً .

(٢) انظر : نفح الطيب ج ٥ ص ٣٦٧ - ٣٧٢ (طبعة محمد محي الدين عبد الحميد) وانظر

الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٦ ، طبعة مكتبة صادر ، بيروت .

أَنَامِلُ الْعُنَابِ وَنَقْلَكَ الْوَرْدُ حَفَا بِصِدْغَى آسٍ يَلْوِيهِمَا الْخَدُّ

لِلَّهِ أَيَّامٌ دَارَتْ بِهَا الْخَمْرُ
وَالرُّوضُ بِسَامٌ بَاكَرَهُ الْقَطْرُ
وَصَلُّ وَأَنْغَامٌ وَأَوْجُهُ زُهْرُ

فَنَحْنُ بِالْأَصْحَابِ قَدْ ضَمْنَا عِقْدُ وَأَفْرَطِ الْإِينَاْسِ مِمَّا لَهُ حَدُّ

بَيْنَا أَنَا شَارِبٌ لِلْقَهْوَةِ الصِّرْفِ
وَبَيْنَنَا تَائِبٌ لَكِنْ عَلَى حَرْفٍ
إِذْ قَالَ لِي صَاحِبٌ مِنْ جَمَلَةِ الظُّرْفِ

أَمِيرُنَا قَدْ تَابَ غَنٌّ لَهُ وَأَشْدُّ وَعَارِضٌ عَلَيْهِ الْكَاسُ عَسَاهُ يَرْتَدُّ^٢

٧

قال أبو بكر محمد بن باجة الأندلسي السرقسطي المتوفى سنة ٥٣٣ هـ :

جَرِّرِ الذَّيْلَ أَيْمًا جَرًّا وَصِلِ الشُّكْرَ مِنْكَ بِالشُّكْرِ

(١) تائب على حرف : أى على وجه واحد ، كأن يتوب عن معصية ولا يتوب عن أخرى .

(٢) الموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٢ ، دار الطراز ص ٤٧ .

خَضَبِ الزَّنَدِ مِنْكَ بِاللَّهَبِ
 مِنْ لُجَيْنٍ قَدْ حُفَّ بِالذَّهَبِ
 تَحْتَ سِلْكِ كَجَوْهَرِ الْحَبِ
 مَعَ أَحْوَى وَأَعْدَبِ الشَّنْبِ
 أَوْدَعْتُ كَفُّهُ مِنَ السَّحَرِ جَامِدَ الْمَا
 وَذَائِبَ التَّبْرِ

* * *

هَاكَ نَوْرَ الصَّبَاحِ قَدْ لَاحَا
 وَنَسِيمَ الرِّيَاضِ قَدْ فَاحَا
 فَتَاهَبُ وَشَعَشَعَ الرَّاحَا
 لَا تَقْدُ فِي الظَّلَامِ مَصْبَاحَا
 حِينَ تَنْهَلُ أَدْمَعُ القَطْرِ فَعَلَى الرُّوضِ نَاسِمٌ عِطْرِي

* * *

فَهَمُومٌ رَاحَتُ بِأَفْرَاحِ
 فِي مَسَاءٍ وَعِنْدَ إِصْبَاحِ
 وَالغَوَادِي تَجُودُ بِالرَّاحِ
 وَهِيَ تَسْقِي الرَّبِّيَ بِأَقْدَاحِ

وقدودُ الأَغصانِ بالسُّكْرِ تنثني في غلائلِ خُضْرٍ

* * *

طاب شربى من خمرِ خَمَارٍ
 بين مُرَدٍّ وبين أَبكارِ
 وجَنِينًا وردًا ولا حارًا^٢
 ويد الصبحِ زَنْدُها وارٍ^٣
 قد جنتُ لى من أحسنِ الزهرِ جذوةً عنبريةً النَّشْرُ^٤

* * *

٨

قال أبو بكر محمد بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وموشحته على نمط
 موشحة ابن بقی (٥):

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ

* * *

ونديمِ هِمَّتُ فِي غَرْتِهِ

(١) الغواذى : غيوم الصباح . الراح : أى المطر . الأقداح : يقصد بها هنا أوراق الزهر التى يرويها المطر .

(٢) حار : ترخيم حارس ، وهو مع غير النداء ضرورة .

(٣) زندها وار : أى مخرج ناره .

(٤) انظر : العذارى المائسات ص ٨٩ - ٩١ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ٢٦ .

(٥) انظر ص ٣١٦ من هذا الكتاب .

وَبِشْرَبِ الرَّاحِ مِنْ رَاحَتِهِ
 كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
 جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَكَأَ وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعٍ

مَا لَعِنِي عَشِيْتُ بِالنَّظَرِ
 أَنْكَرْتُ بَعْدَكَ ضَوْءَ الْقَمَرِ
 وَإِذَا مَا شِئْتَ فَاسْمَعُ خَبْرِي
 عَشِيْتُ عَيْنَايَ مِنْ طَوْلِ الْبُكَاءِ وَبِكَأَ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

غُصْنُ بَانٍ مَالٍ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى
 بَاتَ مِنْ يَهْوَاهُ مِنْ فَرَطِ الْجَوَى
 خَفِقَ الْأَحْشَاءُ مُوَهُونَ الْقُوَى
 كَلِمَا فَكَّرَ بِالْبَيْنِ بَكَّى وَيَحَهُ يَبْكِي لِمَا لَمْ يَقَعْ !

لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلْدُ
 يَا لِقَوْمِي عَذَلُوا وَاجْتَهَدُوا
 أَنْكُرُوا شِكْوَايَ مِمَّا أَجِدُ

مثلُ حاليِ حقُّهُ أن يُشتكى كمدُّ اليأسِ وذُلُّ الطَّمَعِ

* * *

كَبِدِي حَرَّى ودمِعي يَكِفُ
يَعْرِفُ الذنْبَ ولا يَعْتَرِفُ
أَيُّهَا المَعْرِضُ عَمَّا أَصِفُ

قد نما حبُّك عندي وزكاً لا تقلُّ في الحبِّ إني مُدَّعٍ^١

* * *

٩

وله أيضاً هذه الموشحة :

ما للمولِّه من سُكره لا يُفِيقُ يالِهُ سكرانُ
من غيرِ خمرٍ ما للكئيب المشوقُ يندب الأوطانُ

* * *

هل تستعاذُ أيامنا بالخليجِ و لياليَنا
أو يستفادُ من النسيم الأريجُ مسكُ داريننا^٢
أو هل يكادُ حسنُ المكان البهيجُ أن يُحيينا

(١) انظر : دار الطراز ص ٧٣ والموشحات الأندلسية عدد ١٨ ص ١٣ .

(٢) بلد بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ويباع بها فصار ينسب إليها .

روضٌ أَظْلَهُ دُوحٌ عَلَيْهِ أَنْيْقُ مَورِقُ الأَفْنَانِ
والماءُ يَجْرِي وَعِائِمٌ وَغَرِيقُ مَنْ جَنَى الرِّيحَانَ

* * *

أَوْ هَلْ أَدِيبٌ يُحْيِي لَنَا بِالْغُرُوسِ مَا كَانَ أَحْلَى
مَعَ الحَبِيبِ وَصَافِيَاتِ الكَوَّوسِ فَاسْقِنِي وَأَمَلَا
عِيشٌ يَطِيبُ وَمَنْزَهُ كَالْعُرُوشِ عِنْدَمَا تُجَلَى
عِيشٌ لِعَلَّةُ يَعُودُ مِنْهُ فَرِيقُ كَالَّذِي قَدْ كَانَ
أَضْغَاثُ فِكْرٍ تَحْدُو بِهِ وَتَسُوقُ هَذِهِ الأَلْحَانَ

* * *

يَا صَاحِبِيَّآ إِلَى مَتَى تَعْدِلَانِي أَقْصِرَا شَيْئَا
قَدْ مِتُّ حَيًّا وَالْمُبْتَلَى بِالْغَوَانِي مَيِّتٌ حَيًّا
جَنَى عَلَيَّآ عَذْبُ اللَّمَى وَالْمَعَانِي عَاطِرٌ رِيَّآ
هَلَالُ كِلَّةُ غَزَالُ أَنْسٍ يَفُوقُ سَائِرَ الغَزَلَانِ
يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لِي إِلَيْهِ طَرِيقُ أَوْ إِلَى السُّلْوَانِ

* * *

١٠

وله أيضاً هذه الموشحة وهي من مجزوء الخفيف :

سَلِّمِ الْأَمْرَ لِلْقَضَا فهُوَ لِلنَّفْسِ أَنْفَعُ

* * *

وَاعْتَمِمْ حِينَ أَقْبَلَا

وَجَهَ بَدْرِ تَهْلَلَا

لَا تَقْلُ بِالْهَمُومِ لَا

كُلُّ مَا فَاتَ وَانْقَضَى لَيْسَ بِالْحَزَنِ يَرْجِعُ

* * *

وَاصْطَبِحْ بَابِنَةَ الْكُرُومِ

مَنْ يَدَى شَادِنٍ رَحِيمِ

حِينَ يَفْتَرُّ عَنِ نَظِيمِ

فِيهِ بَرْقٌ قَدْ أَوْمَضَا وَرَحِيْقٌ مَشْعَشَعٌ

* * *

أَنَا أَفْدِيهِ مِنْ رَشَا

أَهْيَفُ الْقَدِّ وَالْحَشَا

سُقَى الْحُسَنِ فَاَنْتَشَى

مَد تَوَلَّى وَأَعْرَضَا ففَوَادَى يَقْطَعُ

مَنْ لَصَبٌ غَدَا مَشُوقٌ
ظَلٌّ فِي دَمْعِهِ غَرِيقٌ
حِينَ أُمَّوَا حِمَى الْعَقِيقُ
وَاسْتَقْلُوا بَدَى الْغَضَا أَسْفَى يَوْمَ وَدَّعُوا

مَا تَرَى حِينَ أَظْعَنَّا
وَسْرَى الرِّكْبُ مَوْهِنَا
وَكَتَسَى اللَّيْلُ بَالْسِنَا
نُورَهُمْ ذَا الَّذِي أَضَا أُمَّ مَعَ الرِّكْبِ يُوشَعُ

١١

قال إبراهيم بن سهل الإشبيلي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ :

لَيْلُ الْهَبْوَى يَقْظَانُ وَالْحَبُّ تَرِبُ السَّهْرِ
وَالصَّبْرُ لِي خَوَّانُ وَالنُّومُ مِنْ عَيْنِي بَرِي

(١) الموهن : نصف الليل . أو بعد ساعة منه .

(٢) يوشع : أى يشوع بن نون ، والمراد أنه رد الشمس عن المغيب فبقى نورها ليلاً .

* * *

يا زهرة الأنسِ روض المنى منك جديبُ
 لـولـاك لم أُمسِ في الأهل والدار غريبُ
 رضـاك للنفسِ مثلُ الصبا بعد المشيبُ
 والأمنُ للهفانُ واليسرُ بعد المعسرِ
 وجنةُ الرضوانِ بعد العذابِ الأكبرِ

* * *

يسومني مقلوبُ بسوم من يسبي القلوبُ
 ذاك المنى المطلوبُ يامدّع صبر الكذوبُ
 يا ظالماً محبوبُ يامذنباً حلّو الذنوبُ
 عابك لي بهتانُ فخاب سعى المفتري
 هل يقبلُ الظمانُ عيباً بماء الكوثرِ ؟

* * *

يا مُبطلاً عنوه أعذر لمن لم يعشقي
 يا ناصر الصبوة على تقى كل تقى
 يا مُظهر الشقوة حسناء في عين الشقى

يا حجة الأشجانُ على السلو المدبرِ
يا شرك الأذهانُ يا قيدَ عينِ المبصرِ

* * *

عَيْنِيَّ من بعده لِصرفِ ماءِ الدمعِ عَيْنِ^١
عَوَّضْتُ في بَعْدِهِ بالبدرِ رعى الفرقدينِ
جُرِّعْتُ من فَقْدِهِ فوصلهُ لا شكَّ عَيْنِ^٢
إذ هجرهُ كسلانُ والعيشُ طَلَقُ المنظرِ
وتيههُ يقظانُ وصدُّه لم يشعُرِ

* * *

١٢

لابن سهل الإشبيلي أيضاً هذه الموشحة الشهيرة :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صبَّ حلَّه عن مكْنِسِ^٣
فهو في حرٍّ وخفقٍ مثلما لعبت ریحُ الصبا بالقَبَسِ

* * *

(١) العين الثانية : عين الماء .

(٢) العين : خيار الشيء والسحاب المطر .

(٣) حمى الحمى : منعه ودفع عنه ، والمراد هنا أنه استقل وحده بقلبه . المكْنِس : مأوى الظبي ،

وفوله عن مكْنِس ، أى بدلا من مكْنِس ، فعن هنا للبدال .

يا بدوراً أطلعت يوم النوى غُرراً تسلك في نهج الغرر^١
 ما لقلبي في الهوى ذنبٌ سوى منكم الحسنُ ومن عيني النظرُ
 أجتني اللذاتِ مكلومَ الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكرُ
 كلما أشكوه وجدى بسما كالرُّبى بالعارض المنبجسِ
 إذ يقيم القطر فيها مائماً وهى من بهجتها في عرس^٢

* * *

غالبٌ لى غالبٌ بالتؤده بأبى أفديه من جافٍ رقيق^٣
 ما رأينا مثل ثغرٍ نضده أقحواناً عُصرت منه رحيق^٤
 أخذت عيناه منه العربده وفوآدى سكره ما إن يُفريق^٥
 فاحمُ الجمّة معسولُ اللَّمى أكحلُ اللحظِ شهيُّ اللّيس^٦
 وجهه يتلو الضحى مبتسماً وهو فى إعراضه فى عبس^٧

* * *

أيها السائلُ عن ذلى لديه لى جزاءُ الذنبِ وهو المذنبُ
 أخذتُ شمس الضحى من وجنتيه مشرقاً للشمس فيه مغربُ
 ذهبتُ أدمعُ أجفانى عليه وله خدٌ بلحظى مذهبُ^٨

(١) الغرر : جمع غرة ، أى طلعة وجوه الحسان ، الغرر بالفتح : التعريض للهلكة .

(٢) الجمّة : مجتمع شعر الرأس . اللّيس : سواد مستحسن فى الشفة .

(٣) الضحى وعبس : من سور القرآن ، وفيهما توريثان لطيفتان .

(٤) مذهب : مطلى بالذهب ، والمراد مورد خجلا .

* * *

يَنْبُتُ الْوَرْدُ بَغْرَسِي كَلِمَا لَاحِظْتَهُ مَقَلْتِي فِي الْخَلْسِ
لَيْتَ شَعْرِي أَيْ شَيْءٍ حَرَمًا ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمَغْتَرَسِ؟

* * *

كَلِمَا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرَقِي غَادَرْتَنِي مَقَلْتَاهُ دَنِفًا^١
تَرَكْتُ الْهَاطِظَ مِنْ رَمَقِي أَثَرَ النَّمْلِ عَلَى صَمِّ الصَّفَا
وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ لَسْتُ الْهَاهُ عَلَى مَا أَتَلَفَا
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمَا وَعَذُولِي نَطْقُهُ كَالْخَرَسِ
لَيْسَ لِي فِي الْحَبِّ حُكْمٌ بَعْدَمَا حَلَّ مِنْ نَفْسِي مَحَلَّ النَّفْسِ

* * *

مِنْهُ لِلنَّارِ بِأَحْشَائِي اضْطِرَامٌ يَلْتَضِي فِي كُلِّ حِينٍ مَا يَشَا
وَهِيَ فِي خَدِيهِ بَرْدٌ وَسَلَامٌ وَهِيَ ضُرٌّ وَحَرِيقٌ فِي الْحَشَا
أَتَى مِنْهُ عَلَى حُكْمِ الْغَرَامِ أَسَدَ الْغَابِ وَأَهْوَاهِ رَشَا
قَلْتُ لِمَا أَنْ تَبَدَّى مُعَلَّمَا وَهُوَ مِنْ الْهَاطِظِ فِي حَرَسِ
أَيُّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَغْنَمًا اجْعَلِ الْوَصَلَ مَكَانَ الْخُمْسِ^٢

* * *

(١) الدنف : المريض .

(٢) الخمس : نصيب قائد الجيش من الغنيمة بتسكين الميم ، وضمت للشعر .

قال أبو الحسن المريني ، من شعراء القرن السابع للهجرة ، يذكر ملامه
على سد قرطبة :

في نعمة العودِ والسُّلافَةِ والروضِ والنهرِ والنديمِ^١
أطال من لامني خِلافَهُ فظلَّ في نُصْحِهِ مَلِيمٌ^٢

* * *

دعني على منهج التصابي ما قام لي العذرُ بالشبابِ
ولا تُطِلْ في المُنَى عِتَابِي فلستُ أُصغِي إلى عتابِ
لا ترجُ ردي إلى جوابِ والكأسُ يفتُرُّ عن حَبَابِ
والغصنُ يُبدى لنا انعطافَهُ إذا هفا فوقه النسيمُ
والروضُ أهدى لنا قطافَهُ واختالَ في بُردِهِ الرقيمُ

* * *

يا جذا عهدى القديمِ ومن به همتُ مُسعدى
ريمٌ عن الوصلِ لا يريمُ مـولعٌ بالتـوددِ
ما تمَّ إلا به النعيمُ طـوعاً على رغمِ حُسدى
معتدلُ القدِّ ذو نحافه أسقمني طرفه السقيمُ

(١) السلافة : الحمر .

(٢) ملِيم ومَلُوم : واحد .

ورام طرفي به انتصافه فخذ في خده الكلم^١

غصنُ الصبا عطرُ المُقبَلِ أحلى من الأمن والأمل
ظامى الحشا مفعمُ المخلخلِ حلو اللمي ساحرُ المُقل^٢
لكل ما رامه توصيلٌ لم يخش رداً بما فعل
أشكو فيبدي لي اعترافه إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر فيه رافه فحق لي فيه أن أهم^٣

لله عصرٌ لنا تقضى بالسد والمنبر البهيج
أرى ادكاري إليه فرضاً وشوقه دائماً يهيج
فكم خلعنا عليه غمضا وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه وهكذا الدهر لا يُديم

يا من يحث المطى غرباً عرج على حضرة الملوك

(١) انتصافه : أخذ حقه منه . الكلم : الجريح ، والمراد أنه أدماه بأنظاره إذا احمر خجلا .

(٢) ظامى الحشا : ضامر البطن . مفعم المخلخل : ممتلئ الساق .

(٣) رافه : رافعة .

وانثر بها ، إن سفحتَ غرباً ، من مدمعٍ عاطلٍ سَلوكُ^١
 واسمع إلى من أقام صَباً واحكٍ صداه لا فُضَّ فُوكُ
 بلغ سلامي قصر الرُّصافهٗ واذكر له عهدى القديم
 وحيٌّ عنى دارَ الخلافةِ وقفُ بها وقفه الغريم^٢

* * *

١٤

هذه موشحة مشهورة لدى الوزارتين لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب ،
 شاعر الغنى بالله محمد بن أبي الحجاج أحد ملوك بني الأحمر ووزيره ، المتوفى
 سنة ٧٧٦ هـ قالها في الغزل وذكر الطبيعة ومدح بها سلطانه الغنى بالله ، معارضاً
 بها موشحة ابن سهيل (٣) :

جارك الغيثُ إذا الغيثُ همى يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
 لم يكن وصلكُ إلا حُلماً في الكرى أو خلسةً المختلسِ

* * *

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المنى ننقلُ الخطوَ على ما ترسمُ
 زمراً بين فرادى وثُننا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
 والحياءُ قد جَلَلِ الروضَ سنا فثغورُ الزهرِ فيه تبسمُ

(١) الغرب : الدمع .

(٢) الغريم : المديون .

(٣) انظر ص ٣٢٨ من هذا الكتاب .

وروى النعمانُ عن ماءِ السما كيفَ يَروى مالِكُ عن أنسٍ
فكسَاه الحسنُ ثوباً مُعلماً يزدَهِى منهُ بأبهى ملبَسِ

* * *

في ليلٍ كتمتُ سرَّ الهوى بالدجى لولا شموُسُ الغُورِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهوى مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطرَّ ما فيه من عيبٍ سوى أنه مرَّ كلمحِ البصرِ
حينَ لَدَّ النومُ شيئاً أو كما هَجَمَ الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارَت الشهبُ بنا أو ربما أثرتُ فينا عيونَ النرجسِ

* * *

أى شىءٍ لامرىءٍ قد خلصاً فيكونُ الروضُ قد مُكِّنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه الفرصاً أمنتُ من مكرِهِ ما تتقيه
فإذا الماءُ تناجى والحصا وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه
تُبصرُ الوردَ غيوراً برِماً يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الاسَ لبيباً فهما يسرقُ السمعَ بأذنى فرسِ

* * *

(١) النعمان : ملك الحيرة ، والمراد هنا شقائق النعمان . ماء السماء : أم المنذر وجدة النعمان ،
والمراد هنا المطر . مالك : إمام المدينة وأحد الأئمة الأربعة . أنس : والده . والمراد : رواية مالك عن
أبيه رواية صدق ، ومثلها رواية الشقيق عن أبيه المطر ، وصدقها باد في زهره وحسن منظره .

يا أهيلَ الحى من وادى الغضا وبقلبي مسكنٌ أنتم به
ضاق عن وجدى بكم رجبُ الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فأعيدوا عهدَ أنسٍ قد مضى تعتقوا عبدكم من كربيه
واتقوا الله ، وأحيوا مغرماً يتلاشى نفساً فى نفس
حبس القلب عليكم كرمًا أفترضون عفاء الحبس^١

* * *

وبقلبي منكم مُتتربُّ بأحاديثِ المنى وهو بعيد
قمرٌ أطلع منه المغربُ شقوة المصنى به وهو سعيد
قد تساوى محسنٌ أو مذنبُ فى هواه بين وعدٍ ووعد
أحورُ المقلة معسولُ اللَّمى جال فى النفسِ مجالَ النفسِ
سدَّ السهمَ فأصمى إذ رمى بفؤادى نبلة المُفترسِ

* * *

إن يكن جارَ وخابَ الأملُ ففؤادُ الصب بالشوقِ يذوبُ
فهو للنفسِ حبيبٌ أولُ ليس فى الحبِّ لمحبوبِ ذنوبُ
أمره معتمَلٌ ممتثلُ فى ضلوعٍ قد براها وقلوبُ

(١) الحبس : جمع حبيس ، وهو الموقوف فى سبيل الله ، وهنا القلب المحبوس فى سبيل الحب .

حَكَّمَ اللَّحْظَ بِهِ فَاحْتَكَمَا لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفَسِ^١
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا وَيُجَازِي الْبِرَّ مِنْهَا وَالْمُسِيءَ

* * *

مَا لِقَلْبِي كَلِمًا هَبَّتْ صَبَا عَادَهُ عِيدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدُ
جَلَبَ الْهَمَّ لَهُ وَالْوَصْبَا فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدِ
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا قَوْلُهُ : إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدُ^٢

لَاعَجٌ فِي أَضْلَعِي قَدْ أُضْرِمَا فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبَسِ
لَمْ يَدَعْ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذِمَا كِبْقَاءِ الصُّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ^٣

* * *

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حُكْمِ الْقَضَا وَاعْمُرِي الْوَقْتَ بَرُجَعِي وَمَتَابُ^٤
وَدَعِي ذَكَرَ زَمَانٍ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُنْبِي قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابُ^٥
وَاصِرِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرَّضَى مَلْهُمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمَّ الْكِتَابِ^٦

الْكَرِيمِ الْمُنْتَهَى وَالْمُنْتَمَى أَسَدِ السَّرِجِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ

(١) لم يراقب : أى لم يحاذر الله .

(٢) اللوح : أى لوح قضاء الله .

(٣) الذمء : بقية الروح .

(٤) الرجعى : الرجوع .

(٥) العنبي : الرضى .

(٦) أم الكتاب : الفاتحة أو القرآن جميعه أو لوح القدر المحفوظ .

يُنزَلُ النَّصْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يُنزَلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ^١

* * *

مُصْطَفَى اللَّهِ سَمَى الْمُصْطَفَى الْغَنَى بِاللَّهِ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ^٢
 مِنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفِي إِذَا مَا فَتَحَ الْخَطْبَ عَقَدَ
 مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ بَيْتِ النَّصْرِ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ

حَيْثُ بَيْتِ النَّصْرِ مَحْمَى الْحِمَى وَجَنَى الْفَضْلِ زَكَى الْمَغْرِبِ
 وَالْهَوَى ظَلُّ ظَلِيلٌ خَيْمًا وَالنَّدَى هَبَّ إِلَى الْمُغْتَرَسِ

* * *

هَاكِهْيَا يَا سَبْطَ أَنْصَارِ الْعُلَى وَالذَى إِنْ عَثَرَ الدَّهْرَ أَقَالَ
 غَادَةً أَلْبَسَهَا الْحُسْنَ مَلَا تَبَهَّرُ الْعَيْنَ جَلَاءً وَصِقَالَ^٣
 عَارِضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحَبُّ فَقَالَ :

« هَلْ دَرَى ظَبِيُّ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنِسِ »
 « فَهُوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقِي مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ »

* * *

(١) روح القدس : جبريل .

(٢) سمى المصطفى : أى اسمه محمد كما سمى النبي المصطفى .

(٣) ملا : أى ملاء ، جمع ملاءة .

١٥

هذه موشحة لأبي عبد الله بن زمرك ، تلميذ لسان الدين بن الخطيب وخلفه
 وكاتب سر الغنى بالله ، المتوفى سنة ٧٩٨ هـ ، قالها يعارض موشحة ابن سهل :
 « ليل الهوى يقظان^(١) » ويمدح السلطان :

نواسمُ البستانِ تنثرُ سلكَ الزهرِ
 والطلُّ في الأغصانِ ينظِّمه بالجواهرِ

* * *

وراحةُ الإصباحِ أضاءَ منها المشرقُ
 تنشرها الأرواحُ فلا تزال تخفقُ^٢
 والزهرُ زهرٌ فاحٌ له عيونٌ ترمقُ^٣

فأيقظُ الندمانُ يبصرنَ ما لم يبصرِ^٣
 جواهرُ الشبانِ قد عرضت للمشتري^٤

* * *

قدحتَ لي زندا يا أيها البارقُ

(١) انظر ص ٣٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) الأرواح : جمع ريح .

(٣) يبصرن : الضمير يعود إلى عيون الزهر .

(٤) المشتري : كوكب طالعه سعد ، وفيه تورية .

أَذْكَرْتَنِي عَهْدًا إِذِ الشَّبَابُ رَائِقٌ
 فَالشَّوْقُ لَا يَهْدَا وَلَا الفُؤَادُ الخَافِقُ
 وَكَيْفَ بِالسَّلْوَانُ وَالقَلْبُ رَهْنُ الفِكْرِ
 وَسُحْبُ الهَجْرَانُ تَحْجِبُ وَجَهَ القَمَرِ

* * *

لَوْلَا شَمُوسُ الكَاسِ مَدِيرُهَا بَيْنَ البَدُورِ
 وَعَرَجَ الإِينِيَّاسِ مَنَّا عَلَى رُبْعِ الصَّدُورِ
 لَكِنَّ لَهَا وَسْوَاسِ يُغْرِي بَرَبَاتِ الخَدُورِ
 كَمْ وَالهِ هِيَامُ بِصَبْحِ وَجْهِ مُسْفِرِ
 ضِيَآؤُهُ قَد بَانَ مِنْ تَحْتِ لَيْلِ مُقْمَرِ

* * *

يَا مَطْلَعَ الأَنْوَارِ كَمْ فَيْكٍ مِنْ مَرَأَى جَمِيلِ
 وَنُزْهَةَ الأَبْصَارِ مَاضِرٌّ لَوْ تَشْفَى الغَلِيلِ
 يَا رَوْضَةَ الأَزْهَارِ وَعَرْفُهَا يُبْرِى العَلِيلِ
 قَضِيكَ الفَتَيَانَ يُسْقَى بِدَمْعِ هَمِيرِ
 فَلَاعِجُ الأَشْجَانِ فَيْضُ الدَّمُوعِ يَجْرِي

* * *

* * *

هل في الهوى ناصرٌ أو هل يجار الهائم
لو كان لي زائرٌ طيفُ الخيال الحائم
ما بتّ بالساهرُ ودمعُ عيني ساجمُ

والحب ذو عدوانٍ يجهدُ في ظلمِ البري
وصارم الأجفانِ مـؤيدُ بالحورِ

* * *

رُحماك في صبٍ أذكرته عهد الصبا
بواعثُ الحبُّ قادتُ إليه الوصبا^١
لم تهفُّ بالقلب ريحُ الصبا إلا هبا^٢

بليلةُ الأردنُّ قد ضُمَّختُ بالعنبرِ
يشيرُ غصنُ البان منها بفضلي المتزر^٣

* * *

وطيها - حمدُ فخرُ الملوك المُجتبي^٤

(١) الوصب : المرض .

(٢) هبا : أي ثار كالغبار .

(٣) الفضل : الزيادة عن الحاجة .

(٤) المجتبي : المصطفى .

مَنْ يُرْجَحُ الطَّوْدُ مِنْ حِلْمِهِ إِذَا احْتَبَى^١
 قَدْ جَرَدَ السَّعْدُ مِنْهُ حَسَاماً مُذْهِباً

فَالْبَأْسُ وَالْإِحْسَانُ وَالغَوْثُ لِلْمُسْتَنْصِرِ
 تَحْمِلُهُ الرِّكْبَانُ تَحْيَاةً لِلْمُنْبِرِ

* * *

عِصَابَةُ الْكُتَّابِ حُقَّ لَهَا الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 تَخْتَالُ فِي أَثْوَابِ حُقَّ لَهَا الْفَخْرُ الْجَسِيمُ
 فَحَسْبُهَا الْإِطْنَابُ فِي الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ الْعَمِيمُ

خَلِيفَةَ الرَّحْمَنِ لَا زَلَّ سَامِي الْمَظْهَرِ
 يَا مُورِدَ الظَّمَانِ وَرَأْسِ مَالِ الْمُعْسِرِ

* * *

خُذْهَا عَلَى دَعْوَى تَزْرِي عَلَى الرُّوضِ الْوَسِيمِ^٢
 جَاءَتْ كَمَا تَهْوَى أَرْقَ مِنْ لَدُنِ النَّسِيمِ^٣
 قَدْ طَارَحَتْ شَكْوَى مِنْ قَالَ فِي اللَّيْلِ الْبِهِيمِ :

(١) احتبى : جلس عاقداً يديه على ركبتيه .

(٢) الوسيم : الجميل .

(٣) اللدن : اللين من كل شيء .

« ليلُ الهوى يقظانُ والحبُّ تربُ السَّهرِ »
« والصبرُ لى خَوَّانُ والنومُ من عيني بَرى »

* * *

١٦

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة قالها في ذكر الصبوح ومدح سلطانه ابن الأحمر:

ريحانةُ الفجرِ قد أَطَلَّتْ خضراءُ بالزَّهرِ تزهرُ
ورايةُ الصبحِ قد أَظَلَّتْ في مَرَقَبِ الشَّرْقِ تنشرُ

* * *

فالشهبُ من غارةِ الصباحِ ترعدُ خوفاً وتخفيقُ
وأدهمُ الليلِ في جِمَاحِ أعذَّةِ البرقِ يطلقُ
والأفقُ في ملتقى الرياحِ بأدمعِ الغيثِ يشرقُ

والسحبُ بالجواهرِ استهلتُ فالبرقِ سيفُ مجوهرُ
صفاحه المذهباتُ سُمِّلتُ في راحةِ الجوّ تشهرُ

* * *

كم للصبأِ ثمَّ من مقيلاً بطيبهِ الزهرُ يشهدُ
والنهرُ كالصارمِ الصقيلاً في حليَّةِ النورِ يُغمدُ

وَرَبَّ قَالٍ وَقِيلَ لِلطَّيْرِ فِي حِينَ تَنْشِدُ

فَالسَّنُ الْوُرُقُ فِيهِ أَمَلْتُ مَدَائِحاً عَنْهُ تَشْكُرُ
وَنَسْمَةً الصَّبْحِ حِينَ كَلَّتْ فِي سُندُسِ الرُّوضِ تَعْتُرُ

* * *

وَالكَأْسُ فِي رَاحَةِ النَّدِيمِ يَجْلُو بِهَا غَيْهَبَ الْهُمُومِ
أَقْبَسَتِ النَّارَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُخْلَقَ الْكُرُومِ
وَالنَّهْرُ فِي مَلْعَبِ النَّسِيمِ لِلزَّهْرِ فِي عِطْفِهِ رُقُومِ

فَلَبَّةُ النَّهْرِ قَدْ تَحَلَّتْ وَالطَّلُّ فِي الْحَلِيِّ جَوْهَرِ
وَبَهْجَةُ الْكُونِ قَدْ تَجَلَّتْ وَالرُّوضُ بِالْحَسَنِ يَبْهَرُ

* * *

يَا غِصْنَ بَانَ يَمِيلُ زَهْوًا رِيَّانَ فِي رَوْضَةِ الشَّبَابِ
أَوْ كُنْتَ تُصْغِي لِرَفْعِ شَكْوَى أَطَلْتُ مِنْ قِصَّةِ الْعِتَابِ
وَمِنْ لِمَثَلِي يَبْتُ نَجْوَى لِلبَدْرِ فِي رَفْرِفِ السَّحَابِ

عِزَائِمُ الصَّبْرِ فَيْكَ حُلَّتْ وَعَقْدَةُ الصَّبْرِ تَزْخَرُ
قَدْ أَكْثَرْتُ مِنْكَ مَا اسْتَقَلَّتْ وَلَيْتَ لَوْ كُنْتَ تَشْعُرُ

(١) الورق : الحمام . تشكر أى تشكر المطر ذائبة عن الزهر .

(٢) اللبة : موضع القلادة من الصدر .

* * *

كم ليلةٍ بِتُّها وبتّا ضدّين في السهد والرقادُ
 أسامرُ النجمَ فيكَ حتى علّمت. أجفانها السهادُ
 أرقبُ بدرَ الدجى وأنتا قد لُحِتَ في هالة الفيوادُ

نفسى وليتَ ما تولّتْ دَعِيها على الشوقِ تَصْبِرُ
 لو سُمَّتْها الهجرَ ما تولّتْ ولم تكنْ عنكَ تَنْفِرُ

* * *

علّمها الصبرَ في الحروبِ سلطانها عاقدُ البنودِ
 معفرُ الصيْدِ للجُنُوبِ أغرُّ مَنْ حُفَّ بالجنودِ^١
 يضربُ بالرعبِ في القلوبِ والبيضُ لم تبرحِ الغمودُ

عنايةُ الله فيه جَلَّتْ بسعده الدينُ يُنصرُ
 والخلقُ في عصره تَمَلَّتْ غنائماً ليس تُحصرُ^٢

* * *

مولاي يا نكتةَ الزمانِ دارَ ، بما ترتضى ، الفلكُ
 جَلَّتْ باليمنِ والأمانِ كلُّ ملكٍ وما ملكُ

(١) الصيْد : الملوك والمتكبرون . الجنوب : جمع جنب .

(٢) تملت : تمتعت .

لم يدرِ وصفي ولا عياني أملكُ أنت أم ملكُ؟

جنودك الغلبُ حيث حلتْ بالفتح والنصرِ تخفّرُ
وعادة الله فيك دلّت أنك بالكُفْرِ تظفرُ

* * *

يا آية الله في الكمالِ ومخجَلِ البدرِ في التمامِ
قُدِّمتَ بالعِزِّ والجلالِ والدهرُ في ثغره ابتسامُ
يختالُ في نُحْلَةِ الجمالِ والبدرُ قد عاد في اختتامِ

ريحانةُ الفجرِ قد أطلتْ خضراءَ بالزهرِ تزهرُ
وراية الصبحِ قد أظلتْ في مرقبِ الشرقِ تُنشرُ

* * *

١٧

ولابن زمرك أيضاً هذه الموشحة في التشوق إلى غرناطة ومدح الغنى بالله :

بالله يا قامةَ القضيبيِّ ومُخْجِلِ الشمسِ والقمرِ
من ملكِ الحسنِ في القلوبِ وأيِّدِ اللحظَ بالحوَرِ؟

* * *

مَنْ لم يكن طبعه رقيقاً لم يدرِ ما لذّة الصبا

فرباً حرّاً غدا رقيقاً تملكه نفخة الصبا
نشوان لم يشرب الرقيقاً لكن إلى الحسن قد صبا

فعدب القلب بالوجيب ونعم العين بالنظر
وبات والدمع في صبيب يُقدح من قلبه الشرر

عجبت من قلبي المعنى يهفو إذا هبت الرياح
لو كان للصب ما تمنى لطار شوقاً بلا جناح
وبلبل الدوح إذ تغنى أسهر ليلى إلى الصباح

عساك إن زرت ، يا طيبي ، بالطيف في رقدة السحر
أن تجعل النوم من نصيبي والعين تحمي من السهر

كم شادنٍ قادي الحتوفا بمربع القلب قد سکن
يسل من لحظه سؤفا فالقلب بالروع ما سکن
خلقت من عادتي أوففا أحن لالاف والسکن

غرناطة منزل الحبيب وقربها السؤل والوטר
تبهر بالمنظر العجيب فلا عدا ربعا المطر !

* * *

عروسةٌ تاجُها السبيكةُ وزهرها الحليُّ والحلُّ^١
 لم ترضَ من عزها شريكهٌ بحسنها يُضربُ المثلُ
 أيدها الله من مديكتهُ تملكها أشرفُ الدولِ
 بدولة المرتجى المهيبِ الملكِ الطاهرِ الأغرِ
 تختال في بُردها القشيبِ في حالة النورِ والزهرِ

* * *

كرسيها جذةُ العريفِ مرآتها صفحةُ الغديرِ^٢
 وجوهرُ الطلِّ في شُوفِ تحكمه صنعةُ القديرِ^٣
 والأنسُ فيه على صنوفِ فمن هديلٍ ومن هديرِ
 كم خرَّقَ الزهرُ من جيوبِ وكَلَلِ القُضبِ بالدرِّ
 فالغصنُ كالكَاعبِ اللعوبِ والطيرُ تشدو بلا وترِ

* * *

ولائمِ النصرِ في احتفالِ وصرحُ دينِ الهدى جديدُ
 سلطانها شارعُ العوالي محمدُ الظافرُ السعيدُ^٤

(١) السبيكة : موضع بغرناطة .

(٢) جنة العريف : موضع في غرناطة كان مصيفاً لأمرء العرب ، ولا تزال أثاره قائمة .

(٣) الشنوف : ما يعلق في الآذان من الحلي .

(٤) شارع : مسدد .

ومُخجلِ البدر في الكمالِ سلطانها المُجتبى الفريدُ
أَصْفَحُ مولىً عن الذنوبِ أكرمُ عافٍ إذا قَدَرَ
وشمس هَدَى بِلا مغيبٍ وبحرٍ جودٍ بلا حَسْرٍ^١

* * *

مولاي يا عاقدَ البنودِ تظللُ الأوجُهَ الصِّباحِ
أوحشتَ ، يا نُخبَةَ الوجودِ ، غرناطةً نَجْمَةَ الصِّباحِ
سافرتَ باليُمنِ والسُّعودِ وعُدتَ بالفتحِ والنجاحِ

يا ملهمَ القلبِ للغيوبِ ومُطعمَ النصرِ والظفرِ
أسمعكَ اللهُ عن قريبٍ : على السلامِ من السفرِ

* * *

١٨

هذه موشحة شهيرة لابن سناء الملك الشاعر المصري المتوفى سنة ٦٠٨ هـ ،
وقد قالها معارضاً موشحة عبادة بن ماء السماء^(٢) :

كلُّي يأسحبُ تيجانَ الربى بالحلى واجعلى سوارها منعطفَ الجدولِ^٣

* * *

(١) بلا حسر : أى بلا نضوب .

(٢) انظر ص ٣٠٩ من هذا الكتاب

(٣) تيجان الربى : أعاليها . الحلى أى أنواع الأزهار .

ياسما فيك وفي الأرض نجوم وما^١
 كلما أغربت نجماً أطلعت أنجماً
 وهي ما تهطلُ إلا بالطلا والدمي
 فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي وانقلي للذن طعم الشهد والقرنفل

* * *

تتقدُّ كالكوكب الدرِّي للمرتصدُّ
 يعتقدُّ فيها المجوسى بما يعتقدُّ^٢
 فاتئدُّ يا ساقى الراح بها واعتمدُّ
 وأمل لي حتى ترانى عنك في معزلٍ قللٍ فالراح كالعشق إن يزِدُّ يقتل

* * *

لا أليمٌ في شرب صهباء وفي عشق ريمٍ
 فالنعيم عيشٌ جديدٌ ومُدَامٌ قديمٌ
 لا أهيمٌ إلا بهذينِ فقم يا نديمٍ
 واجل لي من أكوسٍ صيرت من فوفلٍ^٣ أذلى من نكهة العنبر والمندل^٤

* * *

(١) المراد بنجوم الأرض أنواع الأزهار . وما : مسهل ماء .
 (٢) يعتقد : أى يرى فيها الألوهية لأنها تتقد كعبودته النار .
 (٣) الفوفل بالفتح والضم : نخلة كخنخة النارجيل تحمل كبائس فيها الفوفل أمثال التمر ، طيب
 النكهة ، ويمضغ فيحدث طرباً فى النفس .
 (٤) المندل : عود هندي طيب الرائحة .

خُذْ هَنِي^١ وَاَعْطِنِي كَأْسَكَ مِثْلَ كَأْسِي هَنِي
 وَاسْقِنِي عَلَى رِضَابِ الْفَطْنِ الْمُتَسِينِ
 وَالْهَنِي بَبَعْضِ مَا صَيَغُ مِنَ الْأَلْسِنِ
 لَوْ تُلِي مَدْحُ سِنَاهُ مَعَ رِشَاءِ أَكْحَلِ لَدُلِّي عَلَى سِنَا الصِّهْبَاءِ وَالسَّلْسَلِ

* * *

أَزْهَرْتُ لِيَلْتُنَا بِالْوَصْلِ مَدَّ أَصْفَرْتُ
 أَصْدَرْتُ^٢ بِزَوْرَةِ الْمَحْبُوبِ إِذْ بَشَّرْتُ
 أَخَّرْتُ^٣ فَقُلْتُ لِلظُّلْمَاءِ إِذْ قَصَّرْتُ
 طَوَّلِي يَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ وَلَا تَبْخُلِي وَأَسْبِلي سِتْرَكَ فَالْمَحْبُوبُ فِي مَنْزِلِي

* * *

مَنْ ظَلَمَ فِي دَوْلَةِ الْحَسَنِ إِذَا مَا حَكَمَ
 فَالْأَلَمُ يَجُولُ فِي بَاطِنِهِ وَالنَّدَمُ
 وَالْقَلَمُ يَكْتُبُ فِيهِ عَنِ لِسَانِ الْأُمَمِ :
 مَنْ وَكَلِي فِي دَوْلَةِ الْحَسَنِ وَلَمْ يَعْدِلْ يَعْدُلِ الْحَاطِ الرِّشَاءَ الْأَكْحَلِ

* * *

(١) هني : شيبى أى كاسى .
 (٢) أصدرت : أى أتمت الأمر .
 (٣) جعلت الزيارة إلى آخر الليل .

قال شهاب الدين العزّازيّ المشرقي المتوفى سنة ٧١٠ هـ^(١):

يا ليلة الوصلِ وكأس العُقارِ

دون استتارِ

علمتاني كيف خلعُ العِذارِ^٢

* * *

فاغتنمِ اللذاتِ قبيلِ الذهبِ

وجرَّ أذيالَ الصِّبَا والشبابِ

واشربْ فقد طابتْ كوؤُسُ الشرابِ

على حدودِ تَنْبِتِ الجُلنارِ^٣

ذاتِ احمرارِ

طَرَزَهَا الحِسنُ بِاسِ العِذارِ

* * *

الراحُ لا شكَّ حياةُ النفوسِ

(١) هو شهاب الدين أحمد بن عبد الملك العزّازي . كان بزازاً وكان ينظم الشعر للمطارحة والمفاكحة وقد أجاد الموشح خاصة . وفي شعره كثير من الألفاظ التي كان يحسن صوغها . وديوان شعره ناقص بدار الكتب المصرية ، وفيه قسم خاص بالموشحات . توفي سنة ٧١٠ هـ . والعزّازي بفتح العين والزاي المخففة نسبة إلى عزاز وهي بلدة قرب حلب . انظر : إعجام الأعلام لمحمود مصطفى ص ١٥١ .

(٢) خلع العذار : ترك الحياء واتباع الهوى .

(٣) الجلنار : زهر الرمان .

فحلٌّ منها عاطلاتِ الكؤوسِ
وافترضها ، بين الندامى ، عروسُ

تُجلى على خطَّابها في إزار
من النُّصارِ
حبابها قامَ مقامَ النُّشارِ^١

* * *

واجنِّ من الوصلِ ثمارَ المني
وواصلِ الكاسَ بما أمكنا
مع طيبِ الرِّفْقَةِ حلوى الجنى

ذى مقلةٍ أفتكَ من ذى الفقارِ^٢
ذاتِ احورارِ

منصورةٍ الأَجْفانِ بالانكسارِ

* * *

زارَ وقد حلَّ عقودَ الجفَا
يختالُ في ثوبِ الرضى والوفَا

(١) النشار : ما ينثر في العرس للحاضرين ، أو ما ينثر على العروس .

(٢) ذو الفقار : سيف على بن أبي طالب .

فقلتُ : والوقتُ به قدُ صَفَا

ياليلةً أنعمَ فيها وزارُ

شمسُ النهارُ

حييتُ من دونِ الليالي القصارُ !

* * *

٢٠

هذه موشحة في التصوف قالها محي الدين بن عربي الأندلسي ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٤٦٨ هـ ونزح إلى الشرق وطوّف في أنحاءه ومات بدمشق سنة ٥٤٣ هـ :

سرائرُ الأعيان ^١	لاحتُ على الأكوان ^٢	للناظرين ^٣
والعاشقُ الغيران ^٤	من ذاك في حرّان ^٥	يبدي الأنين ^٦

* * *

يقولُ والوجدُ	أضناه والبعْدُ	قد حيرَه
لما دنا البعدُ	لم أدرِ من بعدُ	من غيَرَه
وهيم العبدُ	والواحدُ الفردُ	قد خيَرَه
في البوحِ والكتمان ^٧	والسرِّ والإعلان ^٨	في العالمين ^٩

(١) الأعيان : حقائق الأشياء المدركة بالعيان .

(٢) حران : رملة بالبادية ، كنى بها عن شدة الظمّ للاتصال بالله تعالى . وحران أيضاً الشديد

العطش .

أما هو الديانُ يا عابد الأوثانُ أنتَ الضنينُ^١

* * *

كل الهوى صعبُ على الذى يشكو ذلَّ الحجابُ^٢
يا من له قلبُ لو أنه يذكو^٣ عند الشبابُ
قد قربَ الربُّ لكنه إفكُ فانوِ المتابُ
ونادِ يا رحمانُ يا ربِّ يا منانُ إني حزينُ
أضناني الهجرانُ ولا حبيبُ دانُ ولا معينُ

* * *

فنيْتُ باللهِ عما تراه العينُ من كونهِ
فى موقف الجاهِ وصيحتُ: أَيْنَ الأَيْنُ؟ فى بيئهِ !
فقالَ يا ساهى ما عاينتُ قطُّ عَيْنُ بعينه^٥
أما ترى عيلانُ وقيسَ أو مَنْ كانُ فى الغابرينَ ؟
قالوا الهوى سلطانُ إن حلَّ بالإنسانُ أفناهُ دينُ^٦

* * *

- (١) عابد الأوثان : عابد الجسد المادى . أنت الضنين : أى أنت البخيل بقهره لتقوية الروح .
(٢) الحجاب : أى المادة التى تحجب الإنسان عن مشاهدة الله .
(٣) يذكو : يتقد بنور الصوفية .
(٤) الأين : التعب والإعياء .
(٥) بعينه : بذاته وجوهره وقربه ، أى أن العين إذا شاهدت ذاته لا ترى سواها من الموجودات .
(٦) الدين : الداء والغلبة والقهر والطاعة والذل ، وهذه المعانى كلها صالحة لتفسير كلام الشاعر .

كم مرةً قَالَا : أنا الذى أهوى
 فلا أرى حالاً ولا أرى شكوى
 لست كمن مالا عن الذى يهوى
 ودان بالسُلوان هذا هو البهتان
 سلوهم ما كان عن حضرة الرحمن
 من هو أنا ؟! إلا الفنا
 بعد الجنى للعارفين^٢
 والآفكين

* * *

دخلتُ فى بستانُ الأُنس والقرب
 فقال لى الرياحُ يخال بالعُجب
 أنا هو الإنسانُ مُطيبُ الصبِّ
 جنانُ يا جنانُ اجن من البستانُ
 وحللِ الرياحُ بحرمةِ الرحمن
 كمكنسه^٣ فى سُندسه :
 فى مجلسه الياسمين
 للعاشقين !

* * *

(١) الحال : حالة نفسية يشعر بها الصوفى ، كلذة الفقر ، وهى عارضة مفارقة ، فإذا ثبتت صارت مقاماً .

(٢) العارفون : اصطلاح صوفى يراد به شيوخ المتصوفة الذين بلغوا معرفة الحقائق اللدنية والكشف الإلهى .

(٣) مكنسه : أى مكنس القرب من الله والأُنس به . والمكنس : المأوى .

(٤) الجنان : أى حارس الجنة أو صاحبها ، وتطلق الجنة عند الصوفيين على جنة المطاعم اللذيذة والمشارب الهنية ثواباً للأعمال الصالحة ، وتسمى جنة الأعمال وجنة النفس أيضاً .

(٥) الرياح : أراد به تجليات الله أو حلوله ، وكذلك قال : أذا هو الإنسان على مذهب الحلولية .

المراجع

أ - مراجع عربية :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : الحلة السرياء - نشر دوزى منها مقتطفات ، مدريد ١٨٨٦ .

- التكملة لكتاب الصلة ، نشر جزءاً منه كوديرا في المكتبة الأندلسية (ج ٥ - ٦ مدريد ١٨٨٧ - ١٨٩٠) .

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، مجلدان ، طبعة مصر ١٣٠٤
ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - نشرت منه كلية الآداب بجامعة القاهرة ثلاثة مجلدات : القسم الأول في مجلدين ، ثم المجلد الأول من القسم الرابع .
القاهرة ١٩٣٩ - ١٩٤٥ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصاة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم - طبعة كوديرا في مجلدين ،
مدريد ١٨٨٢ - ١٨٨٣ .

ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف - طبعة دمشق ثم طبعة القاهرة ١٩٥٠ .

ابن حمديس : ديوان ، طبعة بالرم ١٨٨٣ ، وروما ١٨٩٧ ، وبيروت ١٩٦٠ .
ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك - ليدن ١٨٧٣ .

ابن حيان : كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس (مخطوط وحيد في أكسفورد)
نشر الأب ملشور أنطونيا الجزء الخاص بإمارة المنذر وعبد الله ، باريس ١٩٣٧ .

ابن خفاجة : ديوان ، طبعة القاهرة ١٢٨٦ ، وطبعة مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥١ .
ابن خلدون : المقدمة .

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوى السلطان الأكبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ - ٧ أجزاء .

- ابن خلكان : وفيات الأعيان — القاهرة ١٣١٠ هـ ، جزءان .
- ابن خير (أبو بكر محمد) : الفهرسة = فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف — نشره ريديرا وكوديرا في سرقسطة ١٨٩٤ — ١٨٩٥ (B. A. H., t IX -- X) .
- ابن رشيق : العمدة ، القاهرة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٧ م ، جزءان في مجلد .
- ابن زيدون : ديوان ، طبعة كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة ، القاهرة ١٣٥١ ١٩٣٢ . وطبعة على عبد العظيم ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ١ و ٢ ، بتحقيق الدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٥ .
- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات ، نشر الدكتور جودت الركابي — دمشق ١٩٤٩ .
- ابن شهيد الأندلسي : رسالة التوابع والزوابع — نشرها مع مقدمة طويلة بطرس البستاني ، بيروت ١٩٥١ .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد — طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ — ١٩٥٢ .
- ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب — نشر دوزي الجزعين الأول (عن المغرب) والثاني (عن الأندلس) في ليدن ١٨٤٨ — ونشر ليثي بروفنسال الجزء الثالث عن الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين ، باريس ١٩٣٠ — وطبعت مكتبة صادر في بيروت الجزعين الأول والثاني سنة ١٩٥٠ .
- ابن غالب : فرحة الأنفس — مقتطفات في نفع الطيب .
- ابن قزمان : ديوان — نسخته الوحيدة مطبوعة بالتصوير الشمسي في برلين ١٨٩٦ — ونشر الدكتور نيكل هذا الديوان بحروف لاتينية مع مقدمة وتعليقات وترجمة إسبانية لبعض قطعه في مدريد ١٩٣٣ .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس — مدريد ١٩٢٦ (مع ترجمة إسبانية) .

- ابن نباتة المصري : شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون - القاهرة ١٣٢١ هـ
 ابن هاني الأندلسي : ديوان ، طبعة مصر وطبعة بيروت .
 أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة ١٣٢٥ هـ - ٤ أجزاء .
 - تقويم البلدان ، طبعة دوسلان ، باريس ١٨٤٠ .
 الأبشهي : المستطرف من كل فن مستظرف ، القاهرة ١٣٣٠ هـ - جزآن .
 أحمد الاسكندري وأحمد أمين ورفاقهما : المفصل في تاريخ الأدب العربي ،
 القاهرة ١٩٣٦ .
 أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس ، القاهرة ١٣٤٢ - ١٩٢٤ .
 أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس : كتاب مجهول المؤلف - نشره وترجمه
 للإسبانية لافوينتي إي ألكنترا ، مدريد ١٨٦٨ .
 الإدريسي : وصف إفريقية وإسبانيا - نص عربي وترجمة فرنسية ، نشرهما
 دوزي ودخويه ، ليدن ١٨٦٦ .
 بالنشيا (آنخيل جنتالث) : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين
 مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .
 بطرس البستاني : أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ، بيروت ١٩٣٧ .
 البكري (أبو عبيد عبد العزيز) : صفة إفريقية - طبعة دوسلان - الجزائر ١٩١١ .
 الثعالبي : يتيمة الدهر - القاهرة ١٩٤٧ .
 جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده - المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٣٣
 - مقال في الأدب الأندلسي في مجلة الأبحاث التي تصدرها الجامعة الأميركية
 في بيروت ، العددان ٢ و ٣ من السنة الثانية ، حزيران - أيلول ١٩٤٩ .
 جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٦ .
 الحجاري : المعجب في أخبار المغرب - مقتطفات في نفح الطيب .
 حسين مؤنس : انظر بالنشيا ، وغومس .
 الحصري (أبو إسحاق) : زهر الآداب وثمر الألباب - طبعة زكي مبارك ، القاهرة
 ١٣٤٤ - ١٩٢٥ ، ٤ أجزاء .

- حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي - المطبعة البولسية ، حريصا - لبنان ١٩٥١ .
- خير الدين الزركلي : الأعلام - الطبعة الثانية في عشرة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٩
- سيد نوفل : شعر الطبيعة في الأدب العربي ، القاهرة ١٩٤٥
- شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦ .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، منشورات مكتبة الأندلس ، بيروت ١٩٥٦
- ابن زيدون ، طبع دار المعارف ، بيروت ١٩٥٣ .
- الصفدي : نكت الهميان في نكت العميان - طبعة أحمد زكي باشا . القاهرة ١٣٢٩ - ١٩١١ .
- الصنوبري : الروضيات - طبعة محمد راغب طباطبا ، حلب ١٣٥١ - ١٩٣٢ .
- الضبي (أحمد بن يحيى بن عميرة) : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس - نشره كوديرا ، مدريد ١٨٨٥ .
- عبد الرحمن البرقوقي : حضارة العرب في الأندلس ، القاهرة ١٣٤١ - ١٩٢٣ .
- عبد المنعم الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في نخب الأقطار ، طبعه ليثي بروفنسال مع ترجمة بالفرنسية القاهرة ١٩٣٧ وليدن ١٩٣٨ (النص العربي طبع القاهرة والترجمة الفرنسية طبع ليدن وكلاهما مجموع في جزء واحد أنيق) .
- عبد الواحد المراكشي : المِعْجَب في تلخيص تاريخ المغرب - طبعة دوزي الثانية ، ليدن ١٨٨١ ، وطبعة القاهرة ١٣٢٤ - ١٩٠٦ . (ترجمه Fagnan للفرنسية بعنوان : Histoire des Almohades , Alger 1898)
- علي عبد العظيم : ديوان ابن زيدون ورسائله ، القاهرة ١٩٥٧ .
- غومس (إميليو غارسيه) : الشعر الأندلسي ، عربه عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٢ .
- الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٣٢٠ هـ .

— مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، طبعة مصر ، ١٣٢٥ هـ .

فيليب قعدان الخازن : العذارى المائسات في الأزجال والموشحات ، مطبعة الأرز ،
جونية ١٩٠٢ .

كامل كيلاني : نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، القاهرة ١٣٤٢ — ١٩٢٤ .
لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في تاريخ غرناطة — القاهرة ١٣١٩ هـ .

— أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من
شجون الكلام — طبعة ليثي بروفسال ، باريس ١٩٣٤ .

المتنبى : ديوان — شرح العكبرى ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٦ .

محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، مصر ١٢٩٩ هـ .

محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ، القاهرة ١٩٤٩ .

محمد كرد علي : غابر الأندلس وحاضرها — القاهرة ١٩٢٣ .

— الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ ، جزآن .

محمود مصطفى : الأدب العربي وتاريخه — الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٣٧ .

— إعجام الأعلام ، المطبعة الرحمانية ، مصر ١٣٥٤ — ١٩٣٥ .

مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، في ثلاثة أجزاء (في الجزء الثالث
بحث عن الموشح) القاهرة ١٩٤٠ .

مصطفى عناني : إظهار المكنون من الرسالة الجدية لابن زيدون — القاهرة ١٩٠٦ .

المعتمد بن عباد : ديوان — (جمعه أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد) ،
مطبوعات وزارة المعارف العمومية — القاهرة ١٩٥١ .

المقرئ (شهاب الدين أحمد بن محمد) : نصح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، بولاق ١٠٧٩ هـ . أعاد نشره في عشرة

مجلدات محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

الموشحات الأندلسية : الأعداد ١٨ و ١٩ و ٢٠ ، طبع مكتبة صادر في بيروت

. ١٩٤٩

٣٦١

النويرى (شهاب الدين أحمد) : نهاية الأرب فى فنون الأدب – طبعة القاهرة
١٩٢٣ – ١٩٣٥ ، ١١ مجلداً (طبع الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس
فى مجلدين بمديرى سنة ١٩١٧ – ١٩١٩) .
نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى – نشرت بإشراف الدكتور عمر فروخ ،
بيروت ١٩٤٩ .
ياقوت الحموى : معجم الأدياء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب – ٢٠ جزءاً ،
القاهرة ١٩٣٨ .
– معجم البلدان ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٦ .

ب - مراجع غير عربية :

Blachère (R.) : *Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au Xe siècle Saïd de Bagdad, in Hespéris, t. X, 1930, PP. 15 - 36.*

— *La vie et l'oeuvre du poète - épistolier andalou Ibn Darrag al Qastalli, in Hespéris, t. XVI, 1923, PP. 99-121.*

— *Un poète arabe du IVe siècle de l'hégire* (X siècle de J. C.) *Abou-Tayyib al-Moutanabbi, Paris 1935.*

Brockelmann : *GAL = Geschichte der Arabischen Littiratur, Leyde 1943-1949, 2 vol. + (supplément I - III), Leyde 1937 - 1942.*

Cour (A.) : *Un poète arabe d'Andalousie ; Ibn Zaidoun, Constantine 1920.*

Dozy (R.) : *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711 - 1110). nouvelle édition revue et mise à jour par Lévi-Provençal, Leyde 1932, 3 Vol.*

— *Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, 3 éd. Leyde - Paris 1881, 2 vol.*

Encyclopédie de l'Islam, éd. française, 4 volumes et 1 vol. de supplément, Leyde 1908-1938.

Groetz (H.) : *Les juifs d'Espagne (945 - 1205), trad. G. Stenne, Paris 1872.*

Hartmann (M.) : *Das arabische Strophengedicht. Das Muwassah, Weimar 1897.*

Jeanroy (A.) : *La poésie lyrique des Troubadours, Toulouse - Paris 1934, 2 vol*

Lévi-Provençal (E.) : *Histoire de l'Espagne musulmane, Paris 1950 - 1953, 3 tomes (T. I, La conquête et l'Emirat hispano - umayyade « 710 - 912 ». T. II, Le Califat umayyade de Cordoue « 912 - 1031 ». T. III, Le siècle du Califat de Cordoue),*

— *L'Espagne musulmane au Xe siècle. Institutions et vie sociale, Paris 1932.*

— *La civilisation arabe en Espagne, nouvelle édition, Paris 1948.*

Marçais (G.) : *Manuel d'art musulman. L'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile ; 2 vol. Paris 1926 - 27.*

— *Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam occidental, in Hespéris, XIX, fasc. 1 - 2 (1931), PP. 95 - 106.*

- Massé (H.)** *Ibn Zaidùn*, in *Hespéris*, t. I (1921) PP. 183 - 193.
- Menéndez Pidal (R.)** : *Poesía arabe y poesía europea*, dans la *Rivista Cubana*, janvier - mars 1937, aussi dans *Bulletin Hispanique*, octobre - décembre 1938.
- Nykl (A. R.)** : *Hispano - Arabie Poetry*, Baltimore 1946.
- Pérès (H.)** : *La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle*, Paris 1937.
- Rikabi Jawdat** : *La poésie profane sous les Ayyùbides et ses principaux représentats*, Paris 1949.
- Simont (F. J.)** : *Historia de los Mozarabes de Espana*, Madrid 1903.
- Tarrasse (H.)** : *L'art hispano - mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris 1932.

ج - دوريات ومجموعات ومجلات :

- مجلة الآداب - بيروت .
- مجلة الأبحاث - الجامعة الأميركية ، بيروت .
- مجلة الأديب - بيروت .
- مجلة الثقافة - القاهرة .
- مجلة الكاتب المصري - القاهرة .
- مجلة الكتاب - القاهرة .
- مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق .
- مجلة المشرق - بيروت .
- مجلة معهد المخطوطات العربية - تصدرها الجامعة العربية ، القاهرة .
- Al-Andalus**, Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada. (تصدر مرتين في العام ابتداء من عام ١٩٣٣) .
- B. A. H.** : *Bibliotheca arabico hispana*.
- Hespéris**, publié par l'Institut des hautes études marocaines, Paris
- J. A.** : *journal asiatique*.
- R. E. I.** : *Revue des études islamiques*.

فهرس الأعلام وأسماء الأماكن والقبائل

ح = حاشية

ابن بشكوال : ٥٦ ، ٥٧ ح ، ١١٦ ،
 ابن بقیّ : ٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٧ ،
 ٣٢١ ، ٣١٦
 ابن بليطة : ١٥٤
 ابن البيطار المالقي : ٥٧
 ابن تومرت = محمد بن تومرت
 ابن جامع : ٧٦
 ابن جبیر : ١١٦
 ابن الجهم : ٢١٢
 ابن الحداد (أبو عبد الله) : ٥٢ ،
 ١٢٢
 ابن حزم : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ،
 ٥٥ ، ٧١ ، ٧٧ ، ١١٦
 ابن حمديس : ٥ ، ٩٧ ، ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٠١ ح ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ،
 ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 ابن حوقل : ٣٨ ، ٣٩
 ابن حيان : ٥٥ ، ١٦٥ ، ١٧٥ ،
 ٢٥٦ ، ٢٨٨
 ابن خاتمة الأنصاري ٢٨٨
 ابن خاقان = الفتح بن خاقان
 ابن الخطيب = لسان الدين بن الخطيب
 ابن خفاجة : ٥ ، ٧٣ ، ٧٦ ،
 ١٠١ ح ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

أ

آدم : ٢٦٩
 الآستانة = القسطنطينية
 آش (واد) : ٩٨
 أبان بن عبد الحميد : ٢٩٢
 إبراهيم بن جعفر بن عليّ : ١١٧
 أبرهة (عامل اليمن) : ٢٧٠
 إبليس : ٢٦٩ ح
 أبولون : ٤٤
 الأبيض (الشاعر) : ٧١
 ابن الأبار : ٥٧ ، ٣٩ ، ٢٨٨ ح
 ابن أنى أصيعة : ٥٧ ح
 ابن أبي علاقة : ٧٢
 ابن الأحمر = محمد بن يوسف النصري
 ابن الأرقم : ٦٤
 ابن أعلى الناس : ١٠٤
 ابن باجة : ٢٥ ، ٥٥ ، ٨٦ ،
 ١١٦ ، ٢٩٠ ، ٣١٩
 ابن بدرون : ٥٦
 ابن بسام : ٥٥ ، ٦٣ ، ٧٢ ،
 ٧٣ ، ٧٣ ح ، ٧٧ ، ٨٨ ،
 ٩٠ ح ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٦٦ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ٢٠٣ ،
 ٢٠٤ ، ٢٤٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
 ٢٨٩

، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١
 ، ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥
 ، ١٩٢ ، ١٩١ ، ١٩٠ ، ١٨٩
 ، ١٩٨ ، ١٩٦ ، ١٩٥ ، ١٩٤
 ، ٢٠٤ ، ٢٠٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٠
 ، ٢١١ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥
 ، ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٥ ، ٢١٤
 ، ٢٣٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣
 ، ٢٤٩ ، ٢٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٣٥
 ، ٢٦٢ ح ، ٢٧٣ ح ، ٢٧٤ ح ،
 ، ٢٧٥ ح ، ٢٧٦ ح ، ٢٧٧ ح ،
 . ٢٩٢

ابن سعيد : ٥٨ ، ٢٨٨ ح

ابن سفر المريني : ١٣١

ابن السكيت : ٧١

ابن سلام : ٧١

ابن سلول : ٢٧٠ ح

ابن سناء الملك : ٢٩١ ، ٢٩٣ ،
 ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٥
 ، ٣٠٧ ، ٣٠٢ ، ٣٠١ ، ٣٠٠
 . ٣٤٨

ابن سهل : ١٠١ ح ، ١٣٣ ، ١٥٦ ،
 ، ٣٠٧ ، ٣٠٤ ، ٢٩٠ ، ١٥٧
 ، ٣٣٨ ، ٣٣٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦

ابن السيد البطليوسي : ٧٢

ابن سيده : ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥

ابن شرف (شاعر) : ٧٧ ، ٧٩

ابن شُهَيْب : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

، ٥١ ، ٧٣ ح ، ٧٧ ، ٩٢

. ١٠١ ح

ابن صارة الأندلسي : ١٥٣

، ١٢٣ ، ١١٣ ، ١١٢ ، ١١٠
 ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠
 ، ١٤٤ ، ١٤٣ ، ١٤٢ ، ١٣٩
 ، ١٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٤٥
 ، ١٤٩ ، ١٥٠

ابن خلدون : ١٢ ، ٢٣ ح ، ٣٠ ح ،

، ٣٧ ، ٦٥ ، ٧٢ ح ، ٨٨ ،

٢٨٩ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧

ابن خلكان : ٨٩ ، ٩٠

ابن خير = محمد بن خير

ابن دراج القسطلّي : ٣٨ ، ٩٠ ،

٩١ ، ١٠١ ح

ابن رشد : ٢٩ ، ٤٧ ، ٥٦ ، ١١٦ ،

ابن رشيق : ٧٢ ، ٧٣ ، ٢٩٢

ابن الرومي : ٧٢ ، ١٢٨ ، ٢٠٥ ،

٣٠٧

ابن الزبيري : ٢٧١ ح

ابن زمرك : ٤٧ ، ٥٨ ح ، ١٠١ ح ،

، ٣٤٢ ، ٣٣٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٠

٣٤٥

ابن زهر الأندلسي : ٦٩ ، ٢٨٦ ،

، ٣٠٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٠ ، ٢٩٠

٣٢١

ابن زيدون : ٦ ، ٢٣ ، ٤٧ ،

، ٥٥ ، ٦٣ ، ٩٨ ، ١٠١ ح ،

، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٢٢

، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١ ، ١٣٤

، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥ ، ١٦٤

، ١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٩ ، ١٦٨

، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٣ ، ١٧٢

، ١٨٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨ ، ١٧٧

- ابن النديم : ٩٩
 ابن هاني الأندلسي : ٤٧ ، ٦٤ ،
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠١ ح ،
 ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ .
- ابن وهبون : ١٢٠ ، ١٥٦
 أبو بحر بن عبد الصمد : ٩٧
 أبو البقاء الرندي : ٥٧ ح ، ١١٥
 أبو بكر (رضي الله عنه) : ٢٧٠
 أبو بكر بن ذكوان : ١٦٥ ، ١٨٢
 أبو بكر بن زهر = ابن زهر الأندلسي
 أبو بكر بن زيدون : ١٦٤ ، ١٨٧
 أبو بكر بن العربي (قاضي) : ٦٦
 أبو بكر بن عمار = ابن عمار
 أبو بكر بن مسلم : ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٧٦ ، ١٧٩
 أبو بكر الخزومي الأعمى : ١١٦
 أبو تمام : ٦٩ ، ١٢٨ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٤ ح ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ح ،
 ٢٦٠ ح ، ٢٦٨ ح ، ٢٧٧ ح .
 أبو جعفر الأندلسي الغرناطي : ٩٩
 أبو جعفر المنصور : ١٦
 أبو جميل زيان (أمير بلنسية) :
 ٥٧ ح .
 أبو الحجاج يوسف : ٢٩٠ ح .
 أبو الحزم بن جهور : ٢٤ ، ١٦٢ ،
 ١٦٥ ح ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،
- ابن طفيل (فيلسوف) : ٢٩ ، ٥٦ ،
 ١١٦ .
 ابن عبد ربه : ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠١ ح ،
 ١١٨ ، ١٥٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩
 ابن عبد الغفور : ٧٣
 ابن عبدوس : ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٦ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢٥٢ ح
 ٢٦٢ ح .
 ابن عبدون : ٥١ ، ٥٥ ، ٥٧ ،
 ٧١ ، ٧٥ ، ٩٧ ، ١٠١ ح ،
 ١١٤ .
 ابن العذاري : ٣٨ ، ٤٠
 ابن عمار : ٢٤ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١٠١ ح ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ .
 ابن العميد : ١٩١
 ابن غالب : ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٥
 ابن قزمان : ٥٦ ، ٧٠ ، ٧١ ،
 ٧٢ ح ، ٢٩٨ ح .
 ابن لبال : ٧٥
 ابن اللبابة : ١١٤ ، ٢٩٠ ، ٣١٣
 ابن مرتين : ١٨٦ ، ١٨٧
 ابن المعتز : ٧٠ ، ٧٣ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١٢٩ ، ٢٨٦
 ابن مقانة (شاعر) : ٧٧
 ابن المكوي : ١٧٥ ، ١٧٦
 ابن ملجم : ٢٧١ ح
 ابن المناصف : ٧١
 ابن ميمون : ١١٦
 ابن نباتة : ١٦٧ ، ١٨٩
 ابن النحاس النحوي : ٦٩ ، ٧٠

أبو القاسم خلف بن عباس : ٥٥
 أبو لؤلؤة : ٢٧٠ ح
 أبو معشر (منجم عباسي مشهور) :
 ٢٥٦
 أبو نواس : ٧٢ ، ٨٧ ، ١٠١ ،
 ١١٨ ، ٢٥٨ ح ، ٢٩١ ،
 ٣٠٧
 أبو الوليد بن جهور : ١٣٣ ، ١٧٥ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ،
 ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٩ .
 أبو يحيى بن إبراهيم : ١٤٥
 أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
 (من الموحدين) : ٢٩
 أبو يوسف يعقوب (من الموحدين) :
 ٢٩
 أحمد (واقعة) : ٢٧٠ ، ٢٧١ ح
 أحمد أحمد بدوي : ٩٤ ح
 أحمد بن فرح الحياتي : ١٥٤
 أحمد بن المعتصم : ٢٢٤ ح
 أحمد ضيف : ٢٠٥
 الأحنف بن قيس : ٢٥٤ ، ٢٧٢
 إدريس الحسني : ٢٣ ، ١٨٣
 الإدريسي : ١١٦
 أرجونة (حصن في قرطبة) : ٣٠
 أردشير : ٢٥٣
 أرسطاطاليس : ٥٦ ، ١٦٥ ، ٢٥٦
 أرغون (مقاطعة) : ٢٥
 أسامة بن حارثة : ٢٧٠

٢٧٥ ح ، ٢٧٦ ح .
 أبو الحسن بن الربيع : ١٤٦
 أبو الحسن بن محمد بن الربيع
 القيرواني : ٤٥ ح .
 أبو الحسن بن نزار (شاعر) : ١٣١
 أبو الحسن بن نعيم : ١٠٧
 أبو الحسن المريني : ٣٣١
 أبو الحسين بن سراج (وزير) :
 ٤٨
 أبو حفص بن برد : ١٣٤ ، ١٧٧ ،
 ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٤ .
 أبو حيان : ٥٨ ح .
 أبو الربيع (من أمراء الموحدين) :
 ٧١
 أبو زياد الكلابي : ٧٠
 أبو الطيب = المتنبّي
 أبو عامر بن شهيد = ابن شهيد
 أبو العباس بن ذكوان : ١٦٥ ح
 أبو عبد الله (آخر ملوك الأندلس) :
 ٣١
 أبو عبد الله بن عبد العزيز (أمير
 بلنسية) : ١٨٣
 أبو عبد الله محمد اللخمي الرندي :
 ٥٨ ح
 أبو العتاهية : ٦٩ ، ١٠٥ ، ٢٦٥ ح
 ٢٩١ ، ٢٩٢
 أبو العلاء = المعري
 أبو علي القالي : ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ح
 أبو القاسم بن رفق : ٢٣٢
 أبو القاسم بن العطار : ٤٩ ، ١٥٣
 أبو القاسم التوزي : ٢٠٥

امرؤ القيس : ٩١ ، ١٢٧ ، ٢٧٣ ح
 أم السعد بنت عصام الحميري : ٩٨
 أم العلاء بنت يوسف الحجازية : ٩٨
 أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح :
 ٩٨

أندلس : ٩ ، ١٠
 أنس (والد مالك) : ٣٣٤
 أنشودة رولان (ملحمة) : ١٧
 إياس = إياس بن معاوية (قاص
 اشهر بذكائه) : ٢٢٤ ح ، ٢٥٥
 إيزابيلا : ٣١
 إيطاليا : ١٩
 أيوب بن حبيب اللخمي : ١٤
 إيننا (مدينة) : ١٨٩

ب

باخوس : ٤٤
 باديس بن حبوس : ٧٨ ، ٣١٤
 الباسك (مقاطعة) : ١٧
 باقل : ٢٦١
 بترارك (شاعر إيطالي) : ١٢٥ ح
 بثينة بنت المعتد : ٩٨
 بجانة (كورة بإقليم المرية) : ٩٨
 بجاية (مدينة بالمغرب) : ٧٢ ، ١٠٤
 البحري : ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٨ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٣٠٧
 بدر (مولى عبد الرحمن الداخل) :
 ١٥
 البرابرة : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ،
 ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٧٧ ،
 ١١٥ ، ١٦١ .

إسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين :
 ١٠٦

إسحق الموصلي : ١٧ ، ٨٥
 الإسكندر : ٢٥٣
 الإسكندرية : ٨٩
 إسكوريال : ٢٨٨ ح
 أشات (واد) : ١٣١ ، ١٣٢

إشبيلية : ٩ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٩ ،
 ٥١ ح ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٤ ،
 ٦٨ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
 ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٧ ،
 ١١٩ ، ١٣١ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ،
 ١٦٤ ، ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ، ٢٤٢ ،

٢٩٠ ح .

اعتماد = الروميكية
 الأعشى : ٦٩ ، ٢٦٣ ح
 الأعمى التطيلي : ٧٥ ، ١٠١ ح ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣١٥ .

الأغاني (كتاب) : ٢١
 أغمات (مدينة في المغرب) : ٢٧ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٥ ،

٢٩٠ ح .

أفلاطون : ١٦٥ ، ٢٥٦
 الإفليلي : ٧٣

إلبيرة (مدينة في الأندلس) : ١٦٣
 ألقارو (أسقف) : ٨٦

ألمانيا : ١٩
 ألفونس السادس : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ،
 امرأة العزيز : ٢٥٣

- براقش : ٢٦٥
 البرامكة : ٢٩١
 برجة (مدينة في الأندلس) : ٧٧
 برشلونة : ١٤
 برقة : ٨٩
 البرنة (جبال) : ١٦
 بروكلمان (مستشرق) : ٧٤ ح ،
 ١٨٨ ح .
 البستاني (بطرس) : ٩ ح ، ١١ ح ،
 ١٢ ، ٢٣ ح ، ٢٦ ح ، ٢٨ ح ،
 ٣٠ ح ، ٧٣ ح ، ٧٤ ح ، ٩٢ .
 بشار بن برد : ٢٥٧ ، ٢٦٦ ح ،
 ٢٩٢ .
 بطليموس : ٢٥٦
 بطليوس (مدينة في الأندلس) :
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٥٥ ، ٧٦ ،
 ٧٧ ، ٩٧ ح ، ١٦٢ ، ١٨٤ ،
 ١٩٦ .
 بغداد : ٢٠ ، ٢٨ ، ٦٨ ، ٨٤ ،
 ١٨٩ ، ٨٥ .
 بقراط : ١٦٥ ، ٢٥٦ .
 بكة (واد في الأندلس) : ١٢
 بكر (قبيلة) : ٢٥٥
 بالرمة (مدينة في صقلية) : ١٠١
 بلج بن بشر : ١٥ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
 ٣٧
 بلقيس : ٢٥٤
 بلنسية (مدينة في الأندلس) : ٢٣ ،
 ٥٧ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٦
 بليونس : ٢٥٦
 بنو الأحمر : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،
- ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ ، ٢٩٠ ح
 بنو إسرائيل : ٢٦٩ ح .
 بنو الأفضس : ٥٧ ، ٩٧ ح ،
 ١١٤ ، ١٦٢ .
 بنو جهور : ٢٤ ، ٦٣ ، ١٦٢ ،
 ١٧٥ ، ١٨٢ .
 بنو حمّاد : ٣١٤
 بنو دارم : ٢٦٢ ح
 بنو ذكوان : ١٨٢
 بنو ذى النون : ١٦٢
 بنو عبّاد : ٢٤ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٧٧ ،
 ١١٤ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ٢٤٦ .
 بنو العباس : ٨٩
 بنو قريظة : ٢٧٠
 بنو لحم : ٢٣ ، ١٦٢
 بنو مروان : ٨٢
 بنو مسمع : ٢٦٢ ح
 بنو مصمودة (قبائل) : ٢٨
 بنو نصر = بنو الأحمر
 بنو زَنْفَرَة : ١٥
 بنو هود : ١٦٢
 بواتية (مدينة في فرانسة) : ١٤
 بوران (ابنة كسرى) : ٢٥٤
 بيتيك (إقطاع) : ٩
 بيروت : ٩٠ ، ٩٢ ، ١٨٨ ح .
- ت
- التروبادور : ٣٢ ح ، ٥٢ ، ٨٠ ،
 ٢٨٥
 تطيلة (مدينة في الأندلس) : ٧٥

الحارث بن عباد البكري : ٢٦٤
 الحارث بن وعله اليشكري : ٢٦٦ ح
 حامد عبد المجيد : ٩٤ ح
 حبيب = أبو تمام
 حبيب الصقلبي : ٣٩
 الحجاج : ٢٥٥ ، ٢٧١ ح
 الحجاري : ٢٨٨
 الحرّة (واقعة) : ٢٧١
 حسان بن ثابت : ٢٧١ ح
 حسانة التميمية : ٩٨
 الحسن بن علي : ٢٣
 الحسين : ٢٧١
 الحصري : ٧٠
 حفصة بنت الحاج الركونية : ٦٣ ،
 ٩٨ ، ١٦٨
 حفصة بنت حمدون الحجازية : ٩٨
 الحكم الأول : ١٧
 الحكم بن عبد الرحمن الناصر : ٢١ ،
 ٢٢ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٥ ،
 ٧٠ ، ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٦١
 الحكم الثاني = الحكم بن عبد الرحمن
 الناصر
 حلب : ٩٩ ، ٣٥١ ح .
 حمدة بنت زياد المؤدب : ٦٣ ،
 ٩٨ ، ٩٩
 حمدة العوفية : ٩٩
 الحمراء (قصور) : ٣٠ ، ٣١

خ

خالد بن الوليد : ٢٧٠
 الخندق (غزوة) : ٢٧٠ ح
 الخوارزمي : ١٩١

تغلب (قبيلة) : ٢٥٥

تميم (قبيلة) : ٢٦٢ ح .

تور (مدينة في فرانسة) : ١٤

ث

الثعالبي : ٦٩ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٢٨٨ ح

ثعلب (نحوى) : ٧١

ج

جوذر (من الصقالبة) : ٤٠

جابر بن حيان = ابن حيان

الجاحظ : ٧٢ ح ، ٢٠٥ ، ٢٥٧ ح

جان جاك روسو : ١٢٤

جالينوس : ٢٥٦

جبرائيل جبور : ٢٠ ح ، ٣١ ح ،

٣٢ ح .

جبل طارق : ٩ ، ١١

جذيمة الأبرش : ٢٥٤

جرير : ٦٩

الجزيرة الخضراء : ١١ ، ٢٣

جساس : ٢٥٤

الجعد (مولى لبني الحكم) : ٢٥٧

جليقية (مقاطعة) : ٣٩ ، ٤٠

جوهر الصقلي : ٨٩

ح

حاتم الطائي : ٢٥٤

الحاجب المنصور : ٢١ ، ٢٢ ، ٣٦ ،

٣٧ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ،

١١٦ ، ١٦١ .

د

- دارا (ملك الفرس) : ٢٥٣
الداني (الشاعر) : ٩٦ ، ٩٧
الدمستق (من قواد الروم) : ٢٥٩
دمشق : ١١٩ ، ٣٥٣
دوزى (مستشرق) : ٣٩ ح ، ٢٨٧ ح
دوسلان (مستشرق) : ٢٨٧ ح
دولة بنى الأفطس : ٢٤
الدولة الجهورية : ٢٤
الدولة الحمودية : ٢٣
دولة ذى النون : ٢٤
الدولة الزيرية : ٢٣
الدولة العامرية : ٢٣
الدولة العبادية : ٢٣
الدولة الهودية : ٢٣

ذ

- ذبيان (قبيلة) : ٢٥٥
ذو الرمة : ٦٩

ر

- رايسك (مستشرق) : ١٨٩
الرصافة : ١٦ ، ٨٣
الرمادى (شاعر) : ٥١ ، ٩١
الريميكية (زوجة المعتمد) : ٩٢ ،
٩٣ ، ٩٨
رولان : ١٧
روما : ١٠١
الرومان : ١٠
الرون (نهر) : ١٤
الرين (نهر) : ١٧

ز

- الزباء : ٢٥٤
زرياب : ١٧ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦
الزقاق (بحر) : ١١ ، ١٢
الزلاقة (واقعة شهيرة) : ٢٧
زناتة (قبائل) : ٢٧
الزهراء (قصر) : ٢٠ ، ١٧٩
زهير بن نمير : ٩٢
زيد بن مهلهل : ٢٥٤

س

- السامري : ٢٥٥ ح
سبتة (مدينة) : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ،
١٥ ، ٢٦
سجلماسة : ٧١
سحبان : ٢٥٥
سراج الدولة بن عباد : ١٨٧
سرقسطة : ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٦٨ ، ٧٨ ، ١٦٢
سعيد بن محمد العاص المروانى : ١٥٥
السليك بن السليكة : ٢٥٤
سليمان بن الحكم : ٩١
سليمان المستعين بالله (خليفة أموى
فى عهد الفتنة) : ١٦١ ح
السموئل : ٢٥٤
السنغال : ٢٦
سهل بن هارون : ٢٥٧
سهيل بن عمر بن عبد العزيز :
٢٦١ ح .
السوس (جبل) : ٢٨

ض

الضبيّ : ٢٨٨ ح
الضحّاك : ٢٥٤

ط ، ظ

طارق بن زياد : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،
١٤ ، ٣٤
طالوت : ٢٧٠
طرطوشة : ١٨٤ ، ١٩٦
طريف (مرفأ) : ٩ ، ٢٦
طريف بن مالك النخعي : ١١
طليطلة : ١٣ ، ٢٤ ، ٦٨ ، ٧٨ ،
١٦٢ ، ١٨٦
طنجة : ٢٦
طُوَيْس : ٢٦١

ع

عائشة (أم أبي عبد الله آخر ملوك
الأندلس) : ٣١
عائشة (الصديقة) : ٢٧٠
عائشة القرطبية : ٦٣
عامر بن مالك : ٢٥٥
عبادة بن ماء السماء : ١٦٣ ، ٢٨٧ ح ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ،
٣٤٨
عبادة القزاز : ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،
٣١١
العبادية (جارية المعتمد) : ٩٨
العباس بن الأحنف : ٢٠٥ ،
٢٧٤ ح

سيبويه : ٧١

سيد نوفل : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٥ ح

ش

شارل مارتل : ١٤
شارلمان : ١٦ ، ١٧
الشريف الرضي : ٧٣ ، ٢٠٥
شقر (مدينة في شرق الأندلس) :
١٠٦
شهاب الدين العزازي : ٣٥١
شوقي (أحمد) : ٢١٢
شوقي ضيف : ١٦٥ ح ، ٢٠٤
شيرين (زوجة كسرى) : ٢٥٤

ص

الصاحب بن عباد : ٨٨ ، ١٩١
صاعد البغدادي : ٣٨ ، ٧٢
صبح (زوجة الحَكَم) : ٢١
الصفدي : ٧٥ ، ١٨٩ ، ٢١٢
صفي الدين الحلّي : ٢١٢
الصقالبة : ١٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
٣٩ ، ٤٠
صقر قریش = عبد الرحمن الداخل
صقلية : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٧
الصلاح الكتبي : ٨٨
الصَّمَيْل : ١٦
صنهاجة (قبيلة) : ٢٦
الصنوبري : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٣ ح ،
١٢٩

- عبد الحميد بن يحيى = عبد الحميد
الكاتب : ٢٥٧
- عبد الرحمن الثالث : ١٥ ، ١٦ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ،
٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٥٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٦١
- عبد الرحمن الثاني : ١٧ ، ٣٥ ، ٨٥
عبد الرحمن خليفة : ١٨٨
عبد الرحمن الداخل : ١٥ ، ١٦ ،
١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٥٣ ، ٨٢ ،
٨٣ ، ٨٤
- عبد الرحمن الغافقي : ١٤
عبد الرحمن المرتضي (خليفة أموى
في عهد الفتنة) : ١٦١ ح
عبد الرحمن المستظهر بالله (خليفة
أموى في عهد الفتنة) : ١٦١ ح
عبد الرحمن الناصر = عبد الرحمن
الثالث
عبد العزيز الأهواني : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ح
عبد العزيز بن موسى بن نصير : ١٣ ،
١٤
عبد الله (جد عبد الرحمن الثالث) :
١٩
عبد الله بن الزبير : ٢٧١ ح
عبد الله بن محمد المرواني : ٢٨٧ ،
٢٨٩
عبد الله بن ياسين (فقيهه) : ٢٦
عبد الله الحجاج : ٢٩٨ ح
عبد المؤمن بن علي (من الموحدين) :
٢٨ ، ٢٩ ، ٥٦
عبد المحسن الصوري (شاعر) : ٧٣
- عبد الملك بن رزين : ١٥٤
عبد الله بن قَطَّان : ١٤
عبد الملك بن مروان بن الحكم : ٨٣
عبد الواحد المراكشي : ٧٧
عبد الوهاب المراكشي : ٧٠
عبس (قبيلة) : ٢٥٥
عثمان بن إبراهيم بن النصر : ١٥٥
عثمان بن عفان : ٢٧١ ح
العرنديس (شاعر) : ٢٦٣
عروة بن جعفر : ٢٥٤
العروضية (مولاة عبد الرحمن بن
غلبون الكاتب) : ٩٨
عزاز (قرية قرب حلب) : ٣٥١
عَلَمَ المدينة (مغنية) : ٨٤ ح
علي بن أبي طالب : ٢٧٠ ح ،
٢٧١ ح ، ٣٥٢ ح
علي بن أحمد (من شعراء بلنسية) :
١٥٥
علي بن حزم اللحياني : ٧٠
علي بن حمود الناصر : ٧٨
علي بن يوسف بن تاشفين : ٢٧
علي عبد العظيم : ١٨٨ ح
عمر بن أبي ربيعة : ١٣٢ ، ٢٦١ ح
عمر بن الألفطس : ٥٥
عمرو بن الأهمم : ٢٥٥
عمر بن الخطاب : ٢٥٥ ، ٢٧٠ ح
عمر بن سعد : ٢٧١
عمر بن معد يكرب : ٢٦٤ ح
عمرو بن هند : ٢٦٢ ح ، ٢٦٤ ح
عمر بن يوسف الحنطلي : ١٥٥

الفرس : ٥٩

فرعون : ٢٦٩ ح

الفضل بن يحيى : ٢٥٨ ح

فضل المدينة (مغنية) : ٨٤

الفندال : ٩ ، ١١

فندالسيا : ٩

فهرسة ابن خير (كتاب) : ٦٩ ،

٧١

فirdان (مدينة) : ٣٩

ق

قارون : ٢٥٣

القاهرة : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٨٨ ح

قبرة (قرية في الأندلس) : ٢٨٧ ح ،

٢٨٨ ، ٢٨٩

قتيبة (من قواد العرب المشهورين) :

٢٥٥

قرطبة : ٩ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،

٣٠ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ،

٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٨ ،

٧٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٩٠ ، ٩٢ ، ١٤٦ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،

١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ٢١٨ ،

٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٣٣١

قريش : ٢٧٠

القسطنطينية : ١٩ ، ٢٠ ، ٣٨

قشتالة : ١٤ ، ٢٦

غ

غارسيا غومس (مستشرق) : ٢٨٨ ح

٢٨٩

غالب بن رباح : ٧٦

غانم المخزومي : ٧٨

غاية المني (جارية المعتصم بن

صمادح) : ٩٨

غرناطة : ٩ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١ ،

٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ١٦٣ ،

٢٩٠ ح ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ح

الغزالي : ٢٨ ، ٥٦

الغسانية البجانية (شاعرة) : ٩٨

الغني بالله (من ملوك بني الأحمر) :

٢٩٠ ح ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٥

غيطشة (ملك القوط) : ١٠ ، ١١ ،

١٢

غيلان : ٢٥٧

ف

فائق النظامي (من الصقالبة) : ٤٠

فاس : ٣١ ، ٢٦ ، ٢٩٠ ح

الفاطميون : ٢٠ ، ٣٧

الفتح بن خاقان : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،

٥٥ ، ٧٣ ، ١١٦ ، ١٧٩ ،

١٨٥ ، ٢١٢ ، ٢٤٢

فحص البلوط (جبال) : ٣٨

فرانسة : ١٤ ، ١٩ ، ٢٨٥

فرديناند الأول : ٢٤

فرديناند الثالث : ٣٠ ، ٣١

الفرزدق : ٦٩ ، ٧١ ، ٢٦٢ ح

١١ ح ، ١٢ ح ، ٣٤ ، ٤٤ ح ،
٥٢ ح ،
ليون (مدينة فى فرانسة) : ١٤

م

المؤمن بن المقتدر بالله : ٢٣
ماردة (مدينة) : ١٢
مارية بنت ظالم : ٢٦٤
مالقة : ٢٣ ، ١٨٣
مالك بن أنس : ٢٥٧ ، ٣٣٤
مالك بن نويرة : ٢٥٤
المأمون بن ذى النون : ٢٤ ، ١٨٦
مانى (صاحب مذهب المانوية) :
٢٥٧
المبرد : ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٢ ح
المتمسك : ٢٦٢
المتنبى : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١١٧ ،
١٢٩ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ ح ، ٢٢٥ ح ،
٢٥٨ ، ٢٧٦ ح ، ٢٧٧ ح ، ٣٠٧
المتوكل بن المظفر (ملك بطليوس) :
٢٥ ، ١٦٢
المجر (بلاد) : ٣٨
المجنون (مجنون ليلى) : ٢٠٥
محمد بن تومرت : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٦
محمد بن خير : ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣
محمد بن محمود القبرى : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩
محمد بن محمود الوليد الغنوى : ٢٨٨ ح
محمد بن هود : ٣٠

قطام : ٢٧١

القوط : ١٠ ، ٣٣ ، ٤١ ، ٥٩
قيس بن زهر : ٢٥٥
قيصر : ٢٥٣

ك

كاتالون (مقاطعة) : ٣٩
ككبك (جبل فى الحجاز) : ٢٧٥
كرمونا (جبال) : ٣٨
كسرى : ٢٥٣
كلبة (جبل) : ١١
كليب بن ربيعة : ٢٥٤
كليمان هوار (مستشرق) : ١٢
كامل كيلانى : ١٨٨ - ٢٠٥
كندة (قبيلة) : ٩١
الكندى (فيلسوف) : ٢٥٦
كور (مستشرق) : ١٦٥ ، ١٧٦ ،
١٧٨

ل

لذريق (ملك الإيبان) : ١٠ ، ١١ ،
١٢ ، ١٦
لسان الدين بن الخطيب : ٤٣ ، ٤٧ ،
٥٨ ح ، ٦٣ ، ١٠١ ح ، ١٣٣ ،
٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨
لمتونة (قبيلة) : ٢٦
اللوار (نهر) : ١٤
لومبارديا (مقاطعة) : ٣٩
ليبسك (مدينة) : ١٨٩
ليثى بروفنسال (مستشرق) : ٩ ح ،

محمد بن يوسف النصرى : ٣٠ ، ٥٨ ، ٣٤٢
 محمد راغب الطباخ : ٧٣ ح
 محمد عبد الله عنان : ٣٠ ح ، ٥٤ ح
 محمد المهدي (خليفة أموي في عهد
 الفتنة) : ١٦١ ح
 محيي الدين بن العربي : ٥٧ ، ١١٩ ، ٣٥٣
 مخزوم (قبيلة قرشية) : ١٦٣
 المدينة المنورة : ٨٤ ح ، ٢٧١ ح
 المرابطون : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٦٤
 ٢٨٦ ح ، ٢٩٠ ح
 مراکش : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٠
 مرسية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ٢٩٠ ح ، ٣٥٣
 المرية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣١١
 المستظهر بالله (خليفة أندلسي) : ٧٧
 المستعين الأموي : ٢٣
 المستكني بالله (خليفة أموي في عهد
 الفتنة) : ١٦١ ح ، ١٦٦
 مسلم بن الوليد : ٢٩١
 المصامدة (جبال) : ٢٧ ، ٢٨
 مصر : ٨٩ ، ٩٠
 مصطفى صادق الرافعي : ٧١ ح ، ٨٢ ح
 مصطفى عناني : ١٨٩
 مصمودة (قبائل) : ٢٧

المظفر (ملك بطليوس) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧٧ ، ١٦٢ ، ١٨٤
 المظفر بن الحاجب المنصور : ٢٢ ، ٧٧ ، ١٦١
 المعتصم بن صمادح : ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٧ ، ٣١١
 المعتضد بن عبّاد : ٢٤ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ٩٢ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩
 المعتمد بن عبّاد : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ ح ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣٣ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٩ ، ٢٩٠ ح .
 المعري : ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٣ ح ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٠٥
 المعزّ (خليفة فاطمي) : ٨٩ ، ١٢٠
 مقتدر بالله : ٢٣
 مقتدى بأمر الله (خليفة عباسي) : ٢٧
 مقدّم بن معافى القبري : ٢٨٧ ، ٢٨٨
 المقري : ١٢ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٧ ح ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩

محمد بن يوسف النصرى : ٣٠ ، ٥٨ ، ٣٤٢
 محمد راغب الطباخ : ٧٣ ح
 محمد عبد الله عنان : ٣٠ ح ، ٥٤ ح
 محمد المهدي (خليفة أموي في عهد
 الفتنة) : ١٦١ ح
 محيي الدين بن العربي : ٥٧ ، ١١٩ ، ٣٥٣
 مخزوم (قبيلة قرشية) : ١٦٣
 المدينة المنورة : ٨٤ ح ، ٢٧١ ح
 المرابطون : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٠ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٦٤
 ٢٨٦ ح ، ٢٩٠ ح
 مراکش : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٠
 مرسية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٥ ، ١١٩ ، ٢٩٠ ح ، ٣٥٣
 المرية (مدينة) : ٣٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٢٨٨ ، ٣١١
 المستظهر بالله (خليفة أندلسي) : ٧٧
 المستعين الأموي : ٢٣
 المستكني بالله (خليفة أموي في عهد
 الفتنة) : ١٦١ ح ، ١٦٦
 مسلم بن الوليد : ٢٩١
 المصامدة (جبال) : ٢٧ ، ٢٨
 مصر : ٨٩ ، ٩٠
 مصطفى صادق الرافعي : ٧١ ح ، ٨٢ ح
 مصطفى عناني : ١٨٩
 مصمودة (قبائل) : ٢٧

زهون القلاعية الغرناطية : ٦٣ ،

١١٦ ، ٦٨

الزطف (رجل من تميم) : ٢٥٣

النظام (من أئمة المعتزلة) : ٢٥٦

النظامية (مدرسة) : ٢٨ ، ٦٨

النعمان بن المنذر : ٢٣ ، ٣٣٤

نوح : ٢٦٩

النورمانديون : ١٠٠

نويرة (معشوقة ابن الحداد) : ٥٢ ،

١٢٢

نيكل (مستشرق) : ٢٨٥ ح

هـ

هارتمان (مستشرق) : ٣٠٢

هارون الرشيد : ٨٥ ، ٢٥٨ ح ،

٢٩١

هامان : ٢٦٩ ح

هبنقة : ٢٦١

هرم بن قطبة : ٢٥٥

هرمس : ٢٥٦

هزان (قبيلة) : ٢٦٣

هشام الأول : ١٧

هشام بن الحكم بن عبد الرحمن

الناصر : ٢١

هشام بن عبد الملك : ١٤ ، ١٦

هشام الثالث (المعتمد بالله = آخر

خلفاء بني أمية في الأندلس) :

٢٢ ، ١٦١ ، ١٦١ ح ، ١٦٦

هشام المؤيد : ٤٤

هشام بن مرة : ٢٦٢

الهمذاني : ١٩١

١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٨٨ .

المنازي (الشاعر) : ٩٩ ، ١٠٠

المنصور = الحاجب المنصور

المنصور بن أبي عامر = الحاجب

المنصور

مهجة القرطبية (جارية ولادة) :

٦٣ ، ٩٨

المهدي = محمد بن تومرت

المهدي بن تومرت = محمد بن تومرت

المهدية (قرية في إفريقية) : ١٠٠

المهلب : ٢٥٥

مهلهل : ٢٥٤

مهيار الديلمي : ٧٣

الموحدون : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،

٣٢ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٦ ،

٥٧ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ٢٨٦ ح

موسى (النبي) : ٢٦٩

موسى بن ميمون : ٥٦

موسى بن نصير : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ،

١٤ ، ٣٤ ، ٣٦

الموصل : ١٨٩

ميمون الغابدي : ١٢

ميورقة (جزيرة شرق الأندلس) :

١٠٠ ، ٢٩٠ ح

ن

الناطقة الذبياني : ٢٧٢ ح

الناصر = عبد الرحمن الثالث

النجاشي : ٢٧٠ ح

نجدة الصقلي : ٤٠

ى

يحيى بن إبراهيم : ٢٦

يحيى بن عمر : ٢٦

يحيى الخُدَّج : ٧١

يذبل (جبل) : ١٢٧

يزيد بن معاوية : ٢٧١ ح

يليان (عامل لقيصر الروم) : ١٠ ،

١١ ، ١٢

يوسف (عليه السلام) : ٢٥٣

يوسف بن تاشفين : ٢٥ ، ٢٦ ،

٢٧ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١١٥

يوسف بن هارون = الرمادى (الشاعر)

يوسف الفهرى : ١٦

هنرى به رس (مستشرق) : ٤٣ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ، ١٢١

هواره (قبائل) : ٢٤

هيرت (مستشرق) : ١٨٩

و

ولادة بنت المستكفى : ٦٣ ، ٩٨ ،

١٢٢ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ،

١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢١١ ،

٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٧ ،

٢٤٢ ، ٢٥٢ ح .

الوليد بن عبد الملك : ١١ ، ١٣

فهرس الكتاب

الصفحة
المقدمة ٥

الباب الأول

٩	الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية
٩-١٣	الفصل الأول : الأندلس : المعنى الجغرافي والعنصرى - الفتح
١٤-١٨	الفصل الثانى : عهد الولاة - الدولة الأموية : إمارة قرطبة المستقلة وعبد الرحمن الداخل حتى خلافة عبد الرحمن الثالث
١٩-٢٢	الفصل الثالث : خلافة قرطبة وعبد الرحمن الثالث - الحكم بن عبد الرحمن الناصر - الحاجب المنصور - استبداد العامريين
٢٣-٣٣	الفصل الرابع : ملوك الطوائف - دولة المرابطين - دولة الموحدين - دولة بنى الأحمر - السمات المميزة لهذه الأدوار
٣٤-٤٢	الفصل الخامس : عناصر الشعب الأندلسى - الصقلابة
٤٣-٤٦	الفصل السادس : شخصية الأندلسى
٤٧-٦٠	الفصل السابع : سمات العصر الأندلسى فى السياسة والاجتماع والفكر - إدارة المجتمع الأندلسى - الحضارة الأندلسية والحياة الفكرية

الباب الثاني

- الشاعر الأندلسي - أغراض الشعر الأندلسي - شعر الطبيعة . . . ٦٣ .
- الفصل الأول : الشاعر الأندلسي وطرق التعليم - فهرسة ابن خير . ٦٣-٧٤
- الفصل الثاني : طبقات الشعراء ، حياة الشاعر وشروطه الاجتماعية . ٧٥-٨١
- الفصل الثالث : الآثار الأدبية الأولى وذكر لأشهر الأدباء والشعراء -
 زرياب والنهضة الغنائية - نحو أدب أندلسي -
 طائفة من الأدباء : ابن عبد ربه - ابن هاني -
 أحمد بن دراج القسطلي - بعض شعراء ملوك
 الطوائف - النساء الشاعرات - ابن حمديس -
 ابن خفاجة ٨٢ - ١١٣
- الفصل الرابع : أغراض الشعر الأندلسي : المدح - الرثاء - الهجاء -
 الحكمة - الزهد - التصوف - الشعر الحماسي -
 الوصف - الغزل - الحر ١١٤-١٢٣
- الفصل الخامس : شعر الطبيعة - بواعث شعر الطبيعة في الأندلس
 وخصائصه الهامة - منتخبات من شعر الطبيعة في
 الأندلس ١٢٤-١٥٧

الباب الثالث

ابن زيدون

- الفصل الأول : ابن زيدون : البيئة التاريخية والسياسية - مولد
 ابن زيدون ونشأته وثقافته - ابن زيدون وولادة . ١٦١-١٧٤
- الفصل الثاني : ابن زيدون في بلاط بني جمهور وبني عباد : الشاعر

في بلاط أبي الحزم وسجنه - الشاعر في بلاط
 أبي الوليد - ابن زيدون في بلاط بني عباد - موت
 الشاعر ١٨٧-١٧٥

الفصل الثالث : آثار ابن زيدون وأدبه : الديوان - الرسالة الهزلية -
 الرسالة الجدية - خصائص الرسالتين الأسلوبية - أغراض
 ابن زيدون الشعرية : الغزل - المدح - الاستعطاف
 والشكوى - بقية الأغراض - خصائصه الفنية -
 منزلته ٢٠٦-١٨٨

الفصل الرابع : مختارات من آثار ابن زيدون : الغزل - الشكوى
 والاستعطاف - المديح - الرثاء ، الرسالة الهزلية -
 الرسالة الجدية ٢٨١-٢٠٧

الباب الرابع

الموشحات الأندلسية

الفصل الأول : نشوء الموشحات - قلبها الشعري : أولية الموشح -
 تعريف الموشحات وعناصرها - الحرجة ٢٩٩-٢٨٥

الفصل الثاني : أوزان الموشحات - أغراضها ومعانيها ولغتها وقيمتها ٣٠٨-٣٠٠

الفصل الثالث : مختارات من الموشحات : موشحة لعبادة بن ماء
 السماء - موشحة لعبادة القزاز - موشحة لابن اللبانة -
 موشحة للأعمى التطيلي - موشحتان لابن بقي -
 موشحة لابن باجة - ثلاث موشحات لابن زهر -
 موشحتان لابن سهل - موشحة لأبي الحسن المريني -

الصفحة

موشحة للسان الدين بن الخطيب - ثلاث موشحات	
لابن زمرك - موشحة لابن سناء الملك - موشحة	
لشهاب الدين العزازی - موشحة لمحي الدين بن عربي ٣٠٩-٣٥٥	
٣٥٦-٣٦٤	المراجع
٣٦٥-٣٧٩	فهرس الأعلام
٣٨١-٣٨٤	فهرس الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

